الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة 01

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم التاريخ والآثار

المقاومة الفكرية للمد الصليبي في بلاد الشام

(491-690هـ/1095-1291م)

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالب:

طبي سمير

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:

باقة رشيد

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
لمياء بوقريوة	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة باتنة -1-
رشيد باقة	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة باتنة -1-
كمال بن مارس	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة قالمة
صلاح الدين هدوش	أستاذ محاضر (أ)	عضوا مناقشا	جامعة باتنة -1-
عبد المالك بكاي	أستاذ محاضر (أ)	عضوا مناقشا	جامعة سطيف -2-
علي عشي	أستاذ محاضر (أ)	عضوا مناقشا	جامعة باتنة -1-

السنة الجامعية 1439/1438 هـ الموافق لـ 2018/2017م

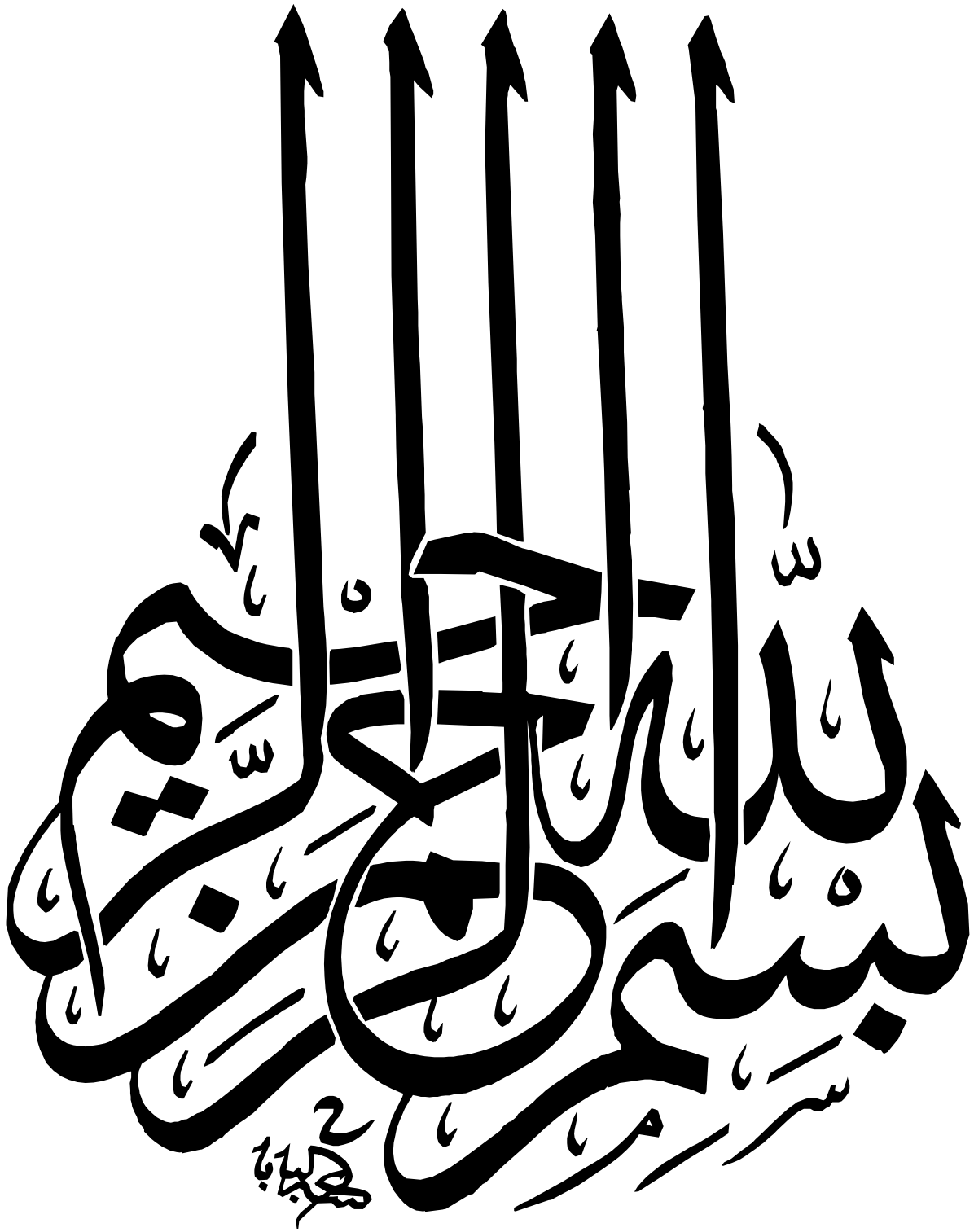
بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢
ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ
ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ ﴾

العلق: ١ - ٥

الإهداء

إلى روح والدي رحمه الله وطيب ثراه.

إلى والدتي الجليلة أطال الله في عمرها،

إلى زوجتي الكريمة وأبنائي الأحباء

وإخوتي الأعزاء وعلى رأسهم الأخ البكر

وكافة أفراد العائلة وجميع الأصدقاء.

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل المتواضع.

سمير

شكر وعرفان

بعد أن منّ الله علي بإتمام هذا العمل المتواضع، لا يسعني إلا أن أتوجه إلى المولى العلي القدير بالحمد والثناء، وإلى الأستاذ الدكتور المشرف عبد الرشيد باقة بالشكر الجزيل الذي لم يبخل علي بوقته وجهده وتوجيهاته حتى ظهر هذا العمل للوجود فجزاه الله عني كل خير، كما أتقدم بالشكر والتقدير للعاملين في مكتبات قسنطينة، وباتنة، وجامعة الزيتونة بالأردن على كل ما قدموه لي من مساعدة، والشكر موصول أيضا إلى المهندس عاشور الذي ساهم في طباعة هذا البحث وإخراجه إلى النور.

قائمة المختصرات والرموز

الرمز	المختصر
ت	تاريخ وفاة
ج	جزء
ط	طبعة
ص	صفحة
ق	قسم
هـ	هجري
م	ميلادي
تح	تحقيق
مج	مجلد
د.ت	دون تاريخ
د.ط	دون طبعة
د.م	دون مكان نشر
د.ن	دون ناشر
Ibid.	المرجع نفسه
Op.cit.	المرجع السابق
P	Page
Vol	Volume
T	Tome

مقدمـــة

لقد مثلت الحملات الصليبية التي استهدفت العالم الإسلامي بشكل عام وبلاد الشام بشكل خاص منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أول حرب يخوضها الغرب اللاتيني تحت راية إيديولوجية–دينية فكرية–، وعلى الرغم من إفلاس هذا المشروع الصليبي بسبب ما انطوى عليه من أباطيل وأغاليط راح ضحيتها الرأي العام الأوروبي والإسلامي على حد سواء، كما لم تكن هذه الحروب التي نشبت بين الشرق والغرب على مدى قرنين من الزمن، مجرد نزال أوصدام عسكري مادي فحسب، بل صاحبها مشروع فكري تنصيري هدام رام إلى تمسيح المقدسات الإسلامية وتملكها، وهذا ما يفسر استمرار استجابة المنطقة للتحدي الحضاري الذي فرضه عليها الاستيطان الصليبي.

وعلى الرغم من وفرة البحوث التي تناولت أحداث الحروب الصليبية بالدراسة والتحليل إلا أنها مازالت حقلا خصبا أمام الدارسين والباحثين، ولاسيما فيما يتعلق بجوانبها الفكرية ومظاهر مجابهتها ومقاومتها من قبل القوى الإسلامية، وبناء على ذلك جاءت الدراسة تحت عنوان: "المقاومة الفكرية للمد الصليبي في بلاد الشام" ، وذلك بغرض إبراز الدور الطلائعي الذي قام به مثقفو الأمة الإسلامية الذين عاصروا مرحلة الحروب الصليبية من فقهاء ورجال صوفية وشعراء في مجابهة الهجمة الصليبية المحمومة ليس فقط بالتحريض على الجهاد، بل بمشروع دعوي يدحض الفكر الصليبي المضلل ويعيد للأمة نخوتها ولحمتها، ولاسيما بعد الإفلاس الذي أصاب المؤسسات الرسمية سواء كانت ممثلة في نظام الخلافة أو في الإمارات والدويلات التي مزقت بلاد الشام.

وفيما يخص حدود الدراسة، فقد تناولت السياق التاريخي للحروب الصليبية من سنة 491هـ/1095م إلى نهايتها عام 690هـ/1291م، مع التركيز على بلاد الشام التي كانت ساحة لهذا الصراع المرير، ولما تفردت به من بعد جغرافي وحضاري.

ومن الدراسات السابقة التي تطرقت إلى الموضوع وأفادته في بعض جوانبه، موضوع دراسة الباحث جبر سلطان بعنوان: الدور السياسي للعلماء المسلمين إبان الحروب الصليبية (490هـ-690هـ/1096م-1291م) وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، تناول فيها صاحبها فئة العلماء وعلاقتهم بالسلطة دون غيرهم، عكس دراستنا التي تناولت رجال الفكر من الصوفية والفقهاء والشعراء على المستويين الرسمي والشعبي، وأخرى بعنوان: موقف العلماء والأدباء من الصليبيين في العصر الأيوبي (509هـ-648هـ/1173م-1250م) مقدمة من الباحثة عبير أحمد عطاء الله المحاسنة لاستكمال متطلبات درجة الماجستير، وما يلاحظ عن هذه الدراسة أنها اقتصرت على الفترة الأيوبية عكس دراستنا التي كانت أشمل وأوسع -كل الفترة الصليبية-.

في حين جاءت دراسة الباحث عبد الفتاح عبد الله عاشور أبو جهل الموسومة بـ: جهود علماء مصر والشام في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية (491هـ-692هـ/1095م-1292م) كدراسة سوسيولوجية بيّن فيها صاحبها جهود العلماء في النهوض بالمجتمع وقمع البدع والمنكرات في مصر وبلاد الشام، على عكس دراستنا التي اقتصرت على بلاد الشام دون مصر، فضلا على أنها لم تتوقف عند فئة العلماء ودورهم في الإصلاح الداخلي، بل جاوزت ذلك لتشمل دورهم في مناهضة الصليبيين ودعوتهم إلى دين االتوحيد.

وقد دفعتني مجموعة من الأسباب لاختيار هذا الموضوع، كان أهمها:

- إبراز المناهج الراقية التي اتبعها علماء المسلمين في دحض الفكر الصليبي ومناهضة عدوانهم.
- تسليط الضوء على دور المؤسسات الفكرية والدينية في الحفاظ على عقيدة الأمة ومرجعيتها الفكرية.

- إبراز النهضة الفكرية والأدبية التي بلغتها بلاد الشام عصر الحروب الصليبية رغم وطأة الصراع وشدته.
- الإقرار بفضل رجال الفكر في تصحيح مسار الأمة في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخها بعد شغور المؤسسات السياسية.
- تزويد المكتبة الإسلامية التاريخية ببعض بطولات وجهاد أهل الفكر الذي لا يقل عن جهاد الجيوش.

أما إشكالية الدراسة فقد تمحورت حول طبيعة المقاومة الفكرية ودور رجالها في إجهاض المشروع الصليبي الذي استهدف بلاد الشام، والتي يمكن عرضها في التساؤلات التالية:

- ما طبيعة الدور الذي اضطلعوا به؟، وكيف استطاعوا الحفاظ على روح الأمة وشعلة الجهاد؟
- ماهي اتجاهات المقاومة الفكرية؟، وإلى أي حد تكاملت أدوارها؟
- إلى أي مدى يمكن اعتبار دور القيادات الفكرية القاعدة أو الأرضية التي أسست الانتصارات السياسية والعسكرية؟
- كيف تعاملوا مع انتصارات الأمة ونكساتها؟
- إلى أي حد اعتبرت مصنفاتهم ودعواتهم للصليبين جهادا فكريا لا يقل عن دور السلاح –المقاومة المادية–؟
- ما طبيعة منهجهم الدعوي والإرشادي على المستويين الرسمي والشعبي؟

هي جملة من التساؤلات التي سنحاول الإجابة عنها من خلال مسار البحث.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع وإشكاليته اتباع منهج البحث التاريخي، الوصفي، التحليلي لدراسة الأحداث التاريخية والمواقف بقصد فهمها وتحديد أسبابها وتحليلها وتفسيرها بما يخدم موضوع الدراسة.

ولدراسة هذا الموضوع كان لابد من الاطلاع على مجموعة من المصادر والمراجع المتنوعة العربية منها والأجنبية التي تناولت تلك الحقبة، وكان من أبرزها:

أولا: المصادر العربية: وجاء في مقدمتها كتب التاريخ العام بما حوته من معلومات قيّمة وثرية عن تاريخ الحروب الصليبية، كان أبرزها:

1) **ابن القلانسي،** أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي التميمي الدمشقي (ت555هـ/1160م)، كتاب ذيل التاريخ دمشق، الذي يعد من الكتب القيمة التي تناولت فترة الحروب الصليبية، وتكمن أهميته كون مؤلفه كان معاصرا للأحداث وشاهد عيان عليها، وقد زودنا بمعلومات هامة عن التمدد الصليبي في أرض الشام والمجازر المرتكبة وردود الأفعال الرسمية والشعبية.

2) **أبو شامة،** شهاب الدين عبد الرحمان بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت665هـ/1266م)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، يعد من كتب التاريخ المحلي والإقليمي صنف حسب طريقة الحوليات بدأها بسنة 548هـ/1153م و أنهاها بأحداث سنة 589هـ/1193م، وقد أفاد الدراسة في كل فصولها بما تضمنه من معلومات هامة عن فتوحات نور الدين رنكي وصلاح الدين وتراجم العلماء و الشعراء مبينا دورهم في الحياة العلمية والاجتماعية.

3) **ابن واصل،** جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ/1297) كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، وهو كتاب حولي أرخ فيه مؤلفه للحوادث المهمة حتى سنة

681هـ/1282م، وضمنه تفاصيل عن الدولة الأيوبية لم تذكرها مصادر أخرى، وقد أفاد الدراسة فيما يتعلق بجهاد صلاح الدين وفتوحاته ورعايته للعلم والعلماء.

وقدمت كتب الرحلة والجغرافيا معلومات قيمة عن الكثير من المدن والقرى من الناحية الجغرافية الوارد ذكرها في الدراسة، والتي لم تذكرها كتب التاريخ العام على غرار:

1) **الإدريسي**، هو عبد الله محمد بن عبد الله إدريس المعروف بالشريف الإدريسي (ت560هـ/1164)، صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وقد أفاد الدراسة فيما نقله من أخبار عن بلاد الشام الذي زارها في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، بذكر بعض ملوك الفرنج ووصف مزارات بيت المقدس، فضلا عن التعريف بالمدن والمواقع.

2) **ابن منقذ**، أسامة ابن مرشد ابن علي بن نصر بن منقذ الكناني الشيزري (ت584هـ/1188م) كتاب الاعتبار الذي دونه في أيامه، وقد أفاد الدراسة بما تضمنه من معلومات حول صفات وأخلاق الصليبين وعلاقاتهم بالمسلمين، والحياة الاجتماعية التي سادت بلاد الشام أنذاك.

3) **ابن جبير**، محمد بن أحمد بن جبير الكناني (ت 614هـ/1217م)، صاحب كتاب "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" المعروف برحلة ابن جبير، الذي دون فيها مشاهدته في رحلته الأولى إلى المشرق سنة(578هـ/1182م) والثانية سنة(585هـ/1189م)، وقد أفاد الدراسة في كل ما يتعلق بأحوال المسلمين في الإمارات الصليبية ودور التعليم والمدارس والحياة المذهبية في بلاد الشام.

وظهرت كتب التراجم والسيّر بشكل جلي في موضوع الدراسة، حيث كان لهذه الكتب دورا كبيرا في ترجمة سيّر القادة السياسيين والزعماء العسكريين ورجال الفكر عامة، ومن أهم هذه الكتب:

1) **ابن خلكان**، هو شمس الدين محمد بن بكر أبو العباس الشافعي (ت681هـ/ 1282م)، كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الذي يعد من أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطا وذكرا لسير الملوك والأمراء والعلماء، وقد أفادت الدراسة كثير من تلك التراجم.

2) **الذهبي**، هو شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الحافظ الذهبي (ت748هـ/ 1347م)، يعد مصنفه "سير أعلام النبلاء" من أكبر الموسوعات التاريخية الشاملة التي تناولت التراجم والسير وغطت ما يزيد عن سبعة قرون من بزوغ الدعوة الإسلامية حتى سنة (746هـ/1345م)، وقد أفادت الدراسة في معظم فصول البحث.

3) **ابن العماد**، هو شهاب الدين أبي الفلاح الحنبلي (ت1089هـ/1678م)، صاحب كتاب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، جمع فيه ابن العماد بين التراجم والحوادث وذكر فيه الوفيات حسب السنين من القرن الأول هجري/السابع الميلادي، وقد أفاد الدراسة بالكثير من تراجم العلماء والأمراء والشعراء.

كما أفادت الدراسة من كتب الطبقات التي شكلت رافدا مهما، بما حوته من معلومات قيّمة عن رجال الفكر والإصلاح على غرار:

1) **ابن أبي أصيبعة**، هو موفق الدين أحمد بن خليفة الخزرجي (ت668هـ/1269م)، كان عالما بالأدب والطب والتاريخ، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، وقد أفادني في ترجمة تراجم الأطباء الذين شاركوا الجيوش الإسلامية في مجابهة الصليبيين، وكذلك لبعض الوزراء الذين تقلدوا أمور بلاد الشام.

2) **تاج الدين السبكي**، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي أبو نصر قاضي القضاة (ت771هـ/1369م)، كتاب طبقات الشافعية الكبرى، وهو حافل بتراجم علماء الشافعية وأحوالهم العلمية والاجتماعية، وقد استفدت منه في أغلب فصول الرسالة.

3) **ابن رجب**، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الشيخ الزاهد الإمام المقرئ (ت795هـ/1392م)، "كتاب الذيل على الطبقات الحنابلة" جعله ابن رجب ذيلا لطبقات الحنابلة للفقيه أبي الحسين بن أبي يعلى البغدادي الحنبلي (526هـ/1113م)، ورتبه على الوفيات لا على الأحرف كما فعل الأول، وهو كتاب حافل بأخبار علماء الحنابلة على امتداد قرابة ثلاثة قرون من سنة (460هـ/1067م) إلى سنة (751هـ/1350م)، وقد استفدت من هذا الكتاب في كل ما يتعلق بتراجم علماء الحنابلة.

وشكلت كتب دواوين الشعر هي الأخرى مادة دسمة للدراسة ولا سيما فيما تعلق بوصف المعارك وذكر فضائل المدن ومدح القادة، وكان من أهمها:

1) **ابن القيسراني**، هو محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومي الخالدي (ت548هـ/1153م) الشاعر العارف بعلم الهيئة والنجوم، ديوانه، وقد استفدت منه بما ورد فيه من قصائد المدح والثناء على قادة أهل الجهاد والفتوح وكذلك في رثاء المدن.

2) **ابن منير الطرابلسي**، هو الحسين أحمد بن منير مفلح الطرابلسي (ت548هـ/ 1153م)، الشاعر كثير الهجاء خبيث اللسان ديوانه، وقد استفادت الدراسة في كل ما تعلق بهجاء الأمراء والسلاطين المتقاعسين عن الجهاد.

3) **العماد الكاتب الأصفهاني**، هو عبد الله محمد بن محمد بن حامد (ت597هـ/ 1201م) الكاتب الفقيه الشافعي، كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر"، وهو مصنف أدبي جمع فيه الكثير من القصائد الشعرية وأسماء الشعراء، وقد أفاد الدراسة فيما يخص تراجم الشعراء وأشعارهم خاصة كتاب قسم شعراء الشام.

ثانيا: المصادر الأجنبية المترجمة: تكمن أهمية هذه المصادر في أن بعض أصحابها كانوا شهود عيان على أحداث بعض الحملات الصليبية ومن أهمها:

1) فوشيه الشارتري: fucher de chartrs

الذي كان معاصرا لأحداث الحملة الصليبية الأولى، وشاهد عيان، كتابه: "أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس" والذي ترجم تحت عنوان "تاريخ الحملة إلى القدس"، ويعد من المصادر المهمة لدراسة فترة الحروب الصليبية وقد زودنا بمعلومات دقيقة حول سير الحملة الأولى والمجازر التي ارتكبت في بيت المقدس وحصار عكا وعسقلان.

2) وليم الصوري William of Tyr

صاحب كتاب "تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار" وتأتي أهميته كون مؤلفه كان معاصرا لأحداث الحروب الصليبية وتناوله فترة طويلة من تاريخ الصليبيين امتدت حتى سنة 580هـ/1184م، وقد أفاد الدراسة حول تأسيس مملكة بيت المقدس واضطهاد الصليبيين للمسلمين فضلا عن تراجم عديدة لبعض الشخصيات الصليبية.

3) يوحنا فورز بورغ **John of Würzburg**

أحد الرحالة الأوربيين الألمان زار الأراضي المقدسة في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، صاحب كتاب" وصف الأراضي المقدسة"، وقد أفاد الدراسة فيما ذكره حول أحداث الحملة الصليبية الثانية ودور هيئتي الإسبتارية والداوية، كما أمدنا بمعلومات دقيقة حول مأثر مقدسات بيت المقدس.

على ضوء المادة العلمية المستقاة من هذه المصادر والمراجع أمكن لنا دراسة الموضوع ولمّ شتاته في أربعة فصول تناولنا فيها:

الفصل الأول: وعنوانه **بلاد الشام والغزو الصليبي،** تضمن ثلاث مباحث وقد اعتنينا في المبحث الأول: التعريف بمصطلح بلاد الشام من حيث الاشتقاق والدلالة، وتبيين

حدوده والتقسيمات الجغرافية التي عرفها، والعناصر العرقية والدينية التي شكلت بنية المجتمع الشامي، ثم عرجنا على الإرث الحضاري الذي ذخرت به أرض الشام ولا سيما المقدسات الدينية.

أما المبحث الثاني فتناولنا فيه بالدراسة أوضاع الشام السياسية والدينية والاجتماعية، بإبراز حالة التمزق السياسي والتناحر العسكري، والانحرافات العقدية والفكرية وما ترتب عنها من تطاحن مذهبي وطائفي وانحدار اجتماعي، وفي ختام الفصل تعرضنا في المبحث الثالث إلى مدلول مصطلح الحروف الصليبية والدوافع التي حركتها، والحملات التي استهدفت بلاد الشام.

وبينت في **الفصل الثاني** الذي عقد تحت عنوان: **مقاومة العلماء للمد الصليبي**، وقد عني مبحثه الأول بدراسة دور علماء المسلمين في مقاومة الفكر الصليبي، بدعوة الصليبيين إلى دين التوحيد ومناظرة علمائهم، واستمالة عامتهم وخاصتهم بخلق الإسلام، ثم تطرقنا في المبحث الثاني إلى جهود العلماء واستنهاض المجتمع وإصلاحه من خلال مجالس الوعظ ودور التعليم وفي المبحث الأخير بينا دور العلماء في معاضدة السلاطين بالنصح والمشورة والدعوة لهم في المجالس، والتحريض على الجهاد بالحطابة وتصنيف الكتب.

أما **الفصل الثالث** فقد جاء تحت عنوان: **مقاومة الطرق الصوفية للمد الصليبي**، وتطرقنا في مبحثه الأول إلى مفهوم التصوف وعوامل انتشاره في بلاد الشام، ثم عرجنا إلى الانحرافات والأباطيل التي علقت به، وفي المبحث الثاني ركزنا على جهود رجال الصوفية في إصلاح الفكر الصوفي ودعم السلاطين للتصوف السني والاستقواء برجاله، لنخلص في المبحث الأخير إلى دور المؤسسات الصوفية في التنشأة والتعبئة الجهادية ضد الصليبيين وإعداد المريدين والرباط في الثغور.

وفي **الفصل الأخير** تناولنا **مقاومة الشعراء للمد الصليبي**، حيث خصصنا المبحث الأول لإبراز دور الشعراء في التحريض على الجهاد وهجاء المتقاعسين عنه، وكذلك الدعوة إلى توحيد صف الأمة وهجاء أمراء النزعات الانفصالية، أما المبحث الثاني فقد تعرضنا فيه إلى دور الشعراء في تمجيد انتصارات الأمة وتخليد مأثرها بمدح أبطال الجهاد ورثاء قادته والمدن الضائعة.

وختم الفصل الأخير بالحديث عن دورهم في مجابهة الصليبيين من خلال هجاء ملوكهم وقادتهم وإبراز مثاليهم لإظهار وضاعة أهل الشرك وعزة الإسلام، وجعلت للبحث خاتمة ضمنتها أهم النتائج التي خرجت بها الدراسة. كما ألحقت بمجموعة من الملاحق التي تتصل اتصالا وثيقا بالموضوع من خرائط والصور.

وقد واجهتني في صياغة هذا البحث عدة صعوبات كان أبرزها:

- تشعب المادة الخبرية بين ما هو تاريخي وأدبي وفقهي.
- تعذر علينا الحصول على بعض المصادر التي تناولت جوانب من الدراسة على غرار كتاب أعمال الفرنجة لصاحبه المجهول Anonymous، وكتاب تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس لريموند أجيل Raymond de Agills.
- صعوبة ترجمة بعض الأعلام والشخصيات، لأن المصادر العربية والأجنبية لم تستفض في سيرتهم وتذكرهم ذكرا عابرا.

وفي الأخير أتمنى أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة وأن يؤتي هذا الجهد المتواضع ثماره المرجوة، وحسبي أنني بذلت ما تيسر من الجهد وما التوفيق إلا من عند الله، كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من مدّ لي يد العون لإتمام هذا العمل.

الفصل الأول

بلاد الشام والغزو الصليبي

المبحث الأول

التعريف بالشام وحضارته

المطلب الأول: التسمية والحدود

المطلب الثاني: العناصر السكانية لبلاد الشام

المطلب الثالث: الإرث الحضاري لبلاد الشام

المطلب الأول: التسمية والحدود:

أ- التسمية:

تباينت آراء الجغرافيين واللغويين حول تسمية بلاد الشام شاما، فقيل: الشأم فعل من اليد الشؤمي وهي اليسرى، ويقال أخذ شأمه أي على يساره، وشأمت القوم ذهبت على شمالهم[1]، وقال ابن منظور[2]: سميت شاما لوقوعها شمال الكعبة، وقيل كذلك أن أرض الشام مختلفة الألوان لوجود الجبال هناك سود وبيض كأنها شامات فسميت شاما[3] أو لكثرة قراها وتدني بعضها من بعض فسميت بالشامات كما سمي الخان في بدن الإنسان شامة[4].

وقيل كذلك نسبة إلى سام ابن نوح –عليه السلام- لأنه أول من نزلها واسمه بالسريانية شام وبالعبرانية شيم[5]، ويذكر أن العرب تطيرت أن تسكنها لأن السام اسم الموت فقالت شام[6].

1- ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق دومنيك سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق، 1973، ج1، ص5، النووي: تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب، بيروت، (د.ت)، ج1، ص171.

2- لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج12، ص315- 316.

3-المقدسي، شهاب الدين: مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق أحمد الخطيمي، ط1، دار الجيل، بيروت، 1994، ص82، ابن شداد: الأعلاق، ج1، ص 5-6.

4- النووي: المصدر السابق، ج1، ص171،الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، لندن، (د. ت)، ص91.

5- ابن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راويس، ط1، المطبعة الجمهورية، باريس، 1893، ص41 – 42، ابن شداد الأعلاق، ج1، ص6.

6- شيخ الربوة: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص258، المقدسي: المصدر السابق، ج1، ص82.

وقال ابن عساكر[1]: "لما لحق قوم من بني كنعان بالشام فسميت شأما حين شاءموا إليها فمثلما سميت اليمين يمنا حين تيمنوا إليها[2]. وقال ابن الكلي[3][4]: "لما تفرق الناس من أرض بابل أخذ بعضهم يمنه فسميت الأرض التي نزلوا بها يَمَنا وأخذ آخرون شامة فسميت الأرض التي نزلوا بها شاما لأنها عن مشأمة البيت أي شماله". كما تسمى الشام بسورية نسبة لسور ثغر الشام القديم. وقيل أن اليونان لما فتحوا الشام رأوا الأشوريين[5] يتولون أمره، فسموه أشورية لغلبة الأشوريين عليه، والشين والسين تتعاوران في اللغات السامية[6]. وقال المسعودي[7]: "سورية هي الشام والجزيرة، وكان الروم يسمون البلاد التي سكنها المسلمون في الشام بسورية".[8]

1- هو: أبو القاسم ابن الحسن بن هبة الله الحافظ ابن عساكر، محدث الشام ثقة الدين صاحب التصنيف الكبير "تاريخ دمشق" ثمانين جزء، من أحسن ما كتب في تاريخ البلدان، توفي عام 571 هـ/1175م، ابن العماد الحنبلي: شذرات الشعب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، بيروت، 1986، ج6، ص 395 - 396.

2- ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر -فضائل الشام والخطط- تحقيق روجيه النحاس، وآخرون، ط1، دار الفكر، دمشق، 1984، ج1، ص40.

3- هو: أبو منذر بن محمد بن سائب الكلبي القضاعي، عالم ومؤرخ بالأنساب وأخبار العرب وأيامها له عدة تصانيف منها "مثالب العرب"، "افتراق العرب"، "الدباج في أخبار الشعراء"، توفي عام 204 هـ /819م، ابن الكلي: كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، ط2، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1924، ص12-13.

4- افتراق ولد معد "افتراق العرب"، تحقيق أحمد محمد عبيد، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2010، ص49.

5- ينتسب الأشوريون لأشور الابن الثاني لسام بن نوح – عليه السلام – وهم من القبائل السامية التي هاجرت إلى شمال بلاد ما بين النهرين، وكانت عاصمتهم الأولى "أشور"، ويعتقد أن تسميتهم بالأشوريين جاءت من اسم هذه المدينة، ثم صارت "يننوي" وهم خليط من الأجناس والشعوب، وسكنوا ما بين النهرين حوالي 3000 ق.م، وول ديورانت: قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ج2، ص266، 268.

6- محمد علي كرد: خطط الشام، ط3، مكتبة النوري، دمشق، 1987، ج1، ص47.

7- المسعودي: هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي الفاضل العالم الكامل الجامع والمؤرخ والجغرافي كان كثير التنقل والأسفار صاحب كتاب مروج الذهب، توفي عام 345 هـ/956م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم الزبيق، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983، ح15، ص569، شاكر مصطفي: التاريخ العربي والمؤرخون، ط1، دار الملايين، بيروت، 1979، ج2، ص52.

8- مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرحه مفيد، قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت) ج2، ص82.

ب- حدود بلاد الشام وأجنادها:

باستثناء الحد الغربي لبلاد الشام والمتمثل في بحر الروم، الذي يسميه العرب -البحر الشامي- الحد الطبيعي لإقليم الشام، فإن أغلب الجغرافيين الأوائل اختلفوا في رسم الحدود الشرقية والجنوبية والشمالية لبلاد الشام. ويعد الإصطخري[1] من أوائل الجغرافيين الذين اعتبروا بلاد الشام وحدة جغرافية متميزة، حيث عنون الفصل الخامس من كتابه المسالك والممالك باسم أرض الشام[2]، كما رسم خارطة لحدود بلاد الشام كما رآها قائلا:[3] "أما الشام فإن غربيها بحر الروم وشرقيها البادية من أيلة[4] إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد الروم وشماليها بلاد الروم وجنوبيها حد مصر وتيه بني إسرائيل[5] وآخر حدودها مما يلي مصر رفح".

أما ابن حوقل (ت 367هـ/977م) فقد وضع خارطة لبلاد الشام على عهده أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[6]: "... غربيها بحر الروم وشرقيها البادية إلى

1- الاصطخرى: أبو اسحاق بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، جغرافي ورحالة من أهل – اصطحر- إيران- طاف بلاد الهند والعرب، اشتهر بكتابيه صور الأقاليم والمسالك والممالك، نقل عنه ياقوت الحموي توفي عام 364 هـ/974م، عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ط1، دار الفكر، دمشق، 1984، ص199.

2- المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1937 ص55.

3- كتاب الأقاليم، تحقيق ونشر يوهان هنريخ مولد، 1839، ص129.

4- أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم ممايلي الشام، وهي آخر الحجاز وأول الشام، مدينة صغيرة عامرة بها زرع، ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1977، ج1، ص292.

5- تيه بني إسرائيل: هو الموضع الذي ظل فيه موسى ابن عمران -عليه السلام- وقومه، وهي أرض أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة من أرض الشام، والغالب على أرض اليتيه الرمال، ويقال أن بني إسرائيل دخلوا التيه وليس منهم فوق الستين إلى دون العشرين سنة فماتوا جميعا إلا يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، المصدر نفسه، ج2، ص69.

6- ابن حوقل: صورة الأرض، (د.ط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979، ص155.

الفرات حتى ملطية[1] والتي عدها أخر الحد الشمالي الشرقي مع بلاد الروم"، في حين جعل شيخ الربوة[2]:"مدينة منبج[3] أول مدن الشام من جهة الشرق"[4].

أما ياقوت الحموي (ت 676 هـ/1228م) فقد ذكر حدودا عامة لبلاد الشام فقال: "حدها من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية، وأما عرضها فمن جبل طي من نحو القبلة إلى البحر"[5] والأمر نفسه الذي ذهب إليه ابن الشحنة[6] (ت890هـ/1485م) (ت890هـ/1485م) الذي يعد من المؤرخين المتأخرين فقد ذكر حدودها بشكل عابر دون تفصيل فقال: "فالحد الجنوبي من العريش مما يلي مصر والشرقي البادية من أيلة إلى الفرات والغربي بحر الروم".[7]

ويتوسع أبو الفداء[8] (ت 732هـ/1331م) في تفصيل الحدود بشكل أوضح ذاكرا أسماء المدن والقرى الحدودية جاعلا بحر الروم حد الشام من الغرب، ومن البلقاء إلى

1- ملطية: مدينة كبيرة من أجل الثغور في بلاد الشام، حصينة غنية بالأشجار ورجالها أجلد الرجالالمصدر نفسه، ص165.

2- هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن طالب الأنصاري الدمشقي شيخ الربوة، عالم الزراعة والجغرافي عاصر السلطان بيبرس، عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص513، كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، مراجعة إيغور بليايف، جامعة الدول العربية، (د.ت)، ج1، ص387.

3- منبج: مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاقها واسعة بينها وبين الفرات ثلاث فراسخ، وبين حلب عشرة فراسخ، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص206.

4- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص258.

5- معجم البلدان، د3، ص3/2.

6- محمد بن محمد بن محمود بن شهاب الغازي بن أيوب بن حسام الدين محمود شحنة حلب، وشحنة هو جده الأول درس في مدرسة الحلاوية، وولي قضاء العسكر، له عدة تصانيف أهمها "شرح الهدية" و"الدر المنتخب"، ابن العماد: شذرات الذهب، ج9، ص524.

7- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله درويش، (د.ط)، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984، ص15.

8- أبو الفداء: إسماعيل بن علي بن محمد محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي، الملك المؤيد عماد الدين أبو أبو الفداء صاحب حماة، الجغرافي والمؤرخ له تصانيف كثيرة، توفي عام 732 هـ/1331م، كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ج1، ص391.

الزركلي: الأعلام، ط15، دار الملايين، بيروت، 2002، ج1، ص319.

مشاريق صرخد[1] وحلب وبالس[2] من جهة الشرق، ومن بالس إلى طرطوس[3] من جهة جهة الشمال.[4]

وبناء على ما سبق يمكن أن يتحصل لنا بأن حدود بلاد الشام إلى حد كبير كانت حدودا طبيعية، فشكل بحر الروم حدها الغربي بينما شكلت بادية الشام ونهر الفرات حدها الطبيعي الشرقي، بينما عدت جبال طوروس حدها الشمالي وصحراء سيناء الحد الطبيعي الجنوبي وبذلك تكاد تطابق حدود الشام الحالية. واتبع العرب نظام الأجناد[5] في تقسيم بلاد الشام، ويميل بعض الباحثين الغربيين أن العرب نقلوا هذا النظام عن الروم بدء من عهد جستنيان [6] الذي قسم سورية إلى سبع مقاطعات [7]، غير أن البلاذري (ت279هـ/892م) يرى أن العرب ابتعوا نظام الأجناد لأسباب إدارية وعسكرية ومالية وأنهم لم يقلدوا فيه أحد فقال:[8] "اختلفوا في تسمية الأجناد فقال بعضهم: سمى المسلمون جندا لأنه جمع كورا وكذلك دمشق وكذلك الأردن وكذلك حمص...".

1- صرخد: بلد ملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة وواسعة، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص401.

2- بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة، سميت ببالس بن الروم اليقن بن سام بن نوح – عليه السلام – وهي على ضفة الفرات الغربية، المصدر نفسه، ج1، ص328.

3- طرسوس: بلد بالشام مشرفة على البحر قرب عكا والمرقب، المصدر نفسه، ج4، ص30.

4- تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص225.

5- أجناد: الجند تعني مدينة جمعها أجناد مقاربة للمصر والأمصار، بل مطابقة لها، الزبيدي: تاج العروس، تحقيق عبد عبد السلام محمد هارون، ط2، مطبعة حكومة الكويت، 1994، ج7، ص524، ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص132.

6- جستيان: (527 م- 565م) من أعظم أباطرة الامبراطورية البزنطية نظرا لعظم فتوحاته وأعماله، حيث استطاع استعادة أملاك الامبراطورية الرومانية كلها والقضاء على دويلات الجرمان، محمد مرسى الشيخ: تاريخ الامبراطورية البزنطية، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، 1994، ص41 – 42.

7- لكي لسترانج: فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمود عمايري، (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 1970، ص43.

8- فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، (د. ط) مؤسسة المعارف، بيروت، 1987، ص180.

ويتفق ياقوت الحموي مع هذا الرأي بقوله:[1] "لم يبلغني أنهم استعملوا ذلك في غير أرض الشام"، في حين تشير أخبار فتوح الشام أن العرب عندما فتح الله عليهم بلاد الشام في خلافة عمر بن الخطاب (13 هـ-23 هـ/634 م- 643م) جعلوها أربعة أجناد وهي فلسطين، الأردن، دمشق وحمص – وكان جند حمص يضم قنسرين[2] والجزيرة.[3]

ولقد حافظ العرب على هذا التقسيم إلى أخر خلافة معاوية بن أبي سفيان (41هـ-60 هـ/661م-679م) حيث يذكر الطبري[4]: "أن معاوية فصل قنسرين عند جند حمص أثناء النزاع الذي نشب بينه وبين علي -رضي الله عنه-". بينما يرى البلاذري[5]: "أن يزيد بن معاوية (60هـ- 64هـ/679م-683م) هو الذي أخرج قنسرين من جند حمص". ومنذ أن خرجت قنسرين من جند حمص جعلت جندا قائما بنفسه، صارت بلاد الشام خمسة أجناد هي:

1- جند فلسطين:

ويُعدّ أول أجناد الشام ومن مدنه وقراه ونواحيه التي أحصاها البلاذري في القرن الثاني: أيلة ورفح وغزة وعسقلان ويافا وقيسارية ولد والرملة وبيت المقدس – إيلياء- ونابلس وعمواس[6]. وأهل جند فلسطين أخلاط من العرب والعجم من لخم وجذام وكندة.[7]

1- معجم البلدان، ج3، ص312.

2- قنسرين: هي كورة بالشام بينها وبين حلب مرحلة قصيرة، فتحها أبو عبيدة الجراح، - في سنة 17 هـ /638م وفيها أثار مثل قبر النبي صالح – عليه السلام –، المصدر نفسه، ج4، ص404.

3- الأزدي: فتوح الشام، تصحيح وليم ناسوليس الإيرلندي، (د.ط)، طبعة كلكتا، 1853، ص132.

4- تاريخ الأمم والملوك أو المسمى بتاريخ الطبري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ج4، ص161.

5- فتوح البلدان، ص181.

6- المصدر نفسه، ص191.

7- اليعقوبي: البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوى، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص166- 167.

2- جند الأردن:

وهو ثاني أجناد الشام، وهو أصغرها مساحة، وأقصرها مسافة[1] من مدنه وقراه وكوره التي سماها البلاذري: فحل - طبرية - الجولان - بيسان - جرش - عكا - صور وصفورية.[2]

3- جند دمشق:

وهو ثالث أجناد الشام وهو أكبرها مساحة وأطولها مسافة ومن مدنه وقراه وأصقاعه التي عددها البلاذري[3]: تبوك - أدرح - دومة الجندل[4]- مؤتة - دمشق - الغوطة - بعلبك - حوران وبصرى... وتعد دمشق كبرى المدن، وقد وصفها اليعقوبي بقوله:[5] "مدينة جليلة قديمة وهي مدينة الشام في الجاهلية والإسلام، وليس لها نظير في أجناد الشام في كثرة أنهارها وعمارتها".

4- جند حمص:

وهو رابع أجناد الشام ومن مدنه وقراه وأقاليمه التي ذكرها البلاذري: حمص- قارا - حماة - شيزر - معرة النعمان[6] - اللاذقية وتدمر... [7]، وتعد حمص هي كبرى

1- الاصطخرى: المسالك والممالك، ص49، اليعقوبي: المصدر السابق، ص 165.

2- فتوح البلدان، ص160.

3- المصدر نفسه، ص 172- 173.

4- درمة الجندل: هي حصن على سبع مراحل من دمشق والمدينة المنورة، أرضها منخفضة وهي قرب جبل طئ، ياقوت الحمودي: المصدر السابق، ج2، ص 486.

5- اليعقوبي: المصدر السابق، ص 164.

6- معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة، تنسب إلى النعمان بن بشير الصحابي الصحابي اجتاز بها فمات له ولد فدفنه وأقام عليه فسميت به، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج5، ص156.

7- فتوح البلدان، ص181- 182.

كبرى المدن في جند حمص وهي على نهر العاصي على اثنتين وتسعين ميلا إلى الشمال من دمشق.[1]

5- جند قنسرين:

وهو خامس أجناد الشام، ومن مدنه وقراه ومناطقه التي سماها البلاذري قنسرين، أنطاكية، سلوقية، حلب، بنى القعقاع، مصرين، الجومة، منبج، باليس وصفين...[2]

1- الأزدي: فتوح الشام، ص94.

2- فتوح البلدان، ص198.

المطلب الثاني: العناصر السكانية لبلاد الشام:

اتسمت التركيبة السكانية لبلاد الشام حتى عصر الحروب الصليبية، بسمات التنوع والتعدد من الناحيتين العرقية والعقائدية بشكل لا نجده في أي منطقة أخرى، وذلك بسبب موقعها الجغرافي من ناحية، وأهميتها الدينية من ناحية أخرى، ويمكن إيجاز هذه التركيبة فيما يلي:

1- **العرب:** شكلوا الغالبية العضظمى لسكان بلاد الشام، انتشرت قبائلهم في أنحاء متفرقة فيها، ولعل أبرز هذه القبائل قبيلة بنو كلاب[1] الذين نزلوا دومة الجندل وتبوك وحلب ونواحيها وأطراف الشام، وهم من أشد العرب بأسا وأكثرهم أناسا[2] وقبيلة بنو زبيدة[3] وهم خليط من القبائل وقد استقروا في صرخد ودمشق وحوران[4] وبنو ربيعة[5]، الذين صارت لهم الزعامة على عرب الشام في عهد الأيوبيين (567 هـ- 684هـ/1172م-1250م)، وحاز بعضهم على مكانة وأبهة وصار لهم عند السلاطين حرمة.[6]

انقسم أل ربيعة إلى ثلاث أفخاذ لكل منها أمير يتزعمها، فخذ أل الفضل وديارهم ممتدة من حمص إلى قلعة جعبر ومنها إلى الرحبة في جانب الفرات، والفخذ الثاني آل مر

1- بنو كلاب: ينسبون إلى كلب بن وبرة بن حلوان بن عمران، وبنو كلب بطن من فضاعة، القلقشندي: نهارية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980، ص407- 408.

2- القلقشندي: صح الأعشى في صناعة الإنشا، تعليق محمد حسين شمس الدين، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج4، ص 237.

3- بنو زبيدة: بطن من سعد العشيرة من القحطانية من اليمين هاجروا إلى الشام وهم حلفاء لأهل ربيعة، القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص268.

4- القلقشندي: صح الأعشى، ج4، ص 239.

5- أل ربيعة: هم بنو ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج إبن دعقل بن جراح بن شيب بن مسعود، بطن من طيء من القحطانية مساكنهم البلاد الشامية، القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص 100.

6- المصدر نفسه، ص101.

منازلهم حوران أما الفخذ الثالث من أل ربيعة آل علي وديارهم غوطة دمشق[1]، أما قبيلة ثعلبة[2] والتي سكنت بين جنوب الشام وسيناء وقد ذكرها المقريزي بقوله:[3] "هي بالشام مما يلي أرض مصر..." ، وكانت قبيلة ثعلبة البدرية الكبيرة بفرعيها الرئيسين بنو ضرغام وبنو زريق تتعاون مع الفرنج في بداية الحملة، الأمر الذي جلب عليهم السخط والغضب من جانب إخوانهم المسلمين وقد ذكر العمري هذا قائلا:[4] " كانت ثعلبة يد مع الافرنج على المسلمين".

وإن كان للقبائل العربية دور فعال في الحياة السياسية والاجتماعية في بلاد الشام إلا أن هذا الدور قد تباين واختلف من قبيلة إلى أخرى ولاسيما أثناء المد الصليبي، فمنهم من حالف الصليبين ومنهم من وقف ضدهم على غرار التنوخيون[5] فقد ظلوا يتأرجحون بين الموالاة للصليبين حينا وللمسلمين أحيانا، يميلون مع من غلب[6]، كما كان بعض شيوخ القبائل يمنحون إقطاعات معنية نظير ما يقدمونه من خدمات مثل حفظ الأمن، ومراقبة السواحل والمحافظة على الطرق والبريد والحجاج والتجارة واستعلام أخبار العدو.[7]

1- القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص 215- 216.

2- بنو ثعلبة: بطن من القحطانية، وهم بنو ثعلبة بن سلامات بن ثعلب بن عمرو بن لغوث بن طئ بن أحد بن زيد بن كملان، القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص 194.

3- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، طبعة ليدن، (د. ت)، ص 7.

4- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا (د. ط)، دار الكتب المصرية القاهرة، 1924، ج4، ص 300.

5- التنوخيون: من أصل قحطاني نزلوا واستقروا بشمال الشام وسموا بالتنوخين لأنهم حلفوا على المقام بالشام، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص318.

6- المقريزي، الحطط، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998، ج2، ص170.

7- العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق وضبط حواشيه محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، ص 146.

2- الأكراد:

يرجع قدوم الأكراد[1]إلى بلاد الشام إلى القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي لاجتياح التركمان[2] موطنهم الأصلي في أرمينيا وديار بكر[3] فضلا عن قرب موطنهم من بلاد الشام مما سهل دخولهم إليها[4]. وانتشر الأكراد في مناطق مختلفة من بلاد الشام في بيت المقدس وصفد وعكا وطرابلس[5] كما شكل الأكراد في حماة و حلب غالبية الساكنة[6]، وكان يرأسهم في كل مدينة يتواجدون فيها شيخ يقوم على أمورهم[7]. والأكراد قوم أشداء يتميزون بالخشونة والصلابة وأكثر جرأة في الحروب وأقل قبولا للحضارة[8]، مما دفع عماد الدين زنكي[9] إلى الاستعانة بهم في حروبه ضد الفرنجة أثناء أثناء حصار قلعة شيراز، وبعد فتحها أقطعهم مقابل ذلك إقطاعات في منطقة حلب[10] كما

1- الأكراد: اختلف المؤرخون والنسابة في أصلهم فمنهم من رأى أنهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، ومنهم من ألحقهم بسليمان بن داود –عليهما السلام– ومنهم من رأى أنهم من ربيعة ومضر، المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص 97.

2- التركمان: قبيلة من قبائل الأتراك عاشوا في المنطقة بين بحر الخزر ونهر جيجون، ثم انتقلت جموع منهم غربا ليستقروا شرقي أسيا قونية وسافوس وشمالي بلاد الشام، محمد الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث عشر الميلادي، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، 1969، ص27.

3- ديار بكر: هي بلاد كبيرة وواسعة تنسب إلى بكر ابن وائل بن قاسط بن هنب، وحدها ما غرب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 494.

4- ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص9- 10، جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، (د.ط)، دار مكتبة الحياة بيروت (د.ت)، ج4، ص 203.

5- ابن جبير: رحلة بن جبير، دار صادر (د.ط)، بيروت، 1980، ص 84.

6- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص242.

7- القلقشندي: صبح الأعشى، ج7، ص 210.

8- جورجي زيدان: المرجع السابق، ج4، ص203.

9- عماد الدين زنكي: هو عماد الدين زنكي ابن قسيم الدولة أق سنقر، الملك تولى حكم الموصل والجزيرة سنة 521هـ/1127م، كان من أهم أعماله فتح إمارة أسرها الصليبية عام 539هـ/1144م، قتل أثناء حصار قلعة جعبر على أحد مماليكه سنة 541هـ/1146م، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء أهل الزمان، تحقيق احسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ج3، ص 328، ابن العديم زبدة حلب، ص 301، 304.

10- أسامة ابن منقذ: كتاب الاعتبار، تحقيق فليب حتى، د،ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د،ت)، ص39، 55.

نالوا منزلة مرموقة وعالية زمن الدولة الأيوبية، حيث تولوا الإمارات والولايات في مصر والشام وبلغوا شأنا عظيما في الجيش الأيوبي.[1]

3- التركمان:

سكن التركمان بلاد الشام منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي قادمين إليها من آسيا الوسطى، وقد ساعدهم في ذلك حالة التمزق الذي عرفته الدولة الفاطمية[2]، واستوطنوا في مناطق مختلفة من الشام، حيث استقر عدد منهم حول ضفاف نهر الأردن مستغلين السهول التي تتناسب وتربية المواشي[3]، كما سكنوا عين تاب[4] وبغراس[5][6]وتعد المعرة أول إقطاع يمتلكه التركمان في البلاد الشامية[7] وكان لهم مقدم مقدم يتولى أمورهم[8]، وقد ساعد تحمسهم البالغ للمذهب السني وكرههم الشديد للمذهب الشيعي وبعدهم عن الجدل في أمور الدين، فضلا عن تمرسهم في القتال سببا في تقربهم من الزنكيين[9]، فقد أسكنوهم الثغور الشمالية من الشام، واستعانوا بهم في محاربة

1- المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ج1، ص 149.

2- ابن العديم: زبدة الحلب، ص 294، شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص 273.

3- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، 1968، ص 91.

4- عين تاب: قلعة حصينة بين حلب وانطاكية وكانت تعرف بدلوك وهي من أعمال حلب، ياقوت الحموي: لمصدر السابق، د4، ص 176.

5- بغراس: مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، المصدر نفسه، ج1، ص 467.

6- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص92، شيخ الربوة: المصدر السابق، ص273.

7- ابن العديم: زبدة الحلب، ص9.

8- المقريزي: السلوك، ج4، ص 444.

9- الحويري: المرجع السابق، ص28.

الصليبيين وفي ذلك يذكر ابن الأثير:[1] فقد نقل طائفة منهم تسمي التركمان الإيوانية إلى حلب لمحاربة الفرنجة على أن يكون لهم الحق في الأراضي التي يستردونها منهم.

4- الأتراك:

منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بدأ الأتراك[2] يستقرون في بلاد بلاد الشام وقد تميزوا بسمات البداوة والارتحال[3]، واستطاع الأتراك السلاجقة بسط نفوذهم على جزء كبير من أرض الشام وجانب كبير من ممتلكات الدولة البزنطية[4]، واستعان بهم الأيوبيون في الجيش الأيوبي ضد الصليبين وكان يفضل عنصرهم عن غيرهم بحكم ألفهم عيشة التقشف والخشونة واحتمال الأسفار والمقدرة على القتال.[5]

5- عناصر أخرى:

أ- المسلمون:

فقد شكلوا الغالبية العظمى من السكان في بلاد الشام نتيجة الفتح الإسلامي وكانوا يتوزعون في حواضر بلاد الشام وقراها وبواديها[6]، كما كان لهجرة القبائل التركمانية والكردية إلى بلاد الشام في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أثر واضح

1- الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج9، ص 323، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أمدروز، (د،ط)، مطبعة الأباء اليسوعين، بيروت، 1908، ص 298.

2- الأتراك: ينحدرون من قبيلة "قنف" التركمانية وتمثل مع ثلاث وعشرين قبيلة أخرى مجموعة القبائل المعروفة بـــ: "الغز" في منطقة ما وراء النهر "تركستان"، تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقا إلى بحر الخزر-قزوين"، استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك، المقريري: السلوك، ج1، ص3، محمد عبد العظيم يوسف، أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ط1، عين للدراسات، القاهرة، 2001، ص29.

3- الحويري: المرجع السابق، ص25.

4- محمد كرد: خطط الشام، جـــ1، ص 82.

5- الحويري: المرجع السابق، ص26.

6- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص110.

في زيادة أنصار أهل السنة[1]، كما شارك المسلمين السنة عدد ليس بالقليل من الشيعة أو ما يسمون بالعلويين وكانوا يسكنون مناطق محدودة في صور وصيدا وصفد وجنوب شرق دمشق وبعض القلاع[2]، فضلا عن وجود العديد من الطوائف الدينية الأخرى كاليهود والنصارى.

ب- اليهود:

من المرجح أن دخول اليهود إلى بلاد الشام كان في الألف الثانية قبل الميلاد بقيادة موسى – عليه السلام – الذي خرج من مصر هاربا بهم من العبودية وبطش فرعون وجنده[3]، ولم يتسن لهم العبور إلى فلسطين إلا في عهد يوشع بن نون[4] خليفة خليفة موسى –عليه السلام– على بني إسرائيل أين أقاموا دولتهم مجاورين الكنعانيين[5]. وانقسم اليهود في بلاد الشام إلى ثلاث فرق: اليهود الربانيون[6] واليهود القراؤون[7] واليهود السامرة[1][2]، بسبب اختلافهم حول الاعتراف بأسفار العهد

1- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص110.

2- ابن جبير: زحلة ابن جبير، ص252.

3- ول ديورنت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ج2، ص 324، حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه، (د.ط)، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1971، ص37.

4- يوشع: هو يوشع بن نون بن اليشاماع بن عميهور بن لعدان بن تاحن بن تالح بن راشف بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب –عليهما السلام–، لما مات موسى –عليه السلام– قام بتدبير بني إسرائيل، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، تعليق محمود ديوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ج1، ص 219.

5- ول ديوانت: المصدر السابق، ج2، ص226، إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي قبل الإسلام، (د.ط)، عالم الكتب، القاهرة، 1979، ص 59.

6- الربانيون: هو تعريف للكلمة العبرنية ربانيم التي تعني: الحبر وتسموا بذلك لكثرة تعبدهم، ويدعون بأنهم وحدهم يعرفون شرح التوارة وغوامضها، كما أطلق عليهم خصومهم لقب الفرسيون أي المنعزلون أو المنشوقون، المقريزي: الخطط، ج4، ص 381، حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 205- 206.

7-القراؤون: اشتق اسمهم من الكلمة العبرينة التي تعني: قرأ وذلك لأنهم لا يؤمنون بغير التوراة المكتوبة التي يمكن قراءتها، من ثمة لا يعترفون بما جاء في التلمود أو غيره من الكتب التي اعترف بها الربانيون، ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمان عميرة، (د.ط)، دار الجبل، بيروت، 1985، جـ1، ص 179، المقريزي: الخطط، ج4، ص 382.

القديم[3] والتلمود[4] والمنشأ[5][6]، ورغم قلة عددهم فقد انتشروا في مناطق مختلفة في بلاد الشام، فقد ذكر الرحالة اليهودي بنيامين التطلي[7] الذي زار بلاد الشام في النصف الأول من القرن السادس للهجرة/الثاني عشر الميلادي إلى عددهم ومناطق تواجدهم: وهم عموما أقلية يمثلون نسبة ضئيلة جدا وصلت أحيانا إلى الثلاثة آلاف شخص، وكان جل تمركزهم في مدينة دمشق وحلب وبيت المقدس، برج دواد[8][9] وحارة اليهود وحلب التي عرف أحد أبوابها باسم باب اليهود وكان لهم وجيها ورئيسا يمثلهم،[10]

1- السامرة: قبيلة من قبائل بني إسرائيل، الذين تفرقوا في البلاد بعد وفاة سليمان "بن داود- عليهما السلام- عام 975 ق.م، وهم "قوم من اليهود أنكروا الأنبياء الدين جاءوا بعد موسى -عليه السلام- ما عدا يوشع بن نون وهارون، وقبلتهم جبل جزريم بنابلس ويقدمون قربانهم لهذا الجبل ويعتقدون أن الله كلم موسى -عليه السلام- فيه، المصدر نفسه، ج4، ص 383، ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص 280، العمري: التعريف ص204.

2- المقريزي: الخطط، ج4، ص 381- 382.

3-العهد القديم: التوراة وهي تتألف من خمسة كتب وأسفار تنسب إلى موسى -عليه السلام- وتغطي هذه الأسفار فترة من التاريخ تبدأ مع بدء الخليقة وتنتهي بوفاة موسى -عليه السلام- حوالي 1200 ق.م، وهي سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر التثنية، سفر العدد، الشهر ستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد الكيلاني، (د.ط)، دار الجبل، بيروت، 1986، ج1، ص 211، حسن ظاظا: المرجع السابق، ص13.

4- التلمود: أحد أهم الكتب الدينية وأقدسها عند اليهود وهو النتاج الأساسي للشريعة الشفوية أي التلمود، والتلمود مكون من مكونين أساسيين، المنشأ، الجمارا، والجمارا هي نقاش حول المنشأ، أحمد بيشو: التلمود كتاب اليهود المقدس، قدم له سهيل زكار، (د.ط)، دار قتيبة، دمشق، 2006، ص25.

5- المنشأ: أو المشنا وهي مجموعة من الشرائع اليهودية المروية على الألسنة والتي كان اليهود وما يزالون يعتبرونها مصدرا من مصادر الشريعة ويأتي في المقام الثاني بعد التوارة، ويظنون أنها ترتفع هي أيضا إلى سيدنا موسى، ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي، ص78.

6- وافي عبد الواحد: اليهود واليهودية، (د.ط)، دار النهضة مصر للطباعة، القاهرة، (د.ت)، ص90.

7- بنيامين التطلي: هو بنيامين التطلي بن نوية الرحالة اليهودي، إتحل إلى الشرق من مدينة طليطلة وقام بالتجول في مناطق جنوب فرنسا وإيطاليا واليونان والقسطنطنية وكذلك بلاد الشام ومصر واليمن، وكانت رحلته في حدود ما بين أعوام 561هـ- 596هـ/1165م- 1173م، توفي عام 569هـ/1173م، بنيامين التطلي: رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، (د.ط)، المطبعة الشرقية، بغداد، 1945، ص130، 138، 142.

8- برج داود: من أشهر الأبراج القديمة الباقية في القدس موضعه بالغرب من باب الخليل وهو مؤلف من خمسة أبراج محاطة، بخندق، المصدر نفسه، ص248.

9- المصدر نفسه، ص 247 – 248.

10- ابن الشحنة: المصدر السابق، ص234، 242.

واختصوا بمهن دون غيرهم كالتجارة والاصباغ وأعمال الصيرفة وصناعة المنسوجات فضلا عن عملهم كمترجمين ومرشدين للحجاج النصارى أثناء زيارتهم للأماكن المقدسة[1]، ورغم قلتهم وإنعزالهم كان هناك تعاون بينهم وبين المسلمين حيث كانوا يدعون بضائعهم مع المسلمين لنقلها مع القوافل التجارية أيام السبت لأنهم لا يسافرون أيام العطل اليهودية.[2]

جـــ- النصارى:

تعد بلاد الشام موطن النصرانية الأول فقد انتشرت الدعوة في ربوعها قبل انتشارها في أرجاء المعمورة، وكان لكنيستي أنطاكية[3]والرها[4] دور عظيم في نشر النصرانية في ربوع الشام،[5] وعاش النصارى في مختلف أرجاء بلاد الشام وسكنوا إلى جوار المسلمين في القرى والأرياف، أو في أحياء خاصة بهم تعرف باسم حارة النصارى[6]، ولم تختلف مناطق استقرار النصارى اختلافا كبيرا عند بدء الفتوحات الإسلامية، حيث يذكر البلاذري:[7] "أن قرى وأرياف الشام ظلت في فترة الأمويين ذات

1- بنيامين التطلي: المصدر السابق، ص119.

2- محمد الطراونة: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، في عصر المماليك، ط1، دار جليس الزمان، عمان، الأردن، 2012، ص52.

3- أنطاكية: مدينة عظيمة بالشام على ساحل البحر، بناها بطليموس بن هيلفوس الثاني من ملوك اليونانين وهي قاعدة القياصرة، من أقدم المدارس اليونانية كان يعلم فيها الفلسفة اليونانية، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1989، ص 38- 39.

4- الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام سميت باسم الذي استحدثها هو الرها بن البلندي بن مالك بن دعر، وتعد وتعد بين المدارس السريانية النسطورية، التي يعلم فيها اللاهوت والثقافة اليونانية، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص 120، عمر فروخ: تاريخ الفكر إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين، بيروت، 1972، ص155.

5- ابن البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، (د.ط)، مطبعة الأباء اليسوغين، بيروت، 1905، ص159.

6- العلمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق محمود على عطا الله، ط1، مكتبة دندس، عمان، الأردن، 1999، ج2، ص53.

7- فتوح البلدان، ص165- 166.

أغلبية نصرانية، وكان سكانها من النبط[1] لاشتغال معظمهم بفلاحة الأرض، في حين ذكر ابن حوقل:[2] "أن محلة حمص كان شطرها للنصارى وفيه هيكلهم ومذبحهم وبيعهم وهي من أعظم بيع الشام. أما بيت المقدس فقد أخبرنا المقدسي[3]: "أن الغالب على أهلها نصارى". و الحال ينطبق على كثير من مدن الشام كقيسارية وصيدا وجبل لبنان وبصرى وحلب.[4] وغلب على عقيدة نصارى الشام مذهب نسطور[5] وكانت كنيستهم الكبرى في الرها.[6]

وتمتع النصارى في بلاد الشام بتسامح كبير مما ساعد على إضفاء جو من التواصل والتعاون بينهم وبين المسلمين في كثير من الأعمال والمهن، وقد تعجب ابن جبير[7] من العلاقات الاجتماعية الطيبة بين المسلمين والنصارى فقال:[8] "من العجيب أن أن النصارى المجاورين لجبل لبنان، إذا رأوا المتقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم...، ومن انقطع لله –عز وجل– فيجب مشاركتهم...".

1– النبط: هم أحفاد الأرمين، ولفظ نبط مرادفه لفلاحة الأرض عند ابن منظور: ابن منظور: لسان العرب، ج7، ص411.

2– صورة الأرض، ص126.

3– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تعليق محمد الأمين الضاوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، ص167.

4– ابن أعثم: كتاب الفتوح، تحقيق على شيرى، ط1، دار الأضواء، بيروت، 1991، ج1، ص 152، 169.

5– نسطور: نسطوريوس الذي عاش بين (380م– 440م) نصبه الامبراطور ثيوسيوس الثاني (408م– 450م) بطريكا على القسطنطينية سنة 428م اعترض على تسمية مريم العذراء بوالدة إلاله– أنجبت بشرا– فكفر وعزل من منصبه، ابن البطريق، المصدر السابق، ص167، المسعودي: التنبيه والإشراف، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص148.

6– ابن البطريق: المصدر السابق، ص 167.

7– ابن جبير: محمد بن جبير الكتاني، أبو عبد الله وقيل أبو الحسن المعروف بابن جبير، ولد في مدينة بلنسيا سنة 540هـ/1145م، وقام بثلاث رحلات إلى المشرق الإسلامي الأولى عام 578هـ/1182م والثانية عام 585هـ/1189م بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس، أما الثالثة فكانت عام 614هـ/1217م وهي السنة التي توفي فيها، محمد مؤنس عوص: الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام ومن الحروب الصليبية، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1995، ص283– 287.

8– رحلة بن جبير، ص259– 260.

وعليه فقد اتسم النظام الاجتماعي في بلاد الشام بالانسجام والتوافق على الرغم من تعدد فئاته وطوائفه، ولاسيما أن الدين الإسلامي كان يحث على التسامح بل يقر بحقوق أهل الكتاب، فضلا عن أن تلك الفئات كانت بينهم مصالح مشتركة مما سهل عملية التآلف والتواصل عكس ما كان يعتقد مروجوا الحملات الصليبية في الغرب وإن وجدت احتدامات وصراعات طائفية فكانت في الغالب بين اليهود والنصارى حول الأماكن المقدسة –جبل صهيون–.[1][2]

1– جبل صهيون: هو تل عريض مرتفع يعلو 400 قدم فوق وادي هيوم وطوله 3400 قدم ينتهي عند الخليل، يزعم المسحيون أن السيد المسيح أتى جبل الزيتون وتناول العشاء فيه مع تلاميذه، كما يزعم اليهود أم سليمان شيد عليه معبدا أو هيكلا ضخما، يوحنا قورزيورغ: وصف الأراضي المقدسة، ترجمة وتعليق سعيد عبد الله البشاوي، ط1، در الشروق، عمان، 1997، ص56.

2– المرجع نفسه، 169.

المطلب الثالث: الإرث الحضاري لبلاد الشام:

اختص الله تعالى أرض الشام وباركها وقدسها لتكون قدس أنبيائه وموطن رسالته إلى كل العالمين، فليس هناك من مكان يتوسط العالم كفلسطين حيث يمكن للرسالة أن تجتاز أربعة أركان الدنيا وتعم البشر أجمعين؛[1] فبلاد الشام منذ فجر التاريخ ارتبطت بوحي السماء وسيرة أولي العزم من الرسل وغيرهم من الأنبياء والمرسلين: كإبراهيم وإسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، موسى، داود، سليمان، زكريا، يحي، عيسى ... -عليهم الصلاة والسلام- فضلا عن النبي الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك يذكر ابن رجب:[2] "أن عامة أنبياء بني إسرائيل كانوا من الشام".

وعليه فقد تفردت بلاد الشام عن غيرها من الأمصار والأقطار ولاسيما بيت المقدس وبيت لحم[3] بمآثر دينية جعلت منها مهوى أفئدة الشعوب ومحط تقديس وتعظيم أصحاب الديانات السماوية، وقد زادها موقعها الجغرافي وسط العالم القديم استقطابا فضلا عن أنها مهد أولى الحضارات.[4]

فاليهود ينظرون مثلا إلى أرض الشام ولاسيما فلسطين على أنها المنطقة التي شهدت ميلاد مملكة إسرائيل على يد سليمان – عليه السلام – (960 ق.م – 925 ق.م)، حيث يذكر الكتاب المقدس أن الرب كلّم سليمان قائلا: [5] "وهذا البيت الذي أنت بانيه، إن أنت سرت على فرائضي وعملت بأحكامي وحفظت جميع وصاياي، سائرا عليها، فأني

1- حسين فوزي النجار: أرض المعاد، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص91.

2- مجموع الرسائل، تحقيق أبو مصعب طلعت فؤاد الحلواني، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ج3، ص253.

3- بيت لحم: مدينة بقرب من إيليا: -بيت المقدس- مكان مهد المسيح -عليه السلام- وفيها قبرا داود وسليمان -عليهما السلام- تعرف عند اليهود ببيت داود، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج1، ص521. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص123.

4- محمد كرد علي: خطط الشام، ج1، ص55

Gabalde, Bernard ; Jeruslem et terre sainte devant l'europe 2 éme édition, librairie Advien, Paris, 1857, p40.

5- سفر الملوك الأول، 13/6-14، (د.ط)، دار المشرق، بيروت، 1986، ص 638-639.

أحقق معك كلامي الذي كلمت به داود أباك وأقيم فيه وسط بني إسرائيل، ولا أترك شعبي إسرائيل، فبنى سليمان الهيكل[1] وأكمله".

كما يزعم اليهود كذلك أن داود –عليه السلام – جعل من الصخرة –قبة الصخرة– مذبحا للرب وأن الله خلق الأرض ابتداء من هذه الصخرة وأن الصخرة هي أصل خلق الأرض وأن صهيون هو سر العالم[2]، ويتجلى ارتباط اليهود بالقدس أكثر في مشاعر الحج حيث نجد الحاج اليهودي يقف على جبل الزيتون[3]وهو يمزق ملابسه ويؤدي الصلاة ويتلو التراتيل المقدسة من أجل خلاص وتحرير صهيون وإعادة إقامة مدينة داود[4]، ويستطرد اليهود في اعتقادهم بقولهم: بأن القدس هي المدينة التي اختارها الرب لتكون مسكنا له وهذا حسب ما جاء في الكتاب المقدس:[5] "الرب نفسه اختار جبل صهيون مقرا له ومكانا لراحته".

كما تعد أرض الشام على قدر كبير من الأهمية والقداسة لدى المسلمين، فقد ذكرها المقدسي بقوله: [6] "إقليم الشام جليل الشأن ديار النبيين ومركز الصالحين ومطلب الفضلاء الفضلاء به القبلة الأولى وموضع الحشر والمسرى، والأرض المقدسة والرباطات الفاضلة

1– الهيكل: تم بناءه في السنة الرابعة من ملك سليمان، وكان طوله ستين ذراعا وعرضه عشرين ذراعا وعلوه ثلاثين ذراعا، ووضع له نوافذ متشابكة ومحراب، المصدر نفسه، 2/6–5، ص369.

2– حسن ظاظا: أبحاث في الفكر اليهودي، ط1، دار القلم، دمشق، 1987، ص27.

3– جبل الزيتون: يشرف هذا الجبل على أورشاليم من الجهة الشرقية، فيرى من قمته كل شوارع المدينة وبيوتها، واسمه مأخوذ من شجرة الزيتون المقدسة التي يستعمل زيتها في تتويج ملوكهم، جورج بوست: قاموس الكتاب المقدس، (د.ط)، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1894، ج1، ص523.

4–يوشع براون: الاستيطان الصليبي في فلسطين – مملكة بيت المقدس–، ترجمة عبد الحافظ النيا، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001، ص 252.

5– سفر المزمير، 3/48، ص1111.

6– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص151.

والثغور الجليلة ومهاجر إبراهيم ومشاهد[1] الأنبياء وفضائل لا تحصى...". ، وقال فيها ابن رجب الحنبلي:[2] "أعلم أن البركة في الشام تشمل البركة في أمور الدين والدنيا ولهذا سميت الأرض المقدسة"، ثم مدحها في موضع آخر بقوله: " أن نور النبي (ص) عند ولادته سطح إليها فأشرقت قصورها منه فكان ذلك أول مبدأ دخول نوره (ص) الشام، ثم دخلها نور دينه وكتابه".[3]

والله في كتابه أقسم بمواضع شريفة منها دلالة على عظمتها فإنه سبحانه وتعالى لا يقسم إلا بعظيم فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾[4]، وقال الحافظ ابن كثير مفسرا هذه الآية: هذه محال ثلاثة بعث الله كل واحد منها نبيا مرسلا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار: فالأول: محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم، والثاني: طور السنين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران، والثالث: مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان أمنا وهو الذي أرسل فيه محمد (ص).[5]

وقال ابن رجب:[6] " لا ريب أن لفظ القرآن يدل صريحا على التين والزيتون المأكولين ولكنه قد يدل على مكانهما من الأرض، فقال: أن التين: دمشق، والزيتون: بيت المقدس وفلسطين وأنهما قرنا بمكانين شريفين وهما الطور والبلد الأمين، وهذه البقاع هي أشرف بقاع الأرض ومنها ظهرت النبوات العظيمة والشرائع المتبعة، فعامة أنبياء بني إسرائيل كانوا من الشام وهي أرض التين والزيتون". وكذلك هي أرض المحشر: "يحشر

1- المشاهد: هي مراقد العظماء من الصحابة والتابعين والعلماء والزهاد، وهي أشبه بالزوايا يقصد الناس أحيانا للتبرك، ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص24، كرد علي: خطط الشام، ج6، ص153.

2- مجموع الرسائل، ج3، ص 224.

3- المصدر نفسه، ج3، ص 229.

4- سورة التين، الآية 1- 3.

5- تفسير ابن كثير: تحقيق سامي بن محمد السلامة، ط1، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1997، ج8، ص 334.

6- مجموع الرسائل، ج3، ص 253.

الناس إليها قبل القيامة من أقطار الأرض، فيهاجر إليها خيار أهل الأرض طوعا ويجتمعون فيها، وأما شرار الناس فيحشرون كرها".[1]

وهي أيضا أرض المنشر، فمنها يجمع الناس إلى الحساب فينشرون من قبورهم ثم يساقون إليها وخصت بذلك لأنها الأرض التي قال الله فيها: ﴿بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، وأكثر الأنبياء بعثوا منها فانتشرت في العالمين شرائعهم فناسب كونها أرض المحشر والمنشر[3]، ومن فضائلها أيضا ما أفاده ابن عساكر:[4] دخلها النبي (ص) قبل النبوة وبعدها في غزوة تبوك وفي ليلة الإسراء. ففي الشام المسجد الأقصى مهد الأنبياء من لدن إبراهيم –عليه السلام– إلى عهد النبي الخاتم محمد (ص) ولهذا جمعوا له هناك فأمهم في محلتهم، وإن كانت مكة هي مبعث الدين فإن تمام ظهوره على يد المهدي يكون بأرض الشام.[5]

كما ارتبط المسيحيون بأرض الشام ولاسيما بيت المقدس، فحينما تذكر المسيحية يذكر المسيح وحينما يذكر المسيح تذكر الأراضي المقدسة، فالأرض المقدسة هي موضع الأحداث لميلاد وحياة وآلام وقيامة السيد المسيح، وازداد مسيحيو الغرب ارتباطا بالأرض المقدسة بعد زيارة القديسة هيلانة – أم قسطنطين[6] عام 326م لتقفي آثار المسيح –عليه

1– مجموع الرسائل، ج3، ص 238.

2– سورة الأنبياء، الآية 71.

3– المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط2، دار المعارف، بيروت، 1972، ج4، ص 171.

4– ابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروى، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، 1995، ج1، ص 272.

5– ابن تيمية: مناقب الشام وأهله، ط1، المكتب الإسلامي، دمشق، 1960، ص73.

6– قسطنطين الأول: (312 م– 337م) امبراطور روماني يعتبر من أعظم أباطرة الرومان المتأخرين، تنصر عام 313م، فكان أول امبراطور روماني يدين بالمسيحية، ومن أعماله بناء القسطنطنسة، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص348.

السلام–، وقد وصف المقريزي الرحلة قائلا:[1] "في السنة الثانية والعشرين من ملك قسطنطين سارت أمه هيلانة إلى القدس فدلها مقاريوس– أسقف بيت المقدس – وعرفها على ما عملته اليهود، فعاقبت اليهود حتى دلوها على الموضع فحفرته، فستخرجت ثلاث خشبات، خشبة المسيح والخشبتين اللتين صلب عليهما اللصان، وسألت أيتها خشبة المسيح، فقال الأسقف: أن الميت يحيا بمسيسها فقد وضعت كل واحدة منها على ميت فقام حيا، فعملوا لذلك عيدا مدته ثلاثة أيام عرف عندهم بعيد الصليب، وعملت له غلافا من ذهب وبنيت على الموضع كنيسة القيامة". والحقيقة أن مسيحو الشرق والغرب لم يتركوا حادثة وردت في الأناجيل المقدسة وكل منطقة وطأتها قدم المسيح إلا وشيدوا فوقها مزارا مسحيا مقدسا. فقد كانت القديسة هيلانة أول من أمر بتشييد كنيسة القيامة والتي دشنها البابا الاسكندري أثناسيوس الرسولي[2] عام 335م، ثم شيد بالقرب من القبر المقدس كنيسة موازية لها خمسة أروقة فسيحه سميت بكنيسة المرتيريون – أي الآلام–.[3]

وتعد كنيسة القيامة من أهم المعالم الدينية المسيحية عند جميع الطوائف المسيحية حيث يزعمون أن السيد المسيح صلب ودفن في هذا الموضع وكان ذلك يوم الجمعة ثم قام من قبره يوم الأحد.[4] وقد وصف الرحالة ناصر خسرو[5] في رحلته المسماة سفرنامة

1– القول الابريزي، تحقيق عبد المجيد دياب، (د.ط)، دار النهضة، القاهرة، (د.ت)، ص59، ابن خلدون: كتاب العبر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ج1، ص378.

2– أثناسيوس: القديس (293م – 373م) بطريرك الاسكندرية (328 م– 373م)، حمل لواء المعارضة لمذهب أريوس Arius الذي قال: أن المسيح مخلوف وليس إله – طبيعة ناسوتية–، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص7.

3– ميخائيل مكسى إسكندر: القدس عبر التاريخ، مراجعة وتقديم الأبنا غريفوريوس، (د.ط)، مطبعة رمسيس، الجيزة، 1972، ص 154، Gabalde, Bernard : op, cit p44.

4– الكتاب المقدس: إنجيل متّى، الإصحاح 28: 1–5، ص 118.

5– ناصر خسرو: أبو معين ناصر خسرو القياديانى، فارسي الأصل والنشأة والثقافة، ولد في مرو سنة 394هـ/1003م زار الشام والأماكن المقدسة سنة 438هـ/1047م وقضى فيها أربعة أشهر، ويمثل وصفه لبيت المقدس قسما من أهم أقسام كتابه سفرنامة، من القدس سار نحو مكة للحج ثم منها نحو مصر توفي عام 453هـ/1061م، عبد الرحمان حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص331، 333.

كنيسة القيامة عندما دخل القدس عام 438هـ/1047م فقال:[1] "هذه الكنيسة فسيحة تسع ثمانية ألاف رجل وهي عظيمة الزخرفة من الرخام الملون والنقوش والصور وهي مزدانة من الداخل بالديباج الرومي، والصور زينت بطلاء من الذهب منها صور عيسى –عليه السلام– راكبا حمارا وصور الأنبياء الآخرين، وفي الكنيسة لوحة مقسمة إلى قسمين: فنصف يصف الجنة وأهلها ونصف يصف النار وأهلها وليس لهذه الكنيسة نظير في أي جهة في العالم". كما ذكر الإدريسي الرحالة (ت 560هـ/1165م) الكنيسة فقال:[2] "وهي الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغاربها... وفي شرقي هذه الكنيسة الحبس الذي حبس فيه السيد المسيح ومكان الصلوبية، وأما القبة الكبيرة فهي قوراة مفتوحة للسماء وبها دار بها الأنبياء مصورون والسيد المسيح والسيدة مريم والدته ويوحنا المعمدان، وعلى المقبرة المقدسة من القناديل المعلقة، وإذا خرجت من هذه الكنيسة العظمى وقصدت شرقا ألفيت البيت المقدس الذي بناه سليمان بن داود".

كما يحرص المسيحيون على زيارة بيت لحم جنوبي بيت المقدس باعتبارها مسقط رأس المسيح – عليه السلام –، أين بنى قسطنطين (312م– 337م) في مغارة الميلاد عام 330م كنيسة تعرف بكنيسة المهد[3][4]، ويزعم المسيحيون أيضا أنهم عثروا على غرفة العشاء الأخير الذي تناوله السيد المسيح – عليه السلام – مع تلاميذه فوق جبل صهيون،

1– سفرنامة، ترجمة يحي الخشاب، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة، لقاهرة، 1993، ص88.

2– نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ص 358.

3– كنيسة المهد: شيدت من قبل الإمبراطور قسطنطين بعد ثلاثة قرون من مولد المسيح – عليه السلام – ذكرا لهذا المولد، وأقيمت على أنقاض معبد أدونيس الذي أقيم في عهد الإمبراطور هادريان (117م – 138م) فأمر قسطنطين بهدم المعبد وبناء الكنيسة، محمد حسنين هيكل: الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة (د.ط)، دار الهلال، القاهرة، (د.ق)، ص150.

4– سفينسيسكايا: المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية، خفايا القرون، ترجمة حسان مخائيل إسحق، ط1، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 2007، ص336.

وتخليدا لذكرى هذه المعجزة شيدوا كنيسة تعرف بكنيسة جبل صهيون[1]، كما يقدسون موضع من مياه نهر الأردن اعتقادا منهم أن السيد المسيح – عليه السلام–، حين بلغ التاسعة والعشرين وثلاثة عشر يوما من عمره أي عندما دخل سن الثلاثين جاء إلى يوحنا المعمداني الذي بشر به في البرية، وفي ذلك يقول متّى:[2] "وفي ذلك الوقت ظهر يسوع وقد أتى من الجليل إلى الأردن قاصدا يوحنا ليعتمد على يده".[3] فضلا عن كنيسة الجشيمانية[4] التي شيدتها القديسة هيلانة، وهو المكان الذي يعتقد فيه أن السيد المسيح – عليه السلام – قد قضى أخر أيامه متعبدا فيه قبل إلقاء القبض عليه.[5]

وعليه فقد صارت هذه الأماكن المقدسة مصدر جذب والتجاء روحي للمسيحيين، باقتفاء أثار خطوات المسيح – عليه السلام– وحوارييه، كما تطلع الكثير منهم إلى الخلاص والذي لا يتم حسب عقيدتهم إلا بزيارة الأماكن المقدسة، ولذلك نمت شعيرة الحج وتطورت أكثر إثر اعتراف الإمبراطور قسطنطين بها، واعتناقه إياها، فيما بعد[6]. فعلى الرغم من أن الحج ليس فريضة دينية في المسيحية مثلما هو عليه في الإسلام إلا أن الجذب العاطفي نحو الأرض المقدسة أخذ يزداد وينمو بحيث لم يستهل القرن الخامس

1– يوحنا قورزيورغ: وصف الأراضي المقدسة، ترجمة سعيد عبد الله البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن، 1997، ص56.

2– الكتاب المقدس: الإصحاح 3: 19–20، ص 118.

3– يوحنا قورزيورغ: المرجع نفسه، ص93– 94.

4– الجشيمانية: اشتقت من الكلمة العبرانية "جات شيمين" ومعناها بستان معصرة الزيتون، وهو مكان منفرد في سفح جبل الزيتون خارج أسوار القدس، وفي هذا المكان صلى يسوع ليلا قبيل إلقاء القبض عليه، وبنى هنا في القرن الرابع الميلادي معبد، جورج يوست: قاموس الكتاب المقدس، ج1، ص 215– 216.

5– ميخائيل مكسي إسكندر: المرجع السابق، ص154.

6 – Michaud, J, F : Histoire des croisads, imprimerie nationale, paris, 1877, p15.

الهجري- الحادي عشر الميلادي – حتى صارت بيت المقدس وما جاورها تحوى ما يناهز مائتي دير ونزل ضيافة لاستقبال الحجاج.[1]

1- محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين 6هـ- 7هـ /12م – 13م، ط1، عين للدراسات، القاهرة، 2000، ص25.

المبحث الثاني

أوضاع بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي

المطلب الأول: الأوضاع السياسية

المطلب الثاني: الأوضاع الدينية

المطلب الثالث: الأوضاع الاجتماعية

كان لابد لنا أن نحيط بأحوال الشام قبيل الغزو الصليبي حتى يتسنى لنا فهم الظروف والأوضاع التي جعلت الصليبين ينتصرون في بداية هذه المعارك ويحتلون بيت المقدس دون مقاومة وذلك بالوقوف على الأوضاع التالية:

المطلب الأول: الأوضاع السياسية:

عشية الغزو الصليبي لبلاد الشام، كان التمزق السياسي والتناحر العسكري مخيما على المشرق الإسلامي، ففي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي– كان المسلمون في المنطقة العربية موزعين في ولائهم السياسي بين الخلافة العباسية السنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة، وشكلت بلاد الشام المترع والمجال الحيوي الذي تنازعت فيه الخلافتين.[1]

فقد استطاع الفاطميون بين سنتي (430هـ–450هـ/1038م–1058م) أن يوطدوا نفوذهم في بلاد الشام وبسط سلطانهم على جميع أنحائها ما عدا أنطاكية التي بقيت في حوزة البيزنطيين[2]، لكن السلاجقة[3] حماة الخلافة العباسية لم يسلموا بهذا الواقع الجديد فعملوا على استرداد المناطق التي سيطر عليها الفاطميون في بلاد الشام وخاضوا بذلك عدة معارك.

1– الحريري: الإعلام والتبين، ص29.

2– المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطمين الخلفاء، تحقيق جمال الدين شبال، ط2، مطابع الأهرم التجارية، القاهرة، 1996، ج1، ص 187.

3– السلاجقة: ينسب السلاجقة إلى زعيمهم الأول سجوق بن دقاق وهم إحدى القبائل التركية التي اعتنقت الإسلام وكان موطنهم الأصلي تركستان، وأطلق عليهم ألقاب أخرى مثل الأتراك ولغز، والتركمان، نزحوا إلى ما وراء النهر في أواخر القرن الرابع الهجري، الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، قدم له يحي مراد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص 4 – 5.

ففي سنة 462هـ/1069م أرسل السلطان ألب أرسلان[1] ابنه ملكشاه[2] على رأس جيش إلى حلب وكان محمود بن نصر بن صالح بن مرداس[3] واليا عليها من قبل الفاطميين والذي لم يستطع الصمود وأعلن انضمامه للسلاجقة وحذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة وأحل محله اسم الخليفة العباسي القائم بأمر الله.[4][5]

غير أن محمود بن نصر أعاد مرة أخرى الخطبة للفاطميين في العام التالي 463هـ/1070م، مما دفع بالسلطان ألب أرسلان إلى الزحف بنفسه إلى حلب وفرض عليها الحصار مدة حتى استسلم محمود فأعاده ألب أرسلان إلى حكمها ومنذ ذلك الحين صارت حلب والمدن الشمالية تحت الحكم السلجوقي[6]، كما قام الأمير أتسز بن أوق[7]

1- ألب أرسلان: محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق -أبي شجاع- توفي أبوه سنة 450هـ/1058م وقام مقامه وتسلم مقاليد السلطنة بعد وفاة عمه طغرلبك سنة 455هـ/1063م، ولقب ألب تعني: البطل قلب الأسد بالتركية توفي عام 465هـ/1072م، الذهبي: العبر في أخبار من غير، ج2، ص 317، الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط تركي مصطفى، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000، ج2، ص 308.

2- ملكشاه: أبو الفتح عضد الدولة محمد ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، يعرف بملكشاه الأول وهو ثالث سلاطين السلاجقة ولد سنة 447هـ/1055م، وتوفي عام 486هـ/1093م، وبن حلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص 283، ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطاء مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج16، ص145- 146.

3- محمود بن نصر بن صالح: بن مرداس الكلي عز الدولة ابن شيل الدولة أحد الأمراء المرداسين أصحاب حلب تولي إمارة حلب عام 452هـ/1060م، توفي عام 469هـ/1076م، ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص 65، الصفدي، المصدر السابق ج7، ص330.

4- الخليفة العباسي: هو عبد الله بن أحمد القادر بالله ابن إسحاق بن المقتدر، أبو جعفر القائم بالله ولد سنة 391هـ/1000م ولي الخلافة سنة 422هـ/1030م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج11، ص 568، 570.

5- ابن الأثير: الكامل، ج8، ص 98، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج4، ص 196.

6- علي كرد: خطط الشام، ج1، ص262، الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص 36- 37.

7- أتسز: ابن أوق الخوازمي كان مقدم الأتراك في الشام، صاحب دمشق من أمراء السلطان ملكشاه وهو أول من ملك دمشق من الأتراك وكانت ولايته ثلاث سنوات وستة أشهر، وكان يلقب بالمعظم توفي عام 471هـ/1078م، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (د.ط)، مطبعة الأباء اليسوعين، بيروت، 1908م، ص17 - 18، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص 276.

عام 463هـ/1070م بحملة عسكرية تمكن من خلالها من فتح الرملة[1] وبيت المقدس وغيرهما من مدن فلسطين ما عدا عسقلان[2]، وأتخذ أتسز مدينة القدس مركزا لحكمه وأبطل الدعوة للفاطميين وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ملكشاه، ودعا علماء السنة من الشرق والغرب للقدوم لفلسطين فعادت بهم مراكز الحديث للإنعاش[3] ثم وجه أنظاره إلى دمشق وتمكن من السيطرة عليها عام 468هـ/1075م[4]، ولم يكتف أتسز بإنهاء النفوذ الفاطمي في فلسطين ودمشق بل تطلع لغزو مصر الفاطمية وإخضاعها للدولة السلجوقية وذلك عام 469هـ/1076م، لكن حملته منيت بالفشل بعد أن أنزل به الوزير بدر الجمالي[5] هزيمة ساحقة وعاد إلى دمشق مهزوما.[6]

أدت الهزيمة التي لحقت بأتسز إلى ثورة وعصيان أهل الشام ولاسيما أهل بيت المقدس بإعادتهم الخطبة للفاطميين[7]، فما كان على هذا الأخير إلا استعادة بيت المقدس بعد عصيانها فأقتحمها سنة 469هـ/1076م وارتكب فيها مجزرة رهيبة كان ضحيتها ثلاثة آلاف شخص من أهلها[8]، ولم يسكت الفاطميون عن هذه المجزرة، ففي سنة

1- الرملة مدينة عظيمة بفلسطين تقع إلى الشمال من القدس كانت رباطا للمسلمين، شيدها سليمان بن عبد الملك وسميت كذلك لغلبة الرمل عليها، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج3، ص 69- 70. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص151.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص 242، ابن شداد: الاعلاق، ج2، ق2، ص 199.

3- العلمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج1، ص444.

4- ابن القلانسي: المصدر السابق، ص98- 99.

5- بدر الجمالي: بدر بن عبد الله الأمير الوزير الأرمني الجمالي، اشتراه جمال الدين الملك بن عمار الطرابلسي تولي إمارة دمشق عام 455هـ/1063م، ثم صار إلى الديار المصرية والمستنصر بالله في غاية الضعف فشد دولته وتصرف في المماليك وولي وزارة السيف والقلم توفي عام 488هـ/1095م، ثم تولي ابنه الأفضل من بعده، الذهبي: العبر، ج2، ص 357، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص 82، 83.

6- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 329، 331، ابن القلانسي: المصدر السابق، ص109.

7- سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، (د.ط)، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1987، ص 184، 158، ابن الأثير: الكامل، ج8، ص 269.

8- ابن شداد: الاعلاق، ج2، ق2، ص 200.

471هـ/1078م قاموا بمحاصرة دمشق ومهاجمتها[1] فأضطر الأمير أتسز الاستنجاد بتاج الدولة تتش[2] أمير حلب وتمكن هذا الأخير من فك الحصار على دمشق ودخلها عام عام 471هـ/1078م، ثم قام بالتخلص من أتسز وأتخذ دمشق مقر دولته الجديدة[3]، وما إن تم له ذلك حتى أقطع بيت المقدس لأحد قادته وهو أرتق بن أكسب[4] الذي جعله نائبا عنه في المدينة.[5]

وبدخول الأمير تتش دمشق وتأسيسه دولة سلاجقة الشام عام 471هـ/1078م والتي حظيت بمبايعة وتأييد أخيه ملكشاه[6] توسع الصراع العسكري في الشام إذ لم يبق مقتصرا على السلاجقة والفاطميين، بل دخلت قوى أخرى في هذا الصراع على غرار المرداسيون[7] والعقيليون[8] من بعدهم في حلب، فبعد أن تمكن العقيليون من بسط نفوذهم

1- ابن القلانسي: المصدر السابق، ص112.

2- هو أبو سعيد بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي، ولد سنة 458هـ/1065م ويلقب إلى جانب تاج الدولة بتاج الملوك والملك المظفر، توفي عام 488هـ/1094م، ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص 295، ابن الجوري: المنتظم، ج17، ص 19.

3- ابن القلانسي: المصدر السابق، ص112، الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص148.

4- هو أحد أمراء التركمان وجد الملوك الأرتقية وكان رجلا شهما وذا عزيمة واجتهاد، ابن خلكان: المصدر السابق، ج1، ص 191.

5- أبو الفدا: المصدر السابق، ج2، ص27.

6- الأصفهاني: تاريخ آل سلجوق، ص65- 66.

7- المرداسيون: أمراء حلب (415هـ- 473هـ/1020م- 1080م)، وهم بنو مرداس بن ادريس الكلالي رهط الأمير الأمير صالح بن مرداس صاحب حلب أول ملوك بني مرداس، وسابق بن محمود المرادسي أخرهم (469هـ- 472هـ/1069م- 1076م)، وسقطت إمارة بنو مرداس على يد أمير الموصل مسلم بن قريش العقيلي عام 473هـ/1080م، ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص 129، 142، 203.

8- العقيليون: أمراء الموصل (386ه- 489هـ/996م- 1095م) من قبيلة كبيرة تنسب إلى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ويعد حسام الدولة المقلد بن المسيب مؤسس الدولة، في حين مثل مسلم بن قريش أهم شخصيات الأسرة وفي عهده امتد سلطان الإمارة من بغداد إلى شمالي سورية وحلب، سقطت الإمارة على يد السلاجقة عام 489هـ/1095م، سبط ابن الجوري: المصدر السابق، ص70، ابن العديم: زبدة الحلب، ص203.

نفوذهم على حلب تطلع أميرهم شرف الدولة العقيلي[1] إلى دمشق عام 475هـ/1082م، بعد تحالفه مع الفاطميين ضد تتش السلجوقي إلا أن الملك سليمان بن قتلمش[2] صاحب أنطاكية استطاع النيل منه وقتله عام 478هـ/1085م واسترداد مدينة حلب من العقيلين[3]، كما أدى التنافس على حلب إلى تطور الصراع بين أمراء السلاجقة أنفسهم على غرار الصراع الذي نشب بين تتش صاحب دمشق والملك سليمان بن قتلمش في حلب والذي انتهى بمقتل هذا الأخير عام 479هـ/1086م[4]، الأمر الذي عجل بقدوم السلطان السلجوقي ملكشاه لحل النزاع بين أفراد البيت السلجوقي وتعيين قسيم الدولة[5] عام 480هـ/1087م أمير عليها.[6]

ودخل تتش أيضا في صراع مع بني عمار[7] في طرابلس عام 484هـ/1091م محاولا السيطرة عليها فحاصرها بمساعدة قسيم الدولة أق سنقر صاحب حلب وبوزان

1- شرف الدولة: (453هـ- 478هـ/1061م- 1085م) هو مسلم بن قريش أبي المعالي قريش بن بدران بن مقلد العقيلي، صاحب الجزيرة وحلب، طمع في الاستيلاء على بغداد بعد وفاة طغرليك، توفي عام 478هـ/1085م بعد صراع مع الملك سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب سلاجقة الروم، ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، (د.ت)، ص7، ابن العماد: شذرات الذهب، ج5، ص 343.

2- سليمان بن قتلمش: بن إسرائيل بن سلجوق، صاحب مدينة أنطاكية قتل عام 479هـ/1086م، تملك بعده ابنه قلج أرسلان، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص 449.

3- ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص209

4- المصدر نفسه، ص 218.

5- قسيم الدولة: أق سنقر من أصحاب السلطان ملكشاه ولي إمارة حلب عام 480هـ/1087م، وقتل عام 487هـ/1094م على يد تتش قرب حلب وكان له من الأولاد عماد الدين زنكي، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص4-5.

6- ابن العديم: المصدر السابق، ص 221.

7- بنو عمار: حكموا طرابلس لمدة أربعين سنة (462هـ- 502هـ/1070م- 1109م) وامتد نفوذهم من بيروت إلى أنطاكية، ويعد أمين الدولة أبو طالب الحسن بن عمار من علماء الشيعة أول من تولى حكمها، وأخرهم الملك عمار بن محمد بن عمار المعروف بفخر الملك، سقطت في أيدي الصليبين عام 502هـ/1109م، ابن الأثير: الكامل، ج8، ص 245، سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ص73.

صاحب الرها ولكنه تراجع عنها لخلاف بينه وبين أق سنقر[1]، ونتيجة هذا الخلاف عاد الفاطميون مرة أخرى إلى بلاد الشام وبسطوا نفوذهم على صور عام 486هـ/1093م[2] وازداد الوضع السياسي في الشام والجزيرة –العراق– تدهور بعد وفاة السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك[3] عام 486هـ/1093م بتفكك وحدة السلاجقة، حيث أضحوا ثلاثة قوى تتصارع فيما بينها قوة بزعامة قلج أرسلان[4] في أسيا الصغرى، وقوة الشام بزعامة بزعامة تاج الدولة تتش وقوة سلاجقة فارس والعراق بزعامة السلطان بركيا روق[5] من ينازعه من إخوانه[6]، واستمرت علاقات الشك والريبة والطمع تحكم هذه القوى السياسية فدخلت في صراع وحروب تكاد لم تخل منها سنة واحدة الأمر الذي أضعف جبهة الشام المستهدفة عسكريا وسياسيا.[7]

على غرار الملك تتش الذي ما أن علم بوفاة أخيه ملكشاه والنزاع الذي نشب بين بركيا روق ومحمود حتى اتصل بكبار السلاجقة وحثهم على الدخول في طاعته أمثال أق سنقر في حلب وبوزان في الرها وعزم السير إلى بلاد أخيه ملكشاه ليفتحها، غير أن ملك حلب أق سنقر خالفه وخرج عن طوعه ورفض الوقوف بجانبه فتعقبه الملك تتش وتمكن

1- ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص 130.

2- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 124، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص20.

3- نظام الملك: الوزير الكبير قوام الدين أبو علي الحسن بن علي ابن إسحاق الطوسي، عاقل سائس وخبير أنشأ المدرسة النظامية الكبرى في بغداد وأخرى بنيسابور وأخرى في طوس ورغب في العلم، وزر للسلطان ألب أرسلان ثم ابنه ملكشاه فدبر ممالكه قتل عام 486هـ/1093م على يد باطني في هيئة صوفي الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص 94- 95.

4- قلج أرسلان: هو ابن سليمان بن قتلمش مؤسس سلطنة سلاجقة الروم الإسلامية، وهو صاحب قونية، عثر عليه غريق منتفخ عام 500هـ/1106م ابن العماد: شذرات الذهب، ج5، ص 424، ابن الأثير: الكامل، ج9، ص 104.

5- بركيا روق: الملقب بركن الدولة بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بني ميكائيل بن سلجوق، ولي المملكة المملكة بعد أبيه كان عالي الهمة لم يكن فيه عيب سوى ملازمته للشرب الخمر، توفي عام 498هـ/1104م، ابن العماد: المصدر السابق، ج5، ص 419.

6- سبط ابن الحوزي: مرآة الزمان، ص 63.

7- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ط6، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1994، ج1، ص110.

من قتله عام 487هـ/1094م قرب حلب[1]، وهكذا تم لتتش القضاء على أكبر المناوئين له في بلاد الشام واستولى على حلب وحران والرها، فتم له بذلك إحكام السيطرة على شمال الشام وبعض أجزائه من منطقة الجزيرة[2]، وفي سنة 487هـ/1094م سار نحو خراسان قاصدا الري وفي طريقه انظم إليه خلق كثير من التركمان وعساكر ابن أخيه بركيا روق[3]، وأمام هذه الانتصارات التي حققها على خصومه جعله يطلب الخلافة، فأرسل رسالة إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله يطلب منه إعلان الدعوة في الخطبة له في بغداد فأجيب على ذلك ودعي له من منابر بغداد[4]، وفي عام 488هـ/1095م وصل الملك تتش إلى الرى وفيها وقعت مواجهة بينه وبين ابن أخيه قتل فيها تاج الدولة تتش وتفرق أصحابه وحمل رأسه إلى بغداد.[5]

وعليه يمكن القول أن الانتصارات السريعة والخاطفة التي حققها تتش ما بين سنتي 486هـ- 487هـ/1093م- 1094م لم تكن قائمة على قاعدة صلبة من ولاء الرعية والقادة، حيث انهزم بعد أن غدر به بعض أصحابه الذين اصطنعهم لنفسه، وقد خلف مقتل تاج الدولة تتش أثار بالغة الخطورة على بلاد الشام والجزيرة –العراق- فالقوة البشرية والمادية التي كان تتش قد عبأها عقب وفاة أخيه ملكشاه سنة 486هـ/1093م ذهبت أدراج الرياح[6] ولو قدر للصليبيين في حملتهم الأولى أن يواجهوا كل ما أعده تاج الدولة تتش من إمكانات وطاقات بشرية لأمكن القضاء على الحملة الصليبية قبل أن تتمكن من الاستيلاء على معظم مدن الشام في فترة قصيرة.

1- ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، ط1، دار الفكر، بيروت، 1988، ج3، ص 269، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص126.

2- ابن العمري: مسالك الأبصار، ج6، ص 113، ابن العديم: زبدة الحلب، ص118.

3- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص127.

4- ابن الجوزي: المنتظم، ج9، ص 84- 85. ابن القلانسي: المصدر السابق، ص 127.

5- ابن فضل العمري: مسالك الأبصار، ج16، ص 11، الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص83.

6- سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ص67.

بالإضافة إلى الصراع الذي نشب بين ولديه رضوان[1] في حلب ودقاق[2] في دمشق، حيث بدأ كل واحد منهما بمناوشة الآخر محاولا السيطرة على ممتلكات أخيه، ففي سنة 488هـ/1095م تقدم رضوان نحو دمشق وقام بمحاصرتها لكنه انسحب دون تمكنه منها[3]، كما وجد الفاطميون في هذا الصراع متنفسا لهم في استعادة مكانتهم ونفوذهم في بلاد الشام، ولاسيما بعد أن قام رضوان بمراسلة الخليفة الفاطمي المستعلي بالله عام 490هـ/1096م لإقامة الخطبة له بالشام طمعا في مساعدته لأخذ دمشق من أخيه دقاق إلا أنه عاد وقطعها بعد أن خطب له أربع جمع.[4]

ويتحصل لنا مما سبق بأن النزاع الذي نشب بين رضوان ودقاق قد ترتب عليه ضعف الجبهة الإسلامية وأدى إلى عدم استقرار الأمور في بلاد الشام، وأتاح لكثير من الأمراء المحليين بالشام والجزيرة لأن يستقل كل واحد منهم بما تحت يده والعمل على توسيع نفوذه على حساب الآخرين فبرزت وحدات سياسية عرفت باسم الأتابكيات[5] كأتابكية دمشق والموصل وحلب وطرابلس...، وبعض هذه الأتابكيات صغيرة جدا لا تتعدى أسوار مدينة أو قلعة واحدة.[6]

واستمر الصراع السلجوقي السلجوقي من جهة والسلجوقي الفاطمي من جهة أخرى قبيل وصول الصليبيين ليجعل من الشام مرتعا خصبا للفرقة والانقسام بل الاستقواء

1- هو رضوان بن تتش بن ألب أرسلان الملقب بفخر الدولة أمير حلب، كان يميل إلى الباطنية ويستعين بهم توفي عام 507هـ/1113م، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج18، ص 130.

2- هو دقاق بن تتش بن ألب أرسلان المعروف بشمس الملوك، أمير دمشق، توفي عام 497هـ/1103م، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج4، ص 21.

3- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 130، 138.

4- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص19، ابن العديم، زبدة حلب، ص232.

5- الأتابكة: هي جمع كلمة أتابك التركية المؤلفة من مقطعين: أتا بمعنى: أب، وبك بمعنى: السيد الذي يربي أولاد الملوك، ثم أصبح لقبا تشريفيا لكبار القادة على غرار قائد الجيوش ونائب السلطنة، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين الفورية والصلاحية، علق عليه إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ج1، ص23.

6- عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 110.

بالصليبيين والتحالف معهم ضد بعضهم البعض وفي ذلك يذكر ابن الأثير: [1] أن الأفضل بن بدر الجمالي[2] أرسل سفارة إلى الصليبيين أثناء محاصرتهم أنطاكية وقد عرض عليهم التحالف ضد السلاجقة واقتسام ممتلكاتهم بالشام على أن يكون القسم الجنوبي للفاطميين، حيث تخوف الفاطميون من قوة السلاجقة ومحاولتهم المتكررة للسيطرة على مصر جعلهم يستنجدون بالصليبيين لكي يكونوا حاجزا بينهم وبين السلاجقة، كما لم يعمل رضوان ودقاق على التحالف مع بعضهم البعض ومع القوى الإسلامية للوقوف في وجه الصليبيين، بل سعى كل منهما إلى تحقيق أطماعه وتوسيع نفوذه وممتلكاته على حساب القوى الإسلامية الأخرى، فمثلا نجد دقاق في سنة 493هـ/1099م قد توجه إلى ديار بكر بقصد توطيد نفوذه بها، في القوت كان فيه أخوه رضوان محاصرا من قبل الصليبيين.[3]

ولم يكن نجاح الصليبيين في بداية الأمر إلا بسبب تفكك المسلمين وحالة الفوضى التي كانت سائدة آنذاك في بلاد الشام والجزيرة – العراق–، والباحث في تاريخ الحركة الصليبية يتبين له في غير عسر أن ما أصابه الصليبيون من نجاح حربي كان سبب انقسام الجبهة الداخلية وضعفها، يذكر أحد مؤرخي الغرب: "أن القوات الصليبية كانت ضعيفة من الناحية العسكرية كما كان ينقصها النظام وحسن الإعداد والترتيب والإلمام الكافي بالفنون الحربية وهي كانت تتكون من جيوش إقطاعية متفرقة لا تجمع بينهم قيادة موحدة يدين لها الجميع بالولاء، ومع ذلك فقد أحرزت انتصارات كثيرة على قوات كانت تفوقها أعدادا وتنظيما، وأن الحقيقة التي تكمن وراء تلك الانتصارات فهي أعمق من ذلك بكثير

1– الكامل في التاريخ، ج11، ص186.

2– هو الأفضل بن بدر الجمالي شاهنشاه أبو القاسم بن أمير الجيوش بدر الجمالي صاحب الديار المصرية ، ولى بعد أبيه وكاننت ولايته 28 سنة وهو مدير الدولة الفاطمية ولد بعكا سنة 450هـ/1065م، وتوفي عام 515هـ/1121م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج14، ص227.

3– ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص137.

فهي ترجع إلى انقسام العرب والسلاجقة على أنفسهم وقتذاك"[1]، ولما كان هذا هو حال العالم الإسلامي في المشرق يعاني الفساد والضعف والتفكك، استطاع الصليبيون الإطاحة بملك سلاجقة آسيا الصغرى واستولوا على عاصمتهم نيقية[2] التي كانت بيد قلج أرسلان عام 490هـ/1097م[3]، ثم انحدروا إلى مدن بلاد الشام واستولوا عليها الواحدة تلو الأخرى.

المطلب الثاني: الأوضاع الدينية

لم يقتصر الوضع في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي على التشرذم والتمزق السياسي فقط بل زاده الصراع المذهبي والطائفي حدة وانحطاطا، فقد اقتسمت فرق سنية وشيعة باطنية[4] ونصرانية أرض الشام وجعلت منها مسرحا للفتن والثورات، ومن بين الفرق الباطنية التي ابتليت بها أرض الشام طائفة النصيرية[5] والتي استوطنت شمال من

1 – Charel Oman : The Art of war in the Middle Ages, published Green Books, London, 1994, p 233.

2– نيقية: مدينة من أعمال القسطنطينية تتميز بموقع رائع حيث تشرف عليها الجبال التي تحيط بها من شتى النواحي ولها عشرة حصون وتتميز بأبراجها شاهقة الارتفاع، وتبعد عن البحر ثمانية أميال، ابن حرداذية: المسالك والممالك، تعليق محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيرت، لبنان، 1998، ص200، وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة حسن جيشي، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991، ج1، ص200.

3– قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص81.

4– الباطنية: لقب ينطوي تحته طوائف عديدة تلتقى جميعها في تأويل النصوص الظاهرة واثبات معان باطنة لها، وتلجأ إلى الرموز والإشارات في تفسير النصوص الدينية وإخراجها من معانها الظاهرة مستهدفين بذلك هدم الدين وإبطال شعائره وأحكامه، وللتنزيل عندهم معان ظاهرة يعرفها الناس وأخرى باطنة يعرفها الإمام وبذلك سموا بالباطنية، الغزالي: فضائح الباطنية، تحقيق وتقديم عبد الرحمان بدوي، (د. ط)، دار الكتب الثقافية، الكويت، (د.ت)، ص 116، 117، الشهر ستاني: الملل والنحل، ج1، ص 201.

5– النصيرية: هي إحدى الحركات الباطنية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، وهي تنسب إلى محمد بن نصر النميري البصري وهو فارسي الأصل (ت 220 هـ/873م، كان من أصحاب الحسن العسكري الإمام الحادي عشر للشيعة الإمامية، قام بإباحة المحارم وتحليل نكاح الرجال بعضهم بعضا ويزعم أن ذلك من التواضع، النوبختي: فرق الشيعة، تعليق محمد السيد محمد الصادق بحر العلوم المطبعة الحيدرية، النجف، العراق، 1969، ص 103، الشهر ستاني: المصدر السابق، ج1، ص192.

حماة وحمص وحلب شرقا إلى أنطاكية على حدود بلاد الأناضول شمالا[1] والنزارية الاسماعلية[2] والتي امتدت قلاعها من بانياس في الجنوب حتى جبل السماق وأعزاز في الشمال ودمشق وحمص وحماة في الشرق[3]، أما مناطق نفوذ الدورز[4] فكان أول موطن لهم هو وادي التيم[5] الذي تركزت فيه الدعوة الدرزية ثم أخذت في الانتشار من جنوب لبنان إلى جبل السماق شرق بيروت وجبل الشيخ بحيث كانوا مجتمعين في المناطق الجبلية مفضلين العزلة.[6]

وانتشرت الحركات الباطنية واتسع نطاقها نتيجة للمذهبية والركود اللذين ضربا الفكر الإسلامي السني ومؤسساته، والصراع السياسي الذي كان محتدم بين أمراء الشام، فضلا عن المظالم الاجتماعية والاقتصادية، وقد عملت الفرق الباطنية على إفساد العقيدة

1- الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص42.

2- النزارية: الحشاشون وهم إحدى حركات الباطنية والتي ظهرت في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وتسب إلى نزار بن المستنصر بالله أبو تميم معد الخليفة الفاطمي وبعد وفاة الأخير عام 487هـ/1094م انقسمت الفرقة الاسماعلية إلى النزارية والمستعلية بعد تقاعس شاهنشاه بن بدر الجمالي في أخذ البيعة لنزار، وسموا بالحشاشين لإدمانهم على الحشيش وهو مخدر، المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج3، ص11، ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج5، ص 142.

3- يوسف إبراهيم عيد: أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، ط1، دار المعالي، عمان، الأردن، 1998، ص120.

4- الدروز: طائفة وفرقة اسماعلية باطنية ادعت ألوهيته الحاكم بأمر الله (ت411هـ/1020م) الخليفة الفاطمي، وهم يعتبرون أنفسهم منذ ألف سنة مضت في دور الستر وهم شديدي التكتم في عقائدهم ولا يعبرون عنها إلا بالرمز وتنسب إلى ثلاثة أشخاص هم حمزة بن أحمد الزوزني يعرف باللباد، وحسن بن حيدرة المعروف بالأخرم، ومحمد بن اسماعيل الدرزي، محمد كامل حسين: طائفة الدروز، تاريخها وعقائدها، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، 1962، ص3، مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ط4، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص261.

5- وادي التيم: وهو اسم مأخوذ من تيم اللات وهو اسم لقبيلة عربية كانت في منطقة الفرات، يقع جنوب لبنان، فليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، ط3، دار الثقافة بيروت، ج2، ص 219.

6- مكارم سامي نسيب: أضواء على مسلك التوحيد "الدرزية"، دار صادر، بيروت، 1960، ص142، فليب حتى: المرجع السابق، ج2، ص 219.

الإسلامية وتدمير المؤسسات الحكومية وإثارة الفتن والقلاقل واستعملوا في ذلك وسائل التضليل والخداع.

حيث تذكر المصادر أن شيخ الجبل مقدم الطائفة النزارية – الحشاشون– كان يستعين بالحشيش– المخدر– في التأثير على أتباعه وأنصاره، وأقام لهم أجمل وأكبر حديقة قرب قلعة ألموت تتوافر فيها كل الفواكه الموجودة وشيد أجمل القصور المزينة بالصور الجميلة، وصنع قنوات إحداها تفيض بالنبيذ وأخرى يجري فيها اللبن والثالثة العسل والرابعة الماء، وفي تلك القصور فتيات حسان لهن القدرة على اللحن والرقص وإشاعة البهجة وجعل الشيخ أتباعه يصدقون أن هذه المغريات هي الجنة، وعندما يرغب الشيخ في قتل أو التخلص من شخص يخدر فدائييه بالحشيش ويطلعهم على الحديقة ويخبرهم أن القتل هو الوسيلة الوحيدة لدخولهم الجنة[1].

لن نتبين حجم التحدي الباطني في مجال العقيدة والفكر إلا إذ وقفنا على تعاليمهم التي جعلت لنصوص القرآن ظاهرا وباطنا فقد فسروا قوله تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾[2]، القلائد هم الأئمة المستورون والبيت الحرام هو الخليفة الفاطمي – الحاكم بأمر الله–[3]، كما وضعت الباطنية للعبادات والعقائد الإسلامية قاموسا لغويا يناسب التأويلات التي ابتدعوها ومن ذلك قولهم: الجنابة تعني: إفشاء السر، والغسل: تجديد العهد على من أفشى السر، والنار: الجهل بعلوم الباطنية، والظهور: التبرى من كل مذهب يخالف مذهب إمام الباطنية[4]،

1– الحويري: المرجع السابق، ص33.

2– سورة المائدة: الآية 2.

3– الحاكم بأمر الله: (375 هـ– 411هـ/985م– 1020م)، أبو علي المنصور بن العزيز بالله ابن نزار سادس خلفاء الفاطمين حكم (386هـ– 411هـ/996م– 1020م) وعمره 11 سنة، كان أخر خلفاء الفاطيمن الأقوياء إدعى الألوهية ومعرفة الغيب وأصضهد أهل الذمة وهدم كنائسهم ووضع أجراس في أعناقهم، الذهبي: العبر، ج2، ص219، ابن العماد: شذرات الذهب، ج5، ص 61– 62.

4– الغزالي: فضائح الباطنية، ص55، 59.

والعقيدة الإسماعيلية الباطنية تمنح شخص الإمام الحاكم الريادة العقائدية والسياسية المطلقة وتمنحه مرتبة إلهية[1]، بحيث يعتقد الدروز أن الحاكم هو الصورة الإنسانية للإله وتتوجه له بالعبادة والطاعة فيما يعرف عندهم –بميثاق ولي الزمان– الذي يؤخذ عن كل من يدخل دياناتهم بأن يصرح ويقول: "توكلت على مولانا الحاكم الأحد الفرد الصمد المنزه عن الأزواج والعدد...".[2]

ومن عقائد الدروز أيضا التقمص، فهم يعتقدون أن النفس لا تموت بل يموت قميصها وهو الجسم البشري فتنقل إلى جسم بشري أخر يولد حديثا، وترى هذه الفرقة الباطنية كذلك أن العالم لا يزيد ولا ينقص فكلما مات إنسان ولد أخر لتحل فيه روح المتوفى[3]، أما عقيدتهم في اليوم الآخر القيامة، فهم يرون أن اليوم الآخر هو يوم ظهور الحاكم بأمر الله، وهو اليوم الذي يظهر فيه مذهب عقيدة التوحيد على كل المذاهب والأديان وهو اليوم الذي يستلم فيه الحاكم مقاليد السلطة يوم القيامة[4]، والدروز يكفرون المسلمين عامة ويسمونهم الكفار المشركين غير أن المسلمين يرون فيهم أشد كفرا ونفاقا من النصيرية، ويرى ابن تيمية إن قتالهم واجب: بقوله:[5] "قتالهم وقتال النصيرية أولى... لأنهم عدو في دار الإسلام".

أما الطائفة النصيرية فهي أيضا تتفق في عقيدتها مع الدروز ولا يختلفان إلا في الشيء اليسير فهم أيضا لا يأخذون بظاهر الألفاظ وإنما يؤولونها إلى معاني لا تحتملها هذه الألفاظ كما يؤمنون بانتقال الأرواح من بدن إلى بدن ويسمونه بالتناسخ عكس الدروز

1– القاضي النعمان: الرسالة المذهبية –خمس رسائل إسماعيلية، تحقيق عارف تامر (د.ط)، دار الانصاف، بيروت، 1956، ص 82.

2– مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، ص274، 275.

3– سامي مكارم: أضواء على مسلك التوحيد، ص121– 122.

4– محمد كامل حسين: طائفة الدروز، ص121.

5– ابن تيمية: الفتاوى الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، م3، ص 506.

الذين يطلقون على ذلك بالتقمص، أما إذا انتقلت إلى بدن حيوان يسمونها مسخ وإن انتقلت إلى الشجر والنبات فهو وسخ، فالروح عندهم بعد كل موت تخلع به ثوب الميت البالي وتلبس ثوب جديد إلى نهاية الأجيال[1]، كما يعتقد النصيريون بأن النجاسة هي موالاة الأضداد والجهل بالعلم الباطني والطهارة معاداة الأضداد ومعرفة العلم الباطني، وبالتالي عندهم الطهارة ليست ضرورية لمزاولة العبادات.[2]

وتتصل عقيدة النصيريين كذلك بالنجوم والكواكب ولهذا فهم يزعمون أن السحاب مسكن علي ابن أبي طالب (ض) وإذا مر بهم السحاب قالوا: رافعين أيديهم السلام عليك يا أبا الحسن، ويقولون أن الرعد صوته والبرق ضحكه وهم من أجل ذلك يعظمون السحاب[3]، وبذلك تقوم العقيدة النصيرية على مبدأ تأليه على ابن أبي طالب والمغالاة فيه ولذلك أطلق على النصيرية اسم العلوية أي الذين يعبدون عليا، وتدعي النصيرية أن سلمان الفارسي رسول علي ابن أبي طالب (ض)، ويحبون عبد الرحمان بن ملجم – قاتل علي– زاعمين أنه خلص اللاهوت –الطبيعة الإلهية– من الناسوت – الطبيعة البشرية– وترى كذلك أن الخلفاء الثلاثة الراشدين الصديق وعمر وعثمان – رضي الله عنهم– تعدوا على علي (ض) وأخذوا حقه من الخلافة كما تعدى قابيل على أخيه هابيل[4]، كما تتقاطع الطائفتان الدرزية والنصيرية في شعيرة الصيام ولا يختلفان إلا في توقيته، فأفراد الطائفتين يمتنعون في وقت الصيام عن معاشرة نسائهم ولا يمتنعون عن الأكل والشرب ويكون صيام النصيريين في رمضان ويصوم الدروز عشرة أيام من ذي الحجة[5]، أما

1– سليمان الحلبي: طائفة النصرية تاريخها وعقائدها، ط2، دار السلفية، الكويت، 1984، ص76.

2– المرجع نفسه، ص 77.

3– القلقشندي: صح الأعشي، ج13، ص 249.

4– المصدر نفسه، ج13، ص250.

5– سليمان الحلبي: طائفة النصيرية، ص77.

شعيرة الحج فكلتا الطائفتين لا تؤمنان بمناسكه فيما يرى فيه الدروز ظاهرة وثنية ويعتبره النصيريون كفرا وعبادة أصنام.[1]

واتسمت العلاقات بين الباطنية ولاسيما النزارية – الحشاشون- والسلاجقة المنافحين على المذهب السني بالعداء بعد نجاح النزارية في الاستيلاء على قلعة ألموت في عام 483هـ/1090م بقيادة زعيمهم الحسن الصباح[2]، وأضحوا يشكلون مصدر وخطر على أهل السنة المجاورين لهم فعظم بلاؤهم وقطعوا الطرق وخربوا القرى[3]، فعمل السلطان ملكشاه (ت 486هـ/1092م) على الحد من أباطلهم وانحرافاتهم فكان يرسل إلى الحسن وشيعته الإمام أبو يوسف يعقوب بن سليمان الخازن وكان فقيها عارفا بالأصول على المذهب أبي الحسن الأشعري[4] لمناظرتهم فناظرهم وألف كتابه المسمى بالمستظهر وأجاب عن مسائلهم[5]، وعلى ما يبدو أن السلطان ملكشاه تطلع إلى إقناعهم بالحكمة والموعظة الحسنة للكف عن نشر أباطيلهم ولما لاحظ عدم استجابتهم لذلك أرسل

1- المرجع نفسه، ص78.

2- الحسن الصباح: أبو الحسن بن علي بن محمد الصباح الحميري (430هـ- 518هـ/1037م- 1121م) ولد بفارس ومات بها، الملقب بشيخ الجبل وهو يعرف بصاحب الدعوة الإسماعلية النزارية الباطنية أو الحشاشون، كان داهية وماكرا وزنديقا من شياطين الإنس، الذهبي: العبر، ج2، ص410، ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص95.

3- ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي بيضون، ط2، دار المعرفة، بيروت، 1997، جـ12، ص204.

4- هو الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن أبي بشر بن إسحاق بن سالم وينتهي نسبه بالصحابي الجليل أبو موسى الأشعري عاش بين سنتي (260هـ- 324هـ/873م- 935م) وكان أول أمره على مذهب المعتزلة ثم تركه، وإليه تنسب مدرسة الأشاعرة الدين استخدموا العقل في عدة حالات لتوضيح بعض المسائل العقدية واتخذت الدلائل والبراهين العقلية الكلامية كوسيلة في محاججة خصومهم، ابن الجوري: المنتظم، ج6، ص 332، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج3، ص285، عبد الرحمان بدوي: مذاهب الإسلامين، (د، ط)، دار العلم للملايين، بيروت، 1997، ص 487.

5- المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 324.

عام 485هـ/1091م حملة عسكرية لمحاربة الصباح وأنصاره إلا أن حملته منيت بالفشل.[1]

وقد سجلت المصادر التاريخية الكثير من الصدامات بين المذهبين السني والشيعي في الشام منها ما كان عام 450هـ/1058م لما رفض الشيعة الالتزام بطقوس السنة ورفع الدعوة للعباسيين حتى أن بعضهم رفض الصلاة في المسجد حتى جمعهم محمود بن نصر بن صالح المرداسي أمير حلب وبيّن لهم ضرورة القيام برفع شعار العباسيين بقوله: " قد ذهبت دولة المصريين وهذه دولة جديدة ومملكة سديدة، ونحن تحت الخوف منهم، وهم سيستحلون دماءكم لأجل مذهبكم والرأي أن نقيم الخطبة..." [2]، وكان أول بروز للباطنية ببلاد الشام في مدينة حلب التي كانت تحت حكم الملك السلجوقي رضوان بن تتش (ت 507هـ/1113م)، حيث أقام الداعي الباطني الحكيم المنجم الذي أرسله الحسن الصباح لنشر الدعوة في بلاد الشام وقد انتهزت الباطنية فرصة الاضطرابات التي احتدمت بين أمراء البيت السلجوقي فحاولوا استمالة وتحسين علاقاتهم ببعض الأمراء على غرار الملك رضوان بن تتش بمساعدته ضد خصومه، فوالاهم وحافظ جانبهم وشايعهم، وتمكنوا من إظهار مذهبهم في عهده حتى أصبح لهم دار دعوة بحلب.[3]

ولم يكتف الحشاشون بإظهار العداء لمن جاورهم من المسلمين – أهل السنة–، بل امتدت أيديهم الغادرة إلى قادة الجهاد الإسلامي وإلى القادة الذين وقفوا في وجه توسعاتهم ومقاومة أفكارهم فاغتالوا الوزير نظام الملك بعد أن فضح عقائدهم الفاسدة وخطرهم على المجتمع عام 486هـ/1093م، عندما تمكن الحسن الصباح أن ينفذ أحد فدائييه إليه في

1– ابن الأثير: الكامل، ج10، ص210، ابن الجوزي: المنتظم، ج9، ص 74.

2– المرجع نفسه، ج8، ص 239، ابن العديم: زبدة الحلب، ص173.

3– ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج18، ص 130، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص 205.

صورة صوفي مستغيث[1]، كما تمكن ثلاثة من رجال الباطنية عام 492هـ/1102م من قتل جناح الدولة بن الحسين صاحب حمص، قتلوه بجامع حلب أثناء تأدية الصلاة[2]، والمعروف عن جناح الدولة أنه كان على عداء مع رضوان بن تتش وخصما عنيدا للصليبيين، فجاء مقتله في صالح الصليبيين الذين تمكنوا فيما بعد من دخول طرابلس[3]، وكان من الطبيعي أن يكثر ضحايا الباطنية حيث لقي الأمير مودود صاحب الموصل المصير نفسه لما رفع راية الجهاد ضد الصليبيين وأخذ في رص صف الأمة وتوحيد الجبهة الداخلية، فخافت الباطنية منه فأغتلته في صحن جامع دمشق بعد فراغه من أداء الصلاة الجمعة عام 507هـ/1113م.[4]

أما المارونيون[5] فهم آخر ما تبقى من أنصار المذهب المونوفيزي[6] الذين تواجدوا في معرة النعمان وشيرز وحماة وحمص وقنسرين[7]، ويرى البعض إن

1- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص200، ابن الجوزي: المنتظم، ج9، ص66.

2- الابن الأثير: الكامل، ج10، ص 184.

3- سبط بن الخوري: مرآة الزمان، ص77.

4- أبو شامة: الروضتين، ج1، ص 27، ابن الأثير: الكامل ج10، ص496.

5- المارونيون: المارونة نسبة إلى القديس الراهب مارون الذي عاش في أواخر القرن الرابع الميلادي في شمال الشام في المنطقة الواقعة بين أنطاكية وقورس الذي توفي عام 433م، ويرجع البعض أن القديس يوحنا مارون الذي عاش في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الميلادي هو المؤسس الحقيقي للكنيسة المارونية إلى القديس يوحنا مارون في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الميلادي، يوسف الدبس: الجامع في تاريخ الموازنة المؤصل، المنطقة العمومية الكاثوليكية، بيروت، 1905، ص4، 6.

6- المونوفيزية: أو المشيئة الواحدة وهي عقيدة مسيحية نقول بأن للمسيح طبيعة واحدة إلهية وأن طبيعته البشرية امتزجت بهذه الطبيعة، أي للمسيح طبيعتتان لكن له مشيئة واحدة، وكفر يوحنا مارون في مجمع القسطنطينية السادس 680م عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة اسحاق عبيد، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص 495.

متولي يوسف شلبي: أضواء على المسيحية، الدار الكويتية، الكويت، 1968، ص111.

7- محمد علي كرد: خطط الشام، ج6، ص 236- 237.

إضطهادات التي لقيها الموازنة على يد مخالفهم ولاسيما اليعاقبة[1] كان سببا في نزوحهم إلى لبنان[2]، وفي زمن الحروب الصليبية كان الموارنة خير عون للصليبيين في حروبهم ضد المسلمين، حيث اتصل الموارنة بالجيش الصليبي الزاحف إلى بيت المقدس وقاتلوا بجانبه كما خدموا الصليبيين كتراجمة ومرشدين وأدلاء الطرق والمعابر، بل تصاهروا معهم واستقروا بجانبهم في إمارة طرابلس بعد أن استولوا عليها[3]، والحقيقة أن فترة الحروب الصليبية تعد العصر الذهبي للموارنة فقد كانوا أحسن حالا وأعظم شأنا فكنائسهم وأديرتهم ازدادت عددا وتوفرت لهم سبل الرزق، وكانوا يقدمون على جميع الطوائف المسيحية ويتمتعون بالحقوق والامتيازات التي تتمتع بها البرجوازية اللاتينية بما في ذلك حق الأرض في مملكة بيت المقدس[4].

والغريب في هذا الصراع المذهبي والطائفي الذي شهدته بلاد الشام قبيل وأثناء الغزو الصليبي لم يكن متوقفا على مذاهب أهل السنة والجماعة[5] والمذاهب المتطرفة المارقة – كالباطنية–، بل ساد كذلك بين مذاهب أهل السنة أنفسهم، فقد دارت صراعات مذهبية بغيضة أعتقد أصحاب كل مذهب صحة فكره وسلامة موقفه الأمر الذي أدى إلى اختلاف شديد بينهم وصل إلى حد الطعن والقدح والسب فضلا عن ما كانت تكنه تلك

1– اليعاقبة: ينسبون إلى يعقوب البرادعى عاش بين عامي (505– 578م) كان راهبا بالقسطنطينية، يقولون: أن المسيح جوهر من جوهرين أقنوم من أقنومين وطبيعة من طبيعيتن أي انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو المسيح والطاهر بجسده، الشهرستاني: الملل والنحل، ج1، ص 254، المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص 338.

2– الحويري: المرجع السابق، ص91.

3– عزيز سوريال عطية: المرجع السابق، ص493.

4– فليب حتى: تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، تحقيق أنيس فريحة، راجعه نقولا زيادة، ط2، دار الثقافة للطباعة، بيروت، 1959، ص292.

5– أهل السنة والجماعة: هم المتبعون للسنة المقتفون لها ومجتمعون عليها وبهذا صاروا جماعة بمعنى مجتمعين ومن خالفهم كان مبتدعا، والتسمية بأهل السنة ربطت بالإمام أحمد –رحمه الله– الذي امتحن في مسألة خلق القرآن، صار إماما من أئمة أهل السنة، مصطفى الشعكة: إسلام بلا مذاهب، ص 411 – 412، صالح بن صالح المحمود: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، ط1، مكتبة الرشد، الرياض، 1995، ج1، ص41، 43.

المذاهب السنية لبعضها البعض من حقد وكراهية وتأمر، فكان كل طرف يتربص بخصمه الدوائر لإضعافه والإيقاع به لتحقيق مكاسب مذهبية واجتماعية، بل حدث ما هو أخطر من ذلك هو القتل والاعتداء على بيوت الله[1]. ومن بين المسائل الخلافية جهر الشافعية بالبسملة في الصلاة، فانقسمت العامة بين مؤيد ومخالف لهم وبقى الخلاف قائما حتى توجه الحنابلة إلى أحد مساجد الشافعية ونهوا إمامه على الجهر بالبسملة فأخرج مصحفا وقال لهم: "أزيلوها من المصحف حتى لا أتلوها"، ثم تطور الصراع إلى الاقتتال وتقهقر جانب الشافعية حتى ألزموا البيوت ولم يقدروا على حضور صلاة الجمعة خوفا من الحنابلة[2]، كما أثارت مسألة قراءة دعاء القنوت في صلاة الصبح خلافا فقهيا حيث رأت المالكية والشافعية أنها سنة في حين قال الحنابلة والحنفية أنها ليست سنة، وكذلك مسألة رفع اليدين عند الركوع والرفع منه في الصلاة، فأحدث كل ذلك تعصبا مذهبيا تسبب في تشويش عقول العامة[3] وتعاظم الخلاف إلى درجة أن لفق بعضهم للبعض الأخر التهم ففي سنة 495هـ/1101م والحرب ضد الصليبيين مشتعلة وشي بعض الحنابلة بالفقيه الكيا الهراسي[4] على أنه باطني فسجن[5]، أما الفقيه الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد[6] فقد طرد من دمشق إلى مصر بسبب مناظرة بينه وبين علماء من الشافعية في مسألة الاستواء على العرش والنزول وتعطلت يومئذ صلاة الظهر في محراب الحنابلة.[7]

1- ابن كثير: البداية والنهاية، ج2، ص66.

2- ابن الجوزي: المنتظم، ج8، ص 163، ابن الأثير: الكامل، ج11، ص73.

3- المرجع نفسه، ص 212.

4- هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي ولد سنة 450هـ/1058م، والكيابا بالأعجمي الكبير القدر، ولي التدريس في المدرسة النظامية ببغداد توفي عام 504هـ/1109م، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج7، ص 32- 33.

5- أبو الفدا: مختصر تاريخ البشر، ج1، ص 302، الصفدي: المصدر السابق، ج7، ص32.

6- هو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الحنبلي، وهو ابن موفق الدين ابن قدامة كتب وصنف الكثير من الكتب منها الأحكام الكبرى والصغرى توفي عام 600هـ/1203م، أبو شامة الروضتين، ج1، ص 46- 47.

7- ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص 26.

بل وصل حد التعصب الأعمى بين المذاهب إلى التكفير وإخراج بعضهم البعض من الملة، فيذكر ابن عساكر (ت 571هـ/1175م) عبارة كان يرددها القاضي محمد بن موسى[1] وكان حنفي المذهب مغاليا في مذهبه: " لو كانت لي الولاية لأخذت من أصحاب الشافعي الجزية"[2]، وكذلك الاعتداء على بيوت الله فتذكر المصادر أن الوزير نظام الملك السلجوق بنى للشافعية جامعا وكان هذا الجامع يشرف على الأحناف فأزعجهم واعتبروه تحديا لهم فهاجموا المسجد وأحرقوه وثارت فتنة كبيرة وصفها السبكي قائلا: "إنها هائلة كادت الجماجم تطير عن الغلاصم[3] والأعناق".[4]

وعليه فقد أفرز هذا الصراع المذهبي أثار خطيرة على الفكر والعقيدة، فمن الآثار الفكرية إلزام أتباع كل مذهب بالاقتصار على مطالعة كتب مذهبهم فقط والذين يخرجون عن تقاليد الانغلاق والتعصب ويواصلون غيرهم يصبحون هدفا للاتهام بالنفاق ومهما كانت منزلتهم العلمية ففي سنة 461هـ/1068م وقعت فتنة لابن عقيل[5] إذ نقم الحنابلة على شيخهم واتهموه بالاعتزال لتردده على شيوخ المعتزلة وقراءته علم الكلام سرا، وقد بين ابن الجوزي هذه الفتنة فقال:[6] "وكان أصحابنا قد نقموا عليه لأجل أشياء كان يقولها، يقولها، وكان لابن عقيل فطنة وذكاء فأحب لاطلاع على كل مذهب"، ولم تنته هذه الفتنة

1- محمد بن موسى بن عبد الله: التركي البلاساغوني الحنفي نزيل دمشق، ولي قضاء بيت المقدس ودمشق، توفي عام 506هـ/1112م، الصفدي: المصدر السابق، ج2، ص 120.

2- تاريخ دمشق، ج56، ص 75 – 76.

ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص 175.

3- الغلصمة: اللحم الذي بين الرأس والعنق، وجمعها غلاصم، ابن منظور: لسان العرب، ج12، ص 441.

4- طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج4، ص131. ص131.

5- ابن عقيل: هو على بن محمد شيخ الحنابلة كان إماما عالما له تصانيف عدة في العلوم توفي عام 513هـ/1119م، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج35، ص 349، ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، أخرج أحاديثه أسامة بن حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ج1، ص 142

6- المنتظم: ج9، ص 470.

إلا بقدوم الفقيه ابن عقيل لديوان الخليفة العباسي عام 465هـ/1072م وإعلان توبته من الاعتزال.[1]

وبقى هذا الصراع المذهبي والتعصب الفكري ملازما للحياة الفكرية والدينية حتى النصف الثاني للقرن الخامس الهجري القرن الحادي عشر ميلادي والقرن الذي يليه، حيث انتشرت ظاهرة الاستعلاء الثقافي فنجد الأشاعرة يرون أنفسهم أهل الثقافة والفكر ويرمون الحنابلة بالسطحية وضيق الأفق، في حين يرى الحنابلة أنفسهم أوصياء على المجتمع بحكم ما عانوه من محن منذ الإمام ابن حنبل، وكان كتاب ابن عساكر" تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام الحسن الأشعري" نموذجا لذلك الصراع، وضمّنه قسمين؛ قسم للدفاع عن الأشاعرة مبينا فضلهم ودورهم في العلم وأسماء من أنصار الإمام أبي الحسن الأشعري وآخر للرد على الحنابلة[2]، كما زاد تمذهب السلاطين والوزراء الوضع حدة من خلال نشر التعصب المذهبي وترسيخه بين الناس خدمة وانتصارا لمصالحهم السياسية والمذهبية، فهذا نظام الملك الوزير السلجوقي كان شافعيا أشعريا مكن الأشاعرة في دولته وكان يتعصب لهم وبنى لهم مدارس على حساب المذاهب الأخرى.[3]

ولا ريب أن هذا التمذهب والتشرذم الذي أصاب الفكر الإسلامي ببلاد الشام قد أوجد وضعا متعفنا مزمنا على عصر الحروب الصليبية، وقد انعكست آثاره على المجتمع الذي افتقر إلى المفاهيم الصائبة والقيادة الدينية الناضجة، وما الهزائم التي حلت بالمسلمين أمام الصليبيين ما هي إلا نتاج هذا الانقسام المذهبي والجدال الفكري العقيم.

1- ابن رجب: المصدر السابق، ج1، ص 144.

2- تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، فتحقيق أحمد حجازي السقا (د، ط)، دار الجيل، بيروت، 1995، ص 126، 128.

3- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج7، ص 297.

المطلب الثالث: الأوضاع الاجتماعية:

ألقى الانقسام السياسي والصراع المذهبي وانهيار وحدة التصور في الحياة الفكرية والدينية بظلاله على الحياة الاجتماعية، فقد انهار مفهوم الأمة الإسلامية وحلت محله مفاهيم العصبية والعشائرية والإقليمية والمذهبية، حيث يذكر ابن الأثير:[1] أنه في سنة 461هـ/1068م حدثت فتنة في دمشق بين المغاربة – أصحاب الفاطميين – والمشارقة – أصحاب العباسين – فضربوا دارا مجاورة للجامع الأموي بالنار فاحترقت وامتد لهيبها إلى الجامع الأموي فدثرت محاسنه وزال ما كان فيه من أعمال نفسية، كما فشت المنكرات والمعاصي في معظم مدن الشام حيث تعاطي الناس على مختلف طبقاتهم شرب الخمر خاصة في الاحتفالات والمواسم، وراجت صناعة الخمور وصارت لها أماكن خاصة بها على غرار منطقة الأغوار[2] ومدينة الخليل[3]، وسميت قرية من قرى الرملة باسم العنب لكثرة زراعة العنب فيها[4].

وعرفت أماكن وأحياء دون غيرها بشرب الخمر وتعاطي المخدرات وارتكاب المعاصي على شاكلة خان الزنجاري أحد أحياء دمشق[5]، ولم يقتصر هذا الفساد على العامة بل شغف به الكثير من ذوي الجاه والسلطان وصاروا مواظبين على مجالس العربدة المليئة بالخلاعة والمجون والغناء الفاحش والزنا إلى درجة ارتفعت من أجلها الشكاوي[6].

1- الكامل، جـ 10، ص59.

2- الأغوار: ومنها الشمالية والجنوبية نسبة إلى الغور هي بالأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق، وهو منخفض من الأرض لذا سمي الغور فيه يجري نهر الأردن، هي كثيرة الزرع، ياقوت الحموى: معجم البلدان، حـ4، ص217.

3- ابن واصل: مفرج الكروب،جـ 2، ص91.

4- العلمى: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جـ2، ص 147.

5- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 12، ص166.

6- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 12، ص 111.

وفي غمرة هذا الفساد الذي ضرب الحياة الاجتماعية انصرف غالبية المجتمع إلى الانشغال بقضاياه اليومية الصغيرة التي تدور حول الغداء والكساء والمأوي والتنافس في التجارة واللهو وتلبية الشهوات وانتشر النفاق وسقطت القيم وانهارت الأخلاق وصار الحديث عن المثل العليا أو القضايا العامة إما وسيلة ثقافية يتكسب بها الخطباء والوعاظ والمدرسون، أو مثاليات وخيالات يستخف بها الكثيرون ولا يعيرونها انتباها[1]، وقد وصف أبو شامة مجتمع تلك الفترة فقال:[2] "كانوا كالجاهلية همه أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا".

وإن كان كثير من فئات المجتمع قد انصرفت إلى اللهو والترف والعربدة، فإن جانب من المجتمع قد تلفق المفاهيم الخاطئة والمعتقدات الباطلة بانتشار التصوف والزهد السلبي هربا من الجهاد والوضع القائم والاقتصار على العبادة والاعتكاف اعتقادا منهم بأن هذا يقربهم من الله زلفي[3]، حيث زهد الناس في الجندية وصارت ديار المسلمين غير قادرة على تعبئة الأذرع للدفاع عن العرض والأرض فقل عدد المجاهدين والمدافعين إلى درجة جعلت العماد الكاتب الأصفهاني يستنفر أصحاب الهمم والقلوب الحية بقوله:[4] "هذا "هذا أوان تحرك ونهوض أهل الهمم الأبية العلية فإن القوم – يعني الصليبين– في كثرة لا يقاتلون إلا بالكثرة، أين المهتدون في نهج الرشاد وأين المسلمون؟ وحاشا أن يكونوا للإسلام مسلمين غير ثائرين، وأين المقدمون في الدين؟ معاذ الله أن لا يكونوا في نصرته على الموت مقدمين.".

1– عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني ط1، منشورات الجمل، بغداد، 2007، ص223 – 224.
ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينا، الو.م.أ، 1994، ص70.

2– كتاب الروضتين، جـ1، ص7.

3– ابن الجوزي: صيد الخاطر، مراجعة على طنطاوي، (د.ط)، دار المنارة، جدة، 1991، ص54.

4– الفتح القسي في الفتح القدسيي، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص401.

كما نبه برهان الدين البلخي[1] إلى أثر شيوع المنكرات وفساد الأخلاق في إضعاف مناعة المقاومة واستنزاف القدرات الجهادية الخلاقة للأمة وجعلها عرضة للنكسات والهزائم، عندما خاطب نور الدين محمود[2] واعظا إياه: "أتريدون أن تنتصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور؟ فلا والله"[3]، ولم يقتصر عمل بعض الصوفية على بث روح الكسل والخمول والتواكل بين المسلمين وعدم الجد في أمور الدنيا والدين وترك الأخذ بأسباب القوة في مواجهة الأعداء باعتقادهم أن الفاعل واحد وهو الله تعالي وأن أفعال العباد مجاز في حقهم[4]، بل أشاعوا بين العامة ظاهرة التوسل بالأولياء والمشايخ لتحقيق مآرب دنيوية ونسبوا لأنفسهم خرافات كمن يضع التراب على الرصاص فيصير ذهبا ومنهم من يطير بغير أجنحة[5]، ومنهم من حدث سنة 489 هـ/1095م بوقوع طوفان أشبه بطوفان نوح – عليه السلام-.[6]

وقد وصف ابن جبير الأحوال الفكرية والاجتماعية في تلك الفترة مقارنا بينها وبين مجتمع المرابطين[7] في بلاد المغرب فقال: " ليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه

1- برهان الدين البلخي: أبو الحسن علي بن الحسن الحنفي الواعظ الزاهد، قام عليه الحنابلة لأنه تكلم فيهم، كان يلقب ببرهان الدين وهو من أبطل حي على خير العمل من حلب، توفي 548 هـ/1153م، الذهبي: العبر، جـ 3، ص6.

2- نور الدين محمود: الملك العادل أبو القاسم محمود بن أتايك زنكي بن أقتسقر التركي تملك حلب بعد أبيه ثم أخذ دمشق وتملكها عشرين سنة هزم الفرنج في غير مرة، توفي بالخوانيق في 569 هـ/1173م، الذهبي العبر، جـ 3، ص58.

3- ابن العديم: زبدة الحلب، ص215.

4- عبد الله بن دجين السهلي: الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وأثارها، ط1، دار كنوز اشبيليا، الرياض، 2005، ص154.

5- الشعراني: لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار، تحقيق خليل منصور، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، جـ 2، ص283.

6- ابن الجوزي: المنتظم، جـ 9، ص97.

7- المرابطون: دولة سادت بلاد المغرب والأندلس 448هـ-541هـ/1056م-1147م، يرجع أصلها إلى قبيلة لمتونة البربرية في جنوب الصحراء التي تزعمها عبد الله ابن ياسين وقاد حركة إصلاحية بها، على محمد الصلابي: دولة المرابطين، ط1، دار الجوزي، القاهرة، 2007.

أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة وشيع إلا من عصم الله عز وجل من أهلها."[1]، كما افتقد الأمن والطمأنينة بانتشار مظاهر النهب والسلب فلم تسلم القوافل وأموال التجار من اللصوصية وقطاع الطرق، ولا أدل على ذلك ما كتبه أحد كبار أعيان الشام إلى نور الدين زنكي يصف فيه حال البلاد والعباد فيقول: "إن الرعاع وقطاع الطرق والمفسدين قد كثروا... ومثل هذا لا يجيء إلى بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيء ليشهد له"، فأجابه نور الدين على ظهر الرسالة بقوله: "إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فمالنا من حاجة على زيادة ما شرعه الله تعالى فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادته وهذا من الجرأة على الله وعلى شرعه"[2].

وما يتحصل من هاتين الرسالتين أن السلطان نور الدين لم يجاري صاحب الشكوى بالمبالغة في القصاص لردع هؤلاء الرعاع المفسدين من صلب وقتل، بل ذكره بحدود الله وشرعه وأن القصاص يقع في حدود المعصبية ومن تجاوز فقد تجرأ على الله سبحانه وتعالى، وهذا يدل على حلم السلطان نور الدين وحصافته والذي يعد من بين كبار القادة والعلماء العاملين الذين قيضهم الله لهذه الأمة لا صلاح أمور دينها ودنياها، وأن الردع لا يكون فقط بسيف السلطان، بل بالتهذيب وإصلاح النفوس وهذا ما سوف يأتي ذكره لاحقا، وقد أفرد لنا مؤرخ الدولة السلجوقية العماد الكاتب الأصفهاني جانبا في حديثه عن الرعب الذي بثته الباطنية في صفوف المجتمع فقال:[3] "فنابت النوائب وظهرت العجائب وفارق الجمهور من بينا جماعة نشئوا على طباعنا وكالوا، بصاعنا...، واستولوا

1- الرحلة، ص 55 – 56.

2- أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق أحمد البيسومي، وزارة الثقافة، دمشق، 1991، جـ 1، ص 276.

3- دولة آل سلجوق، ص226.

على الحصون والقلاع ثم انتشر القتل بأمور بشعة"، وعطفا على هذا الكلام صار الناس غير أمنين ولا يثقون في بعضهم البعض إلى درجة من كانت في نفسه ضغينة على صاحبه ادعى عليه مذهب الباطنية فيؤخذ على الفور بالقتل.

ونتيجة لتردي الوضع الأمني وافتقاد الناس للطمأنينة انكمشت التجارة وتم إهمال الزراعة والري وسادت الحاجة، حيث يذكر أنه في سنة 511هـ/1117م غلت الأسعار وافتقدت الأقوات حتى بلغ سعر الكر من القمح أو الدقيق ثلاثمائة دينار ومات الناس جوعا[1]، كما لم تخلوا البلاد في تلك الفترة من الأمراض والأوبئة، وفي هذا يذكر ابن تغرى:[2] "أنه بين عامي 448هـ- 449هـ/1056م-1057م عم الوباء والقحط في مصر والجزيرة والشام فأكل الناس الميتة من الحيوانات ونبشوا قبور الموتى من البشر، أما الأغنياء فكانوا يشترون الرمانة والسفرجلة بدينار" وتكرر الأمر نفسه في عام 470هـ/1077م في أرياف العراق والشام[3]، ويستخلص من كل هذا أن العامة لم تنل شيئا من الإنفاق العام وأن الطبقة الحاكمة والمترفة لم تقاسمها بذخها وترفها فعظم بذلك السلب والنهب وتفككت الروابط وزادت الفرقة بين الناس فضلا عن سلبية العامة وتمردها على النظام العام، ومن مظاهر بذخ السلطة الحاكمة وترفها ما ذكر سنة 516 هـ/1122م عندما قتل وزير السلطان محمود السلجوقي المسمى أبو طالب السميرمي خرجت زوجته ومعها مائة جارية بمراكب الذهب، فلما بلغهن قتله رجعن حاسرات الوجوه وقدهن بعد العز[4].

1- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ 5، ص213.

2- المصدر نفسه، جـ 5، ص15.

3- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 12، ص117.

4- ابن القاضي شهبة: الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، .ط1، دار الكتاب الجديدة، بيروت، 1971، ص89.

ونخلص في الأخير إلى أن بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية قد وصلت إلى ما يدعوا إلى الدهشة والاستغراب من تمزق وتدابر درجة لم يسبق لها أن بلغتها من قبل، وكأني بهذه الفترة الزمنية بالذات قد فتحت ذراعيها مستقبلة أول حملة صليبية على العالم الإسلامي، على أساس أن نظام الحكم القائم على الاستبداد والتطاحن والاستعلاء على الجماهير واحتقارها، وإشاعة الظلم يؤدي إلى سلبية الرأي العام واحلال الخوف والسخط بين صفوفه، كما أن شيوع المنكر وفساد الأخلاق أمر طبيعي وعادي لا يخلو مجتمع منه في أي حقبة من حقب الحياة، ولكن الذي ليس طبيعي أن تشيع هذه المنكرات والفواحش بين طبقات المجتمع إلى درجة تعجز السلطة الحاكمة السيطرة على الوضع مما يوحى إلى درجة الإفلاس السياسي وغياب أثر التوجيه الديني في العلاقات والمعاملات، وعليه فالجسم الاجتماعي قد تحدرت به المصائب والأمراض وبلغ من الوهن والضعف ما لم يكن مستعد أن يفعل أي شيء على الإطلاق في تلك المرحلة الخطيرة التي استهدفت كيان الأمة ومقدساتها.

المبحث الثالث

الغزو الصليبي لبلاد الشام

المطلب الأول: التعريف بمصطلح الحروب الصليبية.

المطلب الثاني: دوافع الغزو الصليبي.

المطلب الثالث: الحملات الصليبية على بلاد الشام.

المطلب الأول: التعريف بمصطلح الحروب الصليبية:

يرجع بعض المؤرخين فكرة الحروب الصليبية إلى أول صدام مسلح بين المسلمين والمسيحيين، فينظر إلى هرقل[1] إمبراطور الروم على أنه أول محارب صليبي وإلى موقعة اليرموك[2] على أنها أو موقعة صليبية انتصر فيها المسلمون عام 15 هـ/636م[3]، وهناك من يذهب أن البابوات في الغرب كثيرا ما كانوا يحرضون المسيحيين على طرد المسلمين من شبه الجزيرة الإيبرية وإقحامهم في حروب كثيرة لهذه الغاية ومع هذا لم يصف التاريخ هذه الحروب بأنها صليبية ربما لأنها لم تتجه نحو صوب الأماكن المقدسة[4]، وكثيرا ما فكر الأباطرة البزنطيون منذ عهد نقفور[5].التوجه إلى الأماكن المقدسة وتخليصها من أيدي المسلمين وخاضوا حروبا طاحنة من أجل هذه الغاية ومع هذا لم يصف التاريخ هذه الحروب بأنها صليبية ربما لأن أصحابها لم يحملوا الصليب[6]، ويتحصل من ذلك أنه يشترط لتسمية الحروب الصليبية حروبا صليبية شرطان مجتمعان هما: الاتجاه إلى الأماكن المقدسة وحمل شارة الصليب التي تدل على أن صاحبها في حروب دينية لا دنيوية.

1- هرقل: Herocluis (575م- 641م) إمبراطور بيزيطي (610م- 641م) قاتل الفرس وهزمهم (622م- 627م) وأعاد جيشه الصليب إلى بيت المقدس عام 630م، هزم العرب قواته في معركة اليرموك عام 15 هـ /636م، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص472.

2- اليرموك، وادي بناحية الشام على طرف الغور يصب في نهر الأردن، كانت به حرب بين المسلمين والروم، انتصر فيها المسلمون عام 15 هـ/636م أيام عمر بن الخطاب – ض-، ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ 5، ص 434.

3- محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي (489 هـ - 846 هـ /1096م – 1404م)، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982، ص17.

4- عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1984، ص9.

5- نقفور: إمبراطور بيزنطي (802م- 811م) في عهده غزى هارون الرشيد آسيا الصغرى فهزمه وأكرهه على دفع الجزية مقدارها ثلاثة ألف قطعة ذهبية، البعلبكي: المرجع السابق، ص457.

6- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ، جـ 1، ص 26، عبد اللطيف حمزة: المرجع السابق، ص9.

وعليه فإن الحرب بين المسلمين والمسيحين لم تهدأ يوم من الأيام منذ انتشار الإسلام فالدولة البزنطية في شمال الشام كانت موجودة وبينها وبين المسلمين حروب ومناوشات كثيرة، وكذلك النصاري في الأندلس كان بينهم وبين المسلمين حروب مستمرة، لكن ما اصطلح عليه باسم "الحروب الصليبية" فمعناها الاصطلاحي: هي تلك الحملات التي شنها مسيحو الغرب على العالم الإسلامي خاصة بلاد الشام والأناضول ومصر وتونس لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين واستخلاص بيت المقدس وتحرير قبر المسيح ما بين عامي 489 هـ- 690 هـ/1095م - 1291م[1].

كما يعرفها البعض: على أنها انطلاقة كبرى نتجت عن عملية الإحياء الديني التي بدأت بأوروبا خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، والتي ترتب عنها عودة البابوية[2] إلى سطوتها الأولى وتحقيق نوع من الإشراف والزعامة على الكنائس الغربية وتقوية الجهاز الكنسي وتدعيمه وربط أطرافه بالمركز الرئيسي في روما فوجدت في الحروب الصليبية كمتنفس خارجي تستهلك فيه هذه الطاقة التي نجمت عن حركة الإحياء الديني[3]، ويذهب البعض الأخر: أن الحروب الصليبية التي بدأت الدعوة لها 489هـ/1095م ليست إلا استمرار لحركة الحج الجماعي إلى بيت المقدس مع حدوث تطور في الأسلوب وهو أن الحج الجماعي صار حربيا بعد أن كان سلميا[4]، وثمة تعريف

1- محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية، ص19.

2- البابوية: نسبة إلى البابا ويرى إبن البطريق أن لفظ البابا له معنى: الجد أي أب الأباء، والبابا رأس الكنيسة الكاثوليكية -البابوية- ومصدر ولايتها والحارس الأول على قوانينها ونظمها وعقائدها ومعلم أتباعها، المعصوم من الخطأ فضلا عن كونه نائب المسيح، ابن البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ص96.، سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى -النظم والحضارة، ط2، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1959م، جـ 2، ص 1-2.

3- Michaud : op. cit, vol1 ; p62.

سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية في العصور الوسطى، جـ 1، ص21.

4- قاسم عبده قاسم: الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1999، ص27، سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 24.

تعريف مضاد ظهر في عصر النهضة خلال القرن الثامن عشر الميلادي عندما وصف الفلاسفة العقليون هذه الحركة بأنها مجرد انفجار للتعبير عن روح التعصب التي سادت العصور الوسطى ونموذج للحماسة والغيرة العمياء في ذلك الوقت، كما أنها تعكس ذهنية ذلك العصر تلك الذهنية التي لم تقبل مناقشة الآراء والمعتقدات[1].

لذا لم تجد الكنيسة أفضل من تعبير الحرب المقدسة لتأجيج حركة الحج الجماعي الذي كان مرتبطا بالتوبة والتكفير عن الذنوب[2]، إلى حج مسلح يضمن لهم الوعد بالخلاص الفردي والجماعي، وقد ترجم هذا الاعتقاد في خطاب البابا أوربان الثاني URBAN II[3] في كليرمونت[4]. الشهير بقوله: "... فليثر همتكم ضريح المقدس ربنا منقذنا الضريح الذي تملكه الآن أمم نجسة وغيره من الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست... قوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجدا لا يفنى في ملكوت السموات..." [5].

1- عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فليب حتى، ط1، دار الثقافة، القاهرة، 2000، ص7.

2- قاسم عبد قاسم: الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية، ص27، ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1986، ص22.

Christopher Tyerman : the crusades Avery Short introduction, frist pub, oxford university press, 2004, p16.

3- أوربان الثاني: URBAN II (481 هـ- 492 هـ /1088م - 1099م) ولد سنة 427 هـ/1035 م في شانتيون chatillon واسمه أدو odu أو Eudes درس على يد القديس برينو st Bruno، في عام 461 هـ /1068م صار راهبا عن دير كلوني cluny، التحق بخدمة البابا حر يخوري السابع Gregory VII ثم تم تعينه كاردينالا لأوستيا ostior، وتمكن من الانفراد بعرش البابوبة في روما عام 1088م أول من أطلق الحملة الصلبية الأولى، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص 72، الموسوعة العربية العالمية، ط2، أعمال المؤسسة للنشر والتوسيع، الرياض، 1999، جـ 3ـ ص 331، الشار ترى فوشيه: تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، (د.ط)، دار الشروق، القاهرة، 2001، ص79.

4- كلير مونت: Clermont مدينة فرنسية تقع خلف جبال الألب، جنوب فرنسا، وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، جـ 1، ص 98.

5- ورل ديونت: قصة الحضارة، ج15، ص15،

Rene Grousset : l'epopée des croisades, librairie Acodémique perrin, paris, 1995. P9.

كما أشاعت البابوية –الكنيسة الغربية– في الناس اعتقاد التوجه إلى بيت المقدس ليكونوا سكان مدينة الله، واستخدمت في ذلك عبارة الحرب العادلة تأثرا بأفكار القديس أوغسطين[1] من خلال كتابه مدينة الله[2] كونها حربا شرعية بدلا من الأفكار السلمية التي أكدها الكتاب المقدس[3]، ولم يستخدم رجال الدين المسيحيين الذين قاموا بالحملة الأولى عام 489 هـ/1695م مصطلح الحروب الصليبية، بل جاءت معظم العناوين متوافقة مع رحلة الحج الجماعي على غرار مصطلح Peregrinatio والذي يعني: الترحل والتطوف والتجول، أو Expedito التي تعى: الحملة، أو الطريق إلى الأرض المقدسة iter interran sanctan أو الهجرة إلى الأرض الرب[4].

1– القديس أوغسطين: saint Augustine (354م – 430م) لاهوتي وفيلسوف كاثوليكي يعتبر كبير مفكري النصرانية في عهودها الأولى ولد بـــ Thagast – سوق أهراس – شرق نوميديا من أم مسيحية وأن وثني، اعتنق المسيحية وعين أسقفا سنة 391م على بونة Hipone حاول التوفيق بين الفكر الأفلاطوني والعقيدة المسيحية ومن أشهر كتبه مدينة الله، الثالوث الأقدس، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص 76، حسن حنفي حسن: نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ط2، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، (د، ت)، ص 9.

2– مدينة الله: De Civitate Dei حيث يتبع الكتاب مجرى التاريخ الروماني منذ الكارثة التي حلت بروما عندما احتلها القوط الغربين عام 410 م، ويكشف عن الأزمات التي حلت بها بسبب تمسكها بالآلهة الوثنية وعجز هذه الأخيرة عن حمايتها، ويرى تخليص الإنسان يكمن في عودته إلى مدينة الله الخالدة: القديس أغسطين، مدينة الله، نقله إلى العربية الخور أسقف يوحنا الحلو، ط1، دار المشرق، بيروت، 2006، جـــ 1، ص123– 124، 148.

3– القديس أوغسطين: المصدر السابق، جـــ 1، ص 23– 24، نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، قصة الحضارة البداية والنهاية، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط5، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة، 1997، ص109، نعيم فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ط2، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1999، ص 280– 281.

4– ميخائيل زايوروف: الصليبيون في الشرق، ص13، أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب، (د.ط)، دار الفارابي، بيروت، 1998، ص14، 16.

Kevin medeiros : reconqûete, guerre sainte et croisode, mémoire presenté comme eexigence partielle de la maitrise en histoire, université du québec, montreol, janvier, 2014, p24, besherelle, louis nicolas : les grands guerriers des croisades, limoges eugene, paris, 1879, p 116.

كما صنف المؤرخون المعاصرون للحملة كتبهم على هذا المنوال مثل فوشيه شارترى[1] الذي عنون كتابه: تاريخ الحملة إلى بيت المقدس 1095م – 1127م، وليم الصوري[2] الذي صنف كتابه تحت عنوان: تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار وترجم كتابه بعنوان: تاريخ الحروب الصليبية[3].

أما العرب فقد عرفوا هذه الحروب باسم حروب الفرنجة[4] أو غزوات الفرنجة وذلك نظرا لغلبة الطابع الافرنجي على معظم الحملة أو ربما لشهرة ملوكها، وقد عرف المسلمون الفرنجة على أنهم أكبر قوة سياسية مهيمنة على وسط وجنوب أوروبا وعمموا هذه التسمية على كل الأوروبيين ما عدا البزنطيين الذين عرفوا بالروم[5]، ويظهر ذلك جليا في الكتابات والمصادر العربية المعاصرة للحملة كابن القلانسي [6]

1- فوشيه شارتري: fulcher chartres ولد بمدينة شارتر بفرنسا في 451 هـ /1059م اشتراك في الحملة الفرنجية الأولى في عام 489 هـ/1095م، وكان مرافقا لبلدوين الأول وأقام معه في الرها نحو سنتين ثم مكث في بيت المقدس حتى عام 521 هـ/1127م، توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، 1999، هامش ص 19.

2- وليم الصوري: ولد سنة 525 هـ /1130م في بيت المقدس وقد أمضى فترة صباه فيها ثم سافر إلى أوروبا متنقلا بين فرنسا وإيطاليا طالبا للعلم، وهو عام 561 هـ/1165م عاد إلى الشرق وأصبح رئيس ديوان الرسائل في مملكة بيت المقدس، كما تقلد منصب رئيس أساقفة صور وعمل مستشارا للمملكة الصليبية الصورى: المصدر السابق، جـ1، ص 7.

3- توديبود: المصدر السابق، هامش ص 19، 26.

4- الفرنجة: قبائل بربرية حرمانية تقدموا من وراء الراين نحو غاليا منذ القرن الثالث الميلادي، ثم استوطنوا في القسم الشرقي من غاليا في القرن الرابع الميلادي، وانقسموا إلى قسمين الساليون Saliens البحريون الغربيون والريبوير Ripuaire النهريون الشرقيون، وتعني كلمة فرنجة باللاتينية الحر، ويعد كلوفيس clovis (482 م- 511م) المؤسس الحقيقي لهذه المملكة التي سادت الغرب اللاتيني إلى أن أضحت إمبراطورية في عهد شارلمان (768م- 814م)، كانتور: التاريخ الوسيط قصة الحضارة البداية والنهاية، ص 173- 174، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1967، جـ1، ص 14-15.

5- عبد الله بن أحمد المغلوت: أطلس الأديان، ط1، مكتبة العبيكات، الرياض، 2007، ص172.

6- ابن القلانسي: هو أبو يعلا حمزة ابن راشد التميمي، ولد بدمشق سنة 472 هـ/1079م اهتم بدراسة العلوم الدينية والأدب وأمضى معظم حياته في ديوان الإنشاء في دمشق ورئاسته لديوان الإنشاء جعلته مطلعا على كافة الأمور والأحداث توفي عام 555هـ/1160م، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 7، ص 144، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 20، ص 361.

(ت555هـ/1160م) وابن الأثير (ت 630 هـ/1234م) [1]، ومن تلاهم كأبو الفدا (ت 732 هـ/1331م) لم يستخدموا مصطلح الصليبيين أو الحملة الصليبية، بل جميعهم وصفوا هذه الحروب بحركة الفرنجة أو حروب الفرنجة[2].

وفي الحقيقة أن كلمة جند المسيح " milites christ" صارت في القرن الثاني عشر الميلادي تعني "صليبي"، وصليبي هنا تعني: رجلا علق شارة الصليب على ملابسه أو حمل الصليب شعارا لمسيرته، في حين توارت واختفت كلمة حاج[3]، واشتقت هذه الكلمة من الصلبان التي طرزت على سترات وأقمصة الحجاج الأوائل الذين اعتبروا كجنود للمسيح – عليه السلام–، ومن ثمة فقد ارتبطت حملة الحج المسلح بالصليب الذي تحول من رمز الفداء والتضحية في سبيل الآخرين إلى رمز للحرب والقتل والعدوان، وهذا عندما أقدم البابا أوربان الثاني في مجلس كليرمونت (489 هـ/1095م) على تمزيق قميصه ودفعه إلى المحتشدين ليصنعوا منه شارة الصليب وسمي الحاج الحامل للصليب بجندي الحرب[4]، والصليبيون هم: أولئك النصارى الذين اتخذوا من أطماعهم السياسية ستارا لغزو المسلمين تحت راية زينوها بصورة الصليب الذي أطلق عليه البابا أوربان الثاني "صليب الصلبوت"[5] أو "صليب الخلاص"، كما لقبوا الحرب التي خاضوها ضد المسلمين "حرب الصليب المقدس"، والصليبيون أيضا هم: أولئك النصارى الدين ستروا أطماعهم الدنيوية تحت فيض من الحماسة الدينية الكاذبة التي انطلقت من أفواههم وتردد

1– الكامل في التاريخ، جـ 10، ص 142، 172 – 173.

2– تقويم البلدان، ص60.

3– قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص 12، أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص14.

4– سيدي علي الحريري: الأخبار السينية في الحروب الصليبية، ط3، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1985، ص 22، ميخائيل زايوروف: الصليبيون في الشرق، ص13.

5– صليب الصلبوت La sainte croix : وهو الذي إذا نصب وأقيم ورفع سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه أنه من الخشبة التي صلب عليها معبودهم –المسيح– الذي عثرت عليه القديسة هيلانا Sainte Hélène، الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 84،

J. Collin de plancy : Légendes des croisades, bibliothèque sainte, paris, 2008, p3.

صداها في أصقاع أوروبا[1]، أما مصطلح الحروب الصليبية فلم يظهر في كتابات اللغة اللاتينية والعربية إلا في عصور متأخرة وعلى وجه التحديد في القرن السابع عشر الميلادي في فرنسا، وكان لويس ممبورا[2] أول من استعمله عندما أطلق عنوان "تاريخ الحروب الصليبية" على بحثه عام 1675م[3].

وظهر المصطلح بلغة تقبلها الفرنسيون أولا ثم الأوروبيون ثانيا جاء بتأثير الحركة الأدبية الفرنسية وعن التطور الكبير الذي شهدته اللغة الفرنسية، ويعد نقطة تحول في الدراسات الصليبية حيث انتقل مصطلح Croisade الفرنسي في القرن الثامن عشر إلى اللغات الأوروبية على غرار الإسبانية Crozoda والإنجليزية Crusade والألمانية Kreuzzug[4] وكلها تشير إلى علامة الصليب، وأطلقوا هذا المصطلح لأن الذين اشتركوا في الحملات حملوا على الصدور أو على الكتف علامة صليب من قماش أحمر لدوافع وأهداف دينية[5].

ووقع المؤرخون العرب فيما بعد في شباك الترجمة الحرفية للمصطلح من اللغات الأجنبية الأوروبية واستخدموا مصطلح صليبي وحملة صليبية عند تناولهم للظاهرة في حين درج أسلافهم على معالجتها تحت مصطلح حرب الفرنجة، ووجه الخطورة في هذا المصطلح عندما يستخدم في اللغة العربية أنه يوحي فعلا بأن الحركة كانت ترتبط

1- محمد رضا بك: الخيبة الأدبية للسياسة العربية في الشرق "الحروب الصليبية حقائق هامة لم تنشر" ترجمة محمد بورقيبة، محمد الزمرلي، ط2، دار بوسلاسة للطباعة والنشر، تونس، 1977، ص66.

2- لويس ممبورا: مؤرخ فرنسي عمل في بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسا (1643 م- 1715م)، يعد أول من استخدم مصطلح الحروب الصليبية بعد ما كانت تسمى من قبله في الغرب بمآثر ما وراء البحار، سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوت: أطلس الأديان، ص273.

3-ميخائيل زايوروف: المرجع السابق، ص14.

4- kevin medeiros : op, cit, p 8-9, various Authors : Encyclopaedia Britnnica Dictionary, 11 the edition, Gutenberg Book, london, 2006, vol 5, p 279.

وول ديورانت: قصة الحضارة، جـ 15، ص 11.

5-ميخائيل زابوروف: المرجع السابق، ص 13.

بالصليب رمز المسيحية ولا نضعها في إطارها الصحيح باعتبارها مغامرة استيطانية، ومن ناحية أخرى فإن استخدام هذا المصطلح يظلم المسيحيين الشرقيين الذين دافعوا عن بيت المقدس وعانوا من وحشية الفرنج وعدوانهم.

المطلب الثاني: دوافع الغزو الصليبي:

انبعثت الحركة الصليبية من الغرب الأوروبي المسيحي في العصور الوسطى واتخذت شكل غزو حربي على بلاد المسلمين، فهذه الحركة حركتها دوافع وبواعث حقيقية وأسباب قوية انبعثت من صميم المجتمع الأوروبي منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ويمكن إيجاز أهم هذه الأسباب والبواعث فيما يلي:

1- الدوافع الدينية:

لا شك أن الدافع الأول للحروب الصليبية هو ذلك الحقد الصليبي- حقد البابوية- على الإسلام الذي اكتسح مناطق واسعة كانت تسود فيها النصرانية كالشام ومصر والأندلس وصقلية فهدف هذه الحروب الأول الانتقام من الدين وإيقاف المد الإسلامي الزاحف على أوروبا من الشرق بسبب سيطرة السلاجقة على آسيا الصغرى[1]، وليس المقصود بهذا الدافع هو ذلك الشعور الديني الصادق الذي يجعل من دعاة هذه الحملات الصليبية نصارى مخلصين جرفهم شعور التقوى والورع إلى هجرة الأوطان والأهل في سبيل تحقيق رسالة دينية وهي خدمة الصليب، وإنما المقصود بهذا الدافع هو ذلك الإدعاء الديني الكاذب الذي حركه رجال الدين سواء كانوا البابوات الذين لقبوا بخلفاء المسيح أو هؤلائك الذين خرجوا مدفوعين للاشتراك في حرب لقبوها بحرب الصليب.[2]

1- محمود سعيد عمران : تاريخ الحروب الصليبية، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998، ص21.

2- فايد جمال محمد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981، ص181.

ولاسيما أن القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي شهد صحوة دينية نتيجة حركة الإصلاح التي عرفت بالحركة الكلونية[1] حيث بلغت البابوية من خلالها درجة خطيرة من القوة واتساع النفوذ جعلتها تتبوأ منصب السيادة الدينية والدنيوية –الزعامة على الحكام الزمنين– وتجلي ذلك في رسالة البابا غريغوريوس السابع[2] الذي أعلن فيها: يحق للكرسي الرسولي أن يتصرف بالتيجان ويعين ويعزل الأساقفة والدوقات والملوك والأباطرة وأن السلطة أي كانت لن تكون حقيقية إلا بقدر ما تنجم من رئيس الكنيسة ممثل الأعلى في الأرض[3]، وبذلك ضمنت هذه الحركة الإصلاحية للبابوية مكانة راسخة أجبرت العالم الإقطاعي في العديد من المرات الإصغاء إلى صوت البابا بوقف العمليات الحربية في الآجال الطويلة– السلام الرباني– أو الآجال القصيرة – الهدنة الربانية– Paix de dieu ou Trêve de dieu.[4]

كما جاءت استغاثة الإمبراطور البزنطي ميخائيل السابع عام 479 هـ/1086م بالغرب اللاتيني لصد خطر السلاجقة الذي تدفق على آسيا الصغرى، فرصة ذهبية للبابا للظهور في صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحي في صراعه ضد المسلمين ومحاولة دمج الكنيسة الشرقية بعد انفصالها عام 446هـ/1054م وسيادته على الأماكن

1– الحركة الكلونية: حركة إصلاحية بدأت في القرن العاشر الميلادي بقصد إصلاح الحياة الديرية ولكن لم تلبث أن اتسع نطاقها في القرن الحادي عشر الميلادي حتى صار هدفها الرئيسي إصلاح الكنيسة بوجه عام، وأقوى دعوة إصلاح ظهرت غرب فرنسا أين أسس وليم التقي دوق أقطانيا ديرا جديدا في كلوني سنة 298 هـ/910م وهدفت الحركة تحريرا الأديرة من كل سلطة علمانية وخضوع جميع الأديرة إلى نظام مركزي –كنيسة ممركزة–، نعيم فرح: الحضارة الأدربية في العصور الوسطى، ص 241– 242، عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص21.

2– غريغوريوس السابع: القديس Saint Gregory VII (1020م– 1085م) بابا روما (1073م– 1085م) يعتبر أبرز الباباوات المصلحين في القرون الوسطى، عزز سلطة الكرسي الرسولي الزمنية وأدخل إصلاحات على إدارة الكنيسة، نشب صراع بينه وبين الامبراطور هنري الرابع حول من يعين كبار الأساقفة وخضع هذا الأخير للبابا في conossa عام 1077م، البعلبكي: المرجع السابق، ص299.

3–زابوروف: المرجع السابق، ص 28.

4– Rambaud Alfred : Histoire générale du IV e siècle a nos jours, l’europe feodale les croisades, ouvrage publié sous la direction MM Emest Lavisse, Armand Colin , paris, 1893, Tome 2, p 54, J.Collin de Plancy : Op.cit, p 34.

المقدسة[1][2]، كما عدت أسفار الحج والزيارات إلى الأماكن المقدسة عاملا جوهريا في نشوب الحروب الصليبية من خلال الأثر الكبير الذي تركته على قيم المجتمع الإقطاعي الروحية، لأن عملية الحج قد هيأت المجتمع الأوروبي فكريا وعمليا لغزو الشرق من خلال تعاظم الأمزجة والميول الدينية والزهدية وصار التوجه إلى القدس أمر لا غنى عنه[3].

والحقيقة أن القرن الحادي عشر الميلادي كان عصر الإيمان وكان من المتعذر أن ستنفذ هذه الطاقة كلها محليا في صراع داخلي، مما وجب البحث عن متنفس خارجي بغزو بلاد الشام تحت ستار الحرب المقدسة لاستنفاذ قدر من تلك الطاقة – الحماسة الدينية– التي ألهبت المجتمع الأوروبي، وبخاصة أن بعض حجاج بيت المقدس كانوا يشعرون بالحسرة لوجود هذه الأماكن المقدسة في أيدي المسلمين، وعند عودتهم إلى بلدانهم يثيرون الكثير من الادعاءات الكاذبة ويصورون أنهم يلاقون ألوانا من الذل والهوان من المسلمين، كما بالغوا في وصف شقاء نصارى الشرق[4] على غرار بطرس الناسك[5] الذي خرج يحرض جماهير أوروبا وهو راكبا بغل قابضا بيده على الصليب مناديا بحرب الصليب في الطرقات والأزقة والكنائس والأديرة مدعيا بأن مسيحي الشرق

1– الأماكن المقدسة: التي يحج إليها المسيحيون قبر بطرس في روما، ومزار القديس ميخائيل في صقلية، والقديس جون في إسبانيا، كلها كانت تحت سيطرة البابوية في حين كانت القدس تحت إشراف الكنيسة الشرقية وبقية الأماكن المقدسة يحكمها المسلمون، قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص23.

2–رابوروف: المرجع السابق، ص28، عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ح1، ص 31.

3 – J.Collin de plancy : op. cit , p 11, 15.

زابوروف: المرجع السابق، ص24.

4– أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص12.

5–بطرس الناسك: petre the hermit (1050م – 1115م) راهب فرنسي يدعى بطرس أميان " péter of amiens"، كان أحد أنشط دعاة الحملة الصليبية الأولى وقائد الحملة الشعبية، وكان بارعا في مخاطبة الرعاع زاهدا يسير حافي القدمين وثياب رثة ويقتصر طعامه على السمك، وليم الصوري: المصدر السابق، ح1، ص 106، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص107.

يقاسون العذاب والهوان تحت حكم المسلمين، والناس مزدحمين حوله فارشين الأعشاب في الأرض ليمر عليها باكين معه على شقاء أورشاليم – بيت المقدس– متعهدين بصرف موجوداتهم وحياتهم لأجل إنقاذها من الآسر والهوان[1].

وعليه فقد صور دعاة هذه الحرب على أنها رد فعل للاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون الشرقيون والغربيون في البلاد الإسلامية، غير أن هذا الاضطهاد المزعوم وإن وجد فهو حالة فردية ولا يصح أن يتخذ بأي حال من الأحوال سببا حقيقيا للحركة الصليبية.

ولكي يزيدوا من حماسة الجماهير واندفاعها وإشعال هذه الحرب الصليبية قاموا بالترويج لفكرة نهاية العالم بعد الألف الميلادية الأولى وبداية الألف الميلادية الثانية – القرن الحادي عشر الميلادي– وذلك بظهور السيد المسيح مرة أخرى وتأسيسه لمملكته في بيت المقدس[2]، الأمر الذي كان من نتائجه ازدياد عدد الحجاج إلى بيت المقدس زيادة غير مألوفة لنيل الخلاص والسعادة الأبدية.

والواقع أن منطقة الشام كانت الهدف الرئيسي لغزوات الصليبيين لوجود بيت المقدس وكان النصارى يعتقدون أنهم آثمون إذا لم يقوموا باسترجاعها من أيدي المسلمين وأنهم إذا ماتوا في سبيل هذا الهدف فإنهم سيخلدون في النعيم الدائم، وقد تجلى هذا الاعتقاد في خطبة البابا أوربان الثاني في مجلس كليرمونت عام 489هـ/1095م عندما أوهم المسيحيين أن التوجه إلى القدس أمر إلهيا بقوله: "... أيها المسيحيون إن تلك الأرض المقدسة بحضور شخص المخلص فيها وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا، وذلك الجبل الذي عليه تألم المسيح ومات من أجلنا وذلك الضريح الذي تنازل لأن يدفن

1– الحريري: الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص20.

2– جوناثان سميث: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة فتحي الشاعر، ط2، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1999، ص66، قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص20.

فيه... كلها أضحت ميراث لشعب غريب... لست أنا ولكن الرب هو الذي يحثكم بكونكم قساوسة المسيح وأن تحضوا الناس من شتى الطبقات... وفضلا أن المسيح يأمر بهذا أنه ستغفر ذنوب كل أولئك الذاهبين بمقتضى السلطة التي أسبغها الرب علي..."، ولما تأكد الباب من نجاح مرغوبة أردف خطابه بقوله: "... انطلقوا على طريق الضريح المقدس وأنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس المرعب وأحكموها بأنفسكم..." [1]، ثم أخرج علامة الفدا المقدس –صليب الخلاص– وقال: احملوه على عواتقكم أو على صدوركم وليشرف فوق أسلحتكم ورؤوس سناجقكم –أعلامكم–، وعند نهاية الخطبة مد البابا يده ومنح الجميع البركة.[2]

ويتحصل من هذه الخطبة الشهيرة أن البابا قد أعد خطبته بذكاء خارق لإقناع الناس بمختلف طبقاتهم مركزا على المآثر المقدسة التي لها وقع خاص على قلوب المسيحيين كالضريح المقدس، المخلص، الجبل المقدس... كما نعت الفرنجة بأنهم قساوسة المسيح لإثارة حماسهم ويشعل بذلك هوسا عارما اتجاه المسلمين الذي صورهم بأبشع الصور، وفي الوقت نفسه كانت لغته متناغمة مع شعور الحاضرين لأن المجتمع الأوروبي الإقطاعي كان على أتم الاستعداد لتلبية هذا النداء لحل مشكلته الدنيوية ويضمن له الخلاص والغفران الروحي.

كما أشعل بطرس الناسك الذي كان جالسا بجانب البابا أوربان الثاني نار هذه الحرب عندما افتتح خطابه معددا الشدائد التي يعاني منها أهالي بيت المقدس قائلا: أنه شاهد المسيحيين مقيدين بالسلاسل الحديدية وأنه نظر إلى قبر المسيح فوجده محتقرا مهانا وأن زواره يتكبدون الذل[3]، وقد ظهرت استجابة الجماهير الحاضرة في الصحيات التي

1– فورشيه شارتري: تاريخ الحملة، ص93.
Rene grousset : l'épopée des croisades, p 9-10, J. Collin de Plancy : Légendes des croisades, p 35-36.
2– الحريري: الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ص21.
3– المرجع نفسه، ص20.

وردت في المجلس "الله يريد ذلك"، "هكذا أراد الله" "Dieu le volt", "God wills it"[1]، وسبقت هذه الدعوات دعوة البابا غريغوريوس السابع (465 هـ-477هـ/1073م - 1085م) حين قال: "إن تعريض حياتي للخطر وتخليص الأماكن المقدسة أفضل عندي من حكم العالم بأسره..." [2]

كما نقل لنا فوشيه شارتري "Fucher de Chartres" الذي كان أحد شهود الحملة الصليبية الأولى 489 هـ/1095م أجواء سير الحملة، وكيف كانت مفحمة بالحماسية الدينية الزائدة وأن مشاركة الناس كانت بدافع رغبتهم في الغفران والخلاص، حيث كتب يقول: "... أنه لشيء يبعث على السرور بين الأحياء، بل أنه مفيد للموتى أن تتلي أعمال الرجال الشجعان ولاسيما أولئك الذين يحاربون في سبيل الرب من السجلات المكتوبة أو يتم استرجاعها من الذاكرة لكي تنشر بين المؤمنين... وكيف أنهم ساروا على تعاليم الأناجيل فتخلوا عن أجمل ما في الكون وهجروا الآباء والزوجات..." [3].

ومما يؤكد أهمية بلاد الشام بالنسبة للفرنج – الصليبين- ما ذكره ابن العيني عندما تحدث عن أعياد الفرنج فقال:[4] "... في أيام أعيادهم وشعائرهم يخرج القساوسة والرهبان ومعهم أنواع الزينة والصلبان وآلات الطرب ويذكر وقائع سلفهم مع العرب ويتأسفون عن خروج ملك الشام عن أسلافهم"، وافق ابن الأثير هذا الرأي عندما علق عن دور الباعث الديني في حملة الفرنج بقوله:[5] "كان عند الفرنج من الباعث الديني ما هذا حده فخرجوا على العصب برا وبحرا ومن كل فج عميق..."، وما يستشف من القولين هو تعصب

1 – Bescherelle, louis nicolas : op. cit, p 116, christopher tyerman : op. cit, p 12.

2- أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص19، محمد سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص21.

3- تاريخ الحملة، ص57.

4- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق ودراسة محمود رزق محمود، ط2، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2010، ج2، ص 253.

5- الكامل في التاريخ، ج9، ص 70.

الفرنج إلى كل ما هو ديني والتمظهر به، ومن الطبيعي أن يكون الفرنج كذلك بحكم علاقاتهم التاريخية والقوية بالكنيسة البطرسية، فضلا عن أنهم مهد الحركة الكلونية والموطن المختار للفروسية، ومن ثمة كانوا في مقدمة دعاة الحرب الصليبية.

وفي الأخير يمكن أن نخلص أن الحركة الصليبية لها في اسمها وطريقة الدعوة إليها جعلت الصبغة الدينية طاغية عليها، ولكن لا يعنى أن الباعث الديني هو المسؤول الوحيد عن تلك الحركة، بل انبعثت نتيجة عوامل أخرى منها:

2-الدوافع الاقتصادية:

كانت أوروبا الغربية ولاسيما فرنسا قبيل الحملة الصليبية الأولى بخاصة القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي في وضع اقتصادي سيء، فقد قلت الغلال وارتفعت أثمانها ارتفاعا فاحشا مما ترتب عليه حدوث أزمة طعام –المجاعة، جعلت الكثير من سكان غرب أوروبا يأكلون حشائش الأرض[1]، وفضلا عن العوامل الطبيعية فقد زاد هذه الأزمة حدة الضرر الذي لحق بالتجارة وطرق الري وحقول الزراعة نتيجة الحروب المحلية الدائرة بين أمراء الإقطاع[2].

وعليه فقد ضاق المجتمع الأوروبي اللاتيني في هذه الفترة بالمعدومين والبطالين والفقراء والمساكين...، وهم على هذا الحال جاءت الدعوة للجملة الصليبية الأولى لتفتح أمام هؤلاء الجوعي طريقا للهجرة والخلاص من حياة البؤس والعوز، فاشتركوا في الحملة الصليبية لا بوحي دينهم بل بوحي بطونهم، والدليل على ذلك تصرفات هؤلاء الجوعى وهم في طريقهم إلى بيت المقدس حيث امتدت أيديهم إلى الكنائس والأديرة والزروع من سلب ونهب وحرق ممتلكات إخوانهم في الدين – أهل القسطنطنية–، ولعل

1- أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص24، سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص33.

2 – J. Colline de Plancy : op. cit, p36, Ramboud Alfred : op. cit, p 53.

آثار الحملة الصليبية الأولى 489هـ/1095م، والحملة الصليبية الرابعة 599هـ/1202م خير دليل على ذلك[1].

ولم تقتصر الحاجة والفاقة على الفئات الكادحة والوضيعة في المجتمع الأوروبي بل امتدت إلى طبقة النبلاء والفرسان، حيث ساهم نظام وراثة الاقطاعات –نظام البكورة– أو –حق البكورة– في إضعاف وإفقار هذه الطبقة العلية وجعلها بدون مال وعمل بمقتضي أنه لا يجوز تقسيم ممتلكات السيد الإقطاعي بعد وفاته على أبنائه، بل يجب أن تعود بكليتها إلى الابن الأكبر –البكر– أما صغار الأبناء فيرثون سوى الأموال المنقولة من خيل وأسلحة وألبسة[2]، وعليه فقد برز عدد كبير من أبناء النبلاء الصغار السن محرومين ومعدومين وتلقبوا بألقابا تنم عن السخرية والوضاعة ثم صارت ألقابا عائلية مثل "بلا أرض" أو "المعدم"[3].

ولتجاوز هذه الوضعية الاقتصادية الصعبة لجأ الكثير من الفرسان في الغرب اللاتيني إلى السلب واللصوصية كأسهل وسيلة للاغتناء فقد أمست القصور أوكارا للصوصية ومأوى عصابات الفرسان، حيث أخذوا يهاجمون القرى وينتزعون من الفلاحين كل ما كانت تقع عليه أيديهم، فضلا عن الحروب الإقليمية التي كانت منتشرة بين السادة الاقطاعين وملوكهم، فرأت الكنيسة أن الدعوة إلى الحروب الصليبية وسيلة لصرف هذه الطبقة عن الشحناء إلى خدمة الدين، ورأى أصحاب الأطماع من السادة الاقطاعين والفرسان المعدومين في نداء الكنيسة فرصة لتأسيس إمارات واقطاعات في الشرق تعوضهم عن أراضي أوروبا التي خضبتها الدماء[4].

1– أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 25– 26، عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص32.

2– زابوروف: المرجع السابق، ص 18، Ramboud Alfred : op. cit, p 49.

3– المرجع نفسه، ص19.

4– أرتست باركر: الحروب الصليبية، ص13، عبد الحميد العبادي وآخرون: الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها، (د.ط)، مطابع المصري، القاهرة، 1954، ص 251، Rambaud Alffed : op. cit, p53.

ولم يخلوا خطاب البابا أوربان الثاني من المكاسب الاقتصادية والدنيوية التي قد تنجر عن هذه الحملة ولم يأت ذلك التخصيص عرضيا بل كان إدراكا منه لواقع هؤلاء المعدومين والجوعى، وما آلت إليه أوروبا من ضيق واقتتال، فقد أغر الحاضرين بأن أرض الشرق –الشام– فيها كنوز مدفونة وتجارة رائجة تنتظرهم هناك حين خاطبهم بقوله: "... ذلك بأن هذه الأرض تسكنونها الآن والتي تحيط بها جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين تكاد تعجز عن تجود بما يكفيكم من الطعام ومن أجل ذلك يذبح بعضكم بعضا وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في حروب اقطاعية... طهروا قلوبكم من أدران الحقد وأقضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث واحفظوها لأنفسكم فهي تفيض باللبن والعسل كما يقول الكتاب المقدس ..." [1]

وما يلاحظ من هذه الخطبة أنها مزجت بين المكاسب الدينية والدنيوية مما ألهب الحملة وجعلها أكثر قوة، والواقع أن هذه الاستجابة لم تكن ناتجة عن فصاحة البابا وقوة بيانه بقدر ما كانت استجابة لمشروع اقتصادي طال انتظاره من كل أطياف المجتمع الاقطاعي الأوروبي.

كما شهد القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي انقلاب تجاري حين تخلصت المدن الإيطالية تماما من سيطرة البزنطين على تجارة الشرق، ولاسيما البندقية[2] التي حلت محل القسطنطينية حيث ساعدها موقعها الجغرافي على رأس البحر الأدرياتيكي أن تتوغل بتجارتها في قارة أوروبا واجتذبت إليها متاجر البلاد المحيطة بها، فطرقت

1– فوشيه شارتري: المصدر السابق، ص93، وول ديوانت قصة الحضارة، ج15، ص15.

2– البندقية: Venis مدينة تجارية تقع شمال شرق إيطاليا على البحر الأدرياتيكي، وكان لها دور كبير في نشاط الحركة الصليبية نحو الشرق، محمد سيد نصرو وآخرون: أطلس العالم، (د. ط)، مكتبة لبنان، بيروت، (د.ت)، ص79.

سفن البندقية مصر والشام واستبدلت منتجات أوروبا بحاصلات الشرق من توابل وعطور وغيرها[1].

مع نضوج الحملة الصليبية أظهرت المدن التجارية الأوروبية ولاسيما الإيطالية البندقية وجنوة[2] وبيزا[3] حماسة منقطعة النظير في تشجيع هذه الحملة ودعمها، ولم يكن ذلك بدافع ديني وإنما للسيطرة على طرق التجارة بإقامة مستودعات ومراكز تجارية في قلب العالم الإسلامي – على الساحل الشرقي والجنوبي للبحر الأبيض المتوسط– حتى تتصل التجارة وتروج بين أوروبا وحواضر الشرق[4]، وقد توافقت هذه الرغبة والمصلحة للجمهوريات الإيطالية مع مصلحة ورغبة دعاة الحملة الصليبية الذين كانوا بحاجة إلى بحرية متطورة وقوية لنقل المحاربين الصليبيين والمؤن والسلاح وكافة الإمدادات إلى بلاد الشام ومصر[5]، وفعلا ففي معظم موانئ الشام ومدنه الكبرى التي استولى عليها الصليبيون تمتعت المدن التجارية الإيطالية بامتيازات تجارية وإعفاءات خاصة[6]. ولم تلبث مرسيليا الواقعة جنوب فرنسا أن تحذو حذو المدن الإيطالية فحصلت على امتيازات كبيرة لتجارها في عديد من المدن الصليبية بالشام، إذ منح بلدوين الثاني[7] ملك بيت

1– أحمد الشامي: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، (د.ط)، دار النهضة العربية، القاهرة، 1985، ص 64، Beschelle, Louis Nicolas : op. cit, p175.

2– جنوة: Gene مدينة تجارية تقع في شمال إيطاليا على البحر التيراني، وشكلت ميناء هاما زمن الحروب الصليبية، محمد سيد نصرو وآخرون: أطلس العالم، ص 79.

3– بيزا: pise مدينة تقع شمال غرب إيطاليا جنوب جنوة على ساحل البحر التيراني، ميناء هام كان منطلق الحجاج المسيحين نحو روما، المرجع نفسه، ص 79.

4– أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص 21– 22، عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 34.

5– كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ترجمة أحمد الشيخ، ط1، سينا للنشر، مصر، 1995، ص170.

6–محمد سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص20.

7– بلدوين الثاني: هو بلدوين دي بورج ينحدر نسله من أسقفية ريمز أبوه هو هيج وأمه كونتيسة مليراند، وهو قريب بلدوين الأول خلفه أولا في ولاية الرها عام 493 هـ/1100م ثم خلفه عندما أصبح ملكا لبيت المقدس عام 512هـ/1118م واتخذ اسم بلدوين الثاني، وليم الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 477، 479، شارتري: المصدر السابق، ص96.

المقدس تجار مرسيليا حيا خاصا بهم في مدينة القدس عام 512هـ/1118م، ثم منحهم بلدوين الثالث[1] عام 547 هـ/1152م إعفاءات من الضرائب في كافة الموانئ التابعة لمملكة بيت المقدس[2].

وهكذا يتأكد لنا أن الحركة الصليبية اصطبغت بالصبغة الاقتصادية فكثير من المدن التجارية والأفراد والجماعات الذين أيدوا الحملة وشاركوا فيها ليس همهم ابتغاء مرضاة الرب، وإنما جريا وراء جمع الثروة وإقامة المستوطنات، وأن البندقية مثلا لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى – الحملة الرابعة– فوجهتها نحو القسطنطنية قلعة الكنيسة الشرقية بدلا من تركها تسير في طريقها الطبيعي المرسوم لها ضد المسلمين، وذلك عندما رأت أن مصالحها المادية الصرفة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس مصر[3].

3- الدوافع الاجتماعية:

عاش الغرب اللاتيني خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي حالة كبيرة من الضنك والضيق نتيجة الحروب الداخلية المتواصلة بين السادة الاقطاعين والتي كانت سببا في املاق الريف وهجرة سكانه جراء أعمال النهب والحرق[4]، كما عاني الريف في هذه الفترة من قحط المواسم الزراعية والكوارث الطبيعية وانتشار الأوبئة والأمراض، حيث يذكر في سنة 487هـ/1094م أن وباء الطاعون قد أفنى عدد غير قليل من سكان منطقتي اللورين ونورمنديا بفرنسا، ونتيجة لهذا كله صار الغرب الأوروبي

1- بلدوين الثالث: تولي الحكم بعد وفاة والده سنة 537هـ/1142م وكان عمره ثلاثة عشر سنة حكم حوالي عشرين عاما، كان شخصية قوية وله أعمال جليلة، وليم الصوري: المصدر السابق، ج3، ص 230.

2- عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج1، ص34.

3 – J. collin de plancy : op. cit, p 257, Beschelle Louis Nicolas : op. cit, p 205, 208.

4- أحمد الشامي: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص64.

يعيش حالة من العوز الشديد وأمس الجوع حديث الخاص والعام حتى أكل الناس لحوم البشر[1].

كما شهد هذا القرن توطد نظام الاقطاعية والقنانة في الغرب الأوروبي، وصار نيره يشتد أكثر فأكثر ويثير سخط الأقنان ورقيق الأرض من جراء تراجع الاقتصاد العيني، حينما أخذت النقود تقتحم حياة المجتمع الاقطاعي – بتنامي المدن ومعها حركة التجارة–، فصار الاقطاعيون لا يكتفون بالجزية العينية– السخرة من الأقنان– بل تعاظمت مطامعهم وصاروا أشد تطلبا حين فرضوا على الأقنان فريضة المدفوعات النقدية عوضا عن الجزية العينية، الأمر الذي زاد في إرهاق هذه الطبقة البائسة[2].

والواقع أن هؤلاء الفلاحين الذين كانوا يمثلون غالبية المجتمع عاشوا في غرب أوروبا عيشة منحطة في ظل نظام الضيعة حين سخروا لخدمة وسد حاجة الطبقتين الأوليتين –النبلاء ورجال الدين–، وأن معظم هؤلاء الفلاحين من الأقنان ورقيق الأرض ارتبطوا ارتباطا وراثيا بالأرض فقضوا حياتهم محرومين من أبسط الحرية فكل ما يملكه القن يعتبر خاصا لسيده بمقتضى نظام الالتزامات الاقطاعية[3]، وفي الوقت الذي كان الفلاحون يبحثون عن سبل الخلاص والفرار من حياة الذل والهوان ومن جحيم الالتزامات والخدمات الاقطاعية، عملت الكنيسة ذاتها على تثبيت الوضع القائم وكانت حصنا روحيا لعموم طبقة الاقطاعين بمطالبة الفلاحين التحلي بالصبر الاستكانة للأسياد بقولها: أن النظم الأرضية والاقطاعية، هي من صنع الرب وأنه لا يمكن ولا يصح تغييرها، كما عدت المطعين بالجنة والعصاة بالجحيم الأبدي بعد الموت[4].

1– زايوروف: المرجع السابق، ص16.

2– المرجع نفسه، ص 15.

3– عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 35.

4– رايوروف: المرجع السابق، ص19.

وفي ظل هذه الظروف الشاقة والمليئة بالذل والهوان تعاظمت الميول الدينية في الريف الأوروبي بانتشار الروح الزهدية والنسكية والتقشفية وصارت من السمات الاجتماعية التي ميزت الفئات السفلى، خاصة بعد ما تولد لديها شعور أن ما لحق بها من بلايا طبيعية واجتماعية هو عقاب من السماء وأنه لا يمكن التخلص من العذابات اليومية إلا بالتوبة والتكفير عن الذنوب[1]، وقد وجد هذا التحرق في الدعوة الصليبية أثمن وسيلة وغاية للتخلص من اضطهاد الأسياد وحياة الفاقة، وبخاصة أن الكنيسة قد دعتهم للمشاركة في الحرب المقدسة نظير ذلك فأرتموا في أحضان الشرق طمعا في حياة أفضل رغم الخطوب والمخاطر.

4- الدوافع السياسية:

لم تخلوا الحملات الصليبية من النزعة السياسية وأطماع الملوك والأمراء فقد خرج العديد منهم من أوروبا نحو أراضي الشرق ليس حبا في تخليص الضريح المقدس وانتزاع بيت المقدس من العابثين كما يزعمون، وإنما جريا وراء أطماع سياسية لم يتمكنوا من تحقيقها في بلادهم أو للحفاظ على عروشهم، باستثناء لويس القديس[2] ملك فرنسا الذي اشتهر بورعه وتقواه وتدينه حتى أنه لقب بالقديس والذي أراد أن يعبر عن حماسته الدينية تعبيرا عمليا بالمشاركة في الحركة الصليبية[3].

1- أرست باركر: الحروب الصليبية، ص 22، زابوروف: المرجع السابق، ص17.

2- لويس التاسع: Louis IX (1214- 1270م) ملك فرنسا (1226م- 1270م) تزعم الحملة الصليبية السابعة عام 1248م فأسر في المنصورة بمصر عام 1250م، ثم عاد إلى فرنسا عام 1254م وراح يعد العدة لحملة صليبية جديدة ولكنه مات بالطاعون وهو في حملته على تونس، ويعرف بالقديس، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص394.

3- عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 37، J. collin de pluncy : op. cit, p. 290- 292.

فقد خرج بعض ملوك أوروبا تحت تأثير وضغط البابوية وإلحاحها بل وتهديدها في كثير من الأحيان، ومن أبرز الأمثلة عن ذلك ما حدث للإمبراطور فردريك الثاني[1] الذي أخذ البابوات الواحد بعد الآخر يلحون عليه في الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ضد المسلمين لكن الإمبراطور أخذ يماطل مرة بعد أخرى لأنه كان لا يرى دافعا يدفعه إلى القيام بمثل ذلك، فأخذت البابوية تتوعده وتهدده حتى أصدرت بحقه قرار الحرمان والطرد[2]، وعندئذ خرج مكرها لا بطلا على رأس فئة قليلة من رجاله قاصدا الشام وبادر بمجرد وصوله إلى الاتصال بالسلطان الأيوبي الكامل[3] ليشرح له موقفه أنه: ماله غرض في القدس ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج[4]، ويتضح من كلامه أنه خرج مضطرا للمحافظة على تاج ملكه وولاء شعبه، لأن الإمبراطور إذا صدر في حقه الحرمان فقد عرشه وولاء شعبه.

أما الأمراء الذين انضموا إلى الحملات الصليبية فقد اشتهروا بأنهم سياسيين ولم يكونوا متحمسين للدين، بل نزحوا إلى الشرق للحصول على مجد وطموح سياسي دنيوي –تأسيس إمارات– لم يتمكنوا من تحقيقه في بلدانهم لأن الرفعة السياسية في الغرب

1– فريديريك الثاني: Frederick(1194– 1250م)، رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1220م– 1250م) ملك صقلية (1197م– 1250م) تميز عهده بالصراع مع البابوية من أجل السيطرة عن إيطاليا، قاد الحملة الصليبية السادسة (1228م– 1229م) توج نفسه ملكا على القدس عام 1229م وعند عودته من الشرق نشب خلاف بينه وبين البابا Gregory IX، ثم بينه وبين البابا اينوست الرابع innocent IIV البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص329.

2– أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص21، عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج1، ص 37.

3– السلطان الكامل: ناصر الدين أبو المعالى محمد ابن العادل أبي بكر بن أيوب (576 ه– 636هـ/1180م– 1238م) سلطان أيوبي (615 ه – 636 هـ/1218م– 1238م) قاتل الصليبيين في مصر وأكرههم على الانسحاب عام 618 هـ/1221م، ينازل عن القدس عام 627 هـ/1129م للإمبراطور فريدريك الثاني، الذهبي: العبر، ج3، ص 223– 224، البعلبكي: المرجع السابق، ص 358.

4– المقريزي: السلوك، ج1، ص 23،

J.collin de plancy ; op. cit, p 273, Beschelle, louis Nicolas : op. cit, p 213, 218.

اللاتيني لا تتأتى إلا بالقدر الذي يملكه الأمير من الأرض على غرار الأمير بو هيمند[1] الذي صار مصدر إلهام الأمراء المحرومين ومثير الهمم.[2]

لعل ما يفسر لنا طغيان المطامع السياسية والمكاسب الاقتصادية هو كثرة الخلافات والحروب التي كانت تقع بين الأمراء على السلطة والمراكز الهامة، حيث تذكر المصادر التاريخية أن أمراء الحملة الصليبية الأولى أخذوا يقسمون الغنائم وهم في طريقهم إلى الشام قبل أن يستولوا على الغنيمة، كما استحكم الخلاف بينهم على إمارة أنطاكية بعد فتحها عام 491 هـ/1098م، حيث رغب كل منهم الفوز بها حتى أن بعضهم تخلي عن مواصلة المسيرة ومشاركة إخوانه في الزحف نحو بيت المقدس[3]

كما هيأت الحروب الصليبية لطبقة الفرسان الفرصة لإشباع نزعة الفروسية والحرب والقتل الكامنة في نفوسهم والتعبير عن مهاراتهم الحربية وشجاعتهم وبخاصة أن هؤلاء الفرسان ارتبطت حياتهم بالحرب والفروسية في ظل النظام الاقطاعي والتنافس على الأرض، على خلاف حياة السلم التي دعت إليها الكنيسة في أوروبا قبيل الحروب التي كانت تعني لهم البطالة والعطالة[4]، وعليه فقد وجد هؤلاء الأمراء والفرسان في نداء البابوية أثمن الفرص لتعويض ما فاتهم في الغرب اللاتيني واستنفاذ قدر من تلك الطاقة العاطلة، وحتى أولئك الأمراء الذين كانت لهم اقطاعات وأراضي في بلادهم وجدوا في هذه المشاركة فرصة لتحقيق مجد أكبر وجاه أعظم.

1- بوهيمند الأول: Boehmont أمير بارنيو ابن روبرت جيسكارد دوق أبوليا، كان من قواد الحملة الصليبية الأولى وضم جيشه عناصر من النورمان، وهو أول أمير صليبي على إمارة انطاكية بعد احتلالها 491 هـ-541هـ/1098م-1111م، وليم الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 110.

2- J.Collin de plancy : op.cit, p 14

أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص21.

3- عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 39.

أرنست باركر: المرجع السابق، ص22.

4- محمد سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص20.

ويتحصل لنا مما سبق أن الحروب الصليبية ليست وليدة عامل واحد من هذه العوامل وإنما هي نتيجة لتفاعل العوامل الفكرية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، على الرغم من تلك الحروب قد اصطبغت بالصبغة الدينية على أساس أن العامل الديني برز كموحد إيديولوجي بين مختلف أطياف المجتمع الأوروبي، فقد رحب بها المتدينون وأنيس بها الأقنان لتحريرهم وطربت بها المدن التجارية الإيطالية وهلل لها الأمراء والفرسان، في هذا السياق يقول وول ديورنت:[1] "أن الحروب الصليبية كانت الفصل الأخير من مسرحية العصور الوسطى ولعلها أجدر الحوادث بالتصوير في تاريخ أوروبا والشرق الأدنى ففيها عمد الديانتان العظيمتان المسيحية والإسلام في آخر الأمر بعد قرون من الجدل والنقاش إلى الفصل الأخير فيما يشجر بين بني الإنسان من نزاع نعني به محكمة الحرب العليا".

1- قصة الحضارة، ج15، ص 15.

المطلب الثالث: الحملات الصليبية على بلاد الشام:

الحملات الصليبية ثمانية مشهورة منها أربع نحو الشام وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان على مصر الخامسة والسابعة والرابعة على القسطنطينية، والثامنة على شمال إفريقيا –تونس–[1]، غير أننا لن نخص كل هذه الحملات بالدراسة، بل سوف نقتصر فقط على الحملات التي وجهت نحو بلاد الشام.

الحملة الأولى: 489 هـ– 492 هـ/1095م – 1099م:

في ذي القعدة من سنة 489 هـ/27 نوفمبر 1095م وفي حفل فسيح أقيم في مدينة كليرمونت وأمام جمع غفير من الكنسيين والعلمانيين خطب البابا أوربان الثاني خطابا حماسيا دعا فيه إلى مد العون لإخوانهم في الشرق وتحرير الأماكن المقدسة من أيدي العابثين والكفرة – المسلمين– على حد تعبيره، وفي نهاية خطابه وزع صلبان مصنوعة من القماش على جموع المحتشدين ليخيطونها على ملابسهم ولذاك صار الصليب شارة لكل فارس مشارك في الحملة الصليبية[2].

ولم يكتف البابا أوربان الثاني بما قاله في كلير مونت بل أخذ يجوب مدن الغرب الأوروبي داعيا الأمراء والفرسان ورجال الدين إلى الحرب المقدسة لتخليص قبر المسيح وطل على مدى ثمانية شهور ينتقل من مدينة إلى أخرى مرغبا الجميع بالمكاسب الدنيوية والدينية، وبعدما تيقن من نجاح دعوته تم تحديد يوم 22 شعبان من عام 489 هـ/15 أغسطس 1096م موعد انطلاق الحملة حين تكون المحاصيل الزراعية وقد جمعت واختيرت مدينة القسطنطينية على أن تكون مكان تجمعهم[3].

1– سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 26.

2– فوشيه شارتري: المصدر السابق، ص36، ول ديورانت قصة الحضارة، ج15، ص 14،
Rene Gousset : l'épopée des croisades, p9.

3– سميث جوناثان: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ص27– 28.

وعليه فقد خلفت دعوة البابا أوربان الثاني موجة كبيرة من الحماسة في مدن فرنسا وغيرها من المدن الأوروبية إلى درجة أن البعض خرج إلى الزحف قبل موعد الحملة، حيث خرج المغامر الفرنسي ولتر المفلس في 11 جمادى الأولى من عام 489 هـ/8مارس 1096م مع عدد قليل من الفرسان، ثم تبعه بطرس الناسك على رأس حملة شعبية –غير منظمة– من الفلاحين والفقراء في 24 جمادى الثانية/20 أفريل من نفس السنة[1]، وكان تحرك بطرس الناسك ومن سبقه عصيان لأوامر البابا الذي حدد موعد انطلاق الحملة في 22 شعبان 489هـ/15 أغسطس 1096م.

وصلت حملة بطرس الناسك القسطنطينية يوم 6 شعبان 489هـ/30 يوليو 1096م وسط سخط وغضب الإمبراطور البزنطي الكسيوس كومنين[2] من أعمال النهب والسلب والحرق التي اقترفها الصليبيون في أراضي الإمبراطورية، فعمل على التخلص منهم بتسهيل عبورهم إلى آسيا الصغرى[3]، لم يتريث قادة الحملة عند أحد المراكز الحصينة غرب مضيق البوسفور حتى تلتحق بهم الجيوش النظامية بل استعجلوا المسير والزحف نحو مدينة نيقية مركز السلطان السلجوقي قلج أرسلان[4]، وكان عدد الصليبيين خمسة وعشرين ألفا بينهم خمسمائة فارس ولم يستطيع الصليبيون الصمود أمام قوة السلاجقة المدربين وتلقوا هزيمة قاسمة ولم ينج من الصليبيين سوى ثلاثة ألاف[5]، وقد أسرت هذه

1– وليم الصورى: المصدر السابق، ج1، ص112، Rene Grousset : op.cit, p 15.

2– الكسيوس كومنين: كان يشغل وظيفة كبير الحجاب، مدير شؤون القصر الإمبراطوري – وكانت هذه الوظيفة تلي مباشرة الإمبراطور، وتولي الكسيوس حكم الإمبراطورية بعد أن خلع سيده نقفور الثالث 471 هـ– 474 هـ/1078م – 1081م، وليم الصوري: المصدر السابق، ج1، ص115.

3– توديبود بطرس: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص 62.

4– وليم الصوري: المصدر السابق، ص145.

5– فوشيه شارتري: المصدر السابق، ص 65.

الهزيمة الإمبراطور البزنطي الذي سمح بعودة الصليبيين الناجين بعد تجريدهم من أسلحتهم[1].

وبذلك أخفقت الحملة الصليبية الشعبية التي قادها بطرس الناسك وعادت أدراجها قبل وصولها إلى بلاد الشام ويرجع سبب ذلك الإخفاق إلى سوء التنظيم وأعمال السطو والنهب التي قام بها جند الحملة فضلا عن قوة السلاجقة الأتراك. وفي 22 شعبان 489هـ/15 أغسطس 1096م تحركت الحملة الرسمية – حملة الأمراء- ويلاحظ على هذه الحملة أنها لم تضم في صفوفها كبار ملوك أوروبا[2]، حيث تزعمها عدد كبير من الأشراف والأمراء الفرنسيين لذلك عدت الحملة في حد ذاتها مغامرة فرنسية[3]، وتألفت الحملة من أربعة جيوش رئيسية الجيش الأول بقيادة الأمير جودفرى –بوبون[4] وضم عدد كبير من الزعماء وأصحاب المكانة[5]، وتولي قيادة الجيش الصليبي الثاني ريموند[6] وكان معه الأسقف أدهيمار[7] المندوب البابوي[8]، في حين تولي قيادة الجيش الثالث

1- توديبود: المصدر السابق، ص64.

2- غاب عن الحملة فليب الأول ملك فرنسا وهنري الرابع ملك ألمانيا بسبب حكم الحرمان الذي صدر بحقهما عام 488هـ/095م، فليب الأول بسبب علاقاته غير شرعية مع بيرتراد وهنري الرابع بسبب رفضه سلطة البابوية على الملوك الزمنيين، فوشيه شارتري: المصدر السابق، هامش 1، 2، ص 87.

3- محمود سعيد: تاريخ الحروب الصليبية، ص27-28،

J. Collin de plancy : légendes des croidades, p 41, 43.

4- جودفري أوف بوبون: كان يعرف بدوق اللورين السفلي، وهو ابن الكونت يوستاش وكان دوق اللورين بدون أولاد فتبنى ابن أخته جودفري ليكون ابنا له، وهو أول من تولى عرش بيت المقدس عقد احتلالها، الفيتري يعقوب: تاريخ بيت المقدس، ترجمة سعيد البيشاري، ط1، دار الشروق، عمان، 1998، هامش 2، ص 30.

5- وليم الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 145، Rene Grousset : op. cit, p 19.

6- ريموند الرابع: كونت تولوز وهو أول صليبي حمل الصليب في مجمع كلير مونت واتخذه البابا أوربان الثاني مستشارا له في هذه الحرب، ويعد نسبة من الأنساب المعقدة بسبب زواج والدته أكثر من رجل، توديبود: المصدر السابق، هامش 2، ص 83.

7- هو أدهيمار أوف مونتيل صار أسقف لابوي بمساعدة البابا جريجوري السابع، ولما حضر البابا أوربان الثاني إلى لابوي في 10 شعبان 488 هـ/15 أغسطس 1095م استشار أدهيمار بشأن خطبة مجلس كليرمونت وعينه البابا مندوبا عنه للحملة الصليبية، فوشيه الشارتري: المصدر السابق، هامش 14، ص88.

8 – J.collin de plancy : op. cit, p 41.

بوهيمند وضم معه عدد كبير من الإيطاليين، أما الجيش الرابع فقد كان بقيادة روبرت النورماندي[1] وكان معه حشد كبير من النبلاء[2].

وفي ربيع من عام 490 هـ/1097م اجتمع ما يزيد عن ستمائة ألف شخص في القسطنطينية ومن بينهم مئة ألف فارس[3]، ونصح الإمبراطور البزنطي قادة الحملة بأن يعقدوا اتفاقا مع الفاطميين في مصر خصوم السلاجقة قبل عبورهم القسم الأسيوي، وفي جمادى الأولى 490 هـ/أفريل 1097 م وصل وفد الإمبراطور إلى مصر ولقي ترحيب الملك الأفضل وطلب هذا الأخير من الوفد أن ينقل للإمبراطور تمنياته بالنجاح وأن يكون بوصفه صديقا على علم بأخبار تقدم الحملة[4].

ووصل الصليبيون إلى مدينة نيقية في شهر جمادى الأخر 490 هـ/يونيو 1097م، وأمام ضخامة الجيش الصليبي – ستمائة ألف مقاتل- قرر قلج أرسلان تسليم المدينة للإمبراطور البزنطي على أن يدخلها دون الصليبيين القادمين من أوروبا، وفعلا تسلم الإمبراطور المدينة في رجب 490 هـ/يوليو 1097م ولم يسمح بنهبها وسفك دماء أهلها[5]، وقد عبر حاكم مصر المستعلي بالله الفاطمي عن فرحته الكبيرة بهذا الانتصار الصليبي واعتبره مكسبا كبيرا لدولته.[6]

1- روبرت النورماندي: دوق نورماندیا وهو الابن الأكبر لوليم الفاتح ولد تقريبا عام 446هـ/1054م، وكانت مشاركته في الحروب الصليبية مخرجا له من مصاعبه التي كانت قائمة مع عائلته، وليم الصوري: المصدر السابق، هامش، ص225.

2- فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 41، J. Collin plancy : op. cit, p 44, 46.

3- أرست باركر: الحروب الصليبية، ص27، J. Collin plancy. Op. cit, p 52.

4- أمين معلوف: الحروب الصليبية كما راها العرب، ص 69، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريبي، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1996، ج1، ص393.

5- تود بيود: المصدر السابق، ص111.

6- وليم الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 221.

وبقدر ما كان سقوط مدينة نيقية الحصينة أثر إيجابي في تقدم الحملة نحو بيت المقدس بقدر ما أثارت طريقة فتحتها سخط الصليبيين على الإمبراطور البزنطي وحدوث انشقاقات بين القادة الصليبيين أنفسهم حيث توجه الإمبراطور البزنطي نحو الغرب لاسترجاع المزيد من الأقاليم البزنطية الأسيوية، أين تمكن من استعادة مدينة أفسوس[1] من قبضة السلاجقة[2]. في حين انقسم الجيش الصليبي إلى قسمين حيث انشق تنكرد[3] ومعه بلدوين الأول[4] واتخذوا طريق الجنوب الشرقي واستطاعوا إخضاع طرسوس بمساعدة سكانها النصارى.[5]

أما الفريق الثاني الذي كان تحت زعامة المندوب البابوي وجودفري نفسه وبوهيمند قد اتخذ طريقا شماليا صوب قيصرية[6] التي استولوا عليها في شوال 490هـ/سبتمبر 1097م[7]، ولم يخف بلدوين الأول طموحه في تحقيق مشروع خاص به بإنشاء إمارة صليبية يتولى حكمها بنفسه فاستغل فرصة قدوم مبعوثون من الرها يلتمسون منه تقديم العون لهم، فرحب بلدوين بذلك واستطاع دخولها بمساعدة النصارى الأرمن الذين كانوا يتخوفون من عودة حكم السلاجقة وذلك عام 491 هـ/1098م[8]، وفي ذلك يقول ابن

1- أفسوس: بلد بثغور طرسوس ويقال أنه بلد أصحاب الكهف، ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج1، ص 231.

2- سامي ملغوث: أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2009، ص46.

3- تنكرد: والده الماركيز إد ربونز وهو ينتمي إلى أسرة شهيرة، حقق مجد عسكريا قدم مع الحملة التي قادها بوهيمند وعمل مع الأمير جودفري ثم أصبح أميرا، وليم الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 215.

4- بلدوين الأول: كان دوق اللورين قبل الحملة أقام للفرنج إمارة في الرها عام 491 هـ/1098م، ثم اختير ملكا على القدس بعد وفاة جودفري 493هـ/1100م، الشاتري فوشيه: المصدر السابق، ص 51، وليم الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 477.

5- زايوروف: الصليبيون في الشرق، ص80.

6- قيصرية: تعد من أجمل مدن فلسطين وجعلها الرومان عاصمة فلسطين الأولى، ويقال أن الحاكم هيرود قام بإعادة بنائها وسماها قيسارية، ياقوت الجموى: معجم البلدان، ج4، ص 421.

7- وليم الصورى: المصدر السابق، ج1، ص239.

8- فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 52.

الأثير: " أن الفرنج كانوا قد ملكوا مدينة الرها بملكانية[1] أهلها لأن أكثرها أرمن وليس بها من المسلمين..." [2]، وبذلك استطاع بلدوين تأسيس أول إمارة صليبية في الشرق.

وفي الوقت الذي كان فيه بلدوين يوطد سلطانه في إمارة الرها توجه الجيش الصليبي الرسمي نحو أنطاكية، بعد حصارها من جميع الجهات تمكن بوهيمند من دخولها في 1 رجب 491 هـ/يوليو 1098م ونكل بأهلها وقد ذكر ابن القلانسي أن شعاب المدينة وطرقاتها امتلأت بجثث القتلى حتى عدا من المستحيل السير فيها[3]، وفي غمرة النشوة بالنصر على المسلمين في أنطاكية أخذ الصليبيون يتنصلون من الاتفاق الذي حصل بينهم وبين الفاطميين – بالحفاظ على نفوذ الفاطميين في بلاد الشام بما فيها بيت المقدس– عندما عقدوا مجلسا للحرب في ذي الحجة 491 هـ/نوفمبر 1098م بكنيسة بطرس بأنطاكية وأجمعوا على استئناف الزحف نحو بيت المقدس[4]، وفي طريقهم إليها هاجموا معرة النعمان ولم يكن بوسع أهلها الصمود فسلموا المدينة بعد أن أمنهم الصليبيون على حياتهم في 14 محرم 492 هـ/11 ديسمبر 1098م[5]، غير أن الصليبيين نكثوا بالعهد وغدروا بأهل المدينة فراحوا يقتلون الصغير قبل الكبير حيث وقفت المصادر عن أكثر من عشرين ألف قتيل كما قاموا بإحراق مساجدها وهدم دورها[6].

1– الملكانية: طائفة مسيحية تقول أن عيسى عليه السلام – إله تام وإنسان تام كله وليس أحدهما غير الأخر وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل وأن الإله منه لم ينله شيء وأن مريم ولدت الإله والإنسان، وهم أصحاب ملكا الذي ظهر في الروم، استولى عليها، الشهر ستاني: الملل والنحل، ج1، ص 222، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تعليق المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب، ط1، بيروت، 1986، ص 199.

2– الكامل في التاريخ، ج7، ص 155.

3– ذيل تاريخ دمشق، ص 135، توديبود: المصدر السابق، ص 182، J. collin de plancy : op. cit, p 78.

4– وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 26.

5– ابن العديم: زبدة الحلب، ص 244.

6– ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص136.

ابن شحنة: الدر المنتخب، ص 217.

وفي 19 صفر 492 هـ/15 يناير 1099م خرج ريموند من معرة النعمان على رأس جيش مقداره ثلاثين ألف جندي زاحفا على بيت المقدس بينما بقى بوهيمند بأنطاكية[1]، فمروا بمصياف[2] في 26 صفر 492 هـ/22 يناير 1099م فعاهدهم أميرها ومنها إلى حصن الأكراد[3]، ثم واصلوا طريقهم نحو طرابلس التي أدركوها في 19 جمادى الثانية 492 هـ/13 مايو 1099 م أين لاطفهم أميرها ابن عمار فأطلق ما عنده من أسرى الصليبيين وأغدق عليهم الأموال وكل ما يحتاجونه من خيل ومؤن وأدلاء.[4]

ثم توجهوا نحو الرملة وتمكنوا من احتلالها في 11 رجب 492 هـ/3 يونيو 1099م بعد أن هجرها أهلها عقب سماعهم نبأ وصول الصليبيين[5]، ثم شق الصليبيون طريقهم صوب المدينة المقدسة في 14 رجب 492 هـ/6 يونيو 1099م وفي طريقهم أخضعوا قرية عمواس[6]، وفي 15 رجب 492 هـ/7 يونيو 1099م التأم جمع الصليبيين الصليبيين عند بيت المقدس التي كان عليها افتخار الدولة الفاطمية[7]، وقد واجهت القوات الصليبية صعوبات جمة أثناء حصارها لبيت المقدس نتيجة ارتفاع درجة حرارة الصيف وقلة الماء والطعام، حيث تذكر المصادر أن حاكم المدينة افتخار الدولة قام بتسميم الآبار وإخفاء المواشي وتحيد النصارى وتجنيد المصريين والسودانيين في الدفاع عن المدينة[8]

1- وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 41- 42.

2- مصياف: حصن مشهور بالساحل الشامي، يقع قرب مدينة طرابلس ويسمى أيضا مصياب، ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج5، ص 144.

3- حصن الأكراد: حصن منيع يقع بين بعلبك وحمص، المصدر نفسه، ج2، ص 264.

4- توديبود: المصدر السابق، ص 293، عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 230.

5- فوشيه الشارتر: المصدر السابق، ص70، توديبود: المصدر السابق، ص 294.

6- عمواس: هي كورة من فلسطين تبعد ستة أميال عن الرملة على طريق بيت المقدس، ياقوت الحموى: معجم البلدان، البلدان، ج4، ص 157.

7- وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 93- 94، الشارترى فوشيه: المصدر السابق، ص70.

8- وليم الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 94، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ص 126.

وفي 22 شعبان 492 هـ/14 يوليو 1099م بدأت المعركة الحاسمة عندما هم الصليبيون إلى اقتحام أسوار المدينة عن طريق أبراج عالية حيث نصب برجان أحدهما على باب صهيون والثاني على بابا العمود ليكونا مطية للجند، ورغم مقاومة المسلمين إلا أن القوات الصليبية تمكنت من الولوج إلى ساحة المدينة بعد اقتحام أحد الأسوار لتسقط بيت المقدس في يد الصليبيين يوم الجمعة 23 شعبان 492 هـ/15 يوليو 1099م بعد حصار دام 38 يوما[1].

وكان سلوك الصليبيين المنتصرين غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب – ض– نحو النصارى حين دخل بيت المقدس فاتحا عام 16 هـ/637 م، حيث أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ولا يكرهون على دينهم – الذي عرف بعهد عمر لأهل إيلياء–[2][3]، في حين ارتكب الصليبيون الأتقياء وباسم المسيح أبشع الجرائم الجرائم في حق المقدسين المسلمين ولم يستثنوا امرأة ولا ولدا وشيخا، وفي ذلك يقول وليم الصوري:[4] "شهدت أرجاء المدينة مذبحة فضيعة الشناعة وكان الدم المسفوك مخفيا حتى حتى أن المنتصرين أنفسهم ساورهم الإحساس بالخوف وشعرو بالقزز". ولم يكن غوستاف لوبون أقل صراحة من ذلك عندما نقل لنا رواية الكاهن ريموند أجيل[5] والذي

1– فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص 76، ابن الأثير: الكامل، ج7، ص 127، J.collin de plancy : op. cit, p 94.

2– إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس، وقيل معناها: بيت الله وسمي بيت المقدس إيلياء، وكانت إيلياء في قبضة الروم، وتم وتم فتحها في عهد عمر بن الخطاب 16 هـ/637م وكان أبو عبيد الله أمير الجيش، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص 384.

3– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص 501.

4– الحروب الصليبية، ج 2، ص 126.

5– ريموند أجيل: Raymand de Agills كان من الشهود العيان ومن كبار الفرسان الدين شاركوا في المعركة ومن المقربين للقائد ريموند كونت تولوز، وهو رجل دين متعصب وصف ما قام به الفرنج من أعمال ضد المسلمين بأنها أعمال تمت على يد جند المسيح ولهذا سوع أبشع الجرائم اقترفها الصليبيون في حق المقدسيين، له كتاب ترجم بعنوان تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس والذي يعد من أهم مصادر الحملة الصليبية الأولى، سهيل زكار: الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، 1993، ج 6، ص6.

شاهد عيان عن مجزرة بيت المقدس بقوله: " لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها..." [1]، وقد قدر ابن الأثير مجزرة ساحة الأقصى بأكثر من سبعين ألف قتيل من المسلمين[2].

كما لم تسلم مقدسات المدينة من السلب والنهب فقد عدد ابن الجوزي ما سلب في ذلك اليوم بقوله:[3] "فأخذوا من حول الصخرة اثنين وأربعين قنديلا من فضة زنة كل واحد منها ثلاثة ألاف وستمائة درهم وأخذوا تنورا من فضة زنته أربعون رطلا بالشامي وعشرين قنديلا من الذهب"، وعليه فقد دوّن الكثير من المؤرخين الشرقيين والغربيين هذه المجازر وبأوصاف مختلفة ولكنهم اتفقوا في حدتها وبشاعتها والتي طالت حتى خوارج النصارى واليهود.

أما افتخار الدولة حاكم المدينة الفاطمي فقد احتمى مع طائفة من جنده بمحراب داود – عليه السلام– وقاتلوا ثلاثة أيام لكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح وسلموا المحراب بعد أن أمنهم الصليبيون وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان[4]، بذلك صارت بيت المقدس الإمارة الصليبية الثالثة بعد الرها وأنطاكية، واختار الصليبيون جودفري أمير على بيت المقدس في 1 رمضان 492هـ/22 يوليو 1099م ولقب بحامي الضريح المقدس[5]، لتدخل مرحلة جديدة من الصراع الإسلامي الصليبي.

1- حضارة العرب، ص 338.

2- الكامل في التاريخ، ج7، ص 127، وذكر ابن كثير أن عدد القتلى ستون ألف، البداية والنهاية، ج12، ص 156.

3- المنتظم، ج17، ص 47، ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج5، ص181.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1، ص 128/ستيفن رنيسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 425.

5- فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص77.

الحملة الصليبية الثانية 542 هـ- 544هـ/1147م – 1149م:

شكلت إمارة الرها الصليبية الموغلة في أراضي الشام خطر كبيرا على المواصلات الإسلامية ولاسيما الطريق الواصل بين حلب والموصل وبغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كما عدت عائقا حال دون تحقيق وحدة إسلامية بين الشام والجزيرة الفراتية[1]، وبناء على ذلك تطلع أمير الموصل عماد الدين زنكي المتوفى عام 541 هـ/1146م إلى ضمها ورأي في فتحها ضرورة عسكرية وسياسية واقتصادية، وقد أتاحت له ظروف المنطقة وبخاصة الصراع الذي كان قائما بين ريموند أمير أنطاكية وجوسلين الثاني[2] أمير الرها حول مدينة كليكة[3]، فضلا عن وفاة الإمبراطور البزنطي يوحنا كومنين[4] الفرصة المناسبة لتجميع قواته وتوجيهها نحو الإمارة الصليبية[5].

استغل عماد الدين زنكي فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني ففرض عليها حصارا، وأثناء حصارها حاول عماد الدين استمالة المسيحيين الشرقيين ودفعهم إلى الخروج عن اللاتين إلا أنه فشل في ذلك، ورغم محاولة هيو الثاني[6] الاستماتة في الدفاع الدفاع عن المدينة مع قلة جنده – معظم الجيش كان برفقة جوسلين خارج المدينة-

---

1- محمد سهيل طفوش: حروب الفرنجة في المشرق، ط1،ظ دار النفائس، بيروت، 2011، ص 296.

2- جوسلين الثاني: هو نبيل فرنسي ابن جوسلين دي كورنتارى المعروف بجوسلين الأول وهو أحد أقارب الملك بلدوين الثاني الذي أغدق عليه المنح والاقطاعات وتولي إمارة الرها خلفا له ما بين سنتي 526 هـ- 539 هـ/1131م – 1144م، توفي عام 554هـ/1159م، وليم الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 553، ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص101.

3- كليكية: مملكة الأرمن مدينة صغيرة في جنوب شرق آسيا الصغرى، تشغل موضع إستراتيجي من الناحيتين العسكرية والتجارية تبعد عشرين ميلا عن أنطاكية، سامي بن عبد الله الملغوث: أطلس الحروب الصليبية، ص88.

4- يوحنا كومنين: حنا الثاني في كومنين (512 ه- 538هـ/1118م- 1143م) اعتلى العرش بعد وفاة أبيه الكسيوس كومنين، وكان من أكفأ أباطرة الروم وأخته هي أناكو مينا التي اشتهرت بكتابها الألكسياد، محمد مرسى الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البزنطية (د .ط)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994، ص 344- 345.

5- ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 377، محمد سهيل طفوش: المرجع السابق، ص 278.

6- هيو الثاني: كونت يافا ابن هيو الأول من مقاطعة أورليز، تولي كونتية يافا بعد وفاة والده ودخل في خلاف مع الملك فولك فعزل عن كونتية يافا عام 526هـ/1131م، وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 673.

استطاع جيش عماد الدين دك أحد أسوار المدينة قرب باب الساعات فأدفع المسلمون إلى داخل المدينة واستلمها عماد الدين زنكي في 6 جمادى الأخر 539 هـ/23 يناير في 1144م وأبقي على حياة سكانها المحلين وأعاد إليهم ما خسروه في حين تخلص من اللاتين[1]، وفي عام 564 هـ/1150م وقع الأمير جوسلين الثاني في الأسر وظل معتقلا سبع سنوات[2].

وقد أحدث سقوط إمارة الرها وتحريرها على يد عماد الدين زنكي زلزالا كبيرا في أوروبا والشرق حيث المستوطنات الصليبيين، فأسرع وفد من فرنج الشرق إلى البابا إيجنيوس الثالث يستغيثه كما ذهب وفد أخر من الأرمن يستنهض همم البابوية وملوك الغرب لاسترداد إمارة الرها، واستطاع القديس برنارد[3] إقناع البابا لينادي مرة أخرى بحمل السلاح لنصرة جنود المسيح وكان البابا وقتذاك في صراع مع الخارجين على الدين في روما فطلب إلى القديس برنارد أن يقوم بالدعوى ولاسيما أن هذا الأخير كان أعظم شأنا وأسمع صوتا من البابا نفسه[4].

وأتخذ القديس برنارد سبيله مباشرة إلى الملك لويس السابع[5] وأقنعه بأن يحمل الصليب ثم وقف والملك بجانبه وأخذ يخطب في الجمع الحاشد ومما جاء في خطبته البليغة والحماسية: " ... خذوا شارة الصليب في المقابل على غفران لكل الذنوب، إن

1- ابن الأثير: الكامل، ج 9، ص 132، إبن العبري: المصدر السابق، ص 157.

2- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 481.

3- القديس برنارد: رئيس دير كليرفو Clairvaux 484ه- 549هـ/1091م- 1153م، أكبر ملهمي الحملة الصليبية الثانية، وكان كثير التعصب دعا الصليبيين على مقاتلة المسلمين بدون هوادة وكان على قدر كبير من الذكاء والقدرة على الخطابة، زابوروف: المرجع السابق، ص 172.

4- غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص34، مصطفى وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، 1997، ص33، J. collin de plancy : op. cit, p 137.

5- لويس السابع: ملك فرنسا (542ه- 576هـ/1137م – 1170م) خلف أبيه لويس السادس، تميز عهده بالصراع والعداء بين فرنسا وانجلترا حامل لواء الحملة الصليبية الثانية على بلاد الشام رفقة الإمبراطور الألماني، سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1976، ص2133.

القماش الذي صنعت منه الصليبان لا يساوي الكثير إذا ما بيع، أما إذا تم ارتداؤه على كتف مخلص مؤمن فمن المؤكد أنه سوف يساوي مملكة الرب..."، ولم يكد يتم خطبته حتى تطوع الجمع كله لحمل السلاح وتبين ما كان معدا من الصلبان لا يكفيهم فمزق القديس برنارد مئزره ليصنع منه شارات الصليب، وكتب إلى البابا بقول: "إن المدائن والحصون قد خلت من سكانها ولم يبق رجل واحد لكل سبع نساء"[1].

ثم انتقل إلى ألمانيا واستطاع بحماسته وفصاحة لسانه أن يقنع الإمبراطور الألماني كنراد الثالث[2] بأن الحرب الصليبية هي الوسيلة الوحيدة لتوحيد مملكته[3]، وخرج لويس السابع على رأس جيش قوامه مائة ألف مقاتل ثم تبعه الإمبراطور الألماني على رأس سبعون ألف مقاتل[4]، واتخذ الجيشان طريقين مختلفين فالجيش الألماني اتخذ طريق البحر ورست سفنه على شواطئ أسيا الصغرى ثم عبر البوسفور وعلى أرض السلاجقة هاجمه المسلمون فتفرق الجيش الألماني وأجبر قسما كبيرا منه على العودة، في حين اضطر الإمبراطور كنراد الثالث إلى التخفي ويفلت من حصار السلاجقة ويصل إلى بيت المقدس، أما الجيش الفرنسي فسار بطريق البر حتى وصل إلى القسطنطينية وهناك عرف أن حشودا إسلامية كبيرة تنتظره في إمارة الرها فالتف حولها متجنبا الصدام معها متقدما نحو بيت المقدس[5].

1- ول ديورانت: قصة الحضارة، ج15، ص 30.

2- كنراد الثالث: Conrad III ملك ألمانيا (533هـ- 547هـ/1138 م - 1152م) مؤسس أسرة هو هنشافن Hohenstoufen المالكة توجه في خريف 542هـ/1147م إلى بلاد الشام مع الحملة الصليبية الثانية ثم عاد إلى القسطنطينية عام 543هـ/1148م وعقد حلفا مع الإمبراطور البزنطي لمقاتلة روجر الثاني ملك صقلية ثم عاد إلى ألمانيا، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص 377.

3- وول ديورنت: قصة الحضارة، ج15، ص31.

4- مصطفى وهبة: المرجع السابق، ص33.

5- غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص 340، وول ديورانت: قصة الحضارة، ج15، ص 32.

وفي بيت المقدس اتفق كل من الملك الفرنسي لويس السابع والإمبراطور الألماني كنراد الثالث مع بلدوين الثالث[1] ملك بيت المقدس على الزحف نحو دمشق واحتلالها على الرغم من أنه كان هناك حلفا معقودا في ذلك الوقت بين أمير دمشق معين الدين[2] وبين الصليبيين على ألا يهاجموا دمشق نظير جزية يدفعها لهم[3].

وهكذا حاصر الصليبيون مدينة دمشق التي كانت بالغة القوة والتحصين وفي الوقت نفسه سارعت لنجدة دمشق قوة إسلامية من الموصل وحلب، فتغلب دعاة الانسحاب وانقسم الجيش الصليبي إلى فرق صغيرة فارا إلى أنطاكية أو عكا أو بيت المقدس، وأصيب كنراد الثالث بمرض ثم رجع مسربلا بالعار نحو ألمانيا أما لويس السابع فقد بقي في بيت المقدس عاما آخر يحج فيه إلى الأضرحة المقدسة[4].

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية التي هدفت إلى استرداد إمارة الرها كما فشلت في احتلال دمشق، ولم تكن هذه الحملة بأحسن من سلوك الحملة الأولى فقد اقترف الصليبيون جرائم ومظالم وهم في طريقهم إلى بلاد الشام[5]، كما اهتزت أوروبا لما أصاب هذه الحملة من إخفاق شنيع وأخذ الناس يتساءلون كيف يرضى الرب أن يذل المدافعون عن دينه هذا الإذلال المنقطع النظير، بل هناك من ذهب إلى مهاجمة القديس برنارد ووصفوه بأنه خيالي ومتهور يرسل الناس ليلاقوا حتفهم، ورد عليهم برنارد بقوله:

1- بلدوين III: تولي الحكم بعد وفاة والده فولك ألا نجوى سنة 537 هـ/1142م وكان عمره أنذاك ثلاثة عشر سنة، وليم الصوري: المصدر السابق، ج3، ص230.

2- معين الدين أنز: مدبر أمر دمشق وحاميها كان مملوكا أعتقه ظهير الدين طغتكين، وبعد وفاة جمال الدين من طغتكين عام 534 هـ/1140م صار معين الدين وصيا على العرش لابنه مجير الدين الذهبي: العبر في تاريخ من غير، ج 2، ص 466.

3- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 298- 299، الأصفهاني: تاريخ دولة أل سلجوق، ص 156.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص 158- 159، وول ديورانت، قصة الحضارة، ج15، ص 33.

5- غوستاف بوبون: المرجع السابق، ص 340- 341.

أن أساليب الله لا تدركها عقول البشر وإن الفاجعة التي حلت بالمسيحيين ربما عقابا لهم على ما ارتكبوه من ذنوب ومظالم.[1]

وكان من نتائج فشل الحملة الصليبية الثانية أن خضعت دمشق لسيطرة نور الدين محمود[2] سنة 549هـ/1154م بناء على رغبة أهلها الذين سئموا ظلم حاكمهم مجير الدين[3] وسياسة المهادنة مع الصليبيين[4]، وبضم دمشق توحدت الجبهة الإسلامية تحت قيادة نور الدين محمود واتجهت الأنظار نحو مصر التي كانت تعاني ضعف شديد.

وفي عام 559 هـ/1164م وأثناء انشغال عموري الأول[5] ملك بيت المقدس بمهاجمة مصر قام نور الدين محمود بمهاجمة أنطاكية وحصن حارم[6] ودار بينه وبين الصليبيين معركة حامية في أرتاح[7] هزم فيها الصليبيين شر هزيمة[8] وأسر جميع أمرائهم الذين اشتركوا في المعركة ثم استولى على حارم في ذي الحجة 559 هـ/أكتوبر 1164م[9]، وقد عدت هزيمة أرتاح من أعظم الكوارث التي لحقت بالقيادة الصليبية

1- وول ديورانت: قصة الحضارة، ج15، ص33.

2- نور الدين محمود: هو الملك العادل أبو القاسم محمود بن أتابك زنكي بن أقنسقر التركي نشأ على الخير والصلاح، تملك حلب بعد وفاة أبيه ثم أخذ دمشق سنة 549هـ/1154م، توفي عام 569هـ/1174م، ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص 187.

3- هو أبو سعيد مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد تاج الملوك يوري بن طهير الدين طغتكين تولي دمشق بعد وفاة أبيه عام 534هـ/1140م، توفي عام 564 هـ/1169م، الذهبي: العبر، ج3، ص42.

4- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 218 Besherelle, louis Nicolas : op. cit, p 181.

5- عموري الأول: هو الملك الرابع لمملكة بيت المقدس تولي الحكم فيها سنة 559هـ- 570هـ/1163م- 1174م بعد أخيه الملك بلدوين الثالث، وكان قبل ذلك كونت يافا وتزوج من أجنيس أخت جوسلين الثالث، وليم الصوري: المصدر السابق، ج3، ص 270، 273.

6- حصن حارم: حصين وكورة جليلة على طريق أنطاكية وهي الآن من أعمال حلب وفيها أشجار كثيرة ومياه، ياقوت ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 205.

7- أرتاح: من أعمال حلب بها حصن منيع، المصدر نفسه، ج1، ص 140.

8- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص309.

9- المصدر نفسه، ج9، ص 310- 311.

بأرض الشام وبفتح حصن حارم صار الطريق مفتوحا إلى إمارة أنطاكية، غير أن نور الدين محمود زهد فيها ليتجنب الاصطدام مع البزنطيين.[1]

وفي ربيع الأول 562هـ/يناير 1167م أعد نور الدين محمود الزحف على مصر بقيادة أسد الدين شركوه[2] بصحبة ابن أخيه صلاح الدين[3] مما جعل شاور[4] يلتمس المساعدة من الملك عموري الأول وتعهد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين وشيركوه من مصر[5]، وفي ربيع الثاني 564هـ/أفريل 1168م استطاع استطاع أسد الدين شركوه دخول مصر وعهد إليه الخليفة الفاطمي العاضد[6]بوزارته والقبض على الوزير شاور، وبعد شهرين من توليه الوزارة توفي أسد الدين في أواخر جمادى الأخر من عام 564هـ/يونيو 1168م، وبعد ثلاثة أيام قلد العاضد منصبه ابن أخيه صلاح الدين ولقبه بالملك الناصر.[7]

وعمل صلاح الدين على عودة المذهب السني بمصر والوقوف في وجه الصليبيين، ولما علم نور الدين محمود بثبات أقدام قائده بمصر وزوال المخالفون له وضعف أمر

1- محمد سهيل طفوش: المرجع السابق، ص 384.

2- أسد الدين شركو: بن شادي بن مروان بن يعقوب ولد في بلدة دوين في أذربيجان ونشأ في تكريت، ويرجع أصل أهله إلى الأكراد الروادية وصار من أكبر أمراء عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج16، ص 438، ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص 479.

3- صلاح الدين: السلطان الكبير الملك المظفر أبو المظفر يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي الدويني ثم التكريتي، تولي الوزارة في مصر وقهر الصليبيين في حطين 583 هـ/1148م توفي في عام 589 هـ/1193م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج21، ص 278- 279، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص 139.

4- شاور: أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار من قبيلة ربيعة العربية، تولي الوزارة في صفر سنة 558هـ/يناير 1163م، قتل في ربيع الأول من سنة 564هـ/ديسمبر 1168م، ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص351.

5- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص 327، ابن تغرى: النجوم الزاهرة، ج5، ص 348.
ابن تغرى: النجوم الزاهرة، ج5، ص 348.

6- العاضد: هو أبو محمد عبد الله يوسف بن الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم ولد سنة 546هـ/1151م، وتوفي عام 567هـ/1171م، ابن خلكان: المصدر السابق، ج3، ص 109، 111.

7- ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص 350- 351.

الخليفة العاضد كتب إليه يأمره بقطع الخطبة للعاضد وإقامتها للخليفة العباسي[1]، وفي يوم الجمعة الأولى من محرم 567هـ/سبتمبر 1171م تقدم رجل وصعد المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة المستضيء[2] العباسي فلم ينكر أحد عليه، وفي الجمعة التالية أمر صلاح الدين الخطباء بقطع الخطبة للعاضد[3] الذي مات ثلاثة أيام بعد إعلان الخطبة للعباسيين وبعد ذلك ألغي صلاح الدين الخلافة الفاطمية بمصر واستولى على خزانة المال وقام بتوزيع العطايا على عساكره[4].

ثم تطورت الأحداث سنة 569هـ/1174م بوفاة نور الدين محمود، فكانت فرصة سانحة لصلاح الدين لتحقيق وحدة بين مصر والشام وتوحيد الجبهة الإسلامية – مصر والشام والجزيرة –، واستطاع تحقيق ذلك بعد أن استولى على دمشق عام 570هـ/1174م وضم حلب في 579هـ/1183م وسط ترحيب سكانها وإعلان صاحب الموصل خضوعه لسلطته[5]، وبذلك دنت له معظم الأقاليم الإسلامية وحقق بغيته بتوحيد الجبهة الإسلامية التي وضع أسسها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ولم يبق له سوى تحرير بيت المقدس. وقد هيأ رينو دو شاتيون[6] المعروف عند العرب بأرناط صاحب الكرك[7] الفرصة لصلاح الدين لمحاربة الصليبيين وذلك

1- ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص48.

2- المستضيء بأمر الله: هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله بويع له بالخلافة بعد وفاة والده سنة 566هـ/1171م، توفي عام 575هـ/1180م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج21، ص 68، 70.

3- أبو شامة: الروضتين، ج2، ص 123- 124.

4- ابن شداد: النوادر السلطانية، ص86.

5- محمد سهيل طفوش: المرجع السابق، ص 444.

6- رينودو شاتيون: Renaud de chantillon فارس فرنسي خدم في جيش بلدوين الثالث وتزوج من كونستاس أميرة أنطاكية، وقع أسير في يد المسلمين ثم أطلق صراحه خاض عدة حروب مع المسلمين وفي عام 583هـ/1187م قتله صلاح الدين بعد معركة حطين، وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 814، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص52.

7- كرك: اسم لقلعة حصينة في طرف الشام من نواحي البلقاء، بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج 4، ص 453.

بنقض الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس سنة 580هـ/1185م لمدة أربع سنوات، فأنقض على قافلة مصرية قرب الكرك كانت في طريقها إلى دمشق في عام 583هـ/1187م فاستولى على جميع متاعها ورجالها وألقى بهم أسرى في حصن الكرك بعد أن قتل جندها بل تجرأ ورد على صلاح الدين قائلا: "قولوا لمحمد يخلصهم"[1]

وفي أواخر ربيع 583هـ/1187م أخذ صلاح الدين في تعبئة قواته وأعلن النفير للجهاد وأرسل لأمراء الجزيرة الفراتية وأتباعه في بلاد الشام ومصر يطلب منهم حشد مقاتلهم، وقد بلغت هذه الاستعدادات أمراء الصليبيين فعمل ملك القدس جاي لوريجيان على مصالحة خصمه كونت طرابلس ريموند الثالث ودعوته إلى الوحدة المقدسة ولم يلبث أن عقد مجلس في بيت المقدس لاتخاذ الإجراءات الكفيلة للدفاع عن المدينة المقدسة، وبعد إعلان لتعبئة العامة وصلت قوات صليبية من أنطاكية وطرابلس وعسكر الصليبيون عند صفوريه[2] بتعداد يقدر قرابة عشرين ألف مقاتل، وكان هذا العدد يوازي تقريبا جيش صلاح الدين[3].

وفي يوم 24 ربيع الثاني عام 583هـ/جويلية 1187م بدأت المعركة عند الهضبة التي تشرق على حطين شمال صفورية خسائر فادحة بالصليبيين وحافظ صلاح الدين على حياة الأسرى بما فيهم ملك بيت المقدس ما عدا أرناط الذي أهدر صلاح الدين دمه فقتله، كما غنم المسلمون صليب الصلبوت فكان ذلك من أعظم المصائب التي لحقت بالصليبيين[4].

1- ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص 188، 194،
المقريزي: السلوك، ج1، ص87.

2- صفورية: كورة وبلدة غرب عكا قرب طبرية، ياقوت الجموي: معجم البلدان، ج 3، ص414.

3- ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 96.

4- ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص 190- 191، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص129.

ثم عرج صلاح الدين في رجب 583هـ/سبتمبر 1187م إلى حصار بيت المقدس، واشتدت ضرباته على أسوار المدينة حتى أحدث ثغرة في إحداها، فلم يكونوا من الكثرة ما يجعلهم يصمدون طويلا فسلموا المدينة بشروط الأمان وكان ذلك يوم الجمعة 27 رجب 583هـ/أكتوبر 1187م يوم الإسراء والمعراج[1]، ولم يتعرض الفرنج للقتل والنهب مثل ما فعلوا هم مع المسلمين من قبل سنة 491هـ/1099م، كما سمحوا للمسيحيين البقاء بجوار مقدساتهم للتعبد حتى قيل أن الكثير منهم آثروا حكم صلاح الدين على حكم أمراء اللاتين.[2]

الحملة الصليبية الثالثة 585هـ- 588هـ/1189م- 1192م:

لقد كان لانتصارات صلاح الدين في موقعه خطين 583هـ/1187م واستيلائه على بيت المقدس بمثابة الصاعقة التي نزلت على أوروبا، حيث توفي البابا أوروبان الثالث (581هـ-583هـ/1185م-1187م) من هول الصدمة ودعا خليفته البابا غريغوريوس الثامن (583هـ- 583هـ/1187م- 1187م) بمنشور بابوي في شوال 583هـ/أكتوبر 1187م الكاثوليك إلى حملة صليبية جديدة وأمرهم بالصيام كل أسبوع في يوم الجمعة على امتداد خمس سنوات، كما أمرهم بالامتناع كليا في هذه الحقبة عن أكل اللحم مرتين في الأسبوع يومي السبت والأربعاء، ثم تلقف هذه الدعوة كليمنت الثالث (583هـ- 587هـ/1187م- 1191م) الذي خلفه بعد شهرين.[3]

كما عم الحزن في المدن الصليبية ببلاد الشام، حيث يروى ابن واصل أن الرهبان والقساوسة لبسوا الحداد حزنا على سقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين، بل أن منهم من وفد إلى الغرب الأوروبي مستنجدا بملوكها وأهلها على شاكلة وليم كبير أساقفة مدينة

1- ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص 197، الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص73.

2- عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص 99، 101.

3- زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص 193، J.Collin de plancy : légendes des croisades, p 200.

صور الذي أخذ يروي في الاجتماعات التي كان يعقدها في فرنسا وألمانيا وإيطاليا قصة سقوط بيت المقدس، ولتهيج مسيحي الغرب وإثارة حماستهم على الحرب صوروا السيد المسيح وجعلوا معه صورة رجل عربي يضربه بعصا وقد جعلوا الدماء قد سالت على وجه المسيح، وقالوا: هذا المسيح يضربه محمد (ص) نبي المسلمين.[1]

وقد اصطبغت الحملة الصليبية الثالثة من أول أمرها بصبغة فردية وذاتية حيث سرعان ما استجاب إمبراطور ألمانيا فردريك بربروسا[2] لهذه الدعوى رغم كبر سنه، ففي ربيع من سنة 585هـ/1189م تحرك برفقة ابنه على رأس جيش منظم قوامه ألف محارب سالكا الطريق البرى إلى القسطنطينية عبر هنغاريا.[3]

ولم يلبث أن أدى اقتراب الجيش الصليبي الكبير من بلاد الشام إلى إشاعة جو الرعب والفزع في البلدان الإسلامية، فبادر صلاح الدين إلى إرسال الوفود طالبا المعونة ومعلنا التعبئة العامة ولاسيما من الخليفة العباسي الناصر لدين الله[4][5].

وبالرغم من تمزق الجيش الألماني بعد موت الإمبراطور فردريك الأول، إلا أن ابنه استطاع قيادة ما تبقى من الجيش نحو مدينة عكا مشاركا في حصارها بمعية طوائف

1- مفرج الكروب، ج2، ص 288.

2- فردريك بربروسا: هو فردريك الأول Frederick Barbarossa (517ه- 586هـ/1123م- 1190م) ورأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة (550هـ- 586هـ/115م- 1190م) ملك ألمانيا (547هـ- 586هـ/1152م- 1190م) يعد من أبرز الملوك في أوروبا شجع الثقافة ووسع الإمبراطورية ووطد الأمن فيها، تزعم الحملة الصليبية الثالثة رغم كبر سنه – عمره ناهز السادسة والسبعين- مات غرقا وعرف بربروسا معناه ذو اللحية الحمراء، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص3232.

3- ول ديورانت: قصة الحضارة، ج15، ص39، Sismondi, J.C.L : Histoire des Français, wartz libraires, paris, 1823, p 86.

4- أبو العباس أحمد بن المستضئ بأمر الله ابن المستنجد بالله (553هـ- 622هـ/1158م- 1225م) الخليفة العباسي الرابع والثلاثون (575هـ- 622هـ/1179م- 1225م) دام حكمه خمسة وأربعين سنة، كان قلبا حولا لا يلتزم مسلكا أو موقفا حتى يبطله، كثير اللهو، الذهبي: العبر، ج3، ص 185، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص451.

5- الأصفهاني: الفتح القسى في الفتح القدسي، ص 207، 213.

صليبية سبقته إلى هناك، وكان على رأسها ملك بيت المقدس جان لوزيجيان الذي أسره صلاح الدين ثم أطلق سراحه[1].

كما اصطبغت الحملة الصليبية الثالثة كذلك بروح الشك والعداء المتأصلة بين ملكي فرنسا فليب أوغسطس[2] وملك انجلترا المتوج حديثا ريتشارد قلب الأسد – Richard Cœur de lion وكان شابا متوجها فوجد في الدعوة الصليبية فرصة ثمينة لتحقيق مجدا يكسبه فجر واحترام المسيحيين، لكنه في الوقت نفسه كان يخشى غدر الفرنسيين – الإغارة على مملكته في غيابه– فأصر أن يصحبه ملك فرنسا في حملته فوافقه فليب أوغسطس على ذلك[3].

وفي صيف من سنة 586هـ/1190م أبحر ملكا فرنسا وانجلترا على رأس جيوشهما الصليبية ليقضي كل منها فصل الشتاء في جزيرة صقلية، واكتملت جموع الصليبيين في عكا بوصول فليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد وسط فرح وابتهاج الصليبيين، وفي 7 جمادى الأخر 587هـ/جويلية 1191م تم الاستيلاء عليها بعد أن استعصت عليهم زهاء عامين[4].

ورغم انتصار الصليبيين في عكا غير أن الملك الفرنسي فليب أوغسطس لم يلبث وأن عاد إلى بلده وبقي ريتشارد قلب الأسد الزعيم الأوحد للحملة الصليبية الثالثة والذي سعي إلى استرداد مدن الساحل قبل الاتجاه صوب بيت المقدس، حيث تمكن من الاستيلاء

1– ول ديورانت: قصة الحضارة، ج15، ص 39– 40.

2– فليب أوغسطس: Philppe- Auguste (561هـ– 620هـ/1165م– 1223م) ملك فرنسا (575هـ– 620هـ/1179م– 1223م) أحد قواد الحملة الصليبية الثالثة، خاض عدة حروب ضد أنجلتر واستعاد من خلالها أجزاء من التراب الفرنسي، يعرف كذلك ب فليب الثاني Philippe II البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص342.

3– ول ديورانت: قصة الحضارة، ج15، ص40،.J.Collin de planay : op, cit, p 206, Sismondi. J.C.L, Op.cit, p 93

4– ابن الأثير: الكامل، ج10، ص 205– 206، ابن واصل: معرج الكروب، ج2، ص 355.

على حيفا وقيسارية وأرسوف[1] التي دارت على سهلها معركة عنيفة انتهت لصالح الصليبيين في 17 شعبان 587هـ/7 سبتمبر 1191م[2]، وتسببت هذه الهزيمة في انشقاق وعصيان بعض أمراء التركمان ورفضهم حماية مدينة عسقلان والتي لم يجد صلاح الدين بدا في تخريبها في 19 شعبان 587هـ/9 سبتمبر 1191م حتى لا تغنم من قبل الصليبيين، ويروى ابن الأثير سبب تخريب مدينة عسقلان فقال:[3] أن صلاح الدين استشار من كان معه فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب المدينة وقالوا له: "... فهم لا شك يقاتلوننا لننزاح عليها وينزلون عليها، وإذا أردفنا العودة يعظم الأمر علينا..." ويستخلص من هذا الرأي أن تخريب مدينة عسقلان جاء لمنع الصليبيين التحصن بها واتخاذها كقاعدة في توسعاتهم وكذلك حتى إذا أراد المسلمون استردادها لا يعظم عليهم الأمر ويسهل فتحها.

وفي شهر شوال من عام 587هـ/ديسمبر 1191م اقترب ريتشارد من بيت المقدس لاستردادها غير أن صلاح الدين أعد عدته للدفاع عن المدينة حين متن أسوارها- أنشأ صورا جديدا، وأمام ورود أنباء حول اختلال الأوضاع في مملكته وكثرة الطامعين في حكمه استعجل العودة بعد أن عقد صلحا مع صلاح الدين عرف بصلح الرملة في عام 588هـ/1192م، وتضمن الاتفاق هدنة مدتها ثلاث سنوات وثمانية أشهر، وأن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وأرسوف، أما عسقلان فتكون للمسلمين والرملة واللد مناصفة بين الجانبيين، كما يكون للنصارى الحق في زيارة أماكنهم المقدسة دون أن يؤدوا ضرائب للمسلمين[4]، وقد علق ابن واصل عن هذه الهدنة

1- أرسوف: مدينة على ساحل بلاد الشام بين قيسارية ويافا، ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج1، ص 151.

2- ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 264، J.Collin de plancy : op. cit, p210.

3- الكامل في التاريخ، ج10، ص 208.

4- الأصفهاني: الفتح القسى في الفتح القدس، ص 318، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص 218، J.Collin de plancy : op. cit, p 219.

فقال:[1] "... وكان يوم الصلح يوما مشهودا عم في الطائفتين الفرح والسرور..."، وعليه فقد انتهت الحملة الصليبية الثالثة دون تحقيق أهدافها – استرداد بيت المقدس–، بل حققت نتيجة جديدة وهي السلام الذي تم بين صلاح الدين ريتشارد قلب الأسد ملك الانجليز.

الحملة الصليبية السادسة 625هـ–626هـ/1128م–1229م:

كان للتعاون الوثيق والتعاضد الكبير الذي حدث بين أبناء السلطان العادل الثلاثة الكامل محمد[2] في مصر والمعظم عيسى[3] في دمشق والأشرف موسى[4] في إقليم الجزيرة الفراتية أثره القوى في إجهاض الحملة الصليبية الخامسة (610هـ–618هـ/1213م–1221م)، لكن هذا الارتباط لم يلبث وانفك عقده بين الإخوة الثلاث سنة 620هـ/1223م، نتيجة أطماع المعظم عيسى وجشعه[5].

وكان يمكن لهذا النزاع أن يبقى محصورا داخل الأسرة الأيوبية لولا التماس الأطراف الثلاثة المساعدة من قوى خارجية، حيث طلب المعظم عيسى المساعدة من جلال الدين محمد الخوارزمي لانتزاع مدينة خلاط[6] من الأشرف موسى، في حين متن هذا الأخير تحالفه مع أخيه الكامل حاكم مصر، وتحرك الكامل من جهته فالتمس المساعدة

1– مفرج الكروب، ج 2، ص 406.

2– هو السلطان الكبير الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي أبو المظفر محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق، تملك الديار المصرية أربعين سنة توفي عام 635هـ/1237م، ابن لعماد: شذرات الذهب، ج7، ص 301– 302.

3– هو الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، صاحب دمشق كان عالما فاضلا تملك مدينة دمشق حين وفاة والده، توفي فاضلا تملك مدينة دمشق حين وفاة والده، توفي عام 624هـ/1226م، ابن الأثير: الكامل، ج10، ص 474– 475.

4– هو الملك الأشرف مظفر الدين أبو الفتح موسى شاه ابن العادل، كان ملكا عفيفا يحضر مجالس الوعظ، صاحب دمشق توفي عام 635هـ/1237م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج22، ص 122، 126.

5– ابن الأثير: الكامل، ج 10، ص 468.

6– خلاط: وهي قصبة أرمينية بلدة عامرة مشهورة ذات خيرات واسعة والمياه الغزيرة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، البلدان، ج2، ص 380– 381.

من الإمبراطور فريدريك الثاني Frederick II الذي كان على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة (616هـ-648هـ/1220م-1250م)، وتبادل معه السفارات والهدايا وطلب منه المجيء إلى بلاد الشام للوقوف بجانبه ضد أخيه المعظم مقابل منحه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل[1].

في الوقت الذي كان الملك الكامل يستعجل فيه قدوم فريدريك الثاني إلى الشرق، كان البابا هونريوس الثالث (613هـ- 625هـ/1216م- 1227م) بدوره يضغط على الإمبراطور للقيام بحملة صليبية لإصلاح الوضع الذي غدا فيه الصليبيون بالشرق بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة، وإن كان البابا هونريوس قد توفي عام 625هـ/1227م، فإن خليفته جريجوري التاسع (225هـ-639هـ/1227م-1241م) تلقف الدعوة من سلفه بحماس وأصر على رحيل الإمبراطور نحو الشرق ولما رأى منه بعض التخاذل والتمارض أصدر بحقه قرار الحرمان في 16 شوال 625هـ/29 سبتمبر 1227م[2].

وأمام ضغط البابوية خرج فريدريك الثاني من بلاده قاصدا الشرق معتمدا على فكرة واحدة هي الحصول على بيت المقدس من الملك العادل، ويذكر ابن الأثير: أنه في سنة 626هـ/1228م وصل الإمبراطور إلى سواحل الشام – عكا-، غير أن خيبته كانت كبيرة عندما وجد الموقف قد تبدل بوفاة الملك المعظم عيسى في ذي القعدة 624هـ/نوفمبر 1227م، وأن الكامل لم يعد بحاجة إلى مساعدته بعد أن اتفق مع أخيه الأشرف على اقتسام بلاد المعظم عيسى[3].

وفعلا حصير الناصر داود- ابن الملك المعظم- وأخذت منه دمشق في رجب 627هـ/يوليو 1229م، وترك الكامل لأخيه الأشرف دمشق وعوض الناصر داود عنها

1- المقريزي: السلوك، ج1، ص 345.

J.Collin de plancy : op. cit, p 272- 273.

2- رنيسمان: المرجع السابق، ج3، ص 317، عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص 241.

3- ابن الأثير: الكامل، ج10، ص 481، رنيسمان: المرجع السابق، ج3، ص 329.

البلقان والصلت والأغوار والشوبك، في حين أخذ الكامل بقية البلاد الشرقية[1]، ومع ذلك أحسن الكامل بأنه ليس من مصلحته في تلك الظروف أن يصطدم بالصليبيين ويثير حربا معهم نظرا للخلافات الداخلية بين أمراء البيت الأيوبي من جهة وخطر الخوارزميين الذي استنجد بهم الناصر داود من جهة أخرى[2]، وأن حيرة الكامل لم تقل عن حيرة وحرج الإمبراطور فريدريك الثاني الذي خرج من بلاده محروما من الكنيسة معتمدا على وعد الكامل لمناولته بيت المقدس وتصحيح وضعه ومكانته في الغرب، كما أنه لم يكن باستطاعته الاعتماد على الصليبيين المحليين لأن المسيحي المخلص يأبي أن يتعاون مع رجل محروم من الكنيسة، فضلا عن ذلك أن جيشه لم يكن من الكثافة ما يكفي لخوض معركة كبيرة[3].

وهكذا لم يبق أمام الإمبراطور فريدريك الثاني سوى سلاح المفاوضة والاستعطاف لتسلم بيت المقدس، ويظهر ذلك في رسالة من بين عدة رسائل بعثها الإمبراطور للملك الكامل أثناء المفاوضات يقول فيها: " ... أنا مملوكك وعتيقك... وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خايبا انكسرت حرمتي بينهم... هذه القدس فهي أصل اعتقادهم فإن رأي السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد... فيكون صدقة منه ويرتفع رأسي بين ملوك البحر"[4].

ولم تلبث تلك الاستعطافات أن أتت أكلها وأفلحت في التأثير على الكامل ولاسيما بعد أن علم بتحصين مدينة يافا من قبل الإمبراطور فريدريك الثاني جعله يخشي حدوث اتفاق بين هذا الأخير وبقية الجموع الصليبية بالشام ضده، وهو الشعور الذي فسره

1- العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج4، ص209.

2- ابن واصل: مفرج الكروب، ج3، ص 187.

3- محمد سهيل طفوش: حروب الفرنجة في المشرق، ص600.

4- عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص 249.

المقريزي بقوله:[1] "... والحقيقة أن الكامل محمد خاف من عائلة الإمبراطور عجزا عن مقاومته...".

أمام هذه الظروف الصعبة اضطر السلطان الكامل التوقيع على اتفاقية يافا مع الإمبراطور في 22 ربيع الأول 626هـ/18 فبراير 1229م والتي تضمنت عدة بنود أبرزها: إقامة الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، وأن يأخذ الصليبيون بيت المقدس، بيت لحم والناصرة وغيرهم، وبخصوص بيت المقدس اشترط الصلح أن تبقى على ما هي عليه ولا يجدد أسوارها وأن الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوم من المسلمين ويقيمون فيه شعار الإسلام من الأذان والصلاة، فضلا عن إطلاق سراح الأسري من كلا الجانبين[2].

ولم يلبث الكامل أن أرسل مندوبا عنه إلى بيت المقدس فنادي بخروج المسلمين منها وتسليمها للصليبيين[3]، لكن تسليم المدينة بتلك السهولة أمر استعظمه المسلمون وأكبروه وأثار موجه من الغضب والسخط، حيث أعلن الناصر داود الحداد في دمشق كما أقيمت مجالس الوعظ في بيت المقدس، ويفصل المقريزي في مدى الأسى الذي حل بالمسلمين نتيجة تفريط الكامل في بيت المقدس بقوله:[4] "... فأشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان...، فعظم أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك الكامل في سائر الأقطار".

1- السلوك: ج1، ص 354.

2- ابن الأثير: الكامل، ج 10، ص481، العيني: عقد الجمان، ج 4، ص210، ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص 241.

3- المقريزي: السلوك، ج 1، ص 353، الحنبلي: الأنس الجليل، ج1، ص 406.

4- السلوك، ج1، ص 354.

وفي يوم السبت 19 ربيع الأخر 626هـ/مارس 1229م دخل الإمبراطور فريدريك الثاني المدينة المقدسة ولم يرافقه سوي عساكره من الألمان والإيطاليين وعدد قليل من الأمراء الصليبيين، واستقبله القاضي شمس الدين قاضي نابلس عند باب المدينة موفدا من قبل الكامل ليكون في خدمته وسلمه مفاتيح المدينة باسمه.[1]

وفي اليوم الموالي توجه الإمبراطور إلى كنيسة القيامة في موكب صغير ليشهد القداس فلم يكن بها أحد من القساوسه ولم يستقبله سوي عساكره والفرسان بعد أن رفض أي من رجال الكنيسة أن يقوم بتتويج الإمبراطور المحروم[2]، ثم زار المسجد الأقصى وطلب الكامل من المؤذنين عدم إقامة الأذان طيلة مدة وجوده في المدينة إعظاما للإمبراطور واحتراما له، غير أن هذا القرار جاء عكس ما كان يشتهيه الإمبراطور نفسه الذي استاء من هذا التصرف وخاطب القاضي شمس الدين بقوله: " والله أنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل".[3]

وبهذه النهاية المؤلمة انتهت الحملة الصليبية السادسة ورجع فريديريك الثاني إلى بلاده بعد أن استطاع مع ضعف إمكاناته أن يحقق ما عجز عنه أكبر ملوك أوروبا مجتمعين في صورة ريتشارد قلب الأسد وفليب أوغسطس... في الحملة الصليبية الثالثة، غير أن الخوارزميون استطاعوا استرجاع بيت المقدس بعد دعوة الصالح أيوب[4] حيث

1- رنيسمان، المرجع السابق، ج 3، ص 333.

2- المرجع نفسه، ص 334.

3- المقريزي: السلوك، ج1، ص 354.

4- هو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، سابع سلاطين بنى أيوب بمصر حكم من 638ه- 647هـ/1240م- 1249) أنشأ المماليك البحرية بمصر ودخل في صراع مع الملوك الأيوبين في لشام توفى عام 647هـ/1249م، ابن العماد: شذرات الذهب، ج7، ص 411، الذهبي: العبر: ج3، ص 257.

عبر عشرة ألاف منهم نهر الفرات واستردوا بيت المقدس في صفر 642هـ/11 يوليو 1244م.[1]

وفي الأخير يمكن أن نخلص أن الصمود في وجه الحملات الصليبية المتتالية والمتعاقبة على أرض الشام وتطهير المقدسات والثغور الإسلامية من دنسهم، ما كان ليتحقق لولا جهود ثلة من الدعاة والعلماء والفقهاء والشعراء ورجال الفكر عامة الذين قيضهم الله لهذه الأمة لزعزعة النفوس الراكدة والحمية الفاترة.

1- ابن كثير: البداية والنهاية، ج17، ص 274، المقريزي: السلوك، ج1، ص 419.

الفصل الثاني

مقاومة علماء المسلمين

للمد الصليبي

المبحث الأول

دور علماء المسلمين في مقاومة الفكر الصليبي

المطلب الأول: دعوة الصليبيين لاعتناق الإسلام.

المطلب الثاني: مناظرة الصليبيين والرد على دعواهم.

المطلب الثالث: استمالة الصليبيين وتحسين نظرتهم للإسلام.

حظي مصطلح المقاومة بزخم كبير من الدراسة كمفهوم وممارسة، غير أن هذا الشعور غير مستجد، بل هو جزء من الفطرة والطبيعة البشرية وسنة من سنن الله الكونية. وتعرف المقاومة في اللغة على أنها: القوامة من فعل قام، يقوم، قياما: انتصب، ويكون قام بمعنى: العزيمة، والقوم: نظام الأمر[1]، والقوام: العدل والاعتدال[2]، والأخذ بالأمر وتحقيقه بعزم[3].

أما في الاصطلاح: فمفهومها مرتبط بالمدافعة ورد الأذى، والدفع أصل يدل على تنحية الشيء لما فيه من السوء، والمدافعة: الأخذ بالأسباب والانتصاب بثبات في وجه المعتدي وضد العدوان[4]، وتعرف كذلك: بأنها الممانعة التي يمتلكها الإنسان بالفطرة سواء كان فردا أو أمة اتجاه ما تتعرض له قيمه ومصالحه من ظلم وتعدي[5]، والمقاومة في القاموس السياسي جاءت مرادفة لكلمة Résistance أي الدفاع والمدفاعة والصمود[6].

وقد عبر الفيلسوف الألماني فشتة[7] Johane Fichte عن هذه الفطرة الطبيعية بقوله: " الأنا تصنع نفسها حين تقاوم"[8]، بمعنى: أن الذات الإنسانية تشعر بوجودها حين تقاوم وتدافع، وعليه فالمقاومة ظاهرة طبيعية ملازمة للطبيعة الإنسانية، بل هو شعور فطري كامن في كل كائن حي – من حيوان ونبات–.

1– ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، (د، ت)، ج5، ص43.

2– الزبيدي: تاج العروس، دار صادر، بيروت، (د، ت)، ج 17، ص 591.

3– الفيومي: المصباح المنير، دار الفكر، بيروت، (د، ت)، ج1، ص 268.

4– المعجم الوسيط، الصادر عن مجمع اللغة العربية، إشراف شوقي ضيف، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004، ص530.

5– عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990، ج6، ص 288.

6– سعيد محمد اللحام وأخرون: القاموس السياسي ومصطلحات المؤتمرات الدولية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص344.

7– فشتة يوهان غوتليت (1762م– 1814م) فيلسوف ألماني من مواليد مدينة ساكسونيا، طوّر مثالية كانط، ومن أهم كتبه الأنا المتعالي، حسن حنفي: فتشه فيلسوف المقاومة، (د، ط)، الهيشة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 2002، ص 22– 23.

8– المرجع نفسه، ص131.

وقد أقرت الشرائع السماوية والقوانين الوضعية حق الدفاع الشرعي – المقاومة– برد العدوان عند وقوعه، فالديانة المسيحية رغم أنها تنكر على أتباعها استخدام القوة والعدوان على الغير ونبذ الحرب اعتمادا على ما ورد في الأناجيل على غرار إنجيل متى الذي ورد فيه: [1] "... أما أنا أقولكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فأعرض له الأخر، ومن أراد أن يحاكمك ليأخذ قميصك فأترك له رداءك أيضا، ومن سخرك أن تسير معه ميلا واحدا فسير معه ميلين ومن سألك فأعطيه ومن استقرضك فلا تعرض عنه"، ومع ذلك حاول فريق من علماء اللاهوت المسيحيين التوفيق بين ما نص عليه الإنجيل وبين متطلبات الدولة بوضع ما أسموه بالحرب المشروعة وغير المشروعة على غرار القديس أوغسطين الذي أجاز الحرب الدفاعية والتي سماها بالحرب المشروعة أتي بها الله، وأنكر العدوان وحرب اغتصاب الشعوب التي نعتها بالحرب غير مشروعة.[2]

كما يطلق لفظ الجهاد في النصوص الإسلامية بمعناه العام على مقاومة العدو أو مجاهدة النفس، وقد اصطلح الفقهاء على أن الجهاد بمعناه الخاص هو: " بذل الوسع والطاقة في القتال في سبيل الله بالنفس والمال واللسان بهدف نصرة الإسلام والمسلمين"[3] والمسلمين"[3] ومنه فجوهر المقاومة في الإسلام: هي نفاذ الحق ومصارعة الباطل، وقد وردت في القرآن الكريم ضمن عدة معان: فقد أتت بمعنى الدفاع الشرعي لرفع ظلم أو بغي لقوله تعالى:﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾[5]، وأتت كذلك بمعنى رد العدوان لقوله

1– الكتاب المقدس، إنجيل متى، الاصحاح 37/5، دار الشروق، بيروت، 1986، ص50.

2– القديس أوغسطين: مدينة الله، 1، ص 23–24.

3– الكساني: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتاب، بيروت، 1982، ج7، ص 97.

4– سورة الحج، الآية، 39.

5– سورة الشورى، الآية 39

تعالى:﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾[1] وأيضا قوله تعالى:﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[2]، ما يستخلص من هذه النصوص القرآنية أن الإسلام أقر حق الدفاع الشرعي – حق المقاومة- سواء كان هذا الاعتداء على حق فردي أو من جانب دولة غير مسلمة، كما اتفقت كلمة الفقهاء على مشرعيته وفي هذا يقول الإمام السرخسي:[3] "استقر الأمر على فرضية الجهاد مع المشركين وهو فرض قائم إلى قيام الساعة"، غير أن هذا الحق قد قيد بفعل الاعتداء فإذا انتهى وزال الاعتداء بطل التذرع بالدفاع وإن استمر صار عدوانا وانتقاما وهذا حسب ما ورد في الآية الأخيرة.

ولكون المقاومة عملية دفاعية فلم تقتصر مشروعيتها على الشرائع السماوية بل تعدت إلى القوانين الوضعية فقد كفل التراث الفكري الغربي الحديث هذا الحق ورفع شعارات الحرية والعدالة ومقاومة الطغيان التي نادى بها فلاسفة الثورة الفرنسية 1789م، على غرار مقولة: "اشنقوا أخر ملك بأمعاء أخر قسيس"[4]

كما عبر مونتسكيو Montesquieu[5] عن حق الأفراد والدول في رد العدوان ومقاومته بقوله: " إن حياة الدول كحياة الأفراد فهؤلاء لهم الحق في القتل في حالة الدفاع الطبيعي، وتلك لها الحق في الحرب للمحافظة على كيانها"[6]، وعليه فمقاومة العدوان

1- سورة البقرة، الآية، 194.

2- سورة البقرة، الآية، 190.

3- المبسوط، دراسة وتحقيق خليل محي الدين الميس ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 200، ج10، ص3.

4- حسن حنفي: فتشة فيلسوف المقاومة، ص 118

5- مونتسكيو: (1689م- 1755م) هوتشالزدي سكوندات الذي تلقب بالبارون دي لابريت مونتسكيو، من أسرة القوانين الشرقية والغربية والقديمة والحديثة كما درس الفلسفة والتاريخ زار أنجلترا وأعجب بدستورها وأبرز كتبه كتاب روح التشريع الذي أصدره عام 1748م في مجلدين، جان بيرنجيه وأخرون: موسوعة تاريخ أوروبا العام، ترجمة وجيه البوغيني ومراجعة أنطوان الهاشم، منشورات عويدات، بيروت، 1995، ج2، ص 147.

(6) De lésprit des lois, ed flammarion, paris, 2013, tome 1, p 273.

والدفاع عن الأرض والعرض حق مكفول في جميع الملل والشرائع وصانته الأعراف والمواثيق الدولية الحديثة.

وقد ارتبطت المقاومة La Résistance منذ بدايتها بطابع هادف يراء من وراءها تحقيق غاية محددة، ولهذا اتخذت أشكالا وصورا مختلفة، فيطرح مفهوم المقاومة سياسيا وعسكريا عندما تقع جغرافية وشعب ما تحت وطأة قوة أجنبية تحاول مصادرة هذا الشعب حقوقه الطبيعية وثرواته وتحويله شيئا فشيئا إلى تابع، وتحت هذا الشعور تنبعث روح المقاومة للدفاع عن كينونة الأمة.

كما تطرح فكريا عندما تتعرض أمة من الّأمم أو شعب من الشعوب إلى محاولة تغيب وتشويه فكري وثقافي وتراثي ونفسي وروحي، ويستهدف وراء هذه العملية سلخ هذه الأمة من واقعها الثقافي والعقائدي[1]، وتعرف المقاومة الفكرية: بأنها المناهضة بالأفكار وإبراز الذات والوقوف في وجه محاولات الاحتواء والابتلاع ورفض الاضمحلال والتلاشي والدفاع عن الذات وصيانة الهوية والإبقاء على الخصوصية وزيادة في الإباء، وهي أداة الفيلسوف والمفكر والمثقف[2].

وعليه يمكن القول أن المقاومة مسألة حركية راهنة عسكرية كانت أم سياسية فكرية، فهي تنشأ كوسيلة لاستعادة حق أو الحفاظ على مكتسب، كما تعد فعل طبيعي خلقه الله وبثه في كل ذرة من ذرات الكون، فإذا ما تعرض وسط ما لأي غزو خارجي فسرعان ما يرد هذا الوسط بالدفاع. والحروب الصليبية لم تكن مجرد صدام عسكري مسلح بل كانت صدام حضاري – ديني وفكري– بين الشرق والغرب، وأن المعارك الفكرية ليست بأقل خطرا في حياة الأمة من المعارك العسكرية بل هي أسوأ وأشد خطرا

1– دنيا محمد محمود سعيد: مفهوم المقاومة بين مفكري الحضارات الشرقية القديمة وفلاسفة اليونان، ورسالة ماجستير في الأدب، قسم الفلسفة، جامعة المنوفية، القاهرة، 2012، ص 05.

2– عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة ، ط2، ج6، ص 289، حسن حنفي: فشتة فيلسوف المقاومة، ص99.

على مكتسبات الشعوب والأمم، ولهذا ركز الصليبيون على الناحية الفكرية بتأسيس المدارس النصرانية والجماعات التبشيرية، حيث تم تأسيس أول هذه المؤسسات التبشيرية الرهبنة الكرملية عام 548هـ/1154م في طرابلس الشام[1] فضلا عن الدعاية المغرضة التي كان يقوم بها كبار رجال الدين لتشويه صورة المسلمين والنيل من عقيدتهم، الأمر الذي تفطن له علماء الأمة فانبروا إلى استثارة الهمم لمجابهة الفكر الصليبي سواء كان ذلك بالتحريض أو بدعوة الصليبيين.

1- الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص136.

المطلب الأول: دعوة الصليبيين لاعتناق الإسلام:

عرف ابن فارس الدعوة فقال[1]: من فعل دعا، ويقال دعا إلى الشيء: حثه على قصده، ويقال دعاه إلى القتال ودعاه إلى الدين: حثه على اعتقاده وساقه إليه، أما اصطلاحا فقد عرفها ابن تيمية فقال:[2] " الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاء به رسله وبتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم وحج البيت، وكذلك هي: تبليغ الناس جميعا دعوة الإسلام وهدايتهم إليها قولا وعملا، في كل مكان وزمان بأساليب خاصة تتناسب مع المدعوين..." [3]

ولما كان دين الإسلام دين هداية وإصلاح، كان لابد للمسلمين من ضبط النفس والدعوة إلى الإسلام قبل البدء بالقتال، لأنه دين ينسجم مع الفطرة ويتجاوب مع الوجدان سهل الفهم ولا لبس فيه ولا تناقض ولا غموض، وفي هذا الصدد يقول الماوردي: [4] "من لم نبلغهم دعوة الإسلام يحرم علينا الإقدام على قتالهم عزة في القتل والتحرق..."، وقد بين الشارع الحكيم أن عرض الدعوة على غير المسلمين تكون باللين والحكمة والموعظة الحسنة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[5].

وقد خصص علماء المسلمين في مواجهة الصليبيين جهدا بالدعوة المباشرة إلى اعتناق الإسلام بتوحيد الله تعالى والتصديق بالقرآن والإيمان بنبوة محمد – ص– والإقرار بنبوة عيسى – عليه السلام – ونفى ألهيته، ومن نماذج عرض الإسلام على النصارى في فترة الحروب الصليبية ودعوتهم إلى اعتناقه دعوة القائد الزاهد العالم صلاح الدين لأرناط

1– معجم مقاييس اللغة، ج 2، ص 279.

2– الفتاوى الكبرى، مطابع الرياض، الرياض، 1962، ج15، ص 158.

3– الشوكاني: الفتح القدير، دار الفكر، بيروت، (د. ت)، ج1، ص40.

4– الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت)، ص 37.

5– سورة العنكبوت، الآية 46.

الصليبي الذي نقض الصلح مع المسلمين، فلما جيء به بعد معركة حطين في 583هـ/1187م ذكره صلاح الدين بما صدر منه ثم عرض عليه الإسلام فأبي وأستكبر فقتله[1].

والأمر نفسه تم مع صاحب صيدا عندما عرض عليه الإسلام حيث ذكر ابن شداد:[2] "لقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة فاحترمه وأكرمه وأكل معه الطعام، ثم ذكر له طرفا من محاسن الإسلام وحثه على اعتناقه"، كما اتفق صلاح الدين في وقت سابق مع ريموند الثالث كونت طرابلس الشام أن يوعز إلى أتباعه بترك عقيدة التثليث والتحول إلى جانب المسلمين لكن موت الكونت المفاجئ حال دون تحقيق هذه الأمنية[3].

وكان قادة وقضاة الجيش الإسلامي من العلماء والفقهاء لا يتركون فرصة قد تسنح من أجل تحقيق غاية الدعوة إلى الإسلام، ولاسيما فرصة آسر الصليبيين أو النوازل التي لحقت بهم بأرض الشام للتعريف بالإسلام والترغيب في اعتناقه، ومن أمثلة ذلك ما حدث في الحملة الصليبية الثانية عام 542 هـ/1148م عندما انضمت فرقة من الجيش الصليبي إلى معسكر المسلمين واعتناق بعضهم دين الإسلام، وقد أرجع توماس أرنولد سبب ذلك بقوله: [4] "وفي طريق الصليبيين إلى القدس بممر جبال الأناضول إلتقوا بجيش المسلمين فهزم الصليبيون شر هزيمة وبقي المرضى والجرحى والحجاج دون سند أو عون، بعد أن اشترط عليهم إخوانهم في الدين – التجار اليونانيين– ترحيلهم إلى أنطاكية مقابل أموالا طائلة، في حين أحسن قادة المسلمين إلى فقرائهم وعالجوا مرضاهم فنظر أحدهم إلى

1– ابن شداد: النوادر السلطانية، ص130– 131.

2– المصدر نفسه، ص65.

3– ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص 373، توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وأخرون، (د، ط)، مكتبة النهضة، القاهرة، 1971، ص111،

4– الدعوة إلى الإسلام، ص108.

معاملة إخوانهم في الدين ومعاملة المسلمين الكفار وقال: فحمل الصليبيين على اعتناق دين الأعداء من غير أن يكرهوا أو يقهروا على ذلك".

ومن الأمثلة كذلك ما حدث في معركة حطين أين أظهر صلاح الدين صورة القائد المسلم الملتزم بأحكام الإسلام وآدابه عندما رفق بنسائهم وضعفائهم وصفحه عن كبار قادتهم[1]، وقد عبر توماس أرنولد عن أثر هذا النبل في المعاملة فقال:[2] "... حتى أن نفرا من الفرسان المسيحيين بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية". ويذكر أيضا أن مجاعة حلت بالفرنجة فأكلت منهم الأخضر واليابس وبادوا بالوباء فاستغل صلاح الدين هذه النازلة للدعوتهم للإسلام وعنها يروي العماد الأصفهاني قائلا:[3] "هرب إلينا عصبة بعد عصبة وقد بادوا من الضعف البادي وأعدهم الضر العادي، فمن سألناه عن مقتضى فراره يخبر أنه طواه الطوى...، وأنفقنا عليهم بما يكف ضرهم فتقوتوا وأثروا، فمنهم من أسلم ومنهم من عاد"، وكذلك جاءه رجاله يوما بتجار من الفرنج يعملون في البحر على مراكب للتجارة بعد أن سحب المسلمون مراكبهم إلى الشاطئ وهي مشحونة بالأواني الذهبية والمصوغات وغير ذلك من النفائس الجليلة، فكان موقف السلطان فيما ذكره الأصفهاني بقوله: [4] "فوفر السلطان عليهم هذه الأكساب ولم يحرمهم فقال لهم: خذوها فأنتم أولى... أسلم منهم شطرهم".

والحقيقة أن صلاح الدين كان يقدم – بما يفعله– الدين الإسلامي ليدرك أعداءه بعض محاسنه في أسلوب الداعية القدوة وهو أسلوب غاية في البساطة والإقناع، فنجده يقول لمن أشار عليه بالاستيلاء على الأموال التي خرج بها بطريك القدس بعد فتح بيت

1– الحنبلي: شفاء القلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، (د، ط)، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 1996، ص 121.

2– الدعوة إلى الإسلام، ص 108.

3– الفتح القسى في الفتح القدسى، ص 439– 440.

4– المصدر نفسه، ص 461.

المقدس: " لا أغدر به ولم نأخذ منه غير عشرة دنانير، وسيّر الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور"[1]. وسئل مرة عن سبب إحسانه وإكرامه للنصارى الصليبيين فأجاب: " نحن نجربهم على ظاهر الأمان ونغيرهم بذكر محاسن الإسلام...، ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان بنكث الإيمان بل يتحدثون بما أفضناه من الإحسان"[2]. وما يلحظ من أقواله وأفعاله أن شغفه بدعوة الصليبيين وهدايتهم إلى دين التوحيد كان كبير ولم يكن له حدود، فقد عبر يوما لقاضي عسكره ابن شداد قائلا: "متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، ركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت"[3].

قد أثمرت هذه المواقف والجهود الدعوية في انضمام العديد من النصارى الصليبيين فرادي وجماعات إلى جيوش المسلمين واعتناق بعضهم الإسلام وفي ذلك يذكر توماس أرنولد: أنه في الحملة الصليبية الثالثة 585هـ- 588هـ/1189م- 1192م انضمت أعداد كبيرة من الجيش الصليبي إلى المسلمين واعتناق بعضهم الإسلام مستدلا بقول أحد رجال الدين: "... فريق من رجالنا تراهم يهجرون بني جلدتهم، فلم يترددوا أن يصبحوا في زمرة المرتدين واشتروا موتا أبديا بهذا الكفر المفزع"[4]. ويذكر أيضا أن ابني أخت الملك الانجليزي ريتشارد قلب الأسد هربا من معسكر الجيش الصليبي والتحقا بجيش صلاح الدين معلينين اعتناقهما الإسلام وذلك سنة 587هـ/1191م[5]. وكذلك

1- ابن الأثير: الكامل، ج9، ص 184، أبو شامة: الروضتين، ج2، ص 114- 115.

2- الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص 135.

3- ابن شداد: النوادر السلطانية، ص55.

4- الدعوة إلى الإسلام، ص 111- 112.

5- النوادر السلطانية، ص248.

فارس يدعى روبرت أوف سانت أحد مقدمي فرسان المعابد أسلم سنة 580هـ/1184م وتزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين[1].

وعليه يمكن لنا القول أنه إذا وجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإن من الممكن لهذا الدين أن يسود وينتصر فصلاح الدين مثلا القائد الداعية قهر صليبيين ليس فقط بسيفه بل بنبل أخلاقه وحسن فهمه لهذا الدين، واستطاع بأفعاله وأقواله التي عبرت عن الإسلام أصدق تعبير وصححت إلى حد كبير تلك المفاهيم الخاطئة عن الإسلام والتي ترسبت في أذهان الصليبيين إلى درجة أن بعضهم عبر متساءل: كيف يخلق الدين الإسلامي الخاطئ في ظنهم رجلا في هذه العظمة.[2]

كما اعتمد المسلمون في دعوة النصارى على الرسل، وكان جل رسل المسلمين إلى النصارى من العلماء والفقهاء لما تمتع به هؤلاء من علم وقدرة على المفاوضة والمحاورة والنقاش مع قادة النصارى وعلمائهم، ومثال ذلك رسول صلاح الدين الأيوبي إلى إمبراطور القسطنطينة لإبلاغه رسالة منه بشأن إقامة صلاة الجمعة في بلاده وبناء مسجدا للمسلمين، وقد أرسل في هذا الشأن خطيبا ومنبرا وجمعا من المؤذنين، وقد روي ابن شداد عن ذلك فقال: [3] "... كان يوم دخولهم إلى القسطنطينية يوما عظيما من أيام الإسلام شاهده جمعا كثير من التجار... ورقي الخطيب واجتمع المسلمون المقيمون بها والتجار وأقام الدعوة...".

ومنها أيضا رسالة صلاح الدين إلى ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد ردا على رسالة بعثها هذا الأخير إليه متضمنة المطالبة بتنازل المسلمين عن القدس وبعض البلاد الشامية واسترجاع صليب الصلبوت المعظم عندهم الذي غنمه المسلمون بعد معركة حطين، فكان جواب صلاح الدين جواب القائد الغيور على دينه وعرضه فقال: " ... هو

1- توماس أرنولد: المرجع السابق، ص112.

2- وول ديورانت: قصة الحضارة، ج15، ص 45.

3- ابن شداد: النوادر السلطانية، ص202.

عندنا –أي بيت املقدس– أعظم مما هو عندكم فإنه مسر نبينا ومجتمع الملائكة فلا يتصور أن تنزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين...، أما الصليب فهلاكة عندنا قربة عظيمة ولا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجحة للإسلام"[1]، وإن كانت هذه الرسالة ليست دعوة مباشرة للإسلام فإنها نقلت وعرفت ببعض معتقدات وشعائر المسلمين.

وأبرز ما تحقق على يد الرسل في هذه الفترة رسول الملك الكامل فخر الدين يوسف بن حموية[2] إلى حاكم صقلية الإمبراطور فريدريك الثاني، فبالإضافة إلى أداء هذا العالم رسالة الملك فإنه دارت بينه وبين الملك النصراني عدة محاورات علمية مختلفة[3]، استطاع من خلالها تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة عن الإسلام والترغيب في عقيدة التوحيد، وقد ظهر تأثر الملك فريدريك بعقيدة الإسلام حين زار القدس بإذن الملك الكامل في قوله: "... والله أنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم"[4].

وكذلك الفقيه سراج الدين الأرموي[5] قاضي قوينة[6] الذي أرسله الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل إلى فريدريك الثاني حاكم صقلية، وبعد أداء هذا الرسول الفقيه

1– النوادر السلطانية، ص290.

2– هو فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ حمويه ولد بدمشق عام 572هـ/1176م كان عاقلا خليقا بالإمارة تولي العديد من المهام لبني أيوب في فترة الكامل ونجم الدين أيوب، توفي عام 647 هـ/1249م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج23، ص 100– 101.

3– ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص 243، المقريزي: السلوك، ج1، ق1، ص 130– 131.

4– المصدر نفسه، ج1، ق1، ص 131.

5– هو محمود بن أبي بكر بن أحمد الأرموي عالم بالأصول والمنطق ولد سنة 594هـ/1197م، توفي عام 682 هـ/1283م بمدينة قونية، صنف العديد من الكتب في المنطق والأُصول، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص371.

6– قونية: مدينة من أعظم مدن الإسلام بالروم فيها قبر افلاطون الحكيم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 415.

رسالته مكث عند الملك الصقلي فترة وألف فيها بعض الكتب[1]، وقد بلغ تسامح هذا الملك وتفاعله مع شعائر الإسلام أن قرب إليه المسلمين وأقام شعائر الإسلام في بعض مدنه وفي ذلك يقول ابن واصل:[2] " ... وكان أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين...، ويعلن في معسكره الآذان والصلاة...". ولعل هذا بعض الذي دفع بابا الفاتيكان بإصدار في حقه قرارا الحرمان سنة 624هـ/1226م، وقد وافق ابن واصل هذا الرأي بقوله: [3] "... لميله إلى المسلمين وحرقه ناموس شرعهم".

ويتحصل لنا مما سبق أن الرسل والرسائل التي كانت سجالا بين الصليبيين والمسلمين وأن هدفت في الأصل نقل وجهة نظر إسلامية حيال قضايا ومسائل معينة كانت مدار خلاف مع الصليبيين، فهي في الوقت نفسه عدت وسيلة وأداة لإيصال الحق ودعوة قادة الصليبيين وعلمائهم إلى عقيدة التوحيد، ولاسيما أن حاملي هذه الرسائل كانوا جها بذة بأمور الامارة والدعوة.

كما انصرف علماء عصر الحروب الصليبية إلى مجالس الوعظ وتصنيف الكتب في دعوة الصليبيين وقد بذلوا في ذلك جهودا واضحة، حيث يذكر الجعفري[4] أن من أسباب تأليفه كتابه الموسوم بـــ: "تخجيل من حرف التوراة والإنجيل"، هو دعوة النصارى إلى الإسلام بقوله: [5] "فعسى الله أن يقدر هداية بعضهم، ونحن مأمورون بدعائهم إلى

1- ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص 247

2- المصدر نفسه، ج4، ص 248.

3- نفسه.

4- الجعفري: صالح بن الحسين بن طلحة بن الحسين بن محمد الحسين الهاشمي الجعفري، ولد بمصر عام 581هـ/1185م رحل إلى دمشق والموصل وسمع من عدة علماء، عاش في كنف الدولة الأيوبية توفي عام 668هـ/1269م، صنف عدة كتب منها: الواضح المشهود من فضائح النصارى واليهود، وكتاب الرد على النصارى، وكتاب تخجيل، الصفدي: الوافي بالوفيات، ج16، ص 256،

5- تخجيل من حرف التوارة والإنجيل، تحقيق محمد. قدح، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998، جـــ1، ص103. ص103.

سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة"، وكذلك نصر بن يحي المتطبب[1] من خلال كتابه النصحية الإيمانية، كان نصراني يشتغل بالطب ثم أسلم بعد بحث ونظر، وقد صرف جهده بعد إسلامه في دعوة النصارى فأستغل معرفته بديانتهم وإطلاعه على تحريفات كتبهم فألف كتابا في ذلك فقال: [2] "أنقذني الله من الشريعة التي نسخت والملة التي طمست وشرفني الله بدين الإسلام، وأحببت أن أذكر نبذا من أحوال النصارى وفرقهم ومذاهبهم وأبرز معتقداتهم...". وأوضح يقول: "ليس لها أصل أو برهان أو حجة تقوم عليها". ثم وجه هذا الكتاب إلى علمائهم ومقدمهم لعلهم يرجعون عن ضلالهم وغيهم وطغيانهم". ولما كانت دعوة النصارى هي أولى ما تصرف إليها الهمم في هذا العصر ألف القرافي[3] كتابين الأول: أدلة الواحدنية والرد على النصرانية، والثاني: الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة.[4]

وإن كانت هذه الكتب والتصانيف قد استهدفت في الأصل كبار الصليبيين وعلمائهم من رجال الدين وكل من كانت له منزلة أو سلطة في العلم، ففي الوقت نفسه لم يمهل علماء عصر الحروب الصليبية الدعوة المباشرة بتفعيل مجالس الوعظ والخطب الدينية في دعوة ومخاطبة عامة الصليبيين، ومن الأمثلة على أثر ما يلقي من الدروس والمواعظ

1- نصر بن يحي بن عيسى بن سعيد المتطبب المهتدي، كان نصرانيا فأسلم، وكان شاعرا عارفا و مشتغلا بالطب، توفي بالبصرة عام 589هـ/1193، نصر بن يحي المتطبب: النصجية الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، (د. ط)، مطبعة دار الصحوة، القاهرة، 1986، ص 17، ابن أبي أصيبعة: عيون الأبناء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا (د، ط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د. ت)، ص 403.

2- نصر بن يحي المتطبب: المصدر السابق، ص51.

3- القرافي: هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي العلاء إدريس بن عبد الرحمان المالكي درس على يد سلطان العلماء عز الدين ابن عبد السلام الشافعي، توفي عام 684هـ/1285م، ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق مأمون بن يحي الدين الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص128.

4- الزركلي: الإعلام، ط15، دار الملايين، بيروت، 202، ج1، ص94.

على النصارى خطبة القاضي ابن زنكي[1] في أول جمعة صلاها المسلمون بالقدس بعد فتحه، وقد كانت المدينة المقدسة تحوى أعداد كبيرة من النصارى، بل كانت بعض بيوتهم ملاصقة له.

وإن كانت هذه الخطبة قد أفردت جانبا في الثناء على صلاح الدين والإكبار بما قام به من جليل الأعمال، فإنها لم تخلوا من صيغ الوعظ والدعوة إلى التوحيد وترك عقيدة الشرك والتثليث وذلك عندما خاطب النصارى الصليبيين بقوله: "... هو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي شرفه برسالته وكرمه بنبوته، ثم تلي قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾[2] وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾[3]"[4]

ومن العلماء الذين أثمرت جهودهم في دعوة النصارى ما وضحه سبط ابن الجوزي[5] من تأثير دروسه ووعظه في مسجده حيث ذكر: اهتداء أعداد كبيرة منهم بسببها ودخولهم الإسلام[6]، وكذلك إسلام الراهب النصراني عبد الله الأرمني على يد

1- هو قاضي دمشق محمد بن علي بن محمد بن يحي بن الزنكي القرشي، كان صلاح الدين يعزه ويقدره وقد عهد إليه أن يلقى أول خطبة في المسجد الأقصى بعد فتحه عام 583هـ/1187م وكان فقيها أديبا بليغا، ولد بدمشق عام 550هـ/1155م، ووفاته عام 598هـ/1201م، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج6، ص 157- 158، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج21، ص 358، 360.

2- سورة النساء، الأية، 172.

3- سورة المائدة، الآية 17.

4- أبو شامة: الروضتين، ج2، ص110.

5- سبط ابن الجوزي: هو العلامة المؤرخ شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي التركي ثم البغدادي الحنفي، قدم دمشق سنة بضع وستمائة فوعظ بها وحصل له القبول العظيم للطف شمائله وعذوبة وعظه، توفي بها سنة 654هـ/1256م، ابن العماد: شذرات الذهب، ج7، ص 460- 461.

6- مرأة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص 482.

الشيخ عبد الله اليوينني[1][2]، كما أسلم عبد الواحد الصوفي المتوفي عام 639هـ/1241م، والذي كان قسسا في كنيسة مريم بدمشق[3]. وقد بينت سجلات الصليبيين القانونية التي كان يطلق عليها مجالس قضاء بيت المقدس كثرة عدد المرتدين عن المسيحية عصر الحروب الصليبية إلى درجة دفعت أحد قساوسة بلاد الشام ببعث رسائل إلى البابا ورجال الدين في أوروبا محذرا وطالبا فيها: ألا يرسلوا الضعفاء والفقراء ...لأنهم أكثر عرضة لأن يفتنهم المسلمون.[4]

1- عبد الله اليونيني: هو عثمان بن العزيز بن جعفر الزاهد الكبير أسد الشام، كان شيخا كبيرا أمارا بالمعروف نهاء عن المنكر كثير الجهاد، توفي عام 617هـ/1120م، ابن العماد: شذرات الذهب، ج 7، ص132.

2- ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص 100.

3- المصدر نفسه، ج13، ص169.

4- توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص 112.

المطلب الثاني: مناظرة الصليبيين والرد على دعواهم:

كان من الصعب في بداية عصر الحروب الصليبية إيجاد تفاعل فكري بين المسلمين والصليبيين بحكم العداء المستحكم بين الشرق والغرب – التعصب الديني–، ولاسيما أن الحملات الصليبية التي جيشها الغرب المسيحي الصليبي ضد المسلمين قد لفها الكثير من الافتراءات والأغاليط، حيث نعتوا المسلمين بأنهم كفار وديانتهم وثنية وأن نبيهم كاذب، على غرار ما جاء في خطبة البابا أوربان الثاني: " إنهم وثنيون كفار تستعبدوهم الشياطين".[1]

كما سمموا عقول محاربهم وأوغروا صدورهم ضد الإسلام وأهله بشعارات وأقوال زعموا أنها وردت على لسان المسيح – عليه السلام– كقوله: " من أراد أن يتبعني فليزهد في نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني، لأن الذي يريد أن يخلص حياته يفقدها"[2]، هذا التعبير العدواني الذي أشاعه دعاة الحملة الصليبية الأولى بين الناس افتراء على المسيح فالتحريف واضح وما كان للمسيح أن يقول ما قال وهو لم يصلب بعد، وكذلك قوله: "لا تظنوا أني جئت لأحمل السلام إلى الأرض ما جئت لأحمل سلاما بل سيفا"[3]، ويسترسل قادة الصليب في تبرير عدوانهم وبغيهم بذكر ما ورد في إنجيل مرقس عن المسيح – عليه السلام– قوله: " أنكم ستأخذون ميراثا عظيما"[4]، وفسر الصليبيون عبارة الميراث العظيم النزوح إلى الشرق وتملك الأراضي المقدسة. [5]

ولم تتوقف حروبهم الفكرية على الدعاية لما ورد في الأناجيل المقدسة، بل أنبرئ بعضهم إلى دراسة القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية ليس ضربا من ضروب الفضول،

1– فوشيه الشارتري: المصدر السابق، ص36.

2– الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، الإصحاح 9: 23– 25، ص 223.

3– المصدر نفسه، إنجيل متى، الإصحاح 10: 34– 35، ص65.

4– المصدر نفسه، إنجيل مرقس، الإصحاح 12: 8، ص162.

5– سهيل زكار: الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج6، ص78.

ولكن لتزود بأدوات وأسلحة الجدل وتشكيك المسلمين في عقيدتهم وكتابهم، على غرار وليام الطرابلسي الذي ظل يشغل اهتمامه بالدين الإسلامي ونصح أحد البعثات التنصيرية الأوروبية باستخدام بعض المعتقدات المسيحية التي تتفق وتعاليم الدين الإسلامي من أجل إقناع المسلمين وتحويلهم إلى النصرانية.[1]

ويتبين لنا مما سبق أن الصليبيين مارسوا على محاربهم أنواع الشائعات والدعاية الدينية المغرضة، إلى حد لم يعد يردعهم رادع عن الذبح والقتل، بل كان قتل المسلم مرضاة ينالون عليها الثواب.

وعليه فقد وجب رد هذا الفكر الصليبي وتحجميه وفضحه لأن خطره كان جسيما على عقيدة المسلمين وسلوكيات عوامهم وتشويها لرسالة المسيح – عليه السلام– ليس فقط بالسيف فالسيف لا يقتل الفكرة بل يزيد من اتساعها وانتشارها ولكن بالحجة والبينة، وقد جعل إبن تيمة واجب الرد على النصارى وغيرهم من أهل البدع والانتصار للإسلام في مثل هذه المواضع من أفضل الواجبات التي يجب القيام بها حيث قال: " فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطي للإسلام حقه ولا في بموجب العلم والإيمان".[2]

وقد تفطن علماء الإسلام الذين عاصروا الحروب الصليبية إلى خطورة هذه الحروب الفكرية وأثرها على الملة الإسلامية فأنبرى الكثير منهم للرد على افتراءاتهم وكشف أباطلهم بتبيان الحقائق وتنقية الدين مما يمكن أن يدخل عليه مما ليس منه، وكيف لا وهم ورثة الأنبياء وحملة رسائلهم وحراس العقيدة من البدع والظلالة.

1– يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين مملكة بيت المقدس، ترجمة عبد الحافظ البنيا، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، 2001، ص628.

2– درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم، ط2، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، الرياض، 1991، ج1، ص 357.

ومن بين الجهود في هذا المجال ما قام به الجعفري حيث أولى اهتماما بما يصدر عن نصارى الفرنج اتجاه المسلمين وتصديه لشبههم ففي كتابه "الرد على النصارى" أشار إلى الدافع له لتأليفه إذ يقول:[1] "... وقفت على مسائل ذكر أن الفرنج بعثوا بها يمتحنون أهل الإسلام، فنظرت فيها فإذا هي خالية من الفوائد الدينية عاطلة عن المنافع الدنيوية..." ، وكان الملك الكامل يستعين به في الرد على أسئلة النصارى ومناقشتهم، حيث يذكر أن ملك الروم أرسل رسالة إلى الملك الكامل سنة 618 هـ/1221م متضمنة بعض الأسئلة للمسلمين وكان ممن كلف بالإجابة عليها الإمام الجعفري.

ولما كانت الحروب الصليبية لم تخلوا من الحروب الفكرية فقد عدوا خير عونا وسندا للسلطة على غرار الإمام القرافي[2] الذي استشعر خطر دعوة الصليبيين فألف كتاب "أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية" وأهداه للملك الكامل في وقت كان الصراع العسكري والفكري على أشده مع الصليبيين، وقد ذكر القرافي سبب تأليفه له قائلا:[3] "فرأيت أن أولف لمولانا السلطان الكامل الناصر لدين الله في الرد عليهم كتابا أتحفه فيه بغريبه وانفرد فيه بطريفه وعجيبه، أجمع فيه مذاهبهم على جليتها وأخاطبهم بفصوص نصوصهم وأجادلهم بها مجادلة الأقران وأبارزهم على نقضها مبارزة الشجعان".

كما عدت بعض الكتب ردا مباشرا من علماء المسلمين على كتابات النصارى في هذه الفترة واستدلوا بها لإظهار الحق الذي حجب عن عامتهم ومن أمثلة ذلك كتاب "الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة" للإمام القرافي، وقد بين سبب تأليفه له أن أحد

1- الرد على النصارى، تحقيق محمد حسانين، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1988، ص 56.

2- القرافي: الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي العلاء إدريس بن عبد الرحمان المصري الصنهاجي المالكي الفقيه، درس على يد سلطان العلماء العز بن عبد السلام، توفي عام 684 هـ/1285م، ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون بن يحي الدين الجنان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص128، الزركلبي: الأعلام، حـ1، ص 91.

3- أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، تحقيق عبد الرحمان بن محمد دمشقية، ط1، (د.ن)، 1988، ص20.

النصارى بعث رسالة يقيم فيها الحجج على دينه[1] فخصص القرافي الباب الأول من كتابه إبطال هذه الأدلة وبيان ما التبس على النصراني من شبهة تعلق بها وأدلة لصحة دينه [2]، ويذكر الجعفري كذلك أن بعض أهل العلم طلبوا منه أن يؤلف لهم كتابا يغينهم في مواجهة النصارى حيث قال: " فزعم جماعة أني عارف بكتبهم خبير بمخارقهم وكذبهم... وقالوا لو أبرزت لمعا تكون على الحق علما؟ فأجبتهم لوجوب حقهم"،[3] ثم يستطرد بمقتضى أصولهم وهذا ما يعين دعوتهم." [4]

ومن علماء هذه الفترة الذين لهم جهود واضحة أيضا في دعوة النصارى ورد على دعواهم العلامة فخر الدين الرازي[5] الذي عرض عقائد النصارى والرد عليها من خلال كتابه "اعتقادات فرق المسلمين والمشركين"،[6] والذي قال عنه ابن الأثير: [7]" ... كان إمام الدنيا في عصره"، وكان في مناظراته مع النصارى ظاهر الحجة واضح البرهان لا يجرؤ كثير منهم على التصريح بمعتقده أمامه حتى قيل عنه: " ما من نصراني رأه إلا وقال: أيها الفرد لا تقول بالتثليث...".[8]

1- الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ص3.

2- المصدر نفسه، ص5- 6.

3- تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، جـ 1، ص 103.

4- المصدر نفسه، جـ 1، ص103.

5- فخر الدين الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل الشافعي المفسر والمتكلم صاحب التصانيف المشهورة، توفي عام 606 هـ/1209م بهراة- خرسان-، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 7، ص40.

6- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تعليق محمد المعتصم بالله البغدادي، ط1، دار الكتاب، بيروت، 1986، ص115.

7- الكامل في التاريخ، جـ10، ص 275.

8- السبكي: طبقات الشافعية، جـ 8، ص 84.

أما الزاهدي[1] فكانت له مناظرات مع علماء النصارى أمام الملك بركه خان[2] حيث جمع بعض ما ألفه في هذا المجال في كتاب سماه " الرسالة الناصرية".[3]

ولما كانت مثل هذه الكتب أبلغ وسيلة لدعوة النصارى ورد على شبههم وفضح شركهم صنف ابن المتطبب كتابه الموسوم بـــ " النصيحة الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية"، محاجا النصارى وطالبا من ذوي العلم فيهم التفكير والتدبر والبحث في أصول الدين ومما ضمنه كتابه قوله: [4] "... لو كان فيكم رجل عليم له عقل سليم لتفكر في أمر النبيين وبحث عن أصول الدين حتى يقف عن اليقين، لعرف أن الدين عند الله الإسلام وأن شريعة محمد سيد الأنام هي الشريعة الواضحة... وميزان أمته هي الميزان الراجحة...". ولا شك أن هذه الكتب كان لها تأثير في طبقات المجتمع الصليبي النصراني في هذه الفترة لكونها أطول بقاء وأوسع انتشارا وأسهل تداولا، كما أزالت الكثير من الشبهات القائمة حول الإسلام.

ومن المواضيع التي نالت قسطا من جهود العلماء في الرد على النصارى الصليبيين مسألة عالمية رسالة المسيح – عليه السلام– ودعوتهم إلى وجوب نشرها في أوساط الوثنيين – غير المسيحيين–، وقد أبطل علماء المسلمين هذا الاعتقاد الزائف مستشهدين بما ورد في كتبهم المقدسة كقول المسيح: "لا تسلكوا طريقا للوثنيين ولا تدخلوا

1– الزاهدي: نجم الدين أبو الرجاء مختار بن محمود الزاهدي، من أكابر الأئمة عالما كاملا على المذهب الحنفي وله باع في علم الكلام والمناظرات، توفي عام 658 هـــ/1260م، الزاهدي: الرسالة الناصرية، تحقيق محمد المصري، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، 1994، ص9.

2– بركه خان: كبير الخوازمية توفي عام 644 هـــ/1246م لما هزم أصحابه عند بحيرة حمص من قبل الأيوبيين، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـــ 23، ص 148.

3– حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، جـــ 1، ص8384.

4– النصحية الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، ط1، دار الصحوة، القاهرة، 1986، ص 147.

مدينة للسامرين،[1] بل اذهبوا إلى خراف الضالة من بيت إسرائيل..." [2]، وكذلك قوله عندما جاءته امرأة كنعانية طلبت منه أن يشفي ابنة لها كانت تشكو من الخبل فأجابها قائلا: "لم أرسل إلا إلى الخراف الضالة من بيت إسرائيل." [3]، ويستشف من هذه الأقوال الإنجيلية المقدسة أن دعوة المسيح – عليه السلام- كانت خاصة وفي قومه وليست عالمية.

كما وقف علماء عصر الحروب الصليبية عند شعار " الحرب المقدسة" الذي أوهموا به عامة الصليبيين في الغرب الأوروبي وأدخلوه في اعتقاد محاربهم، بأن الحرب مع المسلمين هي حرب من أجل الصليب وهي الحرب ذاتها التي أمر بها المسيح – عليه السلام-، من الحجج الدالة على ذلك ما ورد في خطبة البابا أوروبان الثاني: "... لست أنا ولكن الرب هو الذي يحثكم بكونكم قساوسة المسيح... وفضلا أن المسيح يأمر بهذا أنه ستغفر ذنوب كل أولئك الذاهبين بمقتضى السلطة التي أسبغها الرب علي..." [4].

وعليه فقد جعلوا من الصليب رمز الفداء والخلاص أداة للاغتصاب وسفك الدماء، الأمر الذي لم يأت به المسيح بل خالفوا ما جاء به، وقد دحض علماء المسلمين في ردهم على النصارى هذا الإدعاء وأبطلوا مشروعيته عندما استدلوا بما ورد في كتبهم المقدسة على سلمية رسالة المسيح – عليه السلام- كقوله: " طوبي للساعين إلى السلام"[5]، وكذلك قوله: " سمعتم أنه قيل: أحبب قريبك وأبغض عدوك، أما أنا أقول لكم أحبوا أعداءكم فإذا

1- السامرة: قبيلة من قبائل بني إسرائيل الذين تفرقوا بعد وفاة سليمان بن داود عليهما السلام عام 975 ق.م، وهم قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم وإليهم نسب السامري الذي عبد العجل وجبل جرزيم هو بيت عبادتهم ويزعمون أن الذبح فيه كان- إسحاق عليه السلام، المقريزي: الخطط، جـ 4، ص 383، ابن منظور: لسان العرب، جـ 4، ص 280.

2- الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح 10: 7-9، ص64.

3- الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح 15: 23- 24، ص80.

4- فوشيه شارتري: المصدر السابق، ص93.

5- الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح5: 11، ص 47.

سلمتم على إخوانكم وحدهم فأي زيادة فعلتم؟ وأليس الوثنيون يفعلون ذلك."[1]، يستطرد المسيح في تحبيب السلام ونشره بين أصحابه عندما عاتب رجلا استل سيفه وضرب خادم عظيم الكهنة فقطع أذنه فقال له يسوع: "اغمد سيفك فكل من يأخذ بالسيف يهلك." [2]، ومن أقواله أيضا: "أنا أقول لكم لا تقاوموا الشرير بل إذا لطمك على خدك الأيمن فأعرض له الآخر، ومن أراد أن يحاكمك ليأخذ قميصك فأترك له رداءك، ومن سخرك أن تسير معه ميلا واحد فسر معه ميلين." [3].

ومن بين القضايا كذلك التي أثارت اهتمام علماء المسلمين وجدلا بينهم وبين النصارى عصر الحروب الصليبية مسألة عقيدة النصارى بالمسيح – عليه السلام–، فاندفع الكثير منهم في إبطال عقيدة التثليث وإثبات نبوة المسيح – عليه السلام– فقد علق أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ/1111م) على عقيدة النصارى قائلا: [4] " وقد سلكوا في تأويل الأقانيم[5] مسلكا ألزمهم القول بوجود ثلاثة آلهة في الذهن متباينة ذواتها وحقائقها."، وحقائقها."، في حين بين الرازي (ت 606 هـ/1209م): "أن نسبة المسيح إلى البنوة لله سبحانه وتعالى أفحش أنواع الكفر وأن ذلك من دسائس بولس[6]."[7]

1– المصدر نفسه، الإصحاح 5: 36، 48، ص50.

2– المصدر نفسه، الإصحاح 26: 53– 54، ص 112.

3– المصدر نفسه، الإصحاح 5: 33– 35، ص50.

4– الرد الجميل، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، (د. ط)، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص 156.

5– الأقانيم: جمع أقنوم وهي كلمة سريانية معناها: شخص أساسي أو كيان قائم بذاته، والأقانيم عند النصارى هي الأب الأب والابن والروح القدس، والأقانيم فكرة وردت في الفلسفة اليونانية وتأثر بها بولس، محمود محفوظ وأخرون: الموسوعة العربية المسيرة، ط2، دار الجيل، بيروت، جـ 2، ص976.

6– هو بولس الرسول ولد بطرسوس في ولاية كيليكية من أعمال المملكة الرومانية، واسمه العبراني شاول واسمه الروماني بولس وكان أبوه يهوديا فريسيا، حفظ طقوس طائفته وتقاليدها وكان نبيها معلما بالناموس، وقد صاحبته تعاليم اليهودية بعد أن أعلن مسيحيته وهو الذي بشر بالمسيحية الوثنية وأعفى النصارى من الختان، جورج يوست: قاموس الكتاب المقدس، جـ 1، ص، ص 357– 359، محمد أبو الغيظ الفرت: بولس والمسيحية، ط1، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1980، ص70.

7– التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط1، دار الفكر، بيروت، 1981، ص36.

كما ساق علماء المسلمين في معرض مناقشتهم للنصارى وإبطالهم لعقيدة التثليث أدلة وحجج من كتبهم المقدسة تقر بوحدانية الله تعالى وبنبوة المسيح – عليه السلام–، ومن أمثلة ذلك ما أورده الجعفري عن مرقس[1]: " قال رجل للمسيح: أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال يسوع: لم تدعوني صالحا لا صالح إلا الله وحده..."، وساق القرافي[2] دليل آخر يقر بوحدانية الله تعالى ورد في إنجيل متى[3]: " أن إبليس أخذ أخذ يسوع إلى جبل عال جدا وأراه جميع ممالك الدنيا ومجدها وقال له: أعطيك هذا كله إن جثوت لي ساجدا، فقال له يسوع: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك لا يسجد لغيره...".

أما ابن المتطبب فقد استدل هو الأخر على نبوة المسيح – عليه السلام–[4] بما ورد ورد في إنجيل متى[5]: " لما دخل يسوع أورشاليم ضجت المدينة كلها وسألت من هذا فأجابت الجموع: هذا النبي يسوع من ناصره الجليل."، وكذلك قول يسوع لأصحابه: "يزدرى نبي إلا في وطنه وبيته." [6].

ولم يكتف علماء المسلمين عصر الحروب الصليبية الاستدلال بما ورد في كتب النصارى على وحدانية الله تعالى ونبوة المسيح – عليه السلام–، بل استخدموا الأدلة العقلية والقياس ودعوا النصارى إلى تحكيم العقل في مسائل مسلم بها، حيث ساق الجعفري دليلا عقليا على فساد عقيدة التثليث بقوله[7]: " زعم النصارى أن المسيح خلق أدم وذريته أجمعين، ثم علق عن هذا الزعم متسائلا: فمريم من خلقها؟ فإن قالوا ليست من

1– الإصحاح 10: 18– 19، ص 158.
2– الأجوبة الفاخرة، ص 60.
3– الإصحاح 4: 8– 10، ص44.
4– النصحية الإيمانية، ص129.
5– الإصحاح 21: 7–8، ص94.
6– المصدر نفسه، الإصحاح 13: 58، ص76.
7– التخجيل من حرف التوراة والإنجيل، جـ 2، ص 582.

خلقه نقضوا مقالهم، وإن زعموا أنه خلقها، كيف تلد المسيح وهو خالقها وكيف ترضعه وهو رازقها؟، أسمعتم يا معشر العقلاء بامرأة ولدت خالقها وأرضعت بثديها رازقها".

وبالأسلوب نفسه أبطل ابن المتطبب حجة ألوهية المسيح حين قال[1]: " أن الآلهة الثلاثة لا يخلوا أن تكون متساوية في العلم والقدرة والحكمة أو متفاضلة، فإن تساووا كان ما زاد عن الواحد فضل غير محتاج إليه... وإن تفاضلوا كان المفضول ناقصا ولا يسوغ إدخال النقص على الآلهة"، ويواصل ابن المتطبب في إعجاز النصارى قائلا: " إذ كيف يكون إله وهو المولود من امرأة وقد نالته العلل والآفات وجرى عليه ما يجري على الأدمين من غذاء وتربية وصحة وسقم وأمن وخوف،...، فكيف تجمع هذه النقائض مع مقام الآلوهية، ثم قال: فيجب على ذوى العقول أن يزجرهم عقلهم عن عبادة إله ولدته امرأة بشرية أدمية".[2]

وبالحجة نفسها رد الأنباري[3] (ت 577 هـ/1181م) على بشرية المسيح وعدم ألوهيته فقال[4]:" فإن زعموا أن المسيح لم يكن إنسانا كان إلها قلنا فالإله يأكل ويشرب إن إن هذا لعجب"، أما الغزالي فقد تحدى النصارى الصليبيين بأن يثبتوا دعوى صلب المسيح – عليه السلام– بقوله[5]: " هذه دعوى باطلة لا يقدرون على تحقيقها البتة وكيف يستجير العاقل أن يطلق الصلب على المسيح الإله ويرد الألم إلى الإنسان ويصرفه على الإله". ويواصل القرافي داحضا هذا الاعتقاد بقوله: [6] "أن النصارى مقرين أن المسيح – عليه

1– النصحية الإيمانية، ص 63– 64.

2– المصدر نفسه، ص72.

3– الأنباري: أبو البركات عبد الله بن محمد بن عبيد الله الشافعي النحوي والزاهد العابد، صاحب التصانيف الكثيرة أبرزها كتاب الإغراب في الجدل، وكتاب الميزان، والداعي إلى الإسلام، توفي عام 577 هـ/1181م، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 6، ص 425.

4– الداعي إلى الإسلام، تحقيق سيد حسين باعجوان، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1988، ص 386.

5– الرد الجميل، ص 135– 136.

6– الأجوبة الفاخرة، ص 117.

السلام– تألم وتبرم عند قتله وصلبه ويتساءل عن سر ضعف وعجز ابن الله ... ثم يجيب قائلا: فالأولى لهم عقلا أن يعبدوا عدوه الذي استطاع بزعمهم قتله وصلبه"، ثم يستطرد مبرزا حالة العجز والضعف التي تعرض لها أثناء صلبه بما ورد عنه من إنجيل متى[1]: " إلهي إلهي لماذا تركتني"، وكذلك ما ذكر في إنجيل لوقا من سخرية وشتم[2]:"...أخذ أحد اللصين المعلقين على الصليب يشتمه فيقول: ألست المسيح فخلص نفسك وخلصنا"، في حين ذهب الجعفري أن المصلوب غير المسيح ثبت في الإنجيل أن المسيح كان يطوى أربعين يوما لا يحتاج إلى الماء فلم يصبر هذه اللحظات مما يدل على أن المصلوب غيره. [3]

وبالقياس المساوي أيضا أبطل علماء المسلمين عصر الحروب الصليبية إثبات النصارى الألوهية للمسيح بالمعجزات التي جاء بها ولاسيما معجزة إحياء الموتى، فقد بين القرافي بطلان جعل المعجزة دليلا على الألوهية من خلال إيراده مجموعة من معجزات الأنبياء – عليهم السلام– ولم يكونوا بها ألهة،[4] أما الجعفري فقد ساق لنا قولا من التوراة التوراة والإنجيل لمعجزات الأنبياء السابقين للمسيح – عليه السلام– ومع ذلك لم يكن أحد منهم بها إلها بقوله[5]: "ففي سفر الملوك وردت أن إلياس[6] أحيا ابن الأرملة"[7]،

1– الإصحاح 27: 28، ص 116.

2– الإصحاح 23: 21، ص 275.

3– تخجيل من حرق التوراة والإنجيل، جـ 1، ص 349.

4– أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية، ص103.

5– النصيحة الإيمانية، ص 104– 105.

6– هو إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران، وقد أرسله الله إلى أهل بعلبك غربي دمشق فدعاهم إلى الله الله عز وجل وأن يتركوا عبادة الأصنام، فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله، فهرب منهم وإختفى في كهف من ملك قومه عشر سنين حتى أهلك الله الملك وولي غيره، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام وأسلم من قومه خلق عظم، ابن كثير: قصص الأنبياء، تحقيق عبد الحي الفرماوي، ط5 ، دار الطباعة، القاهرة، 1997، ص ص 567– 568.

7– الكتاب المقدس، سفر الملوك الأول، 17: 21– 22، ص 664.

"وليسع[1] أحيا الإسرائيلية[2] وحزقيال[3] أحيا خلقا كثيرا[4]"، أما لوقا فقد ذكر[5]: "أن اليسع أشفى أبرصا يدعي نعمان السوري"، ورغم تطابق هذه المعجزات مع معجزات المسيح – عليه السلام– ومع ذلك لم ينالوا بها صفة الألوهية، ولا شك أن الأخذ بمسلمات النصارى والرد عليها بأخذ الحجة من كتبهم المقدسة ساعد على إظهار جانبا من تناقضهم ومن ثم فضح دعواهم.

ولم تقتصر حروب علماء المسلمين الفكرية على الرد ودحض إدعاءات النصارى الصليبيين، بل امتدت إلى مناقشة طقوسهم وشعائرهم الدينية على غرار طقس المعمودية،[6] فقد ناقش القرافي أصل المعمودية لديهم وبين تناقض هذه الشعيرة مع طهارة وقدسية المسيح – عليه السلام– عندما خاطبهم متسائلا: [7] "هل كان عيسى – عليه عليه السلام– قبل أن يعمده يحي – عليه السلام– مقدسا أم لم يكن؟ فإن كان مقدسا فلا فائدة من فعل يحي، وإن كان غير مقدس فكيف يكون من ليس بمقدس إلها أو ابن الله؟."، ويتوسع القرافي في إعجاز النصارى مبرزا تناقض هذه الشعيرة مع اعتقادهم في خطيئة

1– هو اليسع بن أخطوب، وهو ابن عم إلياس – عليه السلام– ورث النبوة بعده مكث ما شاء الله أن يمكث يدعو الناس بشريعة إلياس، بوست: قاموس الكتاب المقدس، جـ 2، ص 138.

2– الكتاب المقدس، سفر الملوك الثاني، 4: 36، ص 685.

3– هو حزقيال بن يودي ملك بني إسرائيل خمسة وعشرين سنة، فقيل أن قوم فروا من الوباء – الطاعون– فنزلوا بصعيد من الأرض فقال لهم الله موتوا، فمر بهم حزفيال – عليه السلام– فوقف عليهم متفكرا فقيل له: أتحب أن يبعثهم الله فقال: نعم فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكسى لحما وأن يتصل العصب بعصه...، ثم نادهم بأمر الله فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد، ابن كثير: قصص الأنبياء، ص576.

4– الكتاب المقدس، سفر حزقيال، 36: 7– 8، ص 1830.

5– الإصحاح4: 27، ص 204.

6– المعمودية: هو طقس الغسل بالماء باسم الأب والابن وروح القدس ولا يقبل إيمان نصراني إلا بها إشارة إلى تطهير تطهير النفس من أدران الخطيئة، وقد حل التعميد عند النصارى محل الختان في اليهودية، جورج بوست: قاموس الكتاب المقدس، جـ 1، ص 637، محمد أبو زهرة: معاضرات في النصرانية، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1966، ص 135.

7– الأجوبة الفاخرة، ص 155.

أدم – عليه السلام– والتي محيت حسب زعمهم بصلب المسيح وقتله حيث بين معلقا: [1] "إن كانت المعمودية توجب غفران الذنوب فما فائدة الصلب، وإن كان الصلب أزال الخطيئة فلا حاجة إذن إلى المعمودية".

والنقد نفسه وجه إلى مسألة الاعتراف وغفران الذنوب،[2] حيث اعتبرها الجعفري بدعة جعلت كوسيلة للتحكم في المذنب وماله[3]. أما القرافي فقد أبرز خطرها على الفرد والمجتمع بقوله:[4] "أن قسيس النصارى أنزلوا أنفسهم منزلة الله سبحانه وتعالى في غفران غفران الذنوب، وهم بهذا الابتداع يبعثون العصاة على المجاهرة ويشعون الفاحشة وينشرون الفضيحة في الذراري والأعقاب وأي مفسدة أعظم من هذه".

كما أثارت مسألة اختلاف الأناجيل،[5] اهتمام علماء المسلمين في ردهم على النصارى، فقد بين الجعفري بعد دراسة مستفيضة تناقض الإنجيل في اثنين وخمسين موضعا ثم علق قائلا:[6] "فهذا الكتاب ولد من لسان إلى لسان وعبث به التحريف والتصحيف في كل زمان..."، في حين رأى القرافي أن كثرة التحريف والتبديل في الإنجيل وتعدد كتبه واختلاف النصارى فيه فلا يمكن والحال هذه نميز الكلام الذي أنزله الله عن غيره.[7] ورد القرافي فيما يتعلق بتشبيه النصارى اختلاف القرآن الكريم باختلاف باختلاف الأناجيل، مبينا الفرق واضح بين الأمرين إذ الأناجيل لم تنقل إلينا بالتواتر

1– المصدر نفسه، ص 117.

2– الاعتراف: في النصرانية يعني: أن يأتي المذنب ويعترف بخطاياه وذنوبه أمام القس في الكنيسة ثم يمسحه هذا الكاهن بيده فتغفر ذنوبه، سعود الخلف: اليهودية والنصرانية، ط1، مكتبة العلوم، المدينة المنورة، (د. ت)، ص 235.

3– تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، جـ 2، ص 595.

4– الأجوبة الفاخرة، ص127.

5– الإنجيل: كلمة يونانية معناها: الحلوان أو الخير الطيب والبشارة، والإنجيل في الأصل هو الكتاب الذي أنزله على النبي عيسى – عليه السلام– الذي حرف وأنتج منه عدة أناجيل منها الأناجيل الأربعة التي اعتمدتها الكنيسة، يوحنا، متى، مرقس، لوقا، محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص 46– 47.

6– تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، جـ 1، ص 283.

7– الأجوبة الفاخرة، ص 27.

كالقرآن الكريم، بل نكاد نجزم بأن أكثرهم ليس منزلا[1]. كما لم يترك علماء المسلمين عند دراستهم لكتب النصارى فرصة إثبات نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم–، حيث ساق الجعفري أربعا وثمانين بشارة من التوراة والإنجيل تقر بنبوة محمد النبي الخاتم وحاثا النصارى على التصديق بها.[2] في حين يذكر القرافي إحدى وخمسين بشارة من كتب النصارى بمحمد –صلى الله عليه وسلم– وصدق نبوته. [3]

وبناء على سبق يمكن لنا القول أن بفضل هذه الأعمال والجهود استطاع علماء المسلمين عصر الحروب الصليبية التصدي للمشروع الصليبي وتحجميه بإبطال الكثير من الافتراءات والدعوات الباطلة التي كان الصليبيون يظنون أنها من وحي عقيدتهم وكتبهم المقدسة، بإظهار الحق الذي غاب عنهم سواء بأخذ الحجة من كتبهم أو بالإستدال والقياس، بل امتدد جهدهم إلى إدخال الشك والريب في مصدر عقيدتهم ورجال دينهم وافتار ذلك الهوس الديني المزعوم الذي عد وقود الجيوش الصليبية.

1– المصدر نفسه، ص99.

2– تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، جـ 2، ص 722.

3– الأجوبة الفاخرة، ص 163.

المطلب الثالث: استمالة الصليبيين وتحسين نظرتهم للإسلام:

كانت نظرة بعض الصليبيين قبل اختلاطهم بالمسلمين نظرة عدائية حاقدة على الإسلام والمسلمين وذلك بسبب ما كان لديهم من أفكار مغلوطة ومشوهة، فالإسلام في تصورهم دين كفر والمسلمون وثنيون يعبدون محمد –صلى الله عليه وسلم– الذي هو في نظرهم شيطان[1]، وقد نقل لنا ابن الأثير جانبا من هذه الدعاية الصليبية المحمومة والمتحاملة على الإسلام ونبيه بعد استعادة بيت المقدس من أيديهم سنة 583 هـ/1187م بقوله:[2] "... خرج القسيسين والرهبان لبيسين السواد وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم...، ورفعوا صورة المسيح – عليه السلام– وجعلوا بجانبه رجل عربي يضربه وقد سالت الدماء على وجه المسيح وقالوا: هذا المسيح يضربه نبي المسلمون".

وانطلاقا من هذه النظرة المتطرفة والمفعمة بالعداء الشديد قدم الصليبيون إلى البلاد الإسلامية وهاجسهم تخليص الأماكن المقدسة، ضيف إلى ذلك ما تميزوا به من رعونة وغلظة في الطباع جعل المسلمون في بداية الأمر يجدون صعوبة في التواصل معهم، وقد أقر غوستاف لوبون هذه الحقيقة عن جيمس فيترى أسقف مدينة عكا قوله: " خرج من الصليبيين جيل من الفجرة الأشرار والفاسدين المنحلين"[3]، كما أشار أسامة ابن منقذ إلى شيء من ذلك في مذكراته التي دونها في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي التي تعرف باسم "كتاب الاعتبار"[4]، ومما ذكره أنه كان يؤدي الصلاة في بيت المقدس متجها إلى مكة وحوله بعض الفرنج تقدم إليه أحدهم وصرفه عن القبلة، فأقبل آخرون من بني ملته منه واعتذروا له وقالوا: "إن هذا الرجل قدم حديثا إلى البلاد ولم يتعود أن يرى

1– مونتغرى واط: أثر الحضارة الإسلامية على أوروبا، ترجمة جابر أبي جابر، (د. ط)، منشورات دار الثقافة، دمشق، 1981، ص 144.

2– الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 201.

3– حضارة العرب، ص328.

4– كتاب الاعتبار، ص 134.

مسلما يصلي متجها إلى مكة". ومن هذه الحادثة قال قولته المشهورة: " فكل من هو قريب العهد بالبلاد الفرنجية أجفي أخلاقا من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين".

وكان من الطبيعي أن يحدث هذا التصادم وعدم التوافق بين الصليبيين والمسلمين في هذه الفترة بحكم ظاهرة التعصب الديني التي بلغت أشدها في الغرب الأوروبي، فضلا على أن بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي كانت تمثل مرحلة باكرة من الاحتكاك الحضاري الملموس بين الشرق والغرب الأوروبي، هذا الاحتكاك الذي استمر ما يناهز قرنين من الزمان استطاع المسلمون تغير الكثير من المفاهيم والصور الخاطئة عن الإسلام باستمالة الصليبيين وأخذهم بالود واللين وتخليصهم من الرعونة الإقطاعية التي حملوها معهم.

وكان من أولي نتائج هذا الاحتكاك أن اكتشفوا حقيقة رجال الدين عندهم الذين يدعون تمثيلهم لله عندما رأوا المسلم يؤدي شعائره بدون وصاية ولا وسيط، وأن الإسلام دين يدعو إلى عبادة الله الواحد ويمقت العبودية للإنسان سواء كان إمبراطورا أو كاهنا، وأن البابا لا يمثل الله فهو كعامة الناس يخطئ ويصيب ولاسيما بعد أن تولت هزائمهم على يد المسلمين، بل ظهر منهم من تجرأ على سلطة البابا ورمزيته بقولهم: " لو اجتمع البابوات والكرادلة[1] من أولهم إلى أخراهم على أن يضعوا عن مخلوق ذنبا واحد ما قدروا، بل الله يغفر الذنوب".[2]

كما تمنى ملوك أوروبا بأن يكونوا كملوك المسلمين يحكمون بحرية مطلقة وبدون توجيه من زعيم ديني، على غرار الإمبراطور فريدريك الثاني ملك صقلية الذي لم يخف

1- الكرادلة: هم مستشاروا البابا ويكونون مجمع الكرادلة الذي يقع عليه مسؤولية اختيار البابا الجديد وقت الضرورة، سعد رستم: العرب والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام إلى اليوم، ط2، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، 2005، ص77.

2- عبد الله الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ط1، جامعة الإمام، الرياض، 1994، ص145.

تململه من سلطة البابا فقد سأل يوما مرافقه القاضي فخر الدين أثناء إقامته في عكا عن أصل الخليفة العباسي فأجابه: " هو ابن عم نبينا –صلى الله عليه وسلم– أخذ الخلافة عن أبيه وأخذها أبوه عن أبيه فالخلافة مستمرة في بيت النبوة لا تخرج منها"، ثم علق الإمبراطور بقوله: " ما أحسن هذا لكن هؤلاء قليلون العقول –يعني الفرنج– يأخذون رجلا من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسب جاهلا أحمق –يقصد البابا– يجعلونه خليفة عليهم قائما مقام المسيح فيهم وأنتم خليفتكم ابن عم نبيكم فهو أحق الناس بمرتبته"[1]

وكذلك ملك فرنسا فليب الثاني أغسطس (575 ه– 620 هـ/1179م– 1223م) الذي أظهر سخطه وغضبه حين أصدر البابا بحقه قرار الحرمان فعبر قائلا: " ما أسعد صلاح الدين ليس فوقه بابا"[2]. وقد حدث أيضا أن أرسل فريدريك الأول بربروسا (550 هـ– 586هـ/1116م– 1151م) رجلا يدعي بركارد مبعوث إلى صلاح الدين وأثناء القيام بمهمته استطاع التعرف على معتقدات المسلمين وطريقة حياتهم فأعجب أيما إعجاب، فلما عاد إلى قومه قال لهم: إن المسلمين يؤمنون بإله واحد وهو خالق كل شيء، وحكى لهم عن الحرية التي يتمتع بها المسلمون والتي لا يوجد مثيلا لها في المجتمع الأوروبي.[3] أما ريتشارد قلب الأسد ملك الانجليز (585ه– 595/1186م– 1199م) فلم يتوان هو الأخر بعد فشل حملته على بيت المقدس وعودته إلى مملكته بإصلاح الحياة السياسية ومواكبة نظم الشرق بعد الأثر الذي تركه فيه صلاح الدين. [4]

كما لعبت مؤلفات المسلمين دورا كبيرا في لفت انتباه بعض القادة الصليبيين إلى محاسن الإسلام وثراء الحضارة الإسلامية، فهذا روجر الثاني (488هـ–

1– ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 4، ص 251.

2– وول ديورنت: قصة الحضارة، جـ 6، ص226.

3– جمال الدين شيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر الأوروبي في عصر النهضة، دار الثقافة، القاهرة، (د. ت)، ص 67.

4– أحمد رضا بك: الخيبة الأدبية، ص 212.

549هـ/1095م- 1154م) أحد ملوك النورمانديون في صقلية قد بلغ به حد الاستحسان والقبول أن استحضر العديد من الكتب العربية وأمر بترجمتها[1]، وكان يجل علماء المسلمين ويقدرهم حيث يذكر عنه أن الإدريسي (ت 560هـ/1164م) إذا دخل مجلسه أكرمه واحترمه ووسع له[2] ومنهم من حرص على تعلم اللغة العربية لمعرفة المزيد عن هذا الدين كريموند صاحب طرابلس،[3] ومنهم من وضع له قارئا بها كصاحب صيدا. [4]

ومن آثار ما انساب من حضارة الشرق من مفاهيم إسلامية وعبادات ومعاملات وحدوث شيء من التغير لدى بعض الصليبيين ما ذكره ول ديورانت[5]: " ... لقد أثرت هذه التراجم في عقل أوروبا وحفزته إلى البحث والتفكير"، بل بلغ التأثير في بعض رجال الدين إلى حد انتقاد سابقهم في فكرة القضاء والقدر معتمدين في نقدهم على أقول علماء المسلمين،[6] ومنهم من تأثر بالبيئة الشرقية والثقافة الإسلامية وصنف في ذلك كتب ومؤلفات كوليم الطرابلسي الذي ألف كتاب "حالة الشرقين"، وتحدث فيه عن محمد (صلى الله عليه وسلم) وذكر أن المسلمين يعبدون الله باعتباره خالق كل شيء ويحترمون عيسى –عليه السلام– بصفته نبيا من الأنبياء. [7]

أما عامة الصليبيين فمع مرور الوقت وتعايشهم مع المسلمين خفت حدة تعصبهم وتبدلت النظرة العدائية لكثير منهم إلى مودة واحترام، ولا أدل على ذلك سماح الصليبيين للمسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية في المدن الصليبية، وقد شاهد ابن جبير شيء من

1- إحسان عباس: العرب في صقلية، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ص158.

2- الإدريسي: نزهة المشتاق، ص4.

3- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ2، ص 653.

4- ابن شداد: النوادر السلطانية، ص155.

5- قصة الحضارة، جـ 6، ص22.

6- أحمد رضا بك: الخيبة الأدبية، ص101.

7- عمر عبد السلام تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس خلال العصور الوسطى، (د.ط)، دار فلسطين، بيروت، 1973، ص72.

ذلك في عكا عندما زارها وكانت يومئذ تحت حكم الصليبيين فوجد في شرقيها مسجد بقى محرابه على حاله ووضع الفرنج في شرقيه محربا، فالمسلم والنصراني يجتمعان فيه ويستقبل كل واحد مصلاه وهو بأيدي النصارى الصليبيين معظم ومحفوظ. [1]

ولاحظ المشهد نفسه عندما وطأة قدماه أرض مدينة صور أين وجد مساجد كثيرة بأيدي المسلمين وعبر قائلا: [2] " وكانت راحتنا مدت بصور بمسجد بقى بأيدي المسلمين ولهم فيها مساجد أخرى"، وعليه فقد أصبح من المألوف لدي الصليبيين رؤية المسلمين يؤدون الصلاة وسماع خطب العلماء وحلقات الذكر فتولد لدى بعضهم الاستحسان والقبول. ويستطرد ابن جبير، وينقل لنا صورة بالغة عن هذا القبول حين يذكر أنه رأى عرسا إفرنجيا حضره جمع من المسلمين. مما شاهده أن بعضهم إذا رأوا مسلما انقطع إلى العبادة –الصلاة– أتوه بالماء،[3] في حين كان أسلاف هؤلاء في حملتهم الأولى إذا رأوا مسجدا تقام فيه الصلاة أحرقوه بما فيه.[4] وقد أكد توماس أرنولد هذا الرأي مبرزا حجم التحول الحاصل في فكر الصليبيين بقوله: [5] " ليس عامة النصارى فحسب من تغيرت نظرتهم إلى المسلمين، بل أن علماء اللاهوت المسيحي قد أدى اختلاطهم بعلماء المسلمين إلى تكوين رأى أكثر إنصافا عن الإسلام".

ومن المظاهر الدالة أيضا على تغير نظرة بعض الصليبيين اتجاه المسلمين وجود صدقات بين بعض المسلمين والصليبيين، حيث يذكر أسامة ابن منقذ (ت 584هـ/1188م) أنه كان تربطه مع بعض فرسان الفرنج نوع من الصدقات وكان

1– رحلة ابن جبير، ص275.

2– المصدر نفسه، ص276.

3– نفسه.

4– دول ديورانت: قصة الحضارة، جـ 6، ص 50.

5– الدعوة إلى الإسلام، ص 110.

يتعامل معهم وهو لا يجيد لغاتهم مما يدل على أن منهم كان يتحدث باللغة العربية،[1] ويذكر كذلك أن أفراد منهم – الفرنج– كانوا يمكنونه من الصلاة في المسجد الأقصى عندما كان تحت سيطرة الصليبيين. [2]

ومن الجهود المبذولة كذلك لهدم الفكر الصليبي وإزالة الحاجز النفسي الذي كان حائلا بينهم وبين المسلمين، ما لمسه النصارى الصليبيون من حسن المعاملة والرفق بهم، بل رأوا من قادة المسلمين وعلمائهم من المواقف ما يعكس مبادئ الدين الإسلامي، فرقت قلوبهم وزالت الغشاوة على أعينهم فتغيرت نظرتهم للإسلام، ومن أمثلة ذلك ما قام به صلاح الدين أثناء محاولته فك الحصار عن عكا سنة 587هـ/1191م والقتال على أشده عندما طلب منه ملك الانجليز ماء وثلجا وفاكهة فأرسل صلاح الدين ما طلبه كرما وإحسانا.[3] كما عبر صلاح الدين عن سمو الإسلام وإنسانيته حين دنا منه شيخ صليبي يساعده في المسير فتى مسلم وقال له: " أيها السلطان أنا إفرنجي من مدينة تولوز أقيم في القدس منذ عشرين عاما وقد جاءني هذا الفتى المسلم منذ سنين هاربا من الفرنجة وكتمت سره ممن ظلموه ولما استرجعتم هذه المدينة انقلب علي هذا الفتى على غير عادتكم، يا مولاي لقد طردني من بيتي واستولى على ما فيه... فنظر السلطان إلى أخيه العادل وقد دمعت عيناه ثم قال: أعيدوا إلى هذا الشيخ بيته وماله وأعفوه من الجزية، أما الفتى الذي خالف تقاليدنا فاحبسوه حتى ننظر في أمره".[4]

وتعامل بالخلق نفسه عندما تزامن هجومه على قلعة الكرك سنة 579هـ/1183م عقد قران ملكي، وكان هذا العرس على قدر كبير من الأبهة والفخامة حضره كبار الأمراء الصليبيين، فعندما بدأ جيش صلاح الدين يستهدف الأسوار بقذائف المنجنيق بعثت

1– كتاب الاعتبار، ص 87.

2– المصدر نفسه، ص 134– 135.

3– ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 12، ص 365.

4– عبد الله علوان: صلاح الدين الأيوبي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ط)، ص77.

والدة العريس صحونا من طعام العرس إلى صلاح الدين طالبة منه وقف القصف وعدم إفساد العرس، فسأل بأي الأبراج ينزل العرسان وأصدر الأوامر بالا يتعرض هذا البرج للقذف [1]، ويأبى صلاح الدين إلا أن يضرب المثل الأعلى في سماحة الإسلام ورحمته أمام أم صليبية فقدت رضيعها حينما دخل بعض الفدائيين المسلمين إلى خيام الصليبيين ليصبوا منهم، فأخذ ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر، ولما فقدته أمه خرجت إلى صلاح الدين فلقيته راكب فأخبرته عن مسألتها فدمعت عيناه وأمر بإحضار الرضيع فوجدوه قد بيع، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل حتى أحضر الطفل وسلم إلى أمه وعادت إلى معسكرها شاكرة له. [2]

ويواصل صلاح الدين نهجه في استمالة الصليبيين بخلق الإسلام، حيث يذكر في أعقاب فشل الحملة الصليبية الثالثة في انتزاع بيت المقدس حدث أن فتح صلاح الدين الباب على مصراعيه أمام الصليبيين لزيارة بيت المقدس، فدخلها عدد كبير إلى درجة أن ريتشارد ملك الانجليز خشي غضب صلاح الدين وسير إليه يسأله منع الزوار واقترح أن لا يؤذن لهم إلا بعد حضور علامة من جانبه، فرد عليه صلاح الدين بخلق الرجل المتسامح بقوله: "...بأن أولئك الزوار قد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف فلا يمكن منعهم"[3]، بل يذكر أنه كان يبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم.

وما يلحظ من هذه المواقف أن صلاح الدين لم يواجه الصليبيين بسيفه فقط بل بفكره وبخلق الإسلام، ولو أراد أن يبيد جميع الصليبيين الذين وقعوا في يديه كما كان يفعل الصليبيون لما استطاع أحد أن يقف في وجهه ويعترض سبيله سوى قضاة عسكره من علماء المسلمين، فقد أقر رنسيمان هذه الحقيقة عندما بين سماحة جيش صلاح الدين

1- بسام العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، ط1، دار النفائس، بيروت، (د.ت)، ص 92.

2- محمود شلبي: حياة صلاح الدين، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ص165.

3- عبد الله علوان: صلاح الدين الأيوبي، ص93.

بعد استرداد بيت المقدس فقال: [1]" ... الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية فيما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخضون في دماء ضحاياهم... وكان رجال الشرطة بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء قد يقع على النصارى...".

وقد هدف صلاح الدين من هذه المواقف أن يتحدث أعداء الإسلام عن محاسن الإسلام ومدى التزام أهله بتلك المحاسن والأخلاق، وأن تسر هذه المحاسن بين الصليبيين حتى يحدث فيهم التأثير والتغير وينقطع المد الصليبي من منبعه، وقد أثمرت هذه المواقف الإنسانية عندما تناقل الصليبيون أخبارها فيما بينهم وأحدثت فيهم التأثير الذي قصده صلاح الدين، وكان من نتائج ذلك أن انضمت فرقة صليبية إلى جيش صلاح الدين واشتركوا معه في حصار عكا ضد بني ملتهم[2] بعد أن لمسوا غش وغدر إخوانهم، وبلغ التأثير مداه عندما رد بعضهم على دعوة رجال الدين للقيام بحملة صليبية جديدة بالسخرية، بل منهم من عمد إلى توزيع الصدقات على الفقراء باسم محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي العرب. [3]

ويتضح لنا من هذه الردود أن الرأي العام الصليبي لم تعد تنطلي عليه تلك الادعاءات والدعوات التي كان يطلقها قادة الصليب باسم المسيح – عليه السلام– بعد أن اكتشفوا زيفها وبطلانها، وأمام هذا الفتور وعدم التجاوب مع دعوات الكنيسة أصدر رجال الدين ضريبة مالية على كل من لم ينهض لنصرة الصليب، وقد عرفت هذه الضريبة بعشر صلاح الدين[4]. ولم يقتصر شيوع التأثيرات الإسلامية في الصليبيين على الجوانب الفكرية والعقائدية بل امتدت إلى المظهر العام، حيث تشبه النصارى الصليبيين بالمسلمين

1– تاريخ الحروب الصليبية، جـ 1، ص 404.

2– أبو شامة: الروضتين، جـ 2، ص 185.

3– وول ديورانت: قصة الحضارة، جـ 6، ص 67.

4– أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص86.

في زيهم وطريقة حياتهم وفي ذلك يذكر ابن الأثير:[1] "أن أحد قادة الصليبيين في الشام اسمه الكندهري يلبس القباء والشربوش مع مخالفته في ذلك لعادة قومه وعلمه بانتقادهم أياه". ففي رسالة إلى السلطان صلاح الدين قال فيها: "... أنت تعلم أن لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسهما مثلك محبة فيك..."، وقد وافق دول ديورانت هذا الرأي بقوله: [2] "... ذلك أن الأوروبيين الذين استوطنوا في هذين البلدين – يعني سوريا وفلسطين– منذ عام 492هـ/1099م قد تزينوا شيئا فشيئا بالزي الشرقي فلبسوا القباء والقفطان".

ومنهم من تشبه بالمسلمين في الطعام وترك أكل لحم الخنزير وفي ذلك يحدثنا ابن منقذ[3]: "أن فارسا صليبيا أقام له مأدبة غذاء ولما رأى الفارس أن أسامة لم يمد يده أخبره أن الطعام خال من لحم الخنزير، وهناك من قام بالتعدد بتزوجه بأكثر من إمرأة مخالفا في ذلك شريعته وقومه". [4]

والثابت أن الصليبيين قد تغيروا بعد أن احتكوا بالمسلمين ورأوا منهم ما لم يألفوه من بني ملتهم، فعادوا من الشرق إلى الغرب بفكر غير الفكر الذي جاءوا به وبصورة ناصعة ومتحضرة عن الإسلام والمسلمين وحدثوا إخوانهم في الغرب بحديث ملؤه الإعجاب والإكبار، فقد عبر بعضهم على الملأ: أن محمد (صلى الله عليه وسلم) ليس زنديقا ولكنه صاحب رسالة تدعو إلى التوحيد. [5]

1- الكامل في التاريخ، جـ 10، ص106.

2- قصة الحضارة، جـ 6، ص 34.

3- كتاب الاعتبار، ص140.

4- وليم الصوري: المصدر السابق، جـ 2، ص 294.

5- أحمد رضا بك: الخيبة الأدبية، ص105.

المبحث الثاني

دور علماء المسلمين في استنهاض المجتمع وإصلاحه

المطلب الأول: الخطابة الدينية والوعظية

المطلب الثاني: الإصلاح العقدي والقيمي.

المطلب الثالث: إنشاء المدارس وتأطيرها.

المطلب الأول: الخطابة الدينية والوعظية

عرف الجرجاني (ت 810 هـ/1407م) الخطابة فقال:[1] " هو قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مضبوطة من شخص معتقد فيه،والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم". أما محمد أبو زهرة فقد عرفها بقوله:[2]" الخطابة مصدر خطب يخطب أي صار خطيبا وهي على هذه الصفة راسخة في نفس المتكلم يقدر بها التصرف في فنون القول لمحاولة التأثير في نفوس السامعين وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم".

وقد عدها القلقشندي من أشرف الوظائف وأعلاها رتبا فقال:[3] " وهي في الحقيقة أجل الوظائف وأعلاها رتبة... وكان النبي (ص) يفعلها بنفسه ثم فعلها الخلفاء الراشدون من بعدهم..."، في حين صنفها النويري من العلوم المنطقيات الخمسة:[4] " ... أما العلوم المنطقيات فخمسة أنواع البديع كالتكافؤ، والثاني معرفة صناعة الخطابة والثالث صناعة الجدل والرابع صناعة البرهان...".

وكانت الخطابة الدينية التي يقصد بها إثارة الشعور الديني وبث الحمية في قلوب الناس قد بلغت شأن مرموق ومكانة سامية عصر الحروب الصليبية، حيث لم تقتصر مجالس الوعظ على المساجد والمناسبات الدينية بل تعدتها إلى أوقات الفتوح والأماكن التي يرابط بها الجند[5]، ولعل شعور قادة المسلمين بالضعف أمام جحافل الصليبيين ورغبتهم في استنهاض الهمم وبذل النفس والنفيس في سبيل نصرة الأوطان والمقدسات، فضلا عن غلبة العامل الديني على النفوس ولجوء الناس إلى الدين باعتباره مخلصا مما هم فيه من

1- معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، (د، ط)، دار الفضيلة، القاهرة، (د، ت)، ص 87.

2- الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، ط2، دار الفكر، دمشق، ص 19.

3- صبح الأعشى، ج4، ص 40.

4- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، جـ 15، ص 191.

5- عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية، ط2، دار الفكر العربي، لقاهرة، 1989، ص203.

الرزايا والهموم[1]، جعل منها أحد أهم وسائل الدعاية والتعبئة التي استخدمها ملوك بني أيوب وغيرهم في الحض على الجهاد، حيث ورد عن أبي شامة أن صلاح الدين الأيوبي كان من المواظبين على مجلس وعظ أبي الفتوح عبد السلام التنوخي[2] بجامع دمشق.[3]

فكان من الطبيعي أن يتقرب منهم السلاطين وقادة الجند لما لهم من مقدرة على الاستمالة والتوجيه ونفوذ روحي على العامة والجند، فكان المجاهدون إذا وهنوا وضعفوا وثقلت عليهم وطأة العدو انتدب لهم داعية من كبار علماء المسلمين يجلس إليهم بعضهم ويذكرهم بالجهاد وفضله ويستحضر معهم الفتوحات العظيمة والانتصارات الباهرة لإلهاب مشاعرهم وشحد هممهم على الصمود والثبات والتحرير، ومن العلماء الدين كان لوعظهم وخطبهم الأثر الكبير في مقاومة الغزو الفرنجي الفقيه الواعظ على بن المسلم السلمي[4] الذي شهد في أواخر عمره غزو الصليبيين بلاد الشام، فخصص دروسه في جامع بني أمية الكبير للحديث عن فضائل الجهاد وتحريض أهالي الشام على النفير ومقاومة المحتلين، وقد عنون إحدى خطبه بعنوان "الغزو واجب"، وكان من نتائج وعظه أن بلغ الحماس الديني بالعامة مبلغه فخرجوا للذود عن حرمة الأوطان رغم تقاعس الأمراء والسلاطين.[5]

1- محمد زعلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي، (د، ط)، دار المعارف، الإسكندرية، 1990، ص178.

2- هو عبد السلام يوسف بن محمد أبو الفتوح التنوخي الواعظ الكبير، صاحب التصانيف العديدة أبرزها "ديوان الخطب" المتوفي عام 581هـ/1185م، ابن تعرى بردي: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 99.

3- الروضتين، جـ 2، ص 277.

4- هو علي بن المسلم بن محمد بن علي بن الفتح أبو الحسن السلمي الدمشقي ولد سنة 452هـ/1060م وافق الإمام الغزالي ودرس في حلقاته توفي عام 533هـ/1138م له عدة تصانيف في الفقه والتفسير، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 22، ص 96، الذهبي: العبر، جـ 5، ص 445.

5- ابن الأثير: الكامل، جـ 8، ص 440.

كما تحرك القاضي أبي سعد الهروى[1] إلى بغداد مع وفد من أبناء الشام في رمضان 492 هـ/1099م بعد سقوط بيت المقدس، فدخل ديوان الخليفة المستظهر بالله[2] (470ه- 512هـ/1077م- 118م)صائحا حاسرا حليق الرأس – علامة على الحداد- وفي ظهره حشد من المقدسين الناجين من مجزرة الفرنج، فأورد كلاما أبكى به العيون وأوجع القلوب كقوله: " دماء سفكت ونساء أخفين وجوههن بأيديهن حياء وخجلا، أيرضى العرب البواسل بالمهانة ويقبل الأعاجم الشجعان بالذل..."، ثم يستطرد القاضي الهروى معلقا على نحيب وعويل الحضور: " إن أسوأ ما يلجأ إليه المرء من سلاح أن يسكب الدمع بينما تذكي السيوف نار الحرب."[3]

فلما سمع الناس ببغداد فضاعة ما ارتكب في بيت المقدس هالهم ذلك فصاحوا وبكوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر ومنعواالناس من الصلاة،[4] فخشي الخليفة من ثورتهم فندب الفقهاء إلى الخروج في البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج الإمام أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي وغيره من أعيان الفقهاء مثل أبو بكر الشاشي وأبو سعيد الحلواني[5] ، وما يستخلص من هذه المواقف أن الدعوات الأولى للجهاد والمقاومة لم تصدر عن مجالس الحكام بل صدرت من العلماء، والفقهاء بحكم أنهم أكثر سماعا وتأثير في الناس، كما أن مجالس وعظهم لم تقتصر على العامة بل تعدت إلى السلاطين والقواد وفي ذلك جرأة ما بعدها جرأة.

1- هو أبو سعد محمود بن نصر بن منصور الهروي قاضي قضاة دمشق، قتلته الباطنية عام 519 هـ/1125م، المصدر نفسه، جـ 9، ص 234.

2- المستظهر بالله: أبو العباس أحمد بن المقتدى بالله عبد الله بن الأمير محمد بن القائم العباسي، الخليفة العباسي الثامن والعشرون (487هـ- 512هـ/1094م- 1118م)، كان كريم الخلق لين الجانب حفل عهده بتعاقب الحروب، الذهبي: العبر، جـ 2، ص 398- 399، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص424.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ 9، ص 19، 21، أبو الفدا: تاريخ مختصر الدول، جـ 2، ص 28.

4- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص173.

5- ابن الأثير: الكامل، جـ 9، ص 20.

كما استغل الوعاظ والخطباء انتصارات الأمة في توجيه الجند وجمهور الناس ودفعهم إلى الإحسان والعدول عن الأعمال التي تسيء للإسلام، وقد مثلت خطبة القاضي محي الدين ابن زنكي (ت 598هـ/1201م) الوعظية بعد تحرير بيت المقدس سنة 583هـ/1187م نموذج في التوجيه الديني والتربوي، فبعد أن ذكر بالبيت وفضله كقوله: "...ألا ليس هو البيت الذي عظمته الملوك وأثنت عليه الرسل وتليت فيه الكتب..."، انتصب واعظا وناصحا للجند بقوله: " ... وأياكم أن ستزلكم الشيطان وأن يتداخلكم الطغيان فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد وخيولكم الجياد وبجلادكم في مواطن الجلاد، لا والله ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم، فاحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل وخصكم بنصره المبين أن نفترقوا كبير من مناهيه وأن تأتوا عظيما من معاصيه، فتكونوا كالتي نفضت عزلها من قوة وأنكاثا... الجهاد فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم أنصروا الله ينصركم واحفظوا يحفظكم..."[1]

ويستشف من خطبته أنه كان شديد الخوف أن يحدث هذا الفتح العظيم في نفوس الجند الغرور، وأن يتخذوا منه ذريعة إلى اقتراف المعاصي وأن يفعلوا ذلك دلالا من أنفسهم على الله والإسلام فيفسدون بذلك النصر الذي من الله به عليهم والفتح الذي خصهم به من دون غيرهم، ويظهر ذلك جليا في صيغ الأمر "أياكم" وأسلوب التكرار" الجهاد الجهاد".

وتعاظمت مجالس الوعظ بتعاظم الخطر الصليبي وكانت أشبه بمدارس شعبية تحملت عبء تثقيف العامة وبث الروح المعنوية بين الناس والدعوة إلى النفير والجهاد، على غرار مجلس الشيخ زين الدين بن نجا المعروف بابن نجية[2] الذي كان جليلا معظما

1- أبو شامة: الروضتين، جـ 3، ص 148- 149، الحنبلي: شفاء القلوب، ص 146، 152.

2- ابن نجية: أبو الحسن علي ابن إبراهيم بن نجا الجنبلي ولد بدمشق عام 508هـ/1114م وبها نشأ، اشتغل بالتفسير والوعظ كان من خاصية الزكيين والأيوبيين، توفي عام 599هـ/1202م، الذهبي: العبر، جـ 3، ص 126.

عند صلاح الدين، وفي هذا يذكر أبو شامة:[1] أن السلطان صلاح الدين بعد تمكنه من تحرير بيت المقدس أمر بنصب سرير للوعظ وأختار الواعظ ابن نجية للجلوس عليه، وكذلك ولده الملك العزيز من بعده حيث طلب منه يوما: " إذا رأيت مصلحة في شيء فأكتب لي بها فأنا ما أعمل إلا برأيك"[2]، كما أثني عليه العماد الأصفهاني بقوله:[3] " كان زين الدين ذو مهمة في الوعظ وقبول في القلوب، وفصول في فصل الخطاب...".

وقد عد مجلس وعظه الذي عقد عقب فتح بيت المقدس من أشهر مجالس الوعظ التي نالت القبول وتركت الأثر في العقول والنفوس، حين تكلم عن البيت وحرمته وأجر فاتحية وبؤس خاذليه والجهاد وفضائله، وفي ذلك يقول العماد الأصفهاني[4]: " فقد ذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقى ومن هلك ومن نجا وخوف بذي الحجة... وأفتى بكل عظة للراقدين موقظة... وأحيت القلوب الميتة ورجت لها القلوب الحية، فبكي المتقاعسون عن الجهاد واعترف المذنبون بذنبوهم" و يستطرد العماد:[5]" وضج المتباكون ورفت القلوب وخفت الكروب وتاب المذنبون وناح الأوابون...".

ومن مجالس الوعظ الأخرى التي ذاع صيتها إبان فترة الحروب الصليبية مجلس الشيخ أبو المظفر سبط ابن الجوزي[6]، والذي أثني عليه أبو شامة بقوله:[7] "كانت مجالس الوعظ للمذكور من محاسن الدنيا ولذاتها، فكان الله قد جمع له حسن الصورة وطيب الصوت وطرافة الشمائل في الإيراد والجوابات... فكان يزدحم في مجلسه ما لا يحصى

1- الروضتين، جـ 3، ص 447.

2- الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة، جـ 2، ص 532.

3- الفتح القسي، ص91.

4- المصدر نفسه، ص92.

5- المصدر نفسه.

6- سبط ابن الجوزي: هو يوسف بن قزاوغلي سبط ابن الجوزي أبو المظفر، المؤرخ الواعظ، ولد ببغداد سنة 581هـ/1185م، رحل إلى دمشق وكانت وفاته فيها عام 654هـ/1256م، المقريزي: السلوك، جـ 1، ص 401.

7- ذيل الروضتين، ص73.

من الخلق... وكان لا يفارق أحد مجلسه إلا وشوقه مستمر إلى عودته..."، أماابن واصل فقد وصفه بأنه[1]: " أوحد زمانه في الوعظ حسن الإيراد ترف لرؤيته القلوب وتدرف لسماع كلامه العيون."، وكان لأسلوبه في الوعظ دور كبير فيما بلغته مجالسه من قبول واستحسان، حيث يردف أبو شامة[2]: أن الناس كانوا يبتون ليلة مجلسه في جامع دمشق يسابقون على موضعهم لكثرة ما يحضر مجالسه.

مما حفظه التاريخ في مجالس وعظه المؤثرة المجلس الذي عقده سنة 607هـ/1210م بجامع دمشق ردا على اعتداءات الفرنج المتكررة على مدن الشام والتي لم تلق من يصدها من جانب المسلمين، ما ذكره ابن الجوزي عن نفسه: [3] "جلست بجامع دمشق يوم السبت من ربيع الأول وكان الناس من باب المشهد إلى باب الساعات... وكان القيام في الصحن أكثر، وكان يوم مشهودا لم ير بدمشق مثله..."

ولإلهاب حماسة الناس وحشد هممهم وإذكاء جذوة الجهاد في قلوبهم ساق إليهم حادثة المرأة الشامية التي قامت بتقطيع شعرها وعملها منه أشكالا لخيل المجاهدين وبعثها لرجل شامي يدعى أبو قدامة وقولها له: " اجعله قيدا لفرسك في سبيل الله"[4]، وذلك تعبيرا تعبيرا منها واستهزاء لحالة المسلمين المتقاعسين عن الجهاد، فلما صعد سبط ابن الجوزي المنبر أمر بإحضارها فكانت ثلثمائة شكال فلما رآها الناس صاحوا صيحة واحدة وقطعوا مثلها وكان والي دمشق حاضرا ومعه الأعيان، فلما نزل سبط من المنبر وركب الناس وخرجوا إلى باب المصلي وكانوا لا يحصون كثرة وساروا إلى نابلس لقتال الفرنج فأسروا وهزموا وقتلوا ورجعوا سالمين غانمين،[5] وعليه فقد استطاع الإمام بهذه التمثيلية

1- مفرج الكروب، جـ 4، ص 245.

2- الذيل على الروضتين، ص73.

3- مرآة الزمان، جـ 8، ص 170.

4- ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 7، ص 35.

5- أبو شامة: ذيل الروضتين، ص 107، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 7، ص 35.

التمثيلية البارعة أن يلهب حماسة الناس ويثير غيرتهم ويدفعهم إلى ساحة القتال كالسيل الجارف، وهو أسلوب جديد في الدعاية والتعبئة السياسة وإثارة الحمية الإسلامية إبان الحروب الصليبية.

وهناك مثلا أخر من الوعظ الديني الذي ينسب إلى الإمام سبط ابن الجوزي، حيث يذكر له أنه عقد مجلسا عقب تسليم الملك الكامل (ت 635هـ/1237م) القدس سنة 626هـ/1228م لفريدريك الثاني الذي كان على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة (616هـ-648هـ/1220م-1250م) بإيعاز من الملك الناصر داود[1] صاحب دمشق (ت656هـ/1258م) للتشنيع بالملك الكامل[2]، ومن جملة ما قاله سبط في هذه المناسبة الحزينة[3]: "... انقطعت من البيت المقدس وفود الزائرين يا وحشة المجاورين! كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة وكم جرت لهم في تلك المساكن من دمعة تالله لو صارت عيونهم عيونا لما عرفت ولو انقطعت قلوبهم أسفا لما شفت، أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة على ملوك المسلمين، لمثلها تتقطع القلوب من الحسرات". وقد وصف ابن واصل الذي حضر مجلسه بأنه كان مجلسا عظيما ارتفع فيه ضجيج الناس وبكاؤهم فلم ير إلا باك أو باكية[4]. ويتضح لنا من هذه الخطبة أن وعظه كان ممتلئ بالصور المخزنة المتخيلة التي أراد منها زيادة الشعور بالحسرة مما أثار الحزن والأسى في نفوس الحاضرين وإثارة غيرتهم على نصرة المقدسات.

1- هو الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود ابن السلطان الملك المعظم عيسى ابن العادل، ولد بدمشق سنة 603هـ/1206م، كان فقيها وأديبا شاعرا، دخل في صراع مع عماه الكامل والأشرف، توفي عام 656هـ/1258م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 23، ص 376، 378.

2- الحنبلي: شفاء القلوب، ص268.

3- مرأة الزمان، جـ 8، ص 654.

4- مفرج الكروب، جـ 4، ص 246.

ومجالس الوعظ الديني لم تكن دائما بالمساجد بل كانت تعقد أحيانا في ميدان القتال والأماكن التي يرابط بها الجند، على غرار ما فعله السلطان حين استعاد الصليبيون مدينة عكا عام 588هـ/1192م وقوي أمرهم واستطالوا على السلطان بطلب القدس فجمع أمراؤه ليشاورهم في الأمر ويحثهم على مجاهدة العدو، وكان مجلسا عظيما دعي فيه قاضي عسكره بهاء الدين بن شداد للكلام فكان مما قال: [1] "إن النبي (ص) لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة– رضي الله عنهم– على الموت في لقاء العدو ونحن أولي من يتأسى به صلى الله عليه وسلم والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ولعل ببركة هذه النية يدفع العدو، فاستحسن الجماعة ذلك ووقفوا عليه".

ويلحظ من هذه الخطبة أن العاطفة الدينية هيمنت على كلامه، وقد بدأها باستلهام الموروث الديني عندما استحضر صورة النبي (ص) والصحابة حوله يبايعونه على الموت، وفي ذكر المكان الذي سيتم التحالف عنده وهو الصخرة – مكان عروج النبي – ص–هو استشعار لجدية الموقف الذي يتطلب حماية المقدسات، فكان الأثر بالغ فقوية عزيمة الجند وزادت الرغبة في التحرير، ثم شرع السلطان بعده فقال: " ... أعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم، وأن العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإذا وليتم بأنفسكم – والعياذ بالله– طوى البلاد طي السجل للكتاب..."[2].

ومن خطبه الوعظية الحماسية أيضا التي كانت تروم للحث على الجهاد والمقاومة الخطبة التي ألقاها سنة 585هـ/1189م بعد انهزام جنده في بادئ الأمر على يد الصليبيين، وقبل إعادته الكرة عمل السلطان على شحد همم جنده وتحفيزهم على القتال فخطب فيهم قائلا: "... أعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل أرض الإسلام وقد لاحت

1– ابن شداد: النوادر السلطانية، ص321.

2– المصدر نفسه.

لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى... إن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل وهذا العدو وإن بقى وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم..."[1]، ويظهر من خطبته أنها كانت بالغة الحجة مثيرة للهمة معبرة عن حجم النازلة على الرغم من قصرها لأنها سمة من سمات الخطابة الحربية، وفي الأخير يجدر بنا القول أن الفقهاء والعلماء كانوا بحق سادة المقاومة، وبفضل حثهم ووعظهم للسلاطين والحكام وإرشادهم للجند والعامة تحقق النصر والتمكين.

1- أبو شامة: الروضتين، جـ 4، ص56.

المطلب الثاني: الإصلاح العقدي والقيمي:

عرفت بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي حالة من الانقسام المذهبي والانحطاط الفكري والاجتماعي، بشيوع البدع والمفاهيم الخاطئة والمعتقدات الباطلة، وقد زاد هذا الوضع حدة بعد استيطان الصليبين واختلاطهم بالمسلمين أين تكدرت البيئة الشرقية الإسلامية بعاداتهم وسلوكياتهم الإقطاعية، فقد وصف أحد الحجاج المسيحيين حالة أهل الشام في هذه الفترة فقال: " ... وقد شاهدت مدى تقاعس المسلمين في تأدية واجب الجهاد وعن تأدية واجباتهم المادية، وأن حياة المسلمين كانت غير مألوفة وغريبة وأن قانونهم الأخلاقي والعقيدي قد اعتراه الفساد"[1].

وبناء على هذا نهض علماء عصر الحروب الصليبية لتحمل أمانة الإصلاح وتطهير المجتمع من أدران الفساد بإحياء المذهب السني وقمع البدع وتقويم الأخلاق والسلوكات وإرجاء الناس إلى جادة الصواب، ومن العلماء الذين انبرؤا إلى التثقيف الديني والنهى عن المنكر والأمر بالمعروف الفقيه المدرس برهان الدين البلخي (ت 548هـ/1153م) الذي هاله ما وصل إليه المجتمع الشامي من انحطاط وانهيار في الأخلاق فطلب من الملك نور الدين محمود زنكي (ت 569هـ/1173م)، بأن يمنع الفواحش ويبطل الضرائب ولم يخفه في هذا الأمر هيبة السلطان فقال له: " كيف تنصرون وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور"[2]. وبرغم من حاجة السلطان إلى أموال المكوس التي كان يستعين بها في حروبه ضد الصليبيين إلا أنه تأثر بكلام الفقيه البلخي وأمر بالتحقيق في أمر جمع أموال المكوس، وإبطال الضرائب وحذر من ارتكاب الفواحش في بلاده.[3]

1- يوشع براو: الاستيطان الصليبي في فلسطين - مملكة بيت المقدس - ص 627.

2- أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 121، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 12، ص 147.

3- المصدر نفسه، ص 122.

كما عبر القاضي الفاضل[1] عن تذمره في رسالة أرسلها إلى السلطان صلاح الدين يشرح فيها حجم الفساد الذي استشرى في صفوف المسلمين بقوله: " والمملوك ينهى إلى الله تعالى ولا ينال ما عنده إلا بطاعته ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته... وكيف تنصرون والمعاصى في كل مكان بادية والمظالم في كل موضع فاشية، وقد طلع إلى الله منها ولا يتوقع بعدها إلا بستفاء منه..."[2].

وعليه فلم يبخل علماء الأمة على عصر الحروب الصليبية في وعظ ولي الأمر واسداء النصح له بل حثه على اتخاذ أسباب النصر والتمكين، وذلك عندما بينوا أن ما أصاب الأمة الإسلامية من نكسات وهزائم وتحدر المصائب عليها إنما سببه الاسترسال في المعاصي والجهر بها، وأن عدم تعظيم حدود الله زاد في جرأة العدو ومقاومته والنيل منه لا تتم إلا بمقاومة النفس وتهذيبها وحملها على الطاعة.

ومن العلماء المشهود لهم في الجهر بالحق وإبطال المنكر ودفع الظلم الإمام الحافظ عبد الغني عبد الواحد المقدسي[3]، كان لا يرى منكر إلا و غيره بيده أو لسانه، حيث يذكر عنه أنه كان يجوب حواري دمشق وينكر المنكر ويكسر الطنابير[4]حتى لو كانت

1- القاضي الفاضل: أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد الملقب بمحير الدين ومحي الدين، أحد الأئمة الكبار الذين نالوا الحظوة عند الملوك استوزره صلاح الدين عام 567هـ/1171م، كان كبير المنزلة أديبا وفقيها (ت 590هـ/1193م) ، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 4، ص 324، الصفدى: الوافي بالوفيات، جـ 6، ص 126.

2- أبو شامة: الروضتين، جـ 2، ص 163- 164.

3- هو الحافظ عبد الغني عبد الواحد بن سرور الإمام تقي الدين أبو محمد المقدسي الجماعيلي، رحل إلى دمشق وسمع من كبار علمائها، شهد له بالورع والعبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، (ت 600هـ/1203م)، الذهبي: العبر، جـ 3، ص 129، ابن تغرى: النجوم الزاهرة، جـ 6، ص 185- 186.

4- الطنابير: مفردها طنبور وهي ألة للطرب ذات عنق طويل وستة أوتار وهي كلمة فارسية معربة، معجم النفائس الكبير، إشراف أحمد أبو حاقة، ط1، دار النفائس، بيروت، 2007، م2، ص 1170.

لأبناء الأمراء والسلاطين، ففي عهد الأفضل بن صلاح الدين[1] كان بدمشق عند درج جبرون ملهي فجاءه الحافظ فكسر شيئا منها ثم صعد إلى المنبر وقرأ: " من رأى منكم منكرا فليغيره..."، فجاء إليه رسول من القاضي يأمره بالمشي إليه حتى يناظره في الدف والشبابة[2]، فقال الحافظ: ذلك عندي حرام، وقال: أنالا أمشي إليه إن كان له حاجة فيجيئ هو [3]، فقد كانت له هيبة وعظمة لدى الملوك والسلاطين، حيث ورد عن الملك العادل أخو صلاح الدين قوله: ما خفت من هذا فقلنا: أيها الملك، هذا الرجل الفقيه، قال: لما دخل خيل لي إلا أنه سبع يريد أن يأكلني، فقلنا هذه كرامة الحافظ.[4]

كما أنكر الامام فخر الدين بن عساكر على السلطان المعظم عيسى (ت 624هـ/1126م) إظهار وإباحة الخمور[5]، والموقف ذاته أطلقه الشيخ ابن عبد السلام[6] وهو في دمشق علم أن نواب السلطان الأشرف بن العادل (ت 635هـ/1237م) يرتكبون الزنا ويدمنون الخمور ويتفنون في ظلم الناس فتقدم الشيخ إلى السلطان الأشرف وطلب منه إبطال المنكرات فأبطلها وقال له الأشرف: " جزاك الله عن دينك وعن نصائحك وعن المسلمين خيرا وجمع بيني وبينك في الجنة وأطلق له ألف دينار"[7]، كما

1- هو الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي، كان ضعيفا قليل العزم كثير الغفلة، تسلطن في دمشق ثم حارب أخاه العزيز صاحب مصر توفي عام 622هـ/1224م، الذهبي: العبر، جـ 3، ص 188.

2- الشبابة: نوع من المزمار وهو من القصب ينفخ فيه، معجم النفائس الكبير، م1، ص 932.

3- ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، جـ 2، ص 3-4.

4- المصدر نفسه، جـ 2، ص4.

5- أبو شامة: ذيل الروضتين، ص138.

6- هو عز الدين شيخ الإسلام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، الإمام العلامة وحيد عصره سلطان العلماء السلمي الدمشقي ثم المصري الشافعي، برع في الفقه وبلغ رتبة في الاجتهاد مع الزهد، ولد عام 578هـ/1191م، وتوفي بمصر عام 660هـ/1261م، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 7، ص 522- 523، الذهبي: العبر، جـ 3، ص 299.

7- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، جـ 8، ص 135، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 12، ص 241.

أبطل الشيخ العز بن عبد السلام كثير من البدع التي اعتاد عليها الخطباء فهو لم يلبس السواد واجتنب الثناء على الملوك وأبطل صلاة الرغائب.[1]

ولم يقتصر عمل بعض العلماء على تقديم النصح وانكار المنكر، بل رفضوا مجاراة السلاطين في إصدار فتاوى تتعارض مع أصول الدين الحنيف حفاظا على عقيدة الأمة والخلق العام، ومن أمثلة ذلك ما طلبه الملك المعظم عيسى من الشيخ شرف الدين إسماعيل[2] أن يصدر فتوى بإباحة النبيذ وما يتصل بها فرفض الشيخ[3]،والموقف ذاته اتخذه العز بن عبد السلام حين رفض الاعتراف للممالك بالسلطنة كونهم أرقاء ولا يصح لهم بيع ولا شراء فتعطلت مصالحهم، ورغم التهديد والوعيد واصل الشيخ على موقفه، وفي نهاية الأمر نزل هؤلاء عند رغبته ونودي عليهم بالبيع وتم تحريرهم.[4]

كما تنبه قادة المسلمين عصر الحروب الصليبية إلى أثر الانقسام المذهبي وشيوع الأفكار الهدامة والخاطئة لمبادئ الإسلام على ضعف الجبهة الإسلامية وعدد المجاهدين في سبيل الله، فعملوا على توحيد عقيدة الأمة وتطهيرها من العقائد الباطلة باستمالة الفقهاء والعلماء للعناية بإحياء المذهب السني وقمع البدع وجعل رعاياهم بمنأى عن التشيع والتيارات الفكرية المخالفة.

لقد اتبع السلطان نور الدين محمود (ت 569هـ/1173م) في حلب ودمشق خطوات واضحة في هذا السياق، حيث يذكر عنه أنه في سنة 543هـ/1148م أمر بإلغاء عبارة "حي على خير العمل" من الأذان في مساجد حلب ونهيهم عن سب الصحابة على

1- السبكي، المصدر السابق، جـ 8، ص 143.

2- هو القاضي شرف الدين إسماعيل ابن إبراهيم الموصلى الشيباني الحنفي، كان ينون عن القاضي ابن زكي وكان حسن الأخلاق والعقيدة توفي عام 630هـ/1232م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 13، ص 159.

3- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 13، ص 159، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، جـ 1، ص 415- 416.

4- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، جـ 8، ص 110.

المنابر،[1] ولم يتردد الفقيه برهان الدين البلخي بترجمة هذه الدعوة عندما أقدم على رفع أذان السنة بدلا من أذان الشيعة أثناء تدريسه بالمدرسة الحلاوية، وفي هذا يذكر المقريزي[2]: " صادف وأن سمع الفقيه أبو الحسن البلخي أذان الشيعة المعهود أثناء إلقائه لبعض الدروس... فما كان منه إلا أن أمر الفقهاء بوقفه والتأذين بالأذان المشروع على مذهب أهل السنة وتهديد كل من يرفض ذلك بقوله: من امتنع كبوه على رأسه، ففعلوا ذلك"، ويبدو واضحا من إجراء الفقيه البلخي هذا أنه كان يحضي بدعم من الملك نور الدين إذ لم يكن ما أقدم عليه سهلا في ظل الأكثرية الشيعية التي كانت تعيش في حلب وهذا يعكس مدى دور العلماء في تمتين مذهب السلطة لتوحيد صف الأمة وتحصين فكرها وعقيدتها.

كما واصل صلاح الدين الأيوبي جهاده ضد كل من يشوب العقيدة ويبعدها عن جوهرها، وفيه يقول ابن شداد[3]: كان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين مبغضا للفلاسفة ومن يعاند الشريعة المطهرة..."، فلم تقتصر جهوده في مقاومة الفكر الإسماعيلي في مصر بل شملت حلب حينما دخلها عام 578هـ/1182م بعزل قضاة الشيعة واستبدالهم بقضاة الشافعية ومن أمثلة ذلك تعين القاضي محي الدين ابن زكي[4]، وكذلك حروبه ضد البدع التي استحدثها الفاطميون وجعلوا لها مواسم وأعياد كل عام ولاسيما يوم عاشوراء الذي يكثر فيها النحيب ويرتفع البكاء وتتعطل الأعمال وتتوقف الأسواق،[5] واستبدلها بالمناسبات الحربية فكان إذا رجع من غزوة له ضد الصليبيين منتصرا أمر بأن يحتفل بذلك ويشعر الجميع أنه في حالة انتصار دائم، وانتصاراته على الصليبيين هي

1- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص301، سبط ابن الجوزي: مرأة الزمان، جـ 8، ص 199.

2- الخطط، جـ 4، ص86.

3- النوادر السلطانية، ص11.

4- أبو شامة: ذيل الروضتين، ص49.

5- المقريزي: الخطط، جـ 2، ص 210- 211.

وحدها التي تستحق الحفاوة والتكريم وتحقق الفرح والسرور، وفي هذا السياق يذكر العماد الكاتب الأصفهاني[1]: " فلا جرم أذل له – أي صلاح الدين- الملوك ووهب لأعطاف الدولة التباهي بملكه... فأزال عن مشارع الشريعة الأكدار وعطل البدعة بمصر والشام وقمع أعداء الإسلام".

ومن العلماء الذين لهم جهود في مواجهة الباطنية والتحذير منهم وبيان بطلان نحلتهم وتحصين المجتمع من شبههم الشيخ عبد الرحمان بن إسماعيل أبو شامة من خلال كتابيه "كشف حال بني عبيد" وكتاب "الروضتين في أخبار الدولتين"[2]، حيث بين فيهما تاريخهم ومبدأ دعوتهم ومؤكدا على عدم صحة نسبهم إلى فاطمة -رضي الله عنها- ومما ورد عنه:[3] " ذكر جماعة من كبار العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلا – أي نسبتهم- لفاطمة (ض)، بل المعروف عنهم بنو عبيد وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي...، وقيل أنه يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان زنديقا خبيثا عدو للإسلام حريصا على إزالة الملة الإسلامية...".

في حين إنبرى ابن الجوزي[4] في مجالس وعظه ودروسه بتتبع بدعهم وإظهار باطلها للعامة والسلطان،[5] أما سبط ابن الجوزي (ت 654هـ/1256م) فكان مخمدا

1- الفتح القسى في الفتح القدسي، ص342.

2- الزركلي: الأعلام، جـ 3، ص299.

3- الروضتين، جـ 1، ص201.

4- ابن الجوزي: أبو الفرج بن الجوزي عبد الرحمان بن علي بن محمد بن عبيد الواعظ المتقن، ولد سنة 520هـ/1126م صاحب التصانيف الكثيرة وإمام أهل عصره (ت 597هـ/1200م)، ابن العماد: شذرات الذهب، ج6، ص 537- 538.

5- ابن الجوزي: المنتظم، جـ 18، ص 222.

للفتن في مهدها محاربا للطائفية مصلحا بين الرعية ومقربا وجهات النظر بين السنة والشيعة، فكان لقوله بالغ الأثر في نفوسهم – أي الشيعة– وتوبة الكثير منهم.[1]

كما شكل انتشار الفكر الفلسفي الهدام في تلك الحقبة التاريخية خطرا حسيما على معتقدات الناس وسلوكياتهم مما جعل علماء السنة العمل على التصدي له وتحجيمه ومقاومة رجاله، فقد انتقد العالم الفقيه عبد الرحمان ابن الجوزي انحراف الفلاسفة المنهجي عندما بين أنهم أبعدوا الوحي من طريقهم وانفردوا بمقتضي ظنونهم في مختلف قضايا الكون والعقيدة وهذا كله من تلبيسات الشيطان عليهم،[2] في حين بين الغزالي أن منهج الفلاسفة يفتقد إلى الإتقان ويقوم على الظن والتخمين[3]، أما محي الدين ابن زكي (ت 668هـ/1269م) قاضي دمشق فقد ذكر عنه أنه كان ينهى الطلبة عن الاشتغال بكتب المنطق وعلم الكلام ويمزق من وجد عنده شيئا منها بالمدرسة النورية،[4] وكذلك الإمام تقي الدين ابن الصلاح[5] فقد كان هو الأخر مجتهدا حازما في محاربة الفرق المارقة والتيارات الفكرية الهدامة وشديد التحذير من الفلسفة والمنطق، فقد سئل ذات يوما عمن يشتغل بالفلسفة فقال[6]: " الفلسفة من السفه والانحلال ومادة الحيرة والظلال ومنار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالبراهين ومن تلبس بها استحوذ عليه الشيطان وأظلم قلبه عن نبوة محمد (ص)"، وكان يدعو إلى مدافعة الفلاسفة بقوة السلطان إلى جانب الحجة والبيان والبرهان بقوله: " أنه من الواجب على

1– العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، جـ 1، ص 134– 135، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 9، ص137.

2– ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص59، 61.

3– حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ 1، ص 509.

4– ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 13، ص 36.

5– تقي الدين ابن الصلاح: العلامة أبو عثمان بن عبد الرحمان بن موسى الكردي الشهرزوري الشافعي نفقة على يد الإمام والعلامة ابن عصرون، صاحب التصانيف الكثيرة، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 23، ص 143.

6– ابن الصلاح: فتاوي ومسائل ابن صلاح، جمع وتحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1958، ص210.

السلطان أن يخرج أهل الفلسفة المشائيم من المدارس ويبعدهم عنها ويدفع شرهم عن المسلمين".[1]

ومن الكتب الفلسفية التي كانت محضورة على العامة حتى لا تلوث عقولهم رسائل إخوان الصفا[2]، حيث حذر الذهبي من مطالعة هذه الرسائل واعتبرها اعضالا وسما قاتلا[3]، ولم يتوقف تحذيرهم على نهي الطلبة المبتدئين بل أفتوا باستباحة دم بعض الفلاسفة والمتكلمين المتطاولين على الشريعة، فقد أفتى علماء حلب بقتل الفيلسوف شهاب الدين السهروردي[4] فوافقهم صلاح الدين وأمر ولده الملك الظاهر بقتله لما بلغه من فساد فساد عقيدته وسلوكه ومعاند للشرائع ومبطلا لها[5]، كما أمر ملك دمشق الصالح إسماعيل إسماعيل بسجن وقتل الفيلسوف المتكلم رفيع الدين عبد العزيز الجيلي[6] بعد أن ساءت سيرته في الرعية.[7]

ولقد حارب علماء السنة في الفلسفة الجزء الذي يفسد العقول ويشكك في أصول العقيدة، كما يروى عن شمس الدين الأصفهاني (ت 688هـ/1289م) أنه كان عالما بالفلسفة والمنطق وكان حريصا على تلقين تلاميذته أصول الدين والفقه قبل اشتغالهم

1- الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 23، ص148.

2- إخوان الصفا: جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب في الحكمة وكان موطن نشأتهم البصرة، ظهروا في منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، تتفق المصادر على أنهم من الشيعة الإسماعلية وتمثل أراءهم الفلسفية المبادئ الأساسية لفرقة الإسماعلية، ورسائلهم إحدى وخمسون مقالة، ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص104.
الزركلي: الإعلام، جـ 1ـ ص59.

3- سير أعلام النبلاء، جـ 19، ص 328.

4- السهروردي: شهاب الدين أبو الفتوح بن حبش ابن أمبرك ولقبه المؤيد بالملكوت، ولد بسهرورد احدى قرى عراق العجم، كان بارعا في علم الكلام مزدريا للعلماء ثبت عليه الالحاد والزدقة، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 6، ص 476، الذهبي: العبر، جـ 4، ص 263.

5- ابن شداد: النوادر السلطانية، ص11.

6- هو عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل الجبلي الشافعي، تولي القضاء بدمشق وكان مناظرا متكلما متفلسفا سيء السيرة قليل الدين فاسد العقيدة، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 23، ص 109.

7- الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 6، ص 187.

بالفلسفة، فكان الطالب إذا أراد أن يقرأ عليه الفلسفة نهاه على ذلك ويقول له: " حتى تمتزج بالشرعيات امتزاجا جيدا"[1]

وعليه فما كان لصلاح الدين الأيوبي أن يظفر بأعداء الإسلام – الصليبيين- ويحرر أولي القبلتين، لولا الجهود المضنية التي بذلها بمعية علماء المسلمين في توحيد كلمة المسلمين في مصر والشام – سيادة المذهب السني- وتطهير العقيدة من البدع والظلالات وقمع البدع والسلوكات الخاطئة التي كانت أثارها على الجبهة الإسلامية وخيمة.

1- الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 2، ص 273

المطلب الثالث: إنشاء المدارس وتأطير دور التعليم:

بدأت فكرة إنشاء المدارس النظامية في بلاد الشام على يد الوزير السلجوقي أبو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسى الملقب بنظام الملك (ت 485هـ/1092م)، حيث عده ابن خلكان أول من أنشأ المدارس فأقتدي به الناس،[1] وإن كانت هذه المدارس قد أنشئت في بداية الأمر على أسس مذهبية لتكمين المذهب السني ودفعا للتشيع،[2] إذ مهدت بتراثها ورجالها وعلمائها السبيل أمام آل زنكي وبعدهم آل أيوب للنهوض بالحياة الفكرية وتعزيز حركة المقاومة.

فقد فرض الجهاد عصر الحروب الصليبية الاهتمام ببناء المؤسسات الدينيةالتربوية كالمساجد والمدارس لعظم دورها في حماية الهوية الإسلامية ولاسيما أن الهجمة الصليبية هدفت إلى طمس التراث الإسلامي وتشويه، فضلا عن تهيئة أبناء الأمة و تأهيلهم لمقاومة المد الصليبي الذي وجد في انحطاط الوضع الاجتماعي والفكري تربة خصبة لتمدده في أرض الشام.

كما ساعد إقبال الحكام المسلمين وأبنائهم على تعلم العلوم الدينية في هذه الفترة سببا آخر في ازدهارها وزيادة الاهتمام بها، ولا أدل على ذلك اهتمام الملك نورد الدين زنكي بمطالعة الكتب وتقربه من العلماء والاستعانة بهم وفي ذلك يذكر أبو شامة عنه:[3]" أنه كان يعظم العلماء ويجمعهم عنده للبحث والنظر، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة" بل كان يعترف بعظيم فضلهم في ظهور دولته ونصره على أعدائه الفرنج بقوله: " هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الأعداء ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم فإذا

1- وفيات الأعيان، جـ 2، ص 129.

2- السبكي: طبقات الشافعية، جـ 2، ص 270.

3- الروضتين، جـ 1، ص 9، سبط ابن الجوزي: مرأة الزمان، جـ 8، ص 305- 306.

رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا"[1]، أما صلاح الدين الأيوبي فقد كان هو الأخر ذا ثقافة دينية واسعة فكان يحفظ القرآن إلى جانب الفقه، فقد وصفه السبكي بالفقيه، كما كان عالما بالشعر حافظا لديوان الحماسة[2]، وعليه فقد نظر إلى التزود بالثقافة الدينية المناسبة ليس فقط من باب إشباع الجانب الروحي لديه بل من الواجبات التي تقتضيها قيادة حركة المقاومة.

ومن المؤسسات الدينية والتربوية التي كان لها دور في انبعاث الحركة الفكرية المساجد، فقد كانت إلى جانب كونها مراكز للعبادة دور علم تلقي فيها الخطب والدروس الدينية الهادفة لتوعية الناس وإصلاح أحوالهم وتعبئة جمهور المسلمين ضد الأعداء، فضلا عن مناقشة القضايا السياسية والإدارية والعسكرية،[3] ولتثمين دورها نهض القضاة والعلماء والقادة عصر الحروب الصليبية بإقامتها وترميم ما هو قائم منها، ولا أدل على ذلك ما عرفته بلاد الشام خلال الحقبتين الزنكية (521هـ- 570هـ/1127م- 1174م) والأيوبية (570هـ- 648هـ/1174م- 1250م) من تزايد عددها، فقد ذكر ابن عساكر وهو مؤرخ شامي أن عدد المساجد في مدينة دمشق وحدها بلغ في العهد الأيوبي مائتين واثني وأربعين مسجدا، أما في أربظة المدينة فقد بلغ مائة وثمانية وتسعين مسجدا،[4] في حين ذكر ابن شداد (ت 684هـ/1285م) أن عددها في عصره بلغ مائتين وثمانية وأربعين مسجدا.[5]

1- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 12، ص 301.

2- طبقات الشافعية، جـ 12، ص 301.

3- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، جـ 4، ص 421.

4- تاريخ دمشق، جـ 2، ص288.

5- الأعلاق الخطيرة، جـ 1، ق1، ص 52.

أما حلب فقد احتوت على مائتين وأربعة عشر مسجد حسب ما ذكره ابن شداد[1]، كما ذخرت بها مدن طرابلس وغزة وحمص[2]، ومن الأمثلة الدالة على عناية السلاطين بدور العبادة والمساجد ما ذكره ابن جبير في إسراف نور الدين محمود الزنكي في إعادة بناء مسجد حلب بعد خرابه بقوله: [3]" فقد ارتفع كتاج العظيم على المحراب واتصل بسمك السقف وقد قوس أعلاه وهو مرصع كله بالعاج..."، أما صلاح الدين فقد دفعته المكانة الكبيرة التي يحتلها المسجد الأقصى عند المسلمين أن يوفر له ما يحتاجه من خطباء ومدرسين وخدمة وأوقف عليه الأوقاف.[4]

كما عد الجامع الأموي من أحسن الجوامع وأجملها بأرض الشام، وقد خصه ابن جبير بوصف دقيق حين ذكر موضعه ومساحته وأبوابه وقبابه وأعمدته، ثم يستطرد واصفا مجالس التي كانت تعقد فيه بقوله:[5]" حيث يستند المعلمون إلى سواري المسجد ويجلس كل منهم حين يلقنه القرآن، وكان لهذه السواري وقف معلوم يأخذ المستند إليها للمذكرة والتدريس وللصبيات أيضا على قراءتهم جراية معلومة".

أما المسجد الأقصى فقد كانت له مصاطب لجلوس الطلبة للاستماع للدروس منها مصطبة قبة موسى بين باب السلسلة والزاوية الجنوبية الغربية من الحرم،[6] وقد حفلت هذه الحلقات والمجالس التعليمية بدروس الوعظ ودراسة القرآن والفقه والحديث، ومما لاشك فيه أن المساجد على عصر الحروب الصليبية قد عدت أحد أوجه المقاومة الفكرية

1- المصدر نفسه، ج1، ق1، ص38.

2- كرد علي: خطط الشام، ج6، ص59-60.

3- رحلة ابن جبير، ص317.

4- العسلي كامل جميل: معاهد العلم في بيت المقدس، عمال المطابع، عمان د. ت، ص34.

5- رحلة ابن جبير، ص341.

6- العلمي: الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، ص34.

من خلال توجيه وارشاد عامة المسلمين وتهذيب الأخلاق والقيم وبث روح الجهاد والقتال وتصفية العقيدة من الشوائب والخرافات المبتدعة.

كما تنافس ملوك آل زنكي والأيوبيون وعلماؤهم وقضاتهم في بناء المدارس لحماية بيضة الدين وحراسه الشرع ومناهضة الفرنج، بل كانت في مقدمة الأدوات التي عبأها نور الدين محمود زنكي، فأقام العديد منها في مدن الشام على غرار مدرسة العصرونية[1] التي أنشأها بحلب سنة 550هـ/1155م واستدعي لها الشيخ شرف الدين[2] وأوقفه عليها[3]، أما المدرسة الحنفية فأنشأها عام 554هـ/1159م والتي عرفت بالحلاوية[4] وأوكل أمر التدريس فيها للفقيه برهان الدين البلخي (ت 548هـ/1153م) بعد استدعائه من دمشق لما اشتهر به من علم ومكانة في الشام[5]، كما درس بعده علماء أفاضل كإمام الكاساني[6] (ت 584هـ/1191م).[7]

1- نسبة للإمام شرف الدين بن أبي عصرون، يذكر أنها كانت دار لأبي الحسن علي ابن أبي الثريا وزير بني مرداس، فيصرها الملك نور الدين محمود إليه، وجعل فيها مساكن للفقهاء والعلماء، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، جـ1، ص 303.

2- هو الإمام شرف الدين أبا سعد بن عبد الله بن أبي عصرون الشافعي كان من أعيان وفقهاء عصره ولد بالموصل عام 493هـ/1099م ثم انتقل إلى حلب سنة 545هـ/1150م فدمشق ودرس بجامع دمشق توفي عام 585هـ/1189م، ابن حلكان: وفيات الأعيان، جـ 3، ص53- 54، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 4، ص 69.

3- ابن شداد : الأعلاق، ج، 1، ص 244- 245.

ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص35.

4- المدرسة الحلاوية: كانت كنيسة من بناء هيلانا أم قسطنطين ثم حولت إلى مسجد عرف بمسجد السراجين ولما ملك نور الدين حلب وقفة مدرسة وحدد فيه مساكن يأوي إليها الفقهاء وهي من أكثر المدارس صيتا وأكثرها طلبة، ابن شداد: الأعلاق، جـ 1، ص 110.

5- المصدر نفسه، جـ 2، ص 200.

6- هو أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الفقيه العالم فرض إليه نور الدين التدريس بالحلاوية ثم بزاوية الحديث بجامع حلب، ابن فضل العمري: مسالك الأبصار، جـ 6، ص 119.

7- المصدر نفسه، جـ 6، ص 122.

وأستمر نور الدين محمود بعد دخوله لدمشق عام 549هـ/1154م[1] في إنشاء المدارس الشافعية والحنفية على غرار المدرسة النورية الكبرى التي أنشأها سنة 563هـ/1167م وأوكل أمر التدريس فيها للفقيه بدر الدين بن عسكر المعروف بابن العقادة[2] (ت 596هـ/1199م)[3]، كما بنى مدرسة أخرى للحنفية عرفت بالنورية الصغرى[4]، إلا أن اهتمامه بالمدارس الشافعية لم يرق إلى ما كان عليه في حلب حيث الأكثرية الشعية فيها والحاجة الماسة إلى جهود فقهاء الشافعية المهتمين بدراسة الجدل وعلم الكلام لمواجهة الشيعة الإسماعيلية مواجهة فكرية تشد أزر المواجهة والمقاومة السياسية، في حين كان النفوذ السني هو الغالب في دمشق.[5]

وقد أبرز نور الدين محمود زنكي هذه الغاية حين قال: " نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين"[6]، إشارة إلى إنحراف الفكر الشيعي الباطني الذي استشري في مدينة حلب، فكان له ولفقهاء عصره الأثر الكبير في تقدم الحركة الفكرية في بلاد الشام وانبعاثها بعد ركود طويل وفي هذا يقول ابن قاضي شهبة:[7] " إن الشام كانت خالية من العلم فأصبحت في عهده مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية"، ويرصد لنا ابن جبير جانبا من هذه النهضة العلمية عندما وقف في رحلته عند

1- ابن قلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص326- 327.

2- هو بدر الدين بن عسكر بن خليفة الحموي الجبوسالمعروف بابن العقادة، كان رئيس الحنفية بدمشق، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، جـ 1، ص568- 569.

3- أبو شامة: الروضتين، جـ 4، ص 275.

4- النعيمي: المصدر السابق، جـ 1، ص 648.

5- أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 407.

6- المصدر نفسه، جـ 1، ص17.

7- الكواكب الدرية، ص35.

مدارس دمشق ووصف الأجواء العلمية المريحة التي كانت سائدة فيها، منها المدرسة النورية التي عدها من أحسن مدارس الدنيا ومن مفاخر الإسلام.[1]

كما امتدت جهود صلاح الدين الأيوبي في إنشاء المدارس لتشمل بلاد الشام بعد أن شملت مصر، فكان كلما فتح حضن أو مدينة إلا وخصص مكانا لبناء مدرسة ليخوض بها معارك العقيدة داخل الأمة قبل الزج بها في معاركه الحربية المظفرة مع العدو الصليبي، حيث قام بإنشاء المدرسة الصلاحية[2] التي يقال لها الناصرية في بيت المقدس بعد تحريرها من الفرنجة عام 583هـ/1187م، وكانت أهم مؤسسة تعليمية في بيت المقدس وبلغت شأنا كبيرا في نشر العلوم الدينية على أساس الفقه الشافعي، ومما يدل على أهمية المدرسة وعظم دورها كثرة الوقوف والجريات عليها وعلى قرائها[3]، كما دل على ذلك فئة العلماء الذين أوكل إليهم مهمة الإشراف عليها والتدريس فيها ممن عرفوا بمساهماتهم الدعوية والتعبوية في مناهضة الغزو الفرنجي، كالقاضي بهاء الدين بن شداد (ت632هـ/1234م) الذي فوض إليه التدريس فيها والنظر في أوقافها[4]، إلى جانب شيخ شيخ الإسلام المفتى الفقيه فخر الدين بن عساكر الذي تخرج على يده مجموعة من الفقهاء أبرزهم الإمام أبو شامة المقدسي[5]، وكذلك الشيخ تقي الدين أبو عمر المعروف بابن الصلاح الذي تولي التدريس بها التفسير والحديث[6]، كما عرفت المدرسة الصلاحية

1- رحلة ابن جبير، ص358.

2- الصلاحية: كانت في الأصل قبر حنا أم مريم – عليها السلام- ثم تحولت لدار علم أنباء الحكم الإسلامي من قبل الغزو الفرنجي، وعندما احتلها الفرنج عام 492هـ/1099م حولوها إلى كنيسة، أبن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 407.

العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس، جـ 2، ص 88.

3- أبو شامة: الروضتين، جـ 2، ص114.

4- النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، جـ 1، ص 251.

5- الكتبي: فوات الوفيات، جـ 2، ص290.

6- ابن حلكان: وفيات الأعيان، جـ 3، ص 243.

الإمام العالم جمال الدين بن واصل[1] الذي قام بها نيابة عن والده الذي ذهب لتأدية فريضة الحج حتى سنة 625هـ/1227م[2]، وذكر الصفدي أن ابن واصل درس بها العلوم الشرعية والعقلية كالمنطق والرياضيات والفلك.[3]

ومن الأمور الواجبة الذكر أن البعض من هؤلاء العلماء كانت لديهم إمكانات مادية ساعدتهم في إنشاء المدارس على غرار القاضي بهاء الدين بن شداد الذي تمتع بنفوذ كبير صاحب المدرسة الصاجية التي أنشأها عام 601هـ/1204م ودرس بها وأستناب عليها القاضي زين الدين أبا محمد عبد الله الحافظ الأسدي[4]، كما بنى مدرسة أخرى على الجامع المظفر بسفح قاسيون وأعانه عليها بعض أهل الخير وأوقف عليها كتبه[5]، أما المدرسة الكمالية العديمية فقد أنشأها الصاحب كمال الدين المعروف بابن العديم[6] (ت660هـ/1262م) شرقي حلب وابتدأ عمارتها سنة 637هـ/1239م وتمت في سنة 649هـ/1251م[7]، فضلا عن المدرسة الدولعية التي أنشأها العلامة جمال الدين الدولعي[8] (ت 633هـ/1235م)[9]، والمدرسة الشرفية التي أنشأها الشيخ الإمام شرف

1- ابن واصل: جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل الحموي، قاضي حماة درس وأفتى وصاحب التصانيف، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 7، ص 766.

2- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 4، ص 208.

3- الوافي بالوفيات، جـ 3، ص 71.

4- ابن شداد: الأعلاق، جـ 5، ص 179- 180.

5- الذهبي: العبر، جـ 5، ص 179- 180،
ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 7، ص 389.

6- ابن العديم: عمر بن أحمد بن وهبة الله بن ابي جرادة ولد سنة 588هـ/1192م/مؤرخا وفقيها ومحدثا وشاعرا وسفيرا، صاحب التصانيف الكثيرة أبرزها: "تاريخ حلب"، الذهبي: العبر، جـ 3، ص 300.

7- ابن شداد: الأعلاق، جـ 1، ص285.

8- هو جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل بن زيد بن ياسن بن ريد الخطيب الدولعي ثم الدمشقي، خطيب دمشق ولي الخطابة بعد عمه، كما ولي التدريس بالمدرسة الغزالية، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 4، ص 336.

9- النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، جـ 1، ص 182- 183.

الدين أبو طالب ابن أبي صالح المعروف بابن العجمي (ت 658هـ/1259م) وأوقف عليها أوقافا جليلة ودرس فيها ولده محي الدين محمد[1].

وكان لكل مدرسة من المدارس مكتبة خاصة تضم الكتب في شتى العلوم والمعارف مثل مكتبة ابن العديم وابن القفطي[2]، ولعل شغف أهل ذلك العصر باقتناء الكتب ساعد على إزدهارها وانتشارها، كما وفرت وقفيات المدارس مجانية التعليم لكافة الطلبة المغتربين والمقيمين وعنيت بأكلهم وشربهم لينصرف همهم وجهدهم نحو الدرس والتحصيل العلمي، وفي هذا الصدد يشير ابن جبير إلى أوضاع الطلبة في مدارس بلاد الشام قائلا:[3] " ومن يتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة فأولها راحة البال البال من أمر المعيشة".

كما فرضت المرحلة أن يصطبغ التعليم بروح العصر الذي غلب عليه طابع الجهاد، حيث إزدهرت العلوم الدينية دون غيرها فتصدر عدد كبير من العلماء تدريس علوم القرآن والحديث النبوي والفقه للحفاظ على بيضة الدين وحراسة الشرع من كل الشوائب، فضلا عن حاجة الناس إليها لأنها المرجع الأساسي في استنباط أحكام الشريعة وتطبيقاتها، فقد اعتمد على الحديث النبوي مثلا في إحياء المذهب السني لأن غالبية الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان رواته من آل البيت أو أئمتهم[4]، وثمة سبب أخر ويتعلق الأمر بحاجة الأمة إلى الروح المعنوية العالية وإثارة الحماس الديني ضد الفرنج، حفلت مجالس الوعظ والدرس في هذه الفترة بأيات فضل الجهاد نعيم الجنة والسير والمغازي، وتنوعت وسائل التحصيل العلمي بين التلقين والحفظ والسماع والإملاء والمناقشة والمناظرة، وقد عدت هذه الأخيرة أرقى أدوات التعليم التي كان يمارسها كبار

1- ابن شداد: الأعلاق، جـ 1، ص258.

2- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 4، ص 80.

3- رحلة ابن جبير، ص 258.

4- السبكي: طبقات الشافعية، جـ 7، ص223.

العلماء نظر لأهميتها في شحذ الذهن وتقوية الحجة، فكانت تتم بين الطلبة أنفسهم أو بين المدرس والطالب، وكان الطالب يخلف أستاذه الرأي أحيانا بطريقة ملؤها الأدب والاحترام.[1]

وعليه فقد اقتضت الظروف السياسية عصر الحروب الصليبية بناء قواعد تعبوية تجمع بين التوعية الفكرية والتبعئة الجهادية، فقد سارت عملية إحياء الفكر السني ضمن نهج متكامل عماده الاهتمام بالمدارس والمساجد لمجابهة سطوة المؤسسات الدينية والفكرية ذات التوجه الشيعي الباطني إدراكا من أن قوة الجبهة الداخلية وفاعليتها تكمن في وحدة فكر الأمة وسلامة عقيدتها، كما سارت هذه المؤسسات في سياق تثقيف الأمة وتنشأة الأجيال وتعبئتهم تعبئة فكرية، إذ تخرج منها كبار قيادي الحركة الفكرية من قادة أكفاء ومحدثين وفقهاء وخطباء ووعاظ على غرار الفقيه العماد الأصفهاني وأبو شامة المقدسي والفقيه قطب الدين النيسابوري وغيرهم من تحملوا عبء إصلاح المجتمع ويقظته، ففي الوقت الذي كان الجنود مرابطون حول الثغور في محاربة الفرنج وحصرهم في الساحل كان العلماء والفقهاء في داخل البلاد ينتزعون من الناس أفكارهم المثبطة وعقائدهم المنحرفة.

ويتحصل لنا في الأخير أن السيف ما كان لينتصر ويظفر بأعداد الإسلام – الصليبيين– لولا انتصار هذه المؤسسات التعليمية وعلمائها في ميدان الفكر والعقيدة، والتي عدت بحق مزرعة العقول وحصادها.

1– القلقشندي: صبح الأعشي، جـ 5، ص 464، بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص406.

المبحث الثالث

دور العلماء في معاضدة السلاطين

والتحريض على الجهاد

المطلب الأول: استنصاح السلاطين والدعوة لهم.

المطلب الثاني: مصاحبة الجيوش في المعارك.

المطلب الثالث: تأليف الكتب التي تحث على الجهاد والفروسية.

المطلب الأول: استنصاح السلاطين والدعوة لهم:

لم يقتصر عمل العلماء عصر الحروب الصليبية على شغل وظائف التدريس والخطابة والقضاء لتثقيف الناس وتوعيتهم، بل وجد منهم من رافق السلاطين والحكام في رحلتهم الجهادية ضد الصليبيين كمستشارين يلازمونهم ويعاضدونهم أثناء حروبهم، فلا يمكنهم الاستغناء عنهم في مجالسهم بأخذ رأيهم ونصائحهم إذا أشكل عليهم أمر في قتال الفرنجة أو في التصدي للملمات والعقبات الداخلية.

حيث يذكر أنه في سنة 522هـ/1128م اضطربت أحوال الشام بعد وفاة صاحب دمشق أتابك طغتكين[1]المعروف بظهير الدين فتجرأ الفرنج على طرقها على الرغم من تأهب ولي عهده تاج الدين بوري،[2] إلا أن هذا الأخير لم يكن بوسعه مقاومتهم وحده فستعان بالعلماء[3] لما لهم من أثر على قلوب الناس وقبول لدى الخلفاء والأمراء، فاختار الفقيه الحنبلي شرف الإسلام عبد الوهاب الشيرازي[4](ت536هـ/1141م) ليكون رسوله إلى الخليفة العباسي المسترشد بالله[5] (ت 529هـ/1135م) لما عرف عنه من علم وورع وفصاحة وجاه[6]، واستطاع الفقيه استعطاف الخليفة مبينا له ما تعانيه الشام من خطر الفرنج بعد أن تمكنوا من باياس وتطلعهم إلى دمشق فأكرمه الخليفة ووعده بإيفاد

1- هو أبو منصور ظهير الدين طغتكين مملوك السلطان تاج الدولة تشن السلجوقي، تملك دمشق وكان هيبا مدبرا وسائسا، الذهبي: العبر، جـ 2، ص 416.

2- هو بوري تاج المملوك ابن طغتكين صاحب دمشق، كان شجاعا مجاهدا جوادا كريما، حكم دولته أربع سنين، توفي عام 526هـ/1131م وولي بعده ابنه شمس الملوك إسماعيل، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 4، ص 78.

3- ابن قلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص224.

4- هو عبد الوهاب بن عبد الواحد بن محمد ابن علي أصله من شيراز، الدمشقي الحنبلي كان فقيها وواعظا، النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، جـ 2، ص 64- 65.

5- المسترشد بالله: هو أبو المنصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله الخليفة العباسي التاسع والعشرون (512هـ- 529هـ/1118م- 1135م) ، عرف بالبسالة وحسن البيان، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 19، ص 561، البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص 424.

6- ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، جـ 2، ص 198.

العساكر[1]، والظاهر من موقف الخليفة أن الخلافة العباسية كانت عاجزة لا تملك سوى الوعود بالمساعدة فعاد القاضي إلى دمشق معتمدا على نفسه في تعبئة سكانها للدفاع عنها، حيث كان له مجلس يعيظ فيه للجهاد ويلقى تأييدا من حكام المدينة.[2]

كما عمل عماد الدين زنكي (ت 541هـ/1146م) بإرسال القاضي كمال الدين الشهزروري[3] (ت 572هـ/1176م) إلى السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه[4] طالبا عونه ومدده منعا لسقوط مدينة حلب[5]، وفي ذلك يقول القاضي كمال الدين: " حضرت قدام السلطان وأديت الرسالة بإيفاد العساكر وأنا أخاطب ولا أزاد على الوعد شيئا"[6]، ولما لمس القاضي كمال الدين قلة اهتمام السلطان وعجزه بدأ التفكير بخطة يعمل فيها على إثارة حماسة عامة بغداد ضد السلطان، فأحضر فقيها كان ينوب عنه في القضاء وقال له: " خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة أوباش بغداد وأهاجمها، وإذا كان يوم الجمعة والخطيب على المنبر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد وإسلاماه ودين محمدا...."[7]

فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته وصاح وتبعه النفر بالصياح والبكاء وتركوا الصلاة ولعنوا السلطان وساروا إلى داره، وخرج الأمر عن الضبط وخاف السلطان من عاقبة الأمر فطلب بإحضار القاضي فلما

1- سبط ابن الجوزي: مرأة الزمان، جـ 8، ص 131

ابن قلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 321.

2- ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة، جـ 2، ص 199.

3- هو محمد بن عبد الله بن القاسم بن مظفر بن الشهرزوري الموصلي تولي قضاء دمشق لنور الدين محمود وأقره صلاح الدين على ذلك، كان أديبا شاعرا خبيرا في تدبير أمور الملك، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 9، ص 427.

4- هو مسعود بن محمد بن ملكشاه السلطان غياث الدين أبو الفتح السلجوقي، كان سلطانا عادلا لم يكن له من السلطة إلا الاسم، توفي عام 547هـ/1152م، ابن ملكان: وفيات الأعيان، جـ 2، ص 174.

5- ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص62، أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 165.

6- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 1، ص 80.

7- المصدر نفسه، ص80.

حضر سأله عن سبب إثارته الفتنة فأجابه: "ما فعلت شيء أنا كنت في بيتي وإنما الناس يغارون للدين والإسلام ويخافون من عاقبة هذا التواني"، فرد عليه السلطان: " إبعد هؤلاء العامة عنا وخذ من العساكر ما شئت"، فأختار القاضي عشرين ألف من عسكر السلطان[1]،وقد أبدى ابن الأثير إعجابه بما أنجزه القاضي حين أثني عليه بقوله:[2] " كان خير من عشرة ألاف فارس".

ومن العلماء المستشارين الدين ذاع صيتهم أيضا أثناء حروب صلاح الدين ضد الفرنج القاضي الفاضل (ت 596هـ/12000م) الذي نال ثقة السلطان ففوض إليه ديوان الإنشاء وإصلاح النظام المالي حين أنابه على مصر بين سنتي 585هـ-588هـ/1189م- 1192م[3]، ويرجع إلى قوله فكان لا يقطع في أمر إلا بعد أخذ مشورته ورأيه، وفي ذلك يذكر ابن واصل أنه حين هم السلطان الخروج لمواجهة الفرنج عام 584هـ/1187م قام بزيارة القاضي الفاضل للأخذ برأيه في خططه بقوله:[4] " فأستضاء برأيه فيما يريد أن يفعله وكان لا يأتي أمرا إلا من بابه"

ومن جهود القاضي الفاضل في معاضدة السلطان صلاح الدين ما قام به أثناء حصار مدينة عكا عام 586هـ/1190م، وكان وقتها يدير شؤون مصر نيابة عنه وقد سمح له موقعه أن يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر وتعمير الأسطول وحمل المال إلى عكا[5]، ولم يكتف القاضي معنويا، حيث وجد فيه السلطان مشيرا وناصحا ومسليا، فكان يشجعه ويحثه على الصبر ويقوي عزيمته لمواصلة الجهاد وعدم اليأس والقنوط من رحمة الله كقوله: " لا يكره موالي أن تطول مدة الابتلاء بهذا العدو فثوابه

1- أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 167- 168، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 1، ص 81.

2- التاريخ الباهر، ص63.

3- أبو شامة: الروضتين، جـ 3، ص 104.

4- مفرج الكروب، جـ 2، ص 255.

5- أبو شامة: الروضتين، جـ 4، ص101.

يطول وحسناته تزيد وأثره في الإسلام يبقى وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها...، والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه وبخاصته وبعامة جنده"[1]، ومما جاء في رسائله كذلك من نصح وإرشاد قوله: " ...هذا الدين ما غلب بكثرة وإنما اختار الله له أرباب... فليكن المولي نعم السلطان معاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها، ولا تعظم هذه الفنون على مولانا فتذهب صبره وتملأ صدره"، وخاطبه في كتاب أخر: " لست بملك هارم لنظيره، ولكنك للإسلام ناصر وللشرك هارم".[2]

كما مثل القاضي الفاضل لسان السلطان صلاح الدين فكان يكتب عنه الاستنجادات إلى شتى الأمراء وإلى الخليفة في بغداد طالبا العون بشتى أشكاله، ومن أمثلة ذلك رسالته إلى الخليفة ببغداد مستنجدا أياه ومهيبا به أن يقف بجانب السلطان ويعينه على تجاوز محنته ونصرة دين الله ورسوله، ومما جاء في كتابه: " فيا عصبة محمد (ص) أخلفه في أمته بما يطمئن به مضاجعه وأنا والمسلمون عندك ودائعه..."[3]

وعليه فقد كانت رسائل القاضي شاهدة على دوره في دعم السلطان ومشاركته أحزانه وآماله بل كان جيشا ثانيا يحارب بجانبه ويشد أزره، وقد صح قول السلطان فيه حين أثنى على دوره: " ما فتحت البلاد بالعساكر وإنما فتحتها بكلام الفاضل"[4]

وأستمر القاضي الفاضل بدوره القيادي البارز في الدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين عام 589هـ/1139م، محرضا على الجهاد مخمدا للفتن ومحاربا للطائفية ومقربا وجهات النظر ومصلحا بين ولاة الأمر، فقد توسط بين ولدي السلطان الملك الأفضل بدمشق والملك العزيز بمصر وعقد بينهما صلحا عام 591هـ/1195م[5]، ولما

1- أبو شامة: الروضتين، جـ 4، ص 101.
2- الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ 41، ص 58.
3- أبو شامة: الروضتين، جـ 4، ص124.
4- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 3، ص161.
5- أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 61.

أعاد الصليبيون سيطرتهم على بيروت للمرة الثانية سنة 593هـ/1197م نجده يبادر بإرسال رسالة من مصر إلى الملك العادل (ت 615هـ/1218م) يحثه فيها على مواصلة القتال ضد الصليبيين ومما ذكر في رسالته قوله: " وقد تجدد وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت ما أذهل مرضعة... وللإسلام اليوم قدم إن زلت زل وتلك القدم العادلية...اصبروا إن الله مع الصابرين ولا تهنوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير الناصرين"[1]

فالمقصود بالناصر في رسالته هو صلاح الدين حيث أراد القاضي الفاضل أن يبين أن النصر منة من الله عز وجل وليس من صنع الأشخاص إن توكلوا عليه خير التوكل، ومن ثمة فقد أحدثت رسالته الأثر في نفسية الملك العادل وحفزته على مواصلة غاراته ضد الصليبيين حتى أجبرهم على عقد هدنة عام 594هـ/1198م مدتها ثلاث سنوات.[2]

أما بهاء الدين ابن شداد (ت 632هـ/1145م) فكان هو الأخر قريبا من السلطان صلاح الدين دائم الحضور في مجالسه مبديا أراءه في كثير من المسائل ومشاركا في القرارات الحاسمة على غرار خراب مدينة عسقلان عام 587هـ/1191م، فعندما أشكل على السلطان كيفية الخروج منها أخطر أهل مشاورته وشاورهم في الأمر فوطأه ابن شداد على خرابها حتى لا يتعذر عليهم فتحها إن أرادوا ذلك[3]، كما يحسب له أنه كان المحرض للسلطان على إخراج ما تبقى من الفرنج في قلعه يافا عام 588هـ/1192م وذلك بقوله:[4] " لا شك أن النجدة قد وصلت في البحر وعلى الساحل من عساكر الإسلام

1- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 3، ص 71، ابن الأثير: الكامل، جـ 10، ص 247.

2- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ 3، ص 180، عبد الفتاح عبد الله عاشور: جهود علماء مصر والشام في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، مذكرة استكمال للحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الأدب، الجامعة الإسلامية، غزة، 2010، ص175.

3- ابن شداد: النوادر السلطانية، ص186،

أبو شامة: الروضتين، جـ 4، ص 163.

4- النوادر السلطانية، ص 225.

من تمعنهم النزول والمصلحة أن تسير وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجوا القوم وتستولوا على ما فيها من الأموال والأسلحة...".

ولم يقتصر دور القاضي بهاء الدين ابن شداد على استنصاح السلطان وإبداء الرأي في مجلسه بل كان رسوله ولسان حاله عند الخليفة وكافة الأمراء، فعندما بلغ السلطان خبر خروج الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا بجيوشه إلى بلاد الشام لنجدة الصليبيين تملكه القلق فعهد إلى القاضي بالمسير للخليفة العباسي طالبا العون والمدد، وفي ذلك يروى ابن شداد عن نفسه فيقول: [1] "... فأمرني بالمسير إلى بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة وكان مسيرى في ذلك المغي في الحادي عشر من رمضان وكان وصولي يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة 586هـ/1190م...".

وكان الشيخ عز الدين بن فليته هو الأخر منزلة وحضوة عند السلطان صلاح الدين، فقد اشتهر بملازمة في حل وترحاله وفي ذلك يذكر ابن الأثير:[2] " أن السلطان كان عاكفا على ملازمته مسترشدا برأيه ودائم التبرك به..."، في حين أثنى عليه العماد الأصفهاني بقوله: " عز الدين أبو فليته مأثور المأثر ميمون الصحبة مشاركا في الواقعة فما تم فتح في تلك السنين إلا بحضوره ولا شرق مطلع من النصر إلا بنوره... رأيت السلطان له مشاورا مجاورا وأنا أسير معهما وكان ذلك عند فتح عكا عام 583هـ/1187م".[3]

كما استرشد السلطان صلاح الدين برأي الفقيه البغدادي فخر الدين أبي شجاع بن دهان الذي جمع بين العلم والفقه وعلم الهندسة بعد أن استعصي عليه فتح مدينة الموصل

1- النوادر السلطانية، ص86.

2- الكامل في التاريخ، جـ 9، ص420.

3- الفتح القسي، ص 63، أبو شامة: الروضتين، جـ 3، ص199.

للمرة الثانية عام 581هـ/1185م، عندما أشار عليه أن يقدم على تحويل مسار نهر دجلة فيقطع بذلك الماء عنهم مما يضطرهم إلى تسليم المدينة بدون قتال.[1]

ويبدو مما سبق أن بعض العلماء نالوا الحضوة والمنزلة العالية وصاروا بطانة للسلطة وخاصتها تعمل معها في حلها وترحالها، ومع ذلك لم تمنعهم هذه الصلة أن يغلظوا على الملوك ويجهروا بالحق ويتخذوا المواقف منهم وانتقادهم إذا ما قصروا في حق الأمة أو حادوا عن الطريق المستقيم، حيث يذكر أن الإمام أبو الحسن البلخي (ت 548هـ/1153م) أفتى ذات يوما بفتوى في دمشق لم يعمل بها في ديوان الملك نور الدين محمود فألمه الأمر وجعله يغادر دمشق، فما كان من نور الدين إلا أن خرج على أثره لرده.[2]

أما ابن عساكر (ت 571هـ/1175م) كبير علماء الشام ومحدثها الأول لم يتردد هو الأخر في مخاطبة الملك نور الدين زنكي على مواصلة الجهاد بعد فتح مصر في قصيدة طويلة مطلعها:

إن بذلت لفتح القدس محتسبا للأجر جوزيت أجر غير محتسب
ولست تعذر في ترك الجهاد وأصبحت تملك مصر إلى حلب[3]

ولما علم سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام (ت 660هـ/1261م) وهو بدمشق أن نواب السلطان الأشرف بن العادل[4] يرتكبون الزنا ويدمنون الخمور ويتفنون

1- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص167.
أبو شامة: الروضتين، جـ 3، ص145.
2- ابن فضل العمرى: مسالك الأبصار، جـ 6، ص 113.
3- العماد الأصفهاني: جريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، تحقيق شكري فيصل، ط1، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1968، جـ 1، ص 277.
4- هو مظفر الدين موسى بن الملك العادل أبو بكر بن أيوب، كان مفرطا في السخاء ميمون النعمة كان حسن العقيدة توفي عام 635هـ/1237م، أبي شامة: ذيل الروضتين، ص253.

في ظلم الناس تقدم الشيخ إلى السلطان طالبا منه إبطال هذه المنكرات فأبطلها ورد عليه الأشرف: " جزاك الله عن دينك وعن نصائحك عن المسلمين خيرا وجمع بيني وبينك في الجنة، وأطلق له ألف دينار فردها قائلا: هذه اجتماعه الله لا أكدرها بشيء من أمور الدنيا".[1]

وأتخذ الموقف ذاته عندما وقف بكل ثقة وجرأة أمام السلطان نجم الدين أيوب (ت 648هـ/1249م) وهو في زينته بين جنوده وأمرائه فناده الشيخ باسمه: لم تبح الخموري فسأل السلطان: هل جرى هذا؟ فأجاب الشيخ نعم... فأمر السلطان بإبطال تلك الحانة، وأستغرب الناس من جرأة الشيخ لأن السلطان كان جبارا مستبدا برأيه فرد الشيخ عليهم: رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهيبه حتى لا تكبر نفسه فتؤذيه،[2] كما أبطل الكثير من البدع التي اعتاد عليها الخطباء فهو لم يلبس السواد واجتنب الثناء على الملوك وصلاة الرغائب.[3]

وعندما سلم الملك الصالح عماد الدين[4](ت 648 هـ/1249 م) قلعة شقيف وصيدا للصليبيين سنة 639 هـ/1241 م وأذن للفرنج الدخول إلى دمشق وشراء السلاح فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق فأنكر الناس ذلك واستفتوا العلماء، فافتى الشيخ العز عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج فقال: " يحرم عليكم البيع لهم لأنكم متحققون أنهم يشترونه يتقاتلوا به اخوانكم المسلمين" ثم انتقد العز الملك الصالح على

1- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، جـ 8، ص 135

ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 12، ص 241.

2- السبكي: طبقات الشافعية، جـ 18، ص 106- 107.

3- المصدر نفسه، جـ 18، ص 143.

4- هو إسماعيل بن محمد الصالح عماد الدين ابن العادل، سادس ملوك الإيوبين ملك بعلبك بصري ودمشق بعد موت أخيه الاشرف، استعان بالصلبيين للحفاظ على دمشق، ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص241.

المنبر ولم يدع له في خطبة الجمعة، ودعا بعد فراغه من الخطبتين: " اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشدا يعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك".[1]

وعندما علم الصالح إسماعيل أمر بحبسه ومنعه من الفتوى ولا يدخل عليه إلا الطبيب، فسأل الصليبيون الملك الصالح من يكون هذا الشيخ؟ فرد عليهم: هذا أكبر قسوس المسلمين وقد حبسته لإنكاره على تسليمي لكم حصون المسلمين فاعتقلته لأجلكم، فقال له ملوك الفرنج، لو كان هذا قيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقها.[2]

وفي الأخير يتحصل لنا مما سبق أن انتصارات الأمة عصر الحروب الصليبية ما كانت لتتحقق لولا هبة العلماء ومساهمتهم في رسم سياسة الدولة الداخلية والخارجية وذلك بإخلاص النصح والمشورة لولي الأمر والوقوف في وجه إذا قصر وزاغ عن الحق، فكان أهل الرأي في جيش صلاح الدين يحذرونه من مصافاة الفرنج في المفاوضات وأن يتعامل معهم بحذر شديد ومن قولهم: " ...فإن مصافاة الفرنج غير مأمون الغائلة"[3]، فكانوا خير بطانة للسلطة عينها المبصرة وعقلها المدبر ولسانها المحرض كالقاضي الفاضل وبهاء الدين ابن شداد والعماد الأصفهاني...

1- السبكي: طبقات الشافعية، جـ 8، ص 243.
المقريزي: السلوك، جـ 1، ص407.
2- السبكي: طبقات الشافعية، جـ 8، ص 244.
3- ابن شداد: النوادر السلطانية، ص303.

المطلب الثاني: مصاحبة الجيوش في المعارك:

أدرك الكثير من العلماء الدور الملقي على عاتقهم اتجاه الغزو الصليبي فنزلوا إلى الميدان إيمانا منهم أن العالم الداعي يجب أن يكون قدوة حسنة لمن يخاطبهم بالفعل لا بالقول وللتعبير عن حالة الإيمان المثالية بالجهاد انخرطوا في صفوف الجيوش ولم تخلوا غزوة من الغزوات من مشاركتهم[1]، فقد وقفوا بجانب القادة العسكرين في الميدان يذكرونهم ويعلمونهم ويفقهوهم أحكام القتال والفتن والغنائم ومعاملة الأسرى، فضلا عن ذلك فقد عمل قادة الحروب الصليبية زمن الزنكيين والإيوبيين على بث الدعاة والعلماء في صفوف المجاهدين أثناء خوضهم للمعارك لما لهم من أثر في الإعداد الفكري والمعنوي والدعائي للجهاد، وفي هذا يذكر ابن شداد:[2] " أن السلطان صلاح الدين كان يأمر بقراءة الحديث بين الصفوف قبل المواجهة مباشرة معهم"، فكان القراء يقرءون القرآن والأحاديث الشريفة ويحذرون الجند من عدم الثبات والفرار ويذكرونهم بما أعده الله تعالى للشهداء في الجنة من جزاء عظيم ويزيدون من تصميمهم ومصابرتهم في الجهاد.[3]

ومن بين الفقهاء والعلماء الذين برزوا في بداية الغزو الصليبي وأظهروا عبقرية قل نظيرها في الخطط العسكرية القاضي ابن صليعة[4] عند محاصرة الفرنج لحصن جبلة[5] للاستيلاء عليه عام 494 هـ/1100م، باستخدامه أسلوب الحرب النفسية وذلك عندما أظهر أن السلطان بركياروق (ت 498هـ/1104م) قد توجه إلى الشام لمساعدته

1- ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ 7، ص 112.

2- النوادر السلطانية، ص19.

3- أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 107

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 1، ص 284.

4- هو الأمير القاضي أبو محمد عبيد الله بن صليعة قاضي حصن جبلة، ويقال له ابن صليحة لم يعرف تاريخ وفاته، الذهبي: يسير أعلام النبلاء، جـ 19، ص 2988.

5- جبلة: بلدة على ساحل الشاممن أعمال حلب قرب اللاذقية كانت حصنا للروم ثم تملكها الصليبيون وأستردها صلاح الدين عام 584هـ/1188م، ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ 2، ص 105.

مما أثار القلق والذعر في صفوف الفرنج ورحليهم فيما بعد، وعندما أدرك الفرنج حقيقية تلك الخدعة عاودوا فحاصروا المدينة مرة ثانية، لكن القاضي كرر تلك الحيلة بصورة أخرى ونشر بين صفوف الصليبيين أن المصرين قد تواجهوا لحربهم ومساعدته.[1]

غير أن الفرنج تفطنوا لتلك الحرب النفسية وأهدافها فعادوا لمحاصرة الحصن للمرة الثالثة، فما كان على القاضي سوي اللجوء إلى أسلوب جديد بأن قرر مع النصارى الذين في الحصن وأتفق معهم على ارسال وفدا منهم إلى الفرنج للتفاهم حول تسليم الحصن وإرسال مجموعة من فرسانهم فبعثوا ثلاثمائة رجل من أعيانهم وشجعانهم، ويبدو أن القاضي قد نصب لهم كمين ما إن اقتربوا من البرج حتى أجهز عليهم وقتلهم جميعا[2]، الواضح أن القاضي لم يركن للاستسلام والخنوع بل فضل اللجوء إلى الدهاء والحلة بعد أن نظر إلى قلة عساكر الحصن لإطالة عمر الحصار وزرع الشك في صفوف الصليبيين والنيل منهم.

كما انتصب الشيخ أبو القاسم الأنصاري[3] (ت 492هـ/1099م) مقاوما ومدافعا عن بيت المقدس حين اجتاحها الصليبيون، فكان ينتقل بين الجموع محمسا ومحرضا على الاستشهاد في سبيل الله واللذوذ على حرمة الأقصى الشريف، فقبض عليه ولما علموا أنه من علماء الدين نودي به في البلاد ليفتدى بألف دينار ولما لم يفتده أحد بالمبلغ المطلوب رماه الفرنج بالحجارة على باب أنطاكية حتى قتلوه،[4] وفي السياق نفسه يذكر ابن القلانسي أن أهل صيدا بعد أن فشلوا في مقاومتهم للصليبيين عام 503 هـ/1109م استنجدوا بقاضيها لقيادة الحشد الشعبي في الدفاع عن المدينة ويكون لسان حالهم بعد أن

1- ابن الأثير: الكامل، جـ 10، ص 310.

2- مصدر نفسه، ص 310- 311.

3- هو مكى عبد السلام أبو القاسم بن الرميلي المقدسي الحافظ استشهد دفاعا عن القدس، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 5، ص 403.

4- العليمي: الأنس الجليل، جـ 1، ص 436.

خلت المدينة من أي قوة نظامية أو حامية رسمية، واستطاع القاضي بفضل حسن تدبيره انقاذ المدينة من عبث الصليبيين بحقن دماء أهلها وحماية أعراضهم وممتلكاتهم عندما أخذ عهد الأمان من بلدوين الأول.[1]

وقدر للحملة الصليبية الثانية عام 543هـ/1184م أن تضرب لنا هي الأخرى مثالا حيا عن جهاد العلماء واستماتتهم في ساحة القتال حين تزعما الفقيهان أبو الحجاج يوسف بن دوناس[2] وعبد الرحمان الحلحولي[3]، المقاومة الشعبية ضد الصليبيين المهاجمين لدمشق متصدرين الصفوف الأمامية مرددين أذكار الجهاد وفضائله لإثارة حماسة الجند وتحريضهم على الموت والاستشهاد رغم كبر سنهما، فقاتلا حتى استشهدا في مكان واحد وكان لاستشهادهما الأثر البالغ في ثورة أهل دمشق ضد الصليبيين.[4]

أما أبو الفضل ابن الخشاب[5] قاضي مدينة حلب فقد تزعم هو الأخر حركة المقاومة ضد الصليبيين في معركة بلاط[6] سنة 513هـ/1119م، إذ تصدر قيادة الجيش وأخذ يحرض المقاتلين على القتال وفي هذا يذكر ابن العديم: [7] " أقبل القاضي ابن الخشاب يحرض على القتال وهو راكب حجر وبيده رمح، فرآه بعض العسكر فازدراه

1- ذيل تاريخ دمشق، ص171.

2- هو يوسف ابن دوناس المغربي أبو الحجاج فقيه أصله من المغرب قدم إلى دمشق ليحج منها، سكن بايناس وكان خطيبا لها ودرس بها المذهب المالكي، ابن قلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 298، ابن الأثير: الكامل، جـ 9، ص 353.

3-) هو عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الرحمان الحلحولي نسبة إلى قرية في الخليل، أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 186.

4- أسامة ابن منقذ: الاعتبار، ص14.

5- هو القاضي أبو الفضل بن الخشاب إبراهيم بن سعد بن يحي بن محمد بن الخشاب أبو طاهر الخلي كان من أعيان الحلبين وكبرائهم فضلا عن أنه أديبا وشاعرا وفقيها، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 5، ص 355.

6- بلاط: مدينة عتيقة بين مرعش وأنطاكية من أعمال حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ 1، ص 477.

7- زبدة الحلب، جـ 1، ص387.

قائلا: إنما جئنا من بلادنا تبعا لهذا المعمم: فأقبل الناس وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم واسترهف هممهم بين الصفين فأبكى الناس وعظم في أعينهم".

وبهذا الموقف رسم القاضي ابن الخشاب صورة مشرفة للعالم الفقيه المقاوم والغيور على أرضه ودينه، فقد مزج في عمله البطولي بين العالم الخطيب المحرض والملهب لحماسة الجند، والقائد العسكري الملهم والموجه في ساحة المعركة، حتى أن ابن العديم عد موقفه البطولي هذا سببا في نصر المسلمين في هذه الموقعة[1]، كما أثنى عليه أحد الباحثين قائلا: " أن ابن الخشاب بعناده وثقوب نظره لم ينقذ مدينته من الاحتلال فحسب، بل أسهم في تمهيد السبيل أمام كبار القادة في مجاهدة الغزاة"[2]

ويستشف من هذا الموقف أن مثل هؤلاء العلماء كانوا دوما ملجأ الرعية عند كل نازلة ليس فقط بوعظهم وإرشادهم، بل أيضا بقيادة الحشد الشعبي في اللذوذ عن الحمى والمقدسات وتحصين المدن بعد أن افتقدت هذه الأخيرة في كثير من المرات الجيوش النظامية والقيادة الرسمية.

ولم يكتف العلماء والفقهاء بدور التحريض وشحذ الهمم في ساحات القتال، بل كانوا مبشرين بالفتوح كلما طال الحصار أو دارت الدائرة على المسلمين وكذلك شاكرين للسلاطين حسن جهادهم في سبيل الله وقد بين يوم فتح الرها عام 539هـ/1144م متانة العلاقة بين العلماء والقادة، أين شارك الفقيه الشافعي أبي عبد الله بن علي بن مهران بجانب عماد الدين زنكي (ت 541هـ/1146م) في فتحها وقد أثنى عليه ابن الأثير بقوله:[3] " كان من العلماء العاملين الزاهدين في الدنيا المتقطعين عنها وله كرامات"، وقد أكد عدد من المشاركين بالفتح رؤيته وهو يقاتل على أسوارها محرضا على الجهاد بهتاف

1- زبدة الحلب، جـ 1، ص 390.

2- أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رأها العرب، ص134.

3- التاريخ الباهر، ص70.

الله أكبر، فرد بعضهم على موقفه ودوره في إيقاد العزائم: منذ رأيناك على السور أيقنا بالفتح، ثم عاد مسرورا يحمل بشرى فتحها لقوله لمن حوله: حدثني بعض إخواننا أن أتابك زنكي فتح الرها وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا"[1]، ثم أخذ يثمن لعماد الدين زنكي هذا الصنيع في ميزان حسناته يوم القيامة لقوله: " ما يضرك يا زنكي ما فعلت بعد اليوم"[2]، –أي أن تحريره للرها كافيا لمغفرة ذنوبه–، فقد كان لمشاركته أثار طيبة في سقوط أول إمارة صليبية أسسها الصليبيون في الشرق.

وتطلبت وظيفة القاضي بهاء الدين ابن شداد (ت 632هـ/1145م) كقاضي للعسكر أن يكون قريبا من السلطان صلاح الدين وعساكره مرافقا للحملات العسكرية مقيما لنتائجها وأثارها وفي هذا يروي عن نفسه أنه بعد أن أحرز الملك العادل انتصارا على الفرنج عام 586هـ/1190م خرج إلى ساحات القتال لتفقد أثارها وقتلاها بقوله: " وقد حضت في تلك الدماء بدابتي واجتهدت أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم"[3]، كما كان يبدى بأراءه في مجالس الحرب التي كان يعقدها السلطان، حيث يذكر أنه في واقعة عكا 586هـ/1190م بعد انتقال العساكر لمنطقة الخروبة استحضر السلطان الأمراء وأرباب المشورة وكان في مقدمتهم القاضي ابن شداد أين عرض السلطان عليهم أوضاع جبهة المسلمين وأن يروه رأيا، فأجابه القاضي ابن شداد: بأن يقدم على تأخير العسكر في الخروبة بضعة أيام حتى يستريح الجند من ضجر القتال فوافقه السلطان على ذلك.[4]

في حين كان الفقيه العماد الأصفهاني (ت 597هـ/1201م) عين السلطان في ساحات المعارك ومستودع أسراره ولسانه المحرض والمبلغ عنه بحكم عمله في ديوان

1– أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 172، ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص70.

2– نفسه، ص172.

3– ابن شداد: النوادر السلطانية، ص130.

4– نفسه، ص114.

الإنشاء، فكان ملازما للسلطان في غزواته فلم ينقطع عن غزوة من غزواته إلا موقعة الرملة 573هـ/1177م وفي هذا يذكر عن نفسه قائلا: " كان السلطان أيضا يؤثر إيثاري ويختار اختياري فقال لي: أنت معنا وإن هزمنا أن تدعنا ولا تبعنا، فقلت:الأمر للمولي ما يختاره لي فهو أولي، فقال: تعود وتدعو لنا تسأل الله أن يبلغنا من النصر، ثم يقول العماد: ما انقطعت عن السلطان في غزواته إلا في هذه الغزوة"[1]

فكان ينزل إلى ميدان المعركة ليس للقتال بل لتغطية الأحداث ورصد تحركات الجيش وعورات العدو باتخاذه المواقع الحساسة، ومن أمثلة ذلك ما رواه عن نفسه يوم حصار حلب: " ضربت خيمتي عن يمينها وكان وهي محجبة عمن يشغلني عن مهام الخدمة..."[2]، كما كان السلطان معجب بأسلوبه في الإنشاء حتى أنه لما فتح القدس عام 583هـ/1187م لم يعهد إلى حد بكتابة رسائل البشارة إلا له، وقال العماد: " فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة كل كتاب بمعنى وبديع".[3]

ولم يقل دور الفقيه موقف الدين المقدسي[4] (ت 620هـ/1223م) عن دور العماد الأصفهاني في إنشاء الرسائل والتبليغ عن السلطان صلاح الدين، فبعد انتصار المسلمين في معركة حطين الفاصلة عام 583هـ/1187م أين فاق النصر الذي تحقق على الفرنج كل الانتصارات، خصه السلطان بمكاتبه الخليفة العباسي ليبشره بنصر المسلمين على

1- أبو شامة: الروضتين، جـ 3، ص222.1

2- العماد الأصفهاني: البرق اشلامي، تحقيق صالح حسين، (د، ط) ، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1987، جـ 3، ص 116.

3- أبو شامة: الروضتين، جـ 3، ص 222.

4- هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي موقف الدين أبو محمد الفقيه الحنبلي، له عدة تصانيف منها كتاب في غريب الحديث، حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ 5، ص 459.

الفرنج ومما جاءفي كتابه: " لو حمدنا الله عز وجل طوال أعمارنا ما وفينا بعشر نعمته التي أنعم من هذا الفتح العظيم".[1]

كما عد الفقيه ضياء الدين الهكاري[2] (ت 585هـ/1189م) من كبار أمراء عسكر السلطان وأكثرهم ملازمة له في غزواته، وقد ذكره ابن الأثير بقوله:[3]: " هو من أعيان أمراء عسكره ومن قدماء الأسدية وكان فقيها جنديا شجاعا..."، ولم تكن حادثة احتجاره في موقعة الرملة 573هـ/1177م واقتداءه بستين ألف دينار بعد رفض الفرنج تسليمه بمبلغ بسيط إلا دليل على مكانته وعظيم شأنه[4]، وقد برز دوره بشكل واضح في معركة عكا التي جرت 585هـ/1189م والتي ذكرها الأصفهاني بالوقعة الكبرى[5] أين رتب السلطان عساكره إلى ميمنة وميسرة وقلب وجعل الفقيه عيسى الهكارى في مقدمة القلب لحسن بلائه وثباته في ساحة القتال وقدرته على تحفيز المقاتلين[6] لأنه لا يكف أن يأمر القائد جنوده بالاستماتة في القتال وإبلاء البلاء الحسن، بل يجب إعدادهم روحيا ومعنويا قبل مواجهة العدو.

ولما عزم السلطان صلاح الدين فتح بيت المقدس قصده العلماء والفقهاء تطوعا في جيشه، وبعد انتهاء المعركة شوهد القاضي الفقيه ابن أبي عصرون (ت 585هـ/1189م) وهو يقود الأسرى الصليبيين من الملوك والأمراء ودخل بهم دمشق وهو يحمل صليب

1- أبو شامة: الروضتين، جـ 3، ص 190.

2- هو ضياء الدين أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى المعروف بالهكارى، بدأ أمره مدرسا للفقه ثم اتصل بأسد الدين شركوه فصار إماما له بموته التحق بالسلطان صلاح الدين،
ابن حلكان: وفيات الأعيان، جـ 3، ص 497.

3- الكامل في التاريخ، جـ 10، ص 86.

4- أبو شامة: الروضتين، جـ 2، ص 464.

5- الفتح القسى، ص190.

6- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 2، ص 296.

الصلبوت منكسا،[1] أما الشيخ عبد الله البيونيني[2] (ت617هـ/1220م) قيل أنه لم تفته غزوة من غزوات بين المسلمين والصليبيين إلا واشترك فيها[3]، كما اصطدم علماء المسلمين في ساحات القتال بعناصر الاسبتارية[4] والداوية[5]، فقد كانت مواجهتهم من أخطر المواجهات لما لهذه العناصر من روح معنوية عالية في القتال فكان المنتسب إليها يحضى بالمعرفة والتدريب الجيد فضلا عن دورهم القيادي في الحفاظ على الروح الصليبية للصليبيين خلال فترة الضعف والانحلال[6]، وكان صلاح الدين كثير الكره لهاتين الهيئتين حيث يذكر أبو شامة"[7]: " أن السلطان رحمه الله ما كان يبقى على أحد من الاسبتارية والداوية"، ويحرص على بث العلماء والفقهاء بين صفوف عساكره لإعدادهم معنويا وروحيا لمواجهة هذه التنظيمات الصليبية.

الواضح من مشاركة العلماء في ساحة المعارك أنهم لم يمثلوا قوة تعبوية وتحريضية على الجهاد فحسب، بل شكلوا قوة إعلامية جبارة ساهمت بشكل كبير في الترويج للإنتصارات العسكرية وتثمينها وإعادة لحمة الأمة وثيقتها، فما كان للانتصارات العسكرية أن تأخذ حقها وتشيع في أصقاع العالم الإسلامي وتجلب لصانعها الثناء والمدد لولا رسائل العلماء التي لم تنقطع من ساحات المعارك وخطابهم الدعائي، وبفضل العلماء

1- الحنبلي: شفاء القلوب، ص138.

2- هو أبو محمد عبد الله اليونيني ابن عثمان بن عبد العزيز بن جعفر الزاهد الكبير كان شيخا كبيرا كثير الجهاد أمرا بالمعروف، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 7، ص132.

3- أبو شامة: ذيل الروضتين، ص126.

4- الاسبتارية: أو فرسان المستشفى هيئة كانت موجودة منذ عام 506هـ/1112م تحولت تدريجيا من هيئة خيرية ترعى المرضى وتقوم على إيواء الفقراء إلى هيئة خيرية عسكرية لها نشاط حربي واسع، نبيلة مقامي: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث عشر (د، ط) ، مطبعة الجامعة، القاهرة، 1994، ص14.

5- الداوية: أو فرسان المعبد وهي هيئة عسكرية منذ نشأتها قامت أساسا بمحاربة المسلمين وحراسة الحجاج، أطلقوا على أنفسهم جنود المسيح الفقراء، المرجع نفسه، ص15.

6- محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص 59، 61.

7- الروضتين، جـ 2، ص 135.

أيضا استطاع نور الدين زنكي والسلطان صلاح الدين أن يقلبا موازين الصراع مع الفرنج لصالحهما، فالمعارك قبل نور الدين زنكي كانت تخوضها قوات نظامية تابعة للحكام، ومنذ أيام نور الدين بدأ عنصر المتطوعين يكثر ويندفع في المعارك وبات مع الأيام أعداد المتطوعة أكبر من أعداد الجند النظامية.

المطلب الثالث: تأليف الكتب التي تحث على الجهاد والفروسية:

لقد أثار توسع المد الصليبي واغتصابه للمدن والحصون الإسلامية ثائرة العلماء وحميتهم وشعروا بأن عليهم واجب روحي وفكري لا يقل أهمية عن الواجب الحربي والمادي في التصدي له، وكيف لا وبلاد الشام والعالم الإسلامي عموما يخوض صراعا حضاريا – دينيا وفكريا– لا يقل ضراوة عن الصراع العسكري، فانبرى الكثير منهم إلى تصنيف الكتب والمؤلفات إيمانا منهم بأن الحفاظ على هوية الأمة وتراثها وإيقاد حميتها لا يكون إلا بالتعبئة الفكرية ونشر الثقافة الإسلامية، واصطبغ إنتاجهم الفكري بروح العصر الذي غلب عليه طابع الجهاد ونظرا لمكانته الهامة في الإسلام ومتطلبات المرحلة عنى علماء عصر الحروب الصليبية بدراسته وصنفوا فيه كتبا تبرز فضائله وتذكر بواجب الدفاع عن الأوطان والمقدسات.

ولاسيما بعد أن زهد الكثير من الناس ورجال الدين في الجهاد واستبدلوا جهاد الأعداء بكثرة الصيام والصلاة ودوام الذكر والتسبيح معتقدين في أن هذا يقربهم من الله زلفي[1] ولتحقيق هذه الغاية ألف الخطيب أبو الحسن علي بن مسلم بن الحسن السلمي (ت 533هـ/1138م) كتابا في إثنى عشر جزء سماه " كتاب الجهاد" بعد سقوط بيت المقدس عام 492هـ/1098م، وضمنه الآيات والأحاديث النبوية التي تحض عليه وكذلك معارك الإسلام الأولي ومنزلة المجاهدين، فضلا عن الآداب التي يجب الالتزام بها في الحروب[2]، في حين ألف الحافظ ابن عساكر (ت 571هـ/1175م) كتابا احتوى على أربعين حديثا عن فضائل الجهاد بطلب من الملك نور الدين محمود زنكي (ت 577هـ/1181م) وعنه يذكر ابن عساكر:[3] " فسارعت إلى امتثال ما التمس من المراد

1– ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص54.

2– ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، جـ 5، ص 431.

3– الأربعون في الحث على الجهاد، تحقيق عبد الله بن يوسف، ط1، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، 1984، ص41.

وجمعت له ما يرتضيه أهل المعرفة والانتقاد واجتهد في جمعها غاية الاجتهاد رجاء أن يفصل لي أجر التبصير والإرشاد...".

وقد خصص ابن عساكر العشرة الأولى منها لإبراز منزلة الجهاد بعد منزلة الإيمان بالله وفضل المجاهد المرابط عن غيره من المسلمين، كما أشار إلى الأحاديث التي تدعو إلى الالتزام بآداب الجهاد كالرفق بالضعيف وعدم الغدر والتمثيل بالأعداء[1]، وكان يحرص على تلقينه وتدريس متنه لتثقيف الناس بآداب الجهاد وتحريضهم على القيام بواجب الوقوف بجانب نور الدين محمود زنكي في مجاهدة الصليبيين.[2]

أما الفقيه الهمام طاهر بن جهبل[3] (ت 596هـ/1199م) الذي لازم الملك نور الدين محمود في جهاده ضد الصليبيين، فلم يجد هو الأخر في مشاركة السلطان ومقاسمته حرقة جهاد خيرا من كتاب صنفه في "فضل الجهاد".[4]

كما ساير القاضي ابن شداد (ت 632هـ/1234م) شغف السلطان صلاح الدين بالجهاد وأهله، حيث يذكر عنه:[5] "أن حب الجهاد قد استولى على قلبه وسائر جوانحه وما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في ألته ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا من يذكره ويحث عليه، وقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه

1- الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 22، ص 187، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، جـ 4، ص 1699.

2- ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ 35، ص261.

3- هو طاهر بن نصر الله بن جهبل مجد الدين الحلبي، كان إماما فاضلا في الفقه والحساب ومدرس بالمدرسة الصلاحية وهو واحد من العلماء الذين أفتوا بقتل الفيلسوف السهروردي، الذهبي: العبر، جـ 3، ص 115، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 5، ص 272.

4- القاضي بن شهبة: الكواكب الدرية، ص57.

سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ 3، ص 313.

5- النوادر السلطانية، ص9.

وسكنه..."، فصنف له كتابا جمع فيه كل أدابه وكل أية وردت فيه وكل حديث روي في فضله قم قدمه إليه تحت اسم "فضائل الجهاد" فأعجب السلطان به.[1]

وللعز بن عبد السلام سلطان العلماء (ت 660هـ/1261م) أيضا كتاب موسوم "بأحكام الجهاد وفضائله"[2]، وقد بين فيه الإمام فضله وما يترتب عنه من جلب المصالح ودرء المفاسد فقال: " وإنما وجب الجهاد وجوب الوسائل وفوائده ضربان: أحدهما مصالحة وهي منقسمة إلى العاجل والأجل، فأما مصالحة العاجلة فإعزاز الدين ومحق الكافر وشفاء صدور المؤمنين أما مصالحة الأجلة فالأجر العظيم"[3]

ثم يستطرد موضحا الضرب الثاني فيقول: " أما الضرب الثاني من فوائد الجهاد درؤه لمفاسد عاجلة وأجلة، أما الأجلة فلأنه سبب لغفران الذنوب والغفران دافع لمفاسد العقاب، أماالعاجلة فإنه يدرأ الكفر من صدور الكافرين إن قتلوا أو أسلموا خوفا من القتل"[4]، أما كتاب "تحفة الطالبين في الجهاد والمجاهدين" فيعود لصاحبه عبد الغني المقدسي[5] (ت 659هـ/1260م).[6]

وما يلحظ على هذه الكتب التي صنفت استجابة لمتطلبات المرحلة أنها بقدر ما هدفت تذكير العامة والخاصة بواجب الدفاع عن الحمى والمقدسات، بقدر ماضمت بعض الفتاوي لتوضيح بعض المسائل الخلافية والغامضة المرتبطة بالصراع الصليبي كحظر

1- المصدر نفسه، ص17، أبو شامة: الروضتين ــ 2، ص 124، حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ 2، ص 1275.

2- كارل برو كلمان: تاريخ الأدب العربي، تر يعقوب بكرو رمضان عبد التاب، دار المعارف، القاهرة، 1975، جـ 1، ص 554.

3- العز بن عبد السلام: أحكام الجهاد وفضائله، تحقيق نزيه حماد، ط1، مكتبة دار الوفاء، مكة المكرمة، 1986، ص36.

4- المصدر نفسه، ص36- 37.

5- هو شرف الدين أبو محمد حسن بن عبد الله بن عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الفقيه الحنبلي الحنبلي درس بالجوزية برع في الفقه والوعظ، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 7، ص 515.

6- أبو شامة: ذيل الروضتين، ص211.

قتل الشيوخ والرهبان وأحكام السبي وترغيب في فريضة الجهاد عن فريضة الحج وغيرها من المسائل التي كانت مثبطة لحركة الجهاد أو مشوهة لأدابه.

كما وجد العلماء عصر الحروب الصليبية في الكتب خير وسيلة للحفاظ على تراث المدن الإسلامية ومكانتها التاريخية وملامحها الحضارية بتأريخ لها وتبيان فضائلها الدينية، ولا سيما بعد التشويه والتخريب الذي طال العديد منها على يد الصليبيين، ولتجسيد هذه الغاية ألف الحافظ ابن عساكر أكبر مصنف في تاريخ المدن وفضائلها والمتمثل في كتاب "تاريخ مدينة دمشق" وقد ضمنه نحو ثمانين مجلدا بدعم السلطة السياسية الممثلة في الملك نور الدين محمود زنكي[1]، وقد بين ابن عساكر في مقدمته متنه وموضوعاته بقوله:[2] " وهو كتاب مشتمل على ذكر من حلها من أماكن البرية وأجتاز بها أو بأعمالها من ذوي الفضل وخلفائها وولاتها وفقهائها وقضائها وعلمائها..."، وعليه فالواضح من متنه أنه كتاب شبه موسوعي ضم تراجم الأعيان والرواة ومروياتهم وكل من دخل الشام واستوطنها، ومن عاصرالغزو الصليبي وشارك في مقاومته من أهل دمشق وعموم أهل الشام، أما ابن أبي طي[3] (ت 630هـ/1232م) فعمل هو الآخر على تصنيف كتاب حول مدينة حلب المعروف بـ "معادن الذهب في تاريخ حلب" وتناول فيه مواجهة أهل المدينة للغزو الفرنجي أيام الملك نور الدين زنكي والسلطان صلاح الدين.[4]

الدين.[4]

أما مدينة بيت المقدس فقد نالت نصيب الأسد من تصانيف العلماء حيث ذخرت الكتب بذكر فضائلها وإبراز مكانتها الدينية على غرار كتاب "تاريخ بيت المقدس" الذي

1- حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ 1، ص 294.

2- تاريخ مدينة دمشق، جـ 1، ص4.

3- هو يحي ابن أبي طي حميد الحلبي ولد بحلب عام 575هـ/1179م، كان فقيها وأديبا ومؤرخا، حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ 2، ص997.

4- أبو شامة: الروضتين، جـ 2، ص 56، حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ 2، ص 1723

صنفه الفقيه عبد السلام الرميلي(ت 492هـ/1098م) قبل وفاته[1]، ثم أخذ المؤلفون الغيارى يصنفون الكتب في فضائلها بعد سقوطها والتحريض على استعادتها من أيدي الفرنج مثل كتاب "الجامع المستقصي في فضائل المسجد الأقصى" للحافظ ابن عساكر[2]، ثم تبعه ولده أبو القاسم بن عساكر[3] (ت 600خ/1203م). بكتابة "فضل المسجد الأقصى".[4]

ولما استعادها السلطان صلاح الدين طرب المسلمون والعلماء فرحا بفتحها وأسهبوا في ذكر فضائلها وقدسية مأثرها وطيبة ترتبها، ولا شك أن عبد الرحمان ابن الجوزي (ت 593هـ/1196م) ألف كتابه "فضائل القدس" بعد سنة 583هـ/1187م) لأنه يذكر فيه نبأ فتحها، ويذكر عن نفسه أن أحد المقدسيين سأله أن يذكر له فضائل بيت المقدس فكتب كتابه هذا[5]، وكتب بعد إبن الجوزي الكثير من العلماء في فضلها ومكانتها الدينية مثل أبو الفضل أحمد المعروف بتاج الأمناء[6] (ت 610هـ/1213م) الذي صنف كتابا بعنوان "الأنس في فضل القدس"[7]، الحافظ ضياء الدين المقدسي[8] (ت 643هـ/1245م)

1- الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، (د، ت) ، جـ 4، ص 1367.

2- حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ 1، ص 574.

3- هو الحافظ بن الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن أبو محمد بن عساكر الدمشقي الشافعي، كان محدثا حسن المعرفة شديد الورع تولي مشخية دار الحديث النورية، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 6، ص 564.

4- السبكي: طبقات الشافعية، جـ 8، ص 352.

5- عبد الرحمان ابن الجوزي: فضائل القدس، تحقيق جبرائيل سليمان جبور، (د، ط) ، دار الأفاق الجديدة، بيروت، (د.ت) ، ص11.

6- هو أبو الفصل تاج الأمناء أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله الدمشقي ابن أختى الحافظ ابن عساكر، ابن العماد: العماد: شذرات الذهب، جـ 7، ص 75، الذهبي: العبر، جـ 5، ص 33.

7- السبكي: طبقات الشافعية، جـ 8، ص 70.

8- هو ضياء الدين الرحمان الجماعيلي ثم الدمشقي، سافر إلى القدس بعد فتحها من قبل صلاح الدين، الحافظ ضياء الدين: فضائل بيت المقدس، تحقيق محمد مطبع، دار الفكر، دمشق، (د، ت) ، ص9.

صاحب كتاب " فضائل بيت المقدس" والذي بين فيه فضل صخرة البيت وفضل الصلاة فيه، فضلا عن عمرانها ومن سكنها من الصحابة والتابعين.[1]

وعليه يمكن القول أن علماء المسلمين عصر الحروب الصليبية قد تنبهوا مبكرا إلى خطر المد الصليبي على تراث وحضارة المدن الإسلامية، فوثقوا مأثرها وفضائلها في انتاجهم الفكري للتأكيد على عروبتها وإسلاميتها، وفي الوقت نفسه كوسيلة تحريضية بقراءة بعض ما ألف عنها على مسامع الناس كما فعل ابن عساكر عند قراءته لكتاب فضائل القدس أمام أهل دمشق للتركيز الوعي الشعبي بقدسيتها وتحريض الخاصة والعامة لاستردادها.[2]

كما نالت كتابة سير الأبطال وفتوحاتهم حيزا كبيرا من اهتمام العلماء ولاسيما الذين عاشوا بقرب السلاطين وشغلوا مناصب رسمية في الدولة، فدونوا سيرهم وثقوا بطولات القادة العسكرين وحسن قيادتهم لمراحل الصراع ضد الفرنج ومدى حبهم للجهاد في سبيل الله، ومن أمثلة ذلك ما أظهره العماد الأصفهاني في كتابيه "البرق الشامي" الذي أرخ للفترة النورية والصلاحية الممتدة بين سنتي 562هـ- 589هـ/1166م-1177م،[3] وقد سماه العماد بالبرق الشامي لأنه شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها[4]، يعد هذا الكتاب من أوسع الكتب التي صنفها العماد متنا وحجما جمع فيه سيرة السلطان صلاح الدين وإنجازاته وعنه يقول:[5]" وأنا أقدم في هذا الكتاب ذكر نبذ من أحوالي مع السلطان ثم ابتدئ بذكر معرفتي به وخدمتي له وأصف

1- السبكي: طبقات الشافعية، جـ 8، ص 26.

2- ياقوت الحموى: معجم الأدباء، جـ 4، ص1697.

3- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ 5، ص150.

4- البنداري: سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979، جـ 1، ص 53.

5- البرق الشامي، تحقيق فالح صالح حسين، ط1، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، 1986، ص 10.

مبادئ دولته إلى أن وصل إلى الشام وحضرت خدمته وأصف سيرته كل سنة وأتي في شرح حسناته".

أما كتاب "الفتح القسى في الفتح القدسي" فقد عالج فيه الفترة الممتدة من معركة حطين عام 583هـ/1187م إلى غاية وفاة السلطان صلاح الدين، وهو تاريخ سبع سنوات من حياة السلطان، وقد ضمنه جهود هذا الأخير في مقاومة الفرنج وفتح بيت المقدس وفي مقدمته يتحدث العماد عن سبب اختياره سنة 583هـ/1187م لتكون بداية للكتاب فيقول:[1] " وأنا أرخت بهجرة ثانية وهي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس وهذه الهجرة أبقي الهجرتين وأعظم الكرتين".

ويذكر أن القاضي الفاضل (ت 596هـ/1200م) هو من أطلق على كتاب العماد هذه التسمية، فسما الفتح القدسي نسبة إلى بيت المقدس والفتح القسي نسبة إلى قس بن ساعده الأيادي خطيب العرب في الجاهلية، وكان قس معروفا أنداك بالشجع وكان العماد قد جعل كتابه هذا شجعا[2]، أما كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" للقاضي ابن شداد (ت 632هـ/1234م) فيعد هو الأخر من أوثق المصادر وأكثرها اسهابا في سيرة السلطان صلاح الدين وعنه يذكر:[3] " ما سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرني الثقة به"، كما برز من أهل الموصل عالم ومؤرخ هو عز الدين ابن الأثير (ت 630هـ/1232م) صاحب كتاب "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل"، وقد توفرت له هو الأخر مادة تاريخية هامة بحكم صلته بأفراد البيت الزنكي، ويعد كتابه هذا من أهم الكتب التي تناولت جهاد الزنكيين والأيوبيين ضد الصليبين.[4]

1- الفتح القسي، ص42.

2- أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص63.

3- النوادر السلطانية، ص34.

4- حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ 1، ص277.

وما يلحظ على تصانيف هؤلاء العلماء أنهم كانوا يكتبون عن خبرة ودراية بحكم قربهم من الأحداث وتقلدهم مناصب متنفذة في الدولة لهذا جاءت أخبارهم متناسقة وحقيقة، وأنهم استخدموا التاريخ والأدب مع فكرة الجهاد كمنهج متكامل لتخليد مآثر وإنجازات هؤلاء القادة والسلاطين وإيقاد الغيرة والحمية في النفوس الفاترة ودفعها للاقتداء بهم في صون الأوطان والذب عن الدين، ومنهم من فضل حلحلة النفوس الفاترة وايقاد فيها جذوة الجهاد بتصنيف كتب حول أمجاد المسلمين الأوائل من الصحابة والتابعين على غرار كتاب "منهج القاصدين في فضائل الراشدين" لشيخ الإسلام موفق الدين المقدسي[1] (ت 620هـ/1223م)، حيث وضح فيه صفات الخلفاء الراشدين والأبطال من الصحابة وفروسية القواد.[2]

على الرغم من الدور الجسيم الذي قام به هؤلاء العلماء في تصنيف كتب تخلد فضائل المدن ومآثر الرجال وتحرض على الجهاد، إلا أن الكثير منهم تعرضوا إلى النقد واتهموا بالهروب من الحرب والعزوف عن حمل السيف ظانين أن الجهاد بالقلم لا يقوم مقام الجهاد بالسيف، ولدحض هذا الاعتقاد وإبطاله رد العماد الأصفهاني على اثر عدم مشاركته في وقعة الرملة عام 573هـ/1177م) قائلا: " أنا صاحب قلم لا صاحب علم وهذه نوبة السيوف لا نوبة الأقلام وفي سلامتنا سلامة الإسلام والواجب على كل منا أن يلزم شغله ولا يتعدى حده ولا يتجاوز محله"[3]، والواضح من كلامه أن للسيف رجال وللقلم رجال ولا يمكن أن يتم نصر إلا بهما وهذا ما أدركه السلطان صلاح الدين الأيوبي وقبله نور الدين محمود زنكي، ولعل هذا الاعتقاد قد عكس ذهنية العصر التي لم ترق إلى دور الفكر في دحض الفكر الغاري عند عامة الناس.

1- هو الإمام موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الدمشقي الحنبلي، ولد عام 541هـ/1146م له عدة تصانيف في الفقه والتاريخ، ابن العماد: شذرات الذهب، جـ 3، ص180.

2- الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 22، ص 168.

3- أبو شامة: الروضتين، جـ 2، ص 301.

الفصل الثالث

مقاومة الطرق الصوفية للمد الصليبي

المبحث الأول

واقع التصوف والمتصوفة غداة الغزو الصليبي

المطلب الأول: التعريف بمصطلح التصوف ونشأته.

المطلب الثاني: عوامل انتشار التصوف الشامي.

المطلب الثالث: انحرافات المتصوفة وأباطيلها.

المطلب الأول: التعريف بمصطلح التصوف ونشأته:

أولا: التعريف بالتصوف:

أ-تعريفه في اللغة:

قال الفيومي[1]: ‹‹ لفظ الصوفية مأخوذة من الصوف وهو شعر الشاة، تأتي كلمة صوف وصاف بمعنى : مال وعدل فيقال : صاف السهم عن الغزال: أي مال عنه وعدل›› وورد في الصحاح :‹‹ ان الصوف للشاه ويقال كبش صاف: أي كثير الصوف وصاف السهم عن الهدف مال وعدل.››[2]، ويرى احمد ابن فارس[3] :‹‹ الصاد والواو والقاف أصل واحد صحيح وهو الصوف المعروف، ويقال كبش اصوف وصائف وصاف كل هذا يكون في كثير الصوف.››، وقيل نسبة إلى رجل جاهلي يقال له صوفة بن مر[4] كان ربيط الكعبة وتبعه أناس في الجاهلية.[5]

وذكر كذلك أن الصوفية نسبة إلى اهل الصفة وهم جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا ينزلون في مكان خلف الحجرات في المسجد النبوي وعرف المكان باسمهم وكانوا متفرغين للعبادة وللمجاورة هم فقراء المهاجرين الذين ليس لهم مأوى، غير أن ابن الجوزي أبطل هذا الزعم بالنظر إلى الاشتقاق اللغوي لأن النسبة لأهل الصفة صفي وليس صوفي.[6]

1- المصباح المنير، ص481 .

2- الجوهري:الصحاح، ط2 د العلم للملايين بيروت، 1979، ج4، ص1388.

3-معجم مقاييس اللغة، ج3، ص322.

4- هو صوفة الغوت بن مر بن اد بن طنحة بن الياس بن مضر بن نزار بن بن عدنان من اعيان مضر في الجاهلية ويلقب بصوفة وبالربيط الزبيدي : تاج العروس، ج10، ص260-261، الزركلي، الاعلام، ج 5، ص123.

5- ابن الجوزي: تلبيس ابليس، ص 163.

6- المصدر نفسه، ص 183.

ولعل ادعاء بعض المتصوفة ان اشتقاق التسمية من صفة المسجد انما أرادوا ربط نشأة التصوف بعهد النبي صلى الله عليه وسلم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد اقرهم على منهجهم في الاعتزال والتجرد والتواكل، وهذا مخالف لسنته صلى الله عليه وسلم في التوكل والجد والاجتهاد في طلب الرزق.

وقيل أيضا انهم ينسبون إلى الصفوة باعتبارهم صفوة الله من خلقه وانهم النخبة المصطفاة من الامة[1] او نسبتهم إلى الصف الأول المقدم في الصلاة والمقدم بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم اليه واقبالهم في وقوفهم بسائرهم بين يديه[2]، وكذلك قال قوم : انما سمو صوفية نسبة إلى الصوفانة" وهي بقلة زغباء قصيرة صحراوية وذلك لاكتفائهم بالقليل من الطعام وقد ابطل ابن الجوزي هذا الرأي بقوله[3]: لو نسب اليها لقيل صوفاني وليس صوفي.

كما زعم البعض انها من اصل " سوفيا" اليونانية ومعناها: الحكمة. والقائلين بذلك حجتهم ان القوم كانوا طالبين للحكمة حريصين عليها فاطلقت عليهم الكلمة بعد ان عربت وحرفت فأصبحت صوفية[4]، وقد أبطل عبد الله حسن زروق هذا الرأي وحجته في ذلك ان الصوفية انفسهم لا يقبلون بالانتساب للفكر اليوناني لما فيه من ضلالات وانحرافات، فضلا عن ان كلمة "سوفيا" قصد بها فلاسفة اليونان المنهج الذي قوامه البحث النظري المجرد عكس التصوف الإسلامي الذي هو طابع عملي.[5]

1- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج11، ص 6.

2- الكلاباذي: التعريف لمذهب اهل التصوف، تصحيح أثر جون اربرى، ط 2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994، ص

3- تلبس ابليس، ص 161.

4- ماسينيون وعبد الرازق مصطفى: التصوف، ترجمة إبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس، ط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1984، ص 26 .

5- أصول التصوف، المركز القومي للإنتاج الإعلامي، الخرطوم، 1995، ص 22

وما يلحظ على هذه التعريفات ان أصحابها اختلفوا في اصل كلمة التصوف واشتقاقها، وارجح الاقوال هو مذهب القائلين بان التصوف نسبة إلى الصوف وان المتصوف مأخوذ منه على غرار ابن خلدون[1] وابن تيمية[2] وحجتهم على صحة هذه النسبة ان الصوف هو لباس الأنبياء والصحابة –رضوان الله عليهم– وهو اقرب إلى التواضع والانكسار. غير ان هناك راي يرى ليس بالضرورة من لبس الصوف فهو صوفيا على حد تعبير الجنيد[3] (ت297 هـ /909م): "إذا رأيت الصوفي يعنى بظاهره فاعلم ان باطنه خراب."[4]، وكذلك قول ابن الجوزي[5] :"كان الزهد حرفة فصار خرقة". خرقة".

ب- تعريفه اصطلاحا: ذكر عن أبي الحسن النوري[6] (ت295 هـ/907م) انه قال: "ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنها اخلاق."[7]، وقال الهجويري[8] (ت465 هـ/1072م)[9]: "الصوفي هو الذي لا يملك ولا يملك" ، أي لا يكون مالكا ولا مملوكا،

1- المقدمة، ص 468.

2- مجموع الفتاوي، ج 11، ص 6-7.

3- هو أبو قاسم الجنيد بن محمد الخزار الصوفي، أصله من نهاوند كان فقيها زاهدا صحب الحارث المحاسبي والتستري، ابن العماد: شذرات الذهب، ج 1، ص 194.

4- السلمي: طبقات الصوفية، تحقيق احمد الشرباحي، ط2، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 1998، ص 49.

5- تلبيس ابليس، ص 195.

6- هو احمد بن محمد أبو الحسن النوري بغدادي المولد والمنشأ خراساني الاصل، كان من اجل المشايخ القوم وعلمائهم، ولم يكن في وقته أحس طريقه منه، السلمي: طبقات الصوفية، ص 51.

7- المصدر نفسه، ص 52.

8- هو أبو الحسن على بن عثمان بن علي الجلابي الهجويرى الغزنوي عالما من علماء الصوفية لقب بالهجويرى نسبة نسبة إلى قرية هجوير، الهجويري: كشف المحجوب، ترجمة وتعليق اسعاد عبد الهادي قنديل، مطابع الاهرام التجارية، القاهرة، 1974، ص 7.

9- المصدر نفسه، ص 233.

في حين يرى الامام القشري[1](ت465 هـ/1072م)[2]: "ان التصوف اسم علم على طائفة الصوفية بغض النظر عن اشتقاق الكلمة والأصل الذي اخذت عنه، والذي اراه ان التصوف نشأ نشأة إسلامية مستقاة من النصوص الشرعية في الزهد وترك الدنيا وملذاتها... ".

أما ابن خلدون فقد عرفه بقوله[3]:"هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى تعالى والأعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه جمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة.". و في الموسوعة الميسرة تم تعريفه على[4]: "انه حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي تدعو للزهد وشدة العبادة وتعبيرا عن فعل مضاد للانغماس في الترف، ثم تطور حتى صار طرقا مميزة تبنت مجموعة من العقائد المختلفة والرسوم العملية المخترعة تكونت من مناهج كثيرة."

ثانيا: نشأته:

اختلف المؤرخون وعلماء الصوفية في بدء ظهور حركة التصوف كاختلافهم في اصله وتعريفه، فقد ذكر ابن خلدون [5]:"ان نشأة التصوف كان في القرن الثاني الهجري عندما اقبل الناس على الدنيا وانصرف أناس للزهد والعبادة فسموا بالصوفية."، ويشير ابن تيمية لمثل هذا المعنى بقوله[6]: "لفظ الصوفية لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة، وإنما

1- هو أبو القاسم القشري عبد الكريم بن هوازن النيسابوري الصوفي الزاهد شيخ خراسان وأستاذ الجماعة ومصنف الرسالة، الذهبي: العبر، ج 2، ص 319.

2- الرسالة القشرية، تحقيق عبد الحليم محمود بن الشريف، (د. ظ)، دار الشعب للطباعة القاهرة، 1989، ص20

3- المقدمة، ص 467.

4- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، اشراف ومراجعة مانع بن حماد الجهني، ط4، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الرياض، 1999، ج1، ص 249.

5- المقدمة، ص 467.

6- مجموع الفتاوى، ج 11، ص7.

اشتهر التكلم به بعد ذلك وقد نقل التكلم به عن واحد من الائمة والشيوخ كابي سليمان الداراني[1] واحمد ابن حنبل[2].

وبمثل ذلك قال السهروردي (ت 632هـ/1234م) [3]: ‹‹ وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: كان في زمن التابعين ثم نقل عن الحسن البصري[4] ››. وروي كذلك عن سفيان الثوري[5] انه قال: ‹‹لولا أبو هاشم الكوفي[6] ما ما عرفت دقائق الرياء ››[7]، في حين يذهب ابن النديم الى[8]: ‹‹ان جابر بن حيان تلميذ جعفر الصادق (ت208 هـ/823م) هو اول من تسمي بالصوفية وهو من الشيعة.››

وخلاصة القول ان الجميع متفقون على حداثة هذا الاسم وعدم وجوده في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والسلف، وان كان المعنى موجودا في كل منهم فقد عرفوا بالزهاد والنساك والبكائين وليس باسم الصوفية وكان اعتقادهم صافيا وايمانهم نقيا خالصا، ثم خلف من بعدهم خلف فتطرفوا وذهبوا بعيدا في نعيم الدنيا بعد ان اقبلت عليهم فانغمسوا في زخارفها وملذاتها، فحصل رد فعل في نفوس المغلوبين والمقهورين

1- هو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني، من اهل داريا قرية من قرى الشام من كبار الصوفية توفي عام 215 هـ/830 م، السلمي: طبقات الصوفية، ص27.

2- هو أبو عبد الله احمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني البغدادي، كان اماما في الحديث وضروبه وإماما في الفقه ودقائقه واماما في الزهد وحقائقه توفي عام 241 هـ/855 م، ابن العماد: شذرات الذهب، ج 3، ص 185.

3- عوارف المعارف، (د. ط) دار المعرفة، بيروت، (د. ت) ، ص63.

4- هو الحسن ابن الحسن بيسار أبو السعيد البصري مولى زيد بن ثابت كانت امه مولاة لام سلمة ام المؤمنين (ض)، (ض)، من كبار التابعين وأشهرهم علما وزهدا توفي عام 110 هـ/728 م، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج 1، ص 66

5- هو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري الكوفي الفقيه الزاهد سيد اهل زمانه علما وعملا توفي بالبصرة عام 161هـ/778م، الذهبي: العبر، ج1، ص 181.

6- أبو هاشم الكوفي اول من دعي بالصوفي ولم يسم أحد قبله بهذا الاسم ويعد اول من بنى اول خانقاه للصوفية في الرملة ببلاد الشام توفي عام 150 هـ/767م، السراج الطوسى: اللمع في تاريخ التصوف الاسلامي، تحقيق كامل مصطفي الهنداوي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص 42.

7- ابن عجبية: الفتوحات الالهية، تحقيق عبد الرحمن حسن محمود، (د. ط)، عالم الكتب، القاهرة، (د.ت)، ص53.

8- الفهرست، دار المعرفة للطباعة، بيروت، (د. ت)، ص498.

واصحاب النفوس الضعيفة فصبغوا هذا الفرار والانهزام صبغة دينية، وفي ذلك يقول ابن الجوزي:[1]‹‹ كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الايمان والإسلام، فيقال: مسلم ومؤمن ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ اقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها واخلاق تخلقوا بها...››.

وقد امتاز صوفيو أواخر القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي بالحرص على الاتباع دون الابتداع، وكان على راس هؤلاء إبراهيم ابن أدهم[2] (ت 161هـ/777م) صاحب مقولة:‹‹ من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ومن أطلق بصره طال اسفه ومن أطلق امله ساء عمله ومن أطلق لسانه قتل نفسه.››[3]، اما متصوفو القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي فقد وجد منهم من اعتني بالكلام في دقائق النفس والسلوك واعطي للتصوف بعدا أخلاقيا كقول المحاسبي[4] (ت243 هـ/857م): ‹‹حسن الخلق احتمال الأذى وقلة الغضب وبسط الوجه وطيب الكلام ›› ، وكذلك قوله: ‹‹لا ينبغي ان يطلب العبد الورع بتضيع الواجب››[5]، ومنهم من نحي بالتصوف منحي كلاميا على غرار سهل

1 – تلبيس ابليس، ص 156–157.

2– هو إسحاق إبراهيم ابن أدهم من اهل بلخ مدينة بخراسان، كان أحد أبناء الملوك المياسير خرج للصيد فهتف به هاتف أيقظه من غفلته فترك طريقته في التزين بالدنيا ورجع إلى طريقه اهل الزهد والورع، السلمي: طبقات الصوفية، ص 15، ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج2، ص 259.

3– السلمي: المصدر السابق، ص16.

4– هو عبد الله الحارث بن اسد المحاسبي الصوفي العالم بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والاشارات، وصاحب كتاب " الرعاية لحقوق الله"، المصدر نفسه، ص 21.

5– السلمي: المصدر نفسه، ص22.

سهل التستري[1] (ت 283 هـ/896 م) الذي كان على مذهب الامام ابي الحسن الأشعري[2].

كما شهدت هذه الفترة كذلك تأثر بعض المتصوفة بعقائد الأمم القديمة والمذاهب الفلسفية اليونانية كما هو الحال مع البسطامي [3] (ت 261 ه /874 م) الذي كان ظهوره سببا في تطور انحراف الأفكار الصوفية حين ادخل في التصوف فكرة الفناء وحدة الوجود[4][5] ثم اخذ التصوف والمتصوفة في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي منحى منحى المبتدعة بظهور الحلاج[6] (ت 309 هـ/921 م) الذي نادى بمذهب الحلول[7]، فأفتى علماء عصره بكفره وقتله، ولكن طريقته بقيت بعده[8] ويعتبر هذا العصر من أخطر أخطر العصور التي مر بها التصوف لأنه ادي إلى فكرة التخلي عن العبادات الظاهرة والتحلل من التكاليف والأوامر والنواهي.

1- هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التسترى أحد علماء الصوفية المتكلمين في علوم الرياضيات والاخلاص، السلمي: طبقات الصوفية، ص 66.

2- الصفدي: الوافي بالوفيات، ج1، ص 309.

3- هو أبو اليزيد طيفور بن عيسى بن شروشران كان مجوسيا وأسلم من اهل بسطام بلدة على طريق نيسابور، المصدر نفسه، ص25.

4- ينظر أصحاب هذا المذهب من الصوفية ان العالم الكبير كذات الانسان في التمثيل فإنك اذا نظرت اليها وجدها متحدة مع اختلاف ما تركبت منه من شعر ولحم وعظم، بمعنى اتحاد ذات العالم في كونه مخلوقا كله للخالق الواحد سبحانه وتعالى، فلا يخرج فرد من افراد العالم عن هذا الحكم وان اختلفت انواعه فالأصل الذي برز منه واحد والانسان فرد من افراد هذا العالم، ايمن حمدي: قاموس المصطلحات الصوفية، دار قباء للطباعة، القاهرة، 2000، ص 92-93.

5- القشري: الرسالة القشرية، ص17.

6- هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج من اهل بيضاء فارس نشأ يواسط وقتل بباب الطاق ببغداد، السلمي: طبقات الصوفية، ص102.

7- الحلول: يعتقد فريق من الصوفية ان الله اصطفى اجساما وحل فيها معاني الربوبية وأزال عنها معاني البشرية، والاجسام التي اصطفاها الله تعالى هي اجسام اولياؤه واصفياؤه وكان منهم اتباع الحلاج، الرازي: اعتقاد فرق المسلمين والمشركين، ص 82.

8- ابن الاثير: الكامل، ج8، ص 129، السلمي: طبقات الصوفية، ص 103.

وفي القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي اخذ التصوف يتطور وأخذ طابعا جماعيا منظما وصار لكل طريقة شيوخها وسالكوها، وفي هذا يذكر الهجويري (ت 465 هـ/1072 م)[1]: ‹‹والطرق الصوفية التي ظهرت في هذه الفترة اثنتي عشرة فرقة ونسب كل منها إلى شيخ من شيوخ القرنين الثالث والرابع الهجريين››، وفي هذا السياق ويقول رينولد[2] ‹‹ كان التصوف في بداية أمره صورة من صور الحياة الدينية لا يأخذ بها الا الافراد ولا يأخذها عن هؤلاء الافراد الا خاصة اصحابهم، ثم أصبح رويدا حركة منظمة ومدرسة يتخرج منها الاولياء والمجاذيب[3] لها قواعدها ورسومها من حيث سيرة المريدين واخلاقهم وعبادتهم، وأصبح المريد يتلقى قواعد الطريق الصوفي على أستاذه ويخضع لإرشاده خضوعا أعمى››.

1- كشف المحجوب، ج1، ص 58.

2- في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص 19-20.

3- المجاذيب: هم السائرون إلى الله حاملين الزاد والتقوى والطاعة، الكاشاني: معجم مصطلحات الصوفية، تحقيق وتقديم عبد العال شاهين، ط1، دار المنار، القاهرة، 1992، ص68.

المطلب الثاني: عوامل انتشار التصوف الشامي:

ازدهرت حركة التصوف في بلاد الشام غداة الغزو الصليبي نتيجة لمجموعة من العوامل والمؤثرات بعضها داخلي والأخر خارجي تفاعلت وتكاملت معا ومن أبرز هذه العوامل ما يلي:

أ-**العامل الديني:** ويقصد به الدورالتربوي للقرآن الكريم والسنة النبوية في توجيه المسلمين إلى الزهد في الدنيا والعزوف عن ملذاتها وعدم النظر في شهواتها ومتاعها لقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [1]

وسارت السنة النبوية على نفس المنهج حيث ورد في كلام النبي (ص) ما يؤكد أن الدنيا متاعها زائل ولا ينبغي أن تشغل من حياة الإنسان إلا القدر الذي تستحقه، وآثر عليه الصلاة والسلام حياة الزهد والتقشف والبساطة وابتعد عن الإسراف والتوسع في طيبات الدنيا، ويظهر ذلك في قوله (ص): "مالي وللدنيا؟ انما أنا والدنيا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ثم راح وتركها".[2]

ومن جهة أخرى ظهر فريق من الصوفية يعتبر أن الفقهاء قد ضيقوا الدين وجعلوه مجرد رسوم وأشكال وعكفوا على بيان الحلال والحرام وعلى شروط العبادات وأصول المعاملات مكتفين بظاهر العلم والعمل على الجوانح دون أن يتغلغلوا إلى الباطن حيث بواعث الأعمال وخطرات القلوب، كما أشاروا إلى التفرقة بين الظاهر والباطن وفي الأولى اشارة إلى الفقه بينما الثانية تشير إلى التصوف.[3]

1- سورة الحديد، الآية 20.

2- أحمد ابن حنبل: المسند، (د.ط)، مؤسسة قرطبة، القاهرة، 1998، جـ1، رقم 2744، ص 301.

3- أحمد محمود صبحي: التصوف إيجابيات وسلبياته، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص28-29.

في حين عرف الإمام القشري هذه التفرقة في رسالته باسم الشريعة والحقيقة فقال:[1] "الشريعة أمر بالتزام العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية، فكل شريعة غير مؤكدة بالحقيقة فغير مقبول وكل حقيقة غير مؤكدة بالشريعة فغير محصول، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق والحقيقة أبناء عن طريق الحق".

وقدم الصوفية معاني باطنة لشعائر الدين وعباداته من طهارة وصلاة وصوم وزكاة وحج، فليست الطهارة مجرد غسل البدن أو الأعضاء بالماء دون تطهير الباطن من الرذائل، فالطهارة عندهم تطهير الجوارح من الأحداث والأخباث وباطنها تطهيرها من المعاصي والآثام ثم تليها درجة أخرى للخواص وهي تطهير القلب من الأخلاق المذمومة الرذائل الممقوتة وتليها درجة ثالثة الخواص وهي تطهير السر عن كل شيء سوى الله تعالى.[2]، ولم يقف مدلول الحقيقة في مقابل "الشريعة" والباطن في مقابل "الظاهر" عند العبادات فقط بل أنه شمل آيات القرآن الكريم لما تنطوي عليه من شريعات وقصص ومن أسئلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[3]، فقد أول السهروردي هذه الآية بقوله:[4] "التجرد من أغراض الأحوال هو من خلع نعلي النفس والقلب."

كما ساعدت الاضطرابات والخلافات المذهبية التي كانت على أشدها عصر الحروب الصليبية بين أهل السنة والشيعة في انتعاش حركة التصوف وتمدده، حيث يذكر ابن جبير: [5] "وللشيعة في هذه البلاد –الشام– أمور عجيبة وهم أكثر من السنة فيها وقد

1– الرسالة القشرية، ص19.

2– أحمد محمد صبحي: المرجع السابق، ص29.

3– سورة طه، الآية 12.

4– عوارف المعارف، ص151.

5– رحلة ابن جبير، ص218.

عمروا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الإمامية والإسماعلية والنصيرية ومنهم الغرابية[1]...".

وعليه فقد كان لابتعاد رجال الصوفية عن الصراعات المذهبية واعتزالهم الفتن دور كبير في اكتسابهم شعبية داخل المجتمع الشامي وازدياد الإقبال على عمائرهم طلبا للمغفرة والرضا، فضلا عن كثرة المشاهد والأماكن المباركة التي كان يلجأ إليها الصوفية في بلاد الشام ويعتكفون فيها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن جبير عن جبل قاسيون[2]فقال[3]:"هذا الجبل مشهور بالبركة في القديم لأنه مصعد الأنبياء صلوات الله عليهم...، وبه مغارة تعرف بمغارة الدم لأن فوقها دم هابيل قتل أخيه قابيل وفي أعلى الجبل كهف منسوب إلى آدم-عليه السلام- وهو موضع مبارك.".

ب- العامل السياسي: عرفت بلاد الشام عصر الحروب الصليبية فراغ سياسي رهيب نتيجة الصراع الذي كان قائما بين الفاطميين والسلاجقة المنافحين للدولة العباسية من جهة وبين أمراء البيت السلجوقي من جهة أخرى، فلم تطلع سنة 489هـ/1095م حتى تجزأت الدولة السلجوقية إلى خمس مماليك[4] متحاربة فيما بينها ومع الدولة الفاطمية[5]،بل وجد منهم من عمل على الاستقواء بالخارج في صورة أمير حلب رضوان الذي تحالف مع الفاطميين ضد أخيه الدقاق[6] كما تعاون الفاطميون في مصر مع

1- هي فرقة من غلاة الشيعة قالوا: أن الله بعث جبريل-عليه السلام-إلى علي ابن أبي طالب فغلط وجاء إلى محمد(ص) وذلك لشدة الشبه بين علي ومحمد(ص) كما يشبه الغرب بالغراب، فسموا بذلك وتعد هذه الفرقة من أكثر الفرق كفرا وإلحادا، البغدادي: الفرق بين الفرق ص250.

2- هو جبل مشرف على مدينة دمشق وفيه عدة مغاور فيها آثار الأنبياء، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح من الصوفية وهو جبل مقدس، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ4،ص295.

3- رحلة ابن جبير،ص214،212.

4- مملكة بفارس عليها السلطان بركيا روق، ومملكة حلب عليها رضوان بن تتش، وسلطنة سلاجقة الروم بزعامة قبح ارسلان، وأخيرا مملكة خراسان وما وراء النهر عليها سنجد عبد الفتاح عاشور. الحركة الصليبية، جـ1، ص97.

5- ابن العديم: زبدة الحلب، ص225، عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية،جـ1، ص97.

6- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص130.

الصليبيين حول أنطاكية ضد السلاجقة السنين[1] هذا علاوة عن نظام الحكم الذي كان قائما على الاستبداد والصلف والاستعلاء على الجماهير واحتقارها واشاعة الظلم والخوف في صفوفها، وفي هذا يذكر ابن جبير[2]:«إن كل الملوك في هذا الأوان فيما عدا الموحدين على غير طريقة الشريعة يرتكبون من الظلم مالم يسمع بمثله.».

ويستطرد ابن الجبير فيما يذكر من أخبار رحلته أن المسلمين الخاضعين للأمراء الصليبين كانوا أرغد عيشا وأسعد حالا من إخوانهم الخاضعين للأمراء المسلمين، وقد أرجع ابن جبير ذلك إلى أن الأمراء الصليبين لم يحاولوا إرهاق المسلمين الخاضعين لحكمهم بالضرائب الباهظة، لأن التزامات السكان المالية تجاه الأمراء الصليبين كانت محدودة وليس فيها شيء من الإرهاق، وكان ذلك العكس تماما من الامراء المسلمين اتجاه رعاياهم.[3]، وعليه فقد ساهم هذا الوضع في سلبية الرأي العام واحباطه وتجنب الكثير من الناس الحياة السياسية والانقطاع إلى ملاجئ الصوفية البعيدة عن هذه الخلافات.

كما ساهمت وحشية الصليبيين ولاسيما جرائمهم في الحملة الأولى 493هـ/ 1099م –مجزرة بيت المقدس–[4] وتقصير حكام المسلمين في نصرة إخوانهم المقدسين في إحباط المسلمين وانهيار قواهم المعنوية، فامتلأت النفوس في كل مكان بروح العجز وشاعت روح التقوى السلبية والتدين العاطفي الهروبي، وقد تجسد هذا كله في انتشار طرق صوفية جاهلة سلمت بالأمر واعتبرت ما حدث قضاء وقدر، وكان التفاف عامة الناس حول هذا النمط من المتصوفة تعبيرا عن روح اليأس وأملا في التخفيف من وطأة الذنب –تأّخرهم عن أداء فريضة الجهاد–.[5]، وفي الوقت نفسه وجد بعض الحكام في

1– ابن الاثير: الكامل، جـ11، ص186.

2– رحلة ابن جبير، ص274.

3– رحلة ابن جبير، ص275.

4– ابن الأثير: الكامل،جـ7،ص126.

5– قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص171.

حركة التصوف مخرجا ينفذون من خلاله لتحقيق أهدافهم وسياستهم، فحرصوا على تقريب رجال الصوفية إليهم والإغداق عليهم والاكثار من إنشاء الزوايا والربط لمواجهة خطر التشيع وحشد همم الناس للجهاد ضد الصليبيين.[1]

كما كان لبعض الحكام مآرب أخرى في تشجيع الحركات الصوفية حيث تقربوا منهم مسايرة للشعور العام، خاصة أن السواد الأعظم من الناس في تلك الفترة كانوا يقبلون على المتصوفة ويبالغون في احترامهم، أو لصرف العامة عن مراقبتهم ومحاسبتهم والوقوف في طريق رغباتهم، فاهتموا بتوجيه أنضار الناس إليها وأجروا عليهم الأرزاق والعطايا.[2]

جـــ- العامل الاجتماعي: لم تقتصر آثار الغزو الصليبي لبلاد الشام على الجوانب السياسة والدينية باستيلاء الصليبيين على المدن والقلاع الإسلامية واستعادة الضريح المقدس المزعوم، بل ترتب عنه نزوح وهجرة جماعية حيث تشير المصادر أن المذابح الدامية التي حدثت في أنطاكية عام 493هـــ/1099م[3] كانت أولى هذه الهجرات.[4]، أما ثاني هذه المجموعات فهي أكثرهن أهمية وهي مكونة من سكان المدن التي استسلمت والتزم فيها الفرنج بالحفاظ على الأرواح والممتلكات، غير أن الكثير منهم تعرضوا للقهر الديني والعقوبات الجسدية والابتزاز الضريبي[5]، ناهيك عن تفشي المنكر وتفسخ القيم في في وسط هذا المجتمع الجديد –الصليبي–، وقد نقل لنا أسامة ابن منقذ صورة حية عن تفسخ قيم الفرنجة فقال:[6]«ليس للإفرنج شيء من النخوة والغيرة يكون الرجل منهم يمشي

1- ابن واصل: مفرح الكروب، جـــ1، ص144،ابن الاثير: التاريخ الباهر، ص123.

2- محمد زعلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي ص70 .

3- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص135

4- ابن كثير: البداية والنهاية، جـــ 12، ص156، ابن الجوزي: المنتظم، جـــ 17 ص 47.

5- حسن عبد الوهاب حسن: مقالات بحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998، ص80.

6- كتاب الاعتبار، ص135.

يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى.»، وأمام هذا التفسخ الذي طال بعض المدن الإسلامية وافتقادها للقانون الإسلامي، أفتى بعض الفقهاء بوجوب مغادرة المسلم للبلاد غير إسلامية في حالة عدم استطاعته ممارسة شعائره الدينية، ونتيجة لهذا هاجر عدد غير قليل من أهالي نابلس وبيت المقدس واستقروا في ضاحية الصالحية لدمشق أين استقر ابن قدامي ومريدوه.[1]

وفي الوقت الذي تسارعت فيه هجرة المسلمين قبض المجتمع الجديد الذي تكون عقب سقوط المدن الإسلامية على جميع المقدرات والنفائس، فيذكر فوشيه Fucher de Chartres أن حالة الصليبيين قد تغيرت بعد سقوط بيت المقدس بقوله:[2] «الذين كانوا لا يملكون درهما واحدا –أي في الغرب– أصبحوا يملكون قطع الذهب التي لا تقع تحت حصر...». وقد ترتب عن هذا الوضع أن عاش الناس في بأس وضيق فلجأ الكثير منهم إلى ملاجئ الصوفية واتخذوا التصوف سبيلا وهروبا من قسوة الحياة، كما اتجه بعض الناس إلى التصوف وسكن مساكن الصوفية وعمائرهم من أجل التكسب من الأرزاق التي ينفقها أولى الأمر على تلك العمائر، فقد دفعت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي تعرضت لها بلاد الشام في ذلك العصر الكثير من الناس لاتخاذ الدين والصلاح وسيلة من وسائل الارتزاق.[3]

ناهيك عن الأمراض والأوبئة والنوازل التي مرت ببلاد الشام، حيث يذكر فوشيه أن زلزالا قد وقع سنة 491هـ/1097م وهي السنة الأولى للاجتياح الصليبي لبلاد الشام، وقد اعتبر فوشيه هذا الزلزال وما صاحبه من آيات بشارة من السماء للصليبيين تبشرهم

1– ابن طولون: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، طـ2، مطبوعات مجمع اللغة الغربية، دمشق،1980،جـ1، ص73،68.

2– تاريخ الحملة، ص45.

3– المقريزي: الخطط، جـ2، ص193.

باحتلالهم أرض الشام ومما قاله:[1] «وفي تلك الفترة رأينا شعاعا أحمر في السماء كما شعرنا بزلزلة عظيمة في الأرض مما أوقع الخوف في قلوبنا وقد رأى الكثير منا علامة معينة على شكل صليب بيضاء اللون تسير في طريق مستقيم إلى الشرق.».

كما حدثت زلزلة في القدس سنة 499هـ/1105م أثناء احتلالها من الصليبيين[2]، وفي سنة 508هـ/1114م ضربت بلاد الشام زلزلة هائلة فخربت وأهلكت من الخلق الكثير[3]، وفي سنة 531هـ/1136م ظهر بالشام سحاب أسود وأظلمت الدنيا وصار الجو كالليل المظلم، ثم طلع بعد ذلك سحاب أحمر كأنه نار أضاءت له الدنيا وهبت ريح عاصفة أوقعت الكثير من الشجر وكان أشدها في دمشق.[4]

ومن النوازل أيضا أن شهدت بيت القدس عام 510هـ/1117م أسراب لا تحصى من الجراد التهمت محاصيل الحقول وثمار الأشجار[5]، وتكرر الأمر نفسه عام 530هـ/1135م عندما اجتاحت مدينة دمشق أسراب عظيمة من الجراد قضى على الأخضر واليابس ونتج عن ذلك قلة الغلال وارتفاع الأسعار وأضحى الناس في جوع وخوف وهلع[6]، وفي سنة 643هـ/1135م اشتد الغلاء بدمشق مما أدى إلى ارتماء كثير من الناس في الطرقات من شدة الجوع وانتشر التسول بين الناس ولجأ الكثير منهم إلى بيوت الصوفية للارتزاق.[7]

1- تاريخ الحملة، ص55.
2- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 149 .
3- ابن الجوزي: المنظم، جـ10،ص127.
4- ابن الأثير: الكامل، جـ 9، ص300.
5- فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة، ص160.
6- براو يوشع: عالم الصليبيين، ص196.
7- أبو شامة: الذيل، ص 273.

وعليه فقد كان لهذه النوازل والمحن دور كبير في زهد الناس بالدنيا وإقبالهم على الآخرة، كما نظر المجتمع الشامي لتلك النكبات على أنها ابتلاء من الله عز وجل وأنها شكل من أشكال العقاب الإلهي العادل نظرا للآثام التي ارتكبت من قبل البعض.

المطلب الثالث: انحرافات الصوفية وأباطلها:

لقد انحرف الصوفية في مفهوم الزهد انحرافا خطيرا كما انحرفوا في غيره فادعوا بأن الزهد هو ترك الدنيا بالكلية والهروب عنها وتعذيب الجسد بأنواع العذاب من التجويع والعري وترك الزواج والدخول في الخلوات المظلمة بقصد تربية النفس لكي تصل إلى ولاية الله[1]، وفي ذلك يقول السهروردي[2]:« أعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية.»، والولاية عند الصوفية مراتب مثل القطب[3] والاوتاد[4] والابدال[5] وهذه المصطلحات ليست موجودة في كتاب الله ولا هي مأثورة عن النبي(ص)[6]، كما ادعوا أن أن الأولياء يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون تصرفا مطلقا ويستغاث بهم من دون الله ومن أمثلة ذلك قول السهروردي[7]:«الأولياء أجساد أرضية بقلوب سماوية».

ثم يستطرد برأي لم يسبقه إليه أحد من المتصوفة حيث فرق بين طينة الاولياء والانبياء من جهة وبين الطينة التي خلق منها سائر الخلق من جهة أخرى فقال: «لما بعث الله جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الارض فأبت حتى بعث الله عزرائيل فقبض قبضة من الارض، وكان إبليس قد وطئ الارض فصار بعضها بين قدميه، فخلقت النفس

1- الولاية: هي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه وذلك يتولى الحق اياه حتى يبلغه غاية مقام القرب والتمكين، الكاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية، ص90.

2- عوارف المعارف، ص 42.

3- القطب: وهو عبارة عن رجل واحد هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان ويسمى غوثا لالتجاء الملهوف إليه، الكاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية ،ص162 .

4- الاوتاد : هم الرجال الاربعة الذين هم على منازل الجهات الأربعة من العالم –الشرق، الغرب، الشمال، الجنوب- بهم يحفظ الله تعالى الجهات، الجرجاني: التعريفات، ص39.

5-.الابدال: هم سبعة رجال يسافر أحدهم عن موضع ويترك جسدا على صورته فيه بحيث لا يعرف أحد أنه فقد، المصدر نفسه، ص43.

6- ابن.تيمية: مجموع الفتاوي، جـــ11، ص441.

7- عوارف المعارف، ص42.

مما مس إبليس فصارت مأوى الشر وبعضها الآخر لم يصل إليه قدم إبليس فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء.» [1].

في حين زعم محي الدين ابن عربي[2](ت 638هـ/1240م) أن الولاية أفضل من النبوة، النبوة تتجدد وتنقطع بخلاف الولاية فإنها لا تنقطع أبدا ولا تحد بالزمان والمكان وأن الله لم يقسم بنبي ولا رسول ويقسم بالولي فقال:﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[3]، وأن الولي يعلم علمين علم الشريعة والحقيقة أي الظاهر والباطن والتنزيل والتأويل بخلاف النبي فإنه لا يعلم إلا علم الشريعة فقط أي التنزيل، فإذا رأيت النبي يتكلم خارج عن التشريع فاعلم أنه ولي عارف.[4]

وإذا نظرنا في هذه النصوص نجد أن هؤلاء المتصوفة قد غلوا في مرتبة الولي وجعلوا منزلته فوق منزلة النبوة ووصفوه بأوصاف لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى كعلم الغيب والاطلاع على اللوح المحفوظ، ومن أمثلة ذلك قول الشعراني في شروط الولي الصادق:[5] «أن يكون عنده علم يكشف به الحقائق بنظر أحوال مريدة في اللوح المحفوظ ما جاز وما يجب وما استحال، يلاحظ مريده من حين كان في عالم الذر قبل وروده وهبوطه إلى أصلاب الآباء وبطون الأمهات».

1- عوارف المعارف، ص47.

2- هو محي الدين بن علي بن محمد بن أحمد الطائي الحاتمي، صوفي متكلم وفقيه مفسر كان يلقب بالشيخ الاكبر اتهم بالزندقة وحرم جلال الدين السيوطي النظر في كتبه توفي بدمشق ودفن بها، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 13، ص 231 .

3- سورة البقرة، الآية 257.

4- فصوص الحكم، تحقيق أبو العلا عفيفي، (د. ط)، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت)، جـ1،ص 135 .

5- لطائف المنن، إعتنى به أحمد عزو عناية، ط1، دار التقوى، دمشق، 2004، ص 463 .

هذا فضلا عن تأكيدهم أن للشيخ[1] العصمة المطلقة وعلى مريده الطاعة وعدم الاعتراض عليه في كل مايفعله ولو كان ظاهره حراما وأن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي مغسله[2]، وفي هذا يقول ابن عربي[3]: « فالله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل بل هو فعال لما يريد فكذلك الشيخ لا يسأل عما يفعل.»، وكذلك قولهم: « الشيخ في قومه كالنبي في أمته»[4]، وقد بين الشهرستاني مذهب هذه الطائفة فقال:[5] « ادعت طائفة من الصوفية أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل وقالوا: من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك وحلت له المحرمات كلها من الزنا والخمر...».

ويتحصل لنا مما سبق أن بعض أقطاب الصوفية قد غلوا في مرتبة الولي وتقدسيه إلى حد دفع بالكثير من المنتسبين إلى صرف العبادات لشيوخهم بدلا من الله سبحانه وتعالى، فقد زعم البعض منهم أنه يحصل لهم الخشوع عندما يضعون صورة الشيخ أمامهم في الصلاة جهة القبلة[6]، كما توجهوا إليهم بالدعاء والتضرع ويقصدونهم في قضاء حوائجهم، حيث يذكر أن جماعة من أهل بيروت أسرهم الفرنجة فألهمهم الله أن

1- الشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة البالغ حد التمكين فيها لعلمه بآفات النفوس وأمراضها ودوائها ومعرفته بذواتها وقدرته على شفائها، الكاشاني: معجم اصطلاحات الصوفية، ص 172 .

2- الأربلي: تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، طـــ1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991، ص 479.

3- الفتوحات المكية، المطبعة العربية، القاهرة، (د.ت)، ص 181 .

4- ابن عجيبة: المصدر السابق، ص137.

5- الملل والنحل، جـــ 1، ص 266.

6- ابن تيمية: مجموع الفتاوى، جـــ 22، ص 608 .

يقولوا: يا سيدي أحمد يا بدوي[1] إن الناس يقولون إنك تأتي بالأسرى إلى بلادهم وسألنا النبي(ص) أن تردنا إلى بلادنا فمكنهم البدوي من الهروب.[2]

وروى كذلك عن أحد الصوفية قال لمريده:« إذا كان لك حاجة فتعال إلى قبري واستغث بي.» [3]، ويستطرد ابن الساعي ويسوق لنا صورة حية وصادمة عن التوسل بالأولياء والمشايخ فيقول: [4]« إن كثير من الناس كانوا يعتقدون في شخص أبله يمشي عريانا مكشوف السوءة اسمه حميد الزيري يظنون أنه ولي من أولياء الله وعندما توفي عام 595هـ/1198م تبع جنازته خلق كثير من العوام وظل قبره يزار وتنذر له النذر.»

وزاد الأمر وتفاقم الخطب حتى عظمت الأضرحة والمزارات والقبور وصار ترابها عند الكثير مباركا نافعا ومؤثر ، بل صارت بعض الأشجار والأحجار والصخور مقاما مقصودة تقبل النذر وتشفي المرضى، وقد وقف عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة على ما وقع من جهالة العوام من انتمائهم إلى طريقة الفقر والتصوف واعتقادهم في المشايخ المتصوفة الضالين المضلين ومما ذكره: [5] « وبهذه الطرق وأمثالها كان مبادئ ظهور الكفر من عبادة الأصنام وغيرها»، ثم ذكر ما تفعله العامة من تعليق على الحيطان والعمد وايقاد السراج على المواضع، ومنهم من يزعم أنه

1- هو أبو العباس سيدي أحمد البدوي الشريف ولد بفاس وانتقل إلى المشرق وزار أضرحة أولياء العراق كالشيخ عدي بن مسافر والحلاج وهو من أولياء الصوفية وله كرامات توفي عام 675هـ/1276م، الشعراني: الطبقات الكبرى، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق على وهبة ، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005، جـ1، ص 201 .

2- أبو الهدى الصيادي: قلادة الجواهر، قدم له الشيخ عبد الوارث محمد علي، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999، ص 402. .

3- ابن تيمية: الإستغاثة في الرد على البكرى تحقيق عبد الله دجين السهلي، ط1، دار الوطن، الرياض، 1997، جـ1، ص 48.

4- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، (د.ط)، المطبعة السريانية، بغداد، 1934، جـ 9 ص15.

5- الباعث على انكار البدع والحوادث، تحقيق عادل عبد المنعم أبو العباس، (د.ط)، مكتبة ابن سينا، القاهرة،(د،ت)، القاهرة،(د،ت)، ص40.

رآى في المنام أحد ممن اشتهر بالصلاح والولاية إلى أن يصل به الحال إلى تعظيم تلك الأماكن ورجاء الشفاء وقضاء الحوائج وهي ما بين عيون وشجر وحائط وحجر.

وفي ذلك يقول:[1] «وفي دمشق صانها الله من ذلك مواضع متعددة كعونية الحما خارج باب توما والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث.»، ثم استشهد بقول الامام أبو بكر الطرطوشي (ت 530هـ/1135م) من أئمة المالكية: « فأنطروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فأقطعوها»[2].

وقد شكا أهل السنة إلى الإمام ابن الجوزي(ت 597هـ/1200م) من أهل البدع والصوفية والمتكلمين فقال:[3] «اصبروا فلا بد للشبهات أن ترفع رأسها في بعض الأوقات وان كانت مدفوعة وللباطل جولة وللحق صولة والدجالون كثير.»، ويظهر من كلامه طغيان البدع والعادات السيئة والابتعاد عن الشرع، كما ادعى الصوفية بأنه لا يمكن أن يتحقق الزهد ويصل الإنسان إلى مرتبة ولاية الله إلا إذا تجرد عن الملكية نهائيا وصار فقيرا لا مال له، ويذكر السهروردي بأن أحد المتصوفة قال:[4] « جعت ذات يوم فدخلت بعض المحال متعرضا لعل الله يفتح لي على يد بعض عباده شيئا فلم يقدر، فنمت جائعا فأتي آت في منامي فقال لي: اذهب إلى موضع كذا فنلت حاجتي.».

والمتمعن في هذا النص يرى بوضوح كيف انحرف بعض المتصوفة في مفهوم التوكل انحرافا خطيرا، حيث فهموا أن من شروط الزهد هو الإعراض كلية عن القيام

1- الباعث على انكار البدع والحوادث، ص43.

2- الحوادث والبدع، علق عليه علي بن حسن علي الحلبي، طـ1، دار ابن الجوزي، دمشق 1990، ص 18.

3- صيد الخاطر، ص 209-210.

4- عوارف المعارف، ص98.

بأي عمل ولا يجوز لأي أحد أن يدخر شيئا من ماله إذا أراد أن يدخل في زمرة الزهاد، فأوقعوا أنفسهم في الشحاتة وسؤال الناس، ووقفوا أمام بيوت الناس وتسكعوا في الشوارع من أجل الحصول على عيشهم، وقد تعجب ابن الجوزي من كبار الصوفية من مصادمة أفعالهم لمقاصد الشريعة في حفظ المال، ورأى في دعوتهم إلى تبديد المال وإهداره والدعوة إلى الفقر والركون إلى البطالة والكسل وترك العمل دعوة خطيرة في المجتمع فيها تعطيل لإعمار الأرض ومخالفة لروح الإسلام.[1]

وحاول كثير من أقطاب الصوفية صرف الناس عن القتال في سبيل الله وجهاد أعداء الأمة الاسلامية واتخذوا لذلك عدة أساليب، كاللجوء إلى تفسيرات غريبة للآية القرآنية التي تتكلم عن الجهاد في سبيل الله وفضله العظيم، فقد فسر السهروردي قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[2] هو مجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الاكبر أما جهاد الاعداء ومقارعتهم فليس بذي أهمية[3]، وكثير من أقطاب الصوفية عاصروا الحروب الصليبية أمثال السهروردي وابن الفارض[4] ولم يحركوا ساكنا رغم الفواجع التي نزلت بالمسلمين، بل كانوا يقررون للناس أن الله هو عين كل شيء فليدع المسلمون الصليبيين فما هم إلا الذات الإلهية متجسدة في تلك الصور.[5]

كما انحرف المتصوفة في عقيدة القضاء والقدر انحرافا خطيرا، حيث احتج كثير منهم بالقضاء والقدر فجوزوا فعل كل شيء لاعتقادهم بأن كل شيء قدره الله وقضاه، فلا يوجد عند المتصوفة شيء يسمى منكرا في هذه الحياة لأن كل مايقع في هذا الكون فهو

1- تلبيس إبليس، ص176.

2- سورة الحج، الآية 78.

3- عوارف المعارف، ص 82.

4- هو القاسم بن عمر بن علي الحموي المعروف بابن الفارض الشاعر الصوفي المصري له أشعار كثيرة في الزهد توفي عام 632هـ/1234م، الذهبي: العبر، جـ ، ص 213.

5- عبد الرحمن الوكيل: هذه هي الصوفية، طـ 4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984، ص 170.

مرضي لله سبحانه وتعالى ومحبوب عنده سواء كان هذا الواقع طاعة أو معصية وسواء انتصر الكفار على المسلمين أو انتصر المسلمون على الكفار الكل سواء لأنه واقع بقضاء الله وقدره، لذلك فالصوفية يقبلون كل شيء يقع في هذا الكون بكل رضا وحب ولا يقفون ضده، وقد قال بهذا المعتقد كبار مشايخ الصوفية على غرار ابن عربي الذي احتج بالقضاء في تجويز عبادة العجل وذلك بناء على معتقد الصوفية بأن كل ما قضاه الله وقدره فهو يحبه ولذا لا يجوز إنكاره.[1]

لذا فهم لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر ولا يجاهدون في سبيل الله لأن الجهاد في سبيل الله في معتقدهم هو مقاومة لقضاء الله وقدره وعدوا استيلاء الكفار- الفرنجة- على بلاد المسلمين إنما هو واقع بقضاء الله وقدره وكل ما قدره الله وقضاه فهو يحبه، وكذلك عللوا سكوتهم ورضاهم بما ينزل بقومهم من المصائب بأن هذه المصائب عقاب من الله للمذنبين من خلقه فإذا كان الله قد سلط على قوم نازلة فليس لأحد أن يقاوم إرادة الله.[2]

لهذا تحاشوا مقاومة الصليبيين واعتبروا ما وقع على المسلمين من غزو واحتلال فهو مقدر ويجب التسليم به، ومن ثمة أظهروا سلبية منطقة النظير حيال هذا الغزو، وقد تفطن الصليبيون لهذا الاعتقاد فعملوا على تشجيع الطرق الصوفية ونشرها لتقويض الأمة الاسلامية وتخديرها وتحويلها إلى أمة هزيلة لا تحرك ساكنا وأصبح كل من يتكلم عن الجهاد غريبا، كما أخذ الناس عن بعض المتصوفة عدة عادات وممارسات ذميمة أشاعت المزيد من التفسح في الحياة الاجتماعية منا لبس الغريب من الثياب والغناء والرقص على

1- ابن عربي: فصوص الحكم، ص 291.

2- عمر فروخ: التصوف في الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1981، ص109.

أنغام الدفوف باسم الدين وشرب الخمر وتدخين الحسيش أو أكله وقد عرف في ذلك العصر باسم حسيشة الفقراء – والفقراء هنا بمعنى الصوفية –.[1]

وعليه فقد صار هذا التصوف في الغالب صارفا للناس عن الحقيقة ومثبط للعزائم ومشجعا للخنوع وسببا في تمكين أعداء الأمة من أرض الإسلام زمن الحروب الصليبية، مما استوجب ردة فعل لتصحيح فكر الأمة وتثمين تراثها الروحي وتنقيته من الشوائب.

1– قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص 172–173 .

المبحث الثاني

إصلاح الفكر الصوفي وأثره في يقظة الأمة

المطلب الأول: المدرسة الغزالية ودورها في إصلاح الفكر الصوفي.

المطلب الثاني: المدرسة القادرية ودورها في إحياء التصوف السني.

المطلب الثالث: دعم السلاطين للتصوف السني والاستقواء برجاله.

المطلب الأول: المدرسة الغزالية ودورها في إصلاح الفكر الصوفي.

يذكر أبو الحسن الندوي[1]:«أن العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي قد تكاثفت على إضعافه الفلاسفة والباطنية وأحدثتا في تفكيره ما يجره إلى الإلحاد في العقيدة والتدهور في الأخلاق والاضطراب في السياسة، وكان في حاجة ملحة إلى شخصية قوية ترد إليه الإيمان والاعتماد على مصادر الدين الأصلية والاستقامة في الأخلاق وينتج الانتاج الجديد، ولقد رزق العالم الإسلامي هذه الشخصية الفذة في منتصف القرن الخامس الهجري وهي شخصية الغزالي.»، فيبدو واضح من هذا النص أن الأمة الإسلامية كانت مصابة بما يشبه بالهزيمة الفكرية والنفسية أمام النحل المنشقة والتيار الهروبي السلبي الذي مثلته الحركة الصوفية، إلى أن ظهر تيار إيجابي ربط بالفقيه الصوفي المجدد أبو حامد الغزالي(ت 505هـ/1111م) الذي استطاع أن يصحح حركة التصوف في عصره بوضع أسس قواعد التصوف السني وأدابه العملية التي تعنى بالجانب الخلقي والتربوي، وأبعد عن ميدانه كل التيارات الفكرية التي تأثر بها فلاسفة الإسلام كإلهيات أرسطو[2] وما علق بها من نظرية الفيض[3] والاتصال في منهجية ودقة لم يسبقه إليها أحد من قبله.[4]

1- رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (د.ط)، دار ابن كثير، دمشق، (د.ت) جـ1، ص 220 .

2- أرسطو طاليس (384ق.م-322ق.م) فيلسوف وحكيم يوناني مؤدب الإسكندر الأكبر، تعددت مؤلفاته في المنطق والطبيعات والإلهيات إسم يطلق على العلم الذي يشرح طبيعة اللاهوت -الله-، ابن النديم: الفهرست، ص309، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص86.

3- الفيض: بمعنى الموجود الذي يفيض عن كل وجود وأن جميع الموجودات التي يتألف منها العالم تفيض عن مبدأ واحد أوجوهرواحد دون أن يكون في فعل هذا المبدأ أو الجوهر تراخ أو انقطاع جميل صليبا: المعجم الفلسفي، (د.ط)، دار الكتب، بيروت، 1982،ص172.

4- المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تحقيق صالح حمدان، (د.ت)، ج1، ص705، محمد زغلول سلام: المرجع السابق، ص305 .

واعترف السبكي بفضله في إحياء التصوف السني بقوله:[1] «فلم يزل يناضل عن الدين الحنيف حتى أصبح الدين وثيق العرا وانكشفت غياهب الشبهات.»، وأثنى عليه وول ديورنث فقال:[2] «كان اعتناق الغزالي لمذهب التصوف نصرا للصوفية، فأخذ أهل السنة بعده بالتصوف حتى خضعت عقائد التصوف لقواعد الدين»، وثمن كارل هينرش بكر عمله فقال: [3]«... ساد التصوف الذي كان يعد في البدء بدعة خارجة عن الدين، ولكنه أصبح بفضل الغزالي خاليا من السم معترفا به من أهل السنة.».

وكان تصوف الغزالي أقل حرارة من تصوف كبار المتصوفين الذين فارقوا الأخلاق الطبيعية وأخمدوا الصفات البشرية، وتميز عن غيره بالجمع بين التصوف والفقه –الشريعة– والأخلاق الدينية، حيث نجح إلى حد بعيد أن يفقه التصوف ويصوف الفقه وإن كانت كفة التصوف قد رجحت عنده على بقية العلوم وفي ذلك يقول[4]:«أن الاجتهاد في طلب علمي الكتاب والسنة والصبر فيهما يجعل قلب الإنسان منورا لأن العلم نور والجهل ظلام فالاجتهاد في العلم الذي جاء به رسول الله –ص– من عند الله وهو علم الكتاب والسنة الذي من تعلمه عرف الحق من الباطل، بخلاف المتصوفة فإنهم يأمرون بالعمل على الجهل من أجل الحصول على العلم الذي يزعمون بأنه يقذف في قلوبهم بسبب المجاهدة، ويعتقد كثير من المتصوفة بأنه كل من انتسب إلى أي طريقة من الطرق الصوفية تحصل له المكاشفات[5] والمشاهدات[6] وتنزل عليه علوما من الله سبحانه

1– طبقات الشافعية الكبرى، ج16، ص195. .

2– قصة الحضارة، ج13، ص366.

3– تراث الأوائل في الشرق والغرب، ترجمة عبد الرحمن بدوي،(د.ط)، دار النهضة، القاهرة، 1940، ص10. .

4– إحياء علوم الدين، ط1، دار الثقافة للنشر، الجزائر، 1991، ج3،ص132 .

5– المكاشفة: الكشف معناه الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبة والأمور الحقيقية، مطالعة الحقائق من وراء الستر، وتأتي بعد المشاهدة، أيمن حمدي: قاموس المصطلحات الصوفية، ص86. .

6– المشاهدة: هي مطالعة القلب للجمال القدسي أو هي تجلي الحقائق بلا حجاب وتأتي بعد المعاينة، المرجع نفسه، ص86.

وتعالى.». وفي السياق نفسه يذكر المستشرق أجناس جولد تسهير[1]:«أحدث الظواهر القوية الأثر التي بدأت عهدا جديدا في تاريخ العلوم الدينية الإسلامية، وقد ظهرت بعد القشري بقليل وهي تمثل الجهود التي بذلت للتوفيق بين التصوف والشريعة والتي صدرت من الناحية المقابلة للناحية السابقة بينما أخذت الحركة السابقة على عاتقها أن تناهض عدمية الصوفيين، لأنها كانت رد فعل من الإسلام السني لمقاومة تعالمهم، ترى حركة مقابلة وهي تسرب الآراء الصوفية وانتقالها إلى أهل السنة وتربط هذه الظاهرة باسم أحد الفقهاء الإسلام الأعلام وهو أبو حامد الغزالي.».

وعليه فقد عد كتابه إحياء علوم الدين أول الكتب التي جمعت بين علوم الشرع وعلم القلوب والتصوف، فأعطى بذلك معنى مبهجا ومفهوما لدى العامة والخاصة لعلوم الشرع وفي نفس الوقت أعاد علوم التصوف إلى رباطها القديم مع الشريعة.

وربما كان هو –أي الغزالي– أول من بنى رباطا بجانب مدرسته بحيث يصبح المريد تلميذ يتأدب ويتفقه على شيخ أستاذ في التصوف وأستاذ في الشريعة[2] ، فبدأ بذلك طور جديد بحيث أصبح الفقيه صوفيا والصوفي فقيها وهذا له أكبر الأثر في تهدئة حدة الخلافات والخصومات بين الفئتين والتي كانت فيما مضى أن تؤدي إلى شروخ اجتماعية لا تلتئم، ومع هذا كله بقى هناك بعض الفقهاء الذين أبقوا على موقفهم السلبي تجاه التصوف إلا أن سلبيتهم كانت أخف حدة من سلبية سابقيهم، ويرى الغزالي غاية الطريق الصوفي الترقي الخلقي بالمجاهدة للنفس واحلال الأخلاق المحمودة محل المذمومة حتى يصل السالك إلى معرفة بالله، ولا يتحصل ذلك في نظره إلا بالتزام السالك والأخذ عن

1– العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة يوسف موسى وآخرون، طـــ1، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1996، ص157.

2– ابن الجوزي: المنتظم، جـــ9، ص170.

الشيخ وفي ذلك يقول:[1]« فكذلك المريد يحتاج إلى الشيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل فإن سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى أطرافه.».

ثم يسهب الغزالي في تحديد صفات الشيخ المربي بعد أن وقف على بعض أغاليط وأغاليط الشيوخ فيقول:[2]«...لابد للشيخ المربي أن يراعي الفروق الفردية بين المريدين فلا يشر عليهم بنمط واحد ولا ينبغي أن يهجم عليهم بالرياضة[3] والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم، كما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم، بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه وما تحتمله بنيته من الرياضة».

كما أبان الغزالي في الأحياء أن ضرر الشطح[4] بالنسبة لعوام الناس عظيم ويطلعنا على نوعين من الشطح، الأول الدعاوي الطويلة العريضة في العشق مع الله والوصال الذي يستفي به بعض المفتونين عن الأعمال الظاهرة فينتهون إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذي صلب لأجل إطلاقه

1- إحياء علوم الدين، جـــ3، ص60.

2- المصدر نفسه، ص65.

3- الرياضة: يعرفها أهل الحق بأنها المجاهدة والأدب مع الله أي البعد عن الخواطر الشيطانية وذلك بتجنب الشهوات ومخالفة أهواء النفس من طلب اللذات والحظوظ الدنيوية، وهي تهذيب وتربية النفس بقصد الوصول بها إلى مكارم الأخلاق، حسن الشرقاوي: معجم ألفاظ الصوفية، طـــ1، مؤسسة مختار للنشر ، القاهرة،1987، ص164.

4- الشطح: في لغة العرب بمعنى: الحركة أي شطح إذا تحرك وفاض على جانبيه كالنهر الضيق فيفض من حافتيه إذا زاد الماء فيه، وكذلك المريد إذا زاد وجده ولم يستطع حمل مايريد في قلبه من سطوة أنوار الحقائق شطح ذلك على لسانه فيترجم عنه بعبارة غريبة تستكشل على مفهوم السامعين، السراج الطوسى : اللمع، ص213، حسن الشرقاوي: معجم ألفاظ الصوفية، ص182.

كلمات من هذا الجنس، والثاني أن ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوي، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع وفيه البطالة من الأعمال.[1]

وعليه فكان صريح الأفكار على تصوف أصحاب الشطح لما له من ضرر على سلوك الطريق وعده من جنس الترهات والطامات، ثم يستطرد معقبا إنما يكون السلوك القويم للطريق من الجمع بين العلم والعمل والحفاظ على قانون الشريعة ولا ينبغي أن يتعارض الكشف والإلهام مع أصول الشريعة من كتاب وسنة وحجته في ذلك قوله:[2] « إذ ربما يسبق لسان الصوفي من أصحاب الشطح في هذه الهشة فيقول:" أنا الحق" فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به ووقف عليه وهلك.».

واستنكر كذلك القول بالاتحاد في صورة عقلية مصبوغة بالصبغة الفلسفية فقال: « الاتحاد أظهر بطلانا لأن قول القائل أن العبد صار هو الرب كلام متناقض في نفسه، بل ينبغي أن يتنزه الرب سبحانه وتعالى عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحاولات»، ويستفيض الغزالي في برهانه لاستحالة وقوع الاتحاد فيقول: «إن قول القائل إن شيئا صار شيئا آخر محال على الإطلاق لأنا نقول إن عقل زيدا صار عمرا أو اتحد به وعليه فالاتحاد بين الشيئين مطلقا محال...».[3]

وليس الموقف من الحلول بأقل من موقفه من الاتحاد وفيه يقول: [4]« إن كل ما قوامه بنفسه يستحيل أن يحل فيما قوامه بنفسه إلا بطريق المجاورة الواقعة بين الأجسام، فلا يتصور الحلول بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب...»، ومعنى قوله هذا أن

1- إحياء علوم الدين، جـ4، ص220.

2- المصدر نفسه، ص221.

3- الغزالي: المقصد الأسنى في شرح صفات الله الحسنى، تحقيق فضله شحادة، (د.ط)، دار المشرق، بيروت، 1971، ص97.

4- المصدر نفسه، ص99.

كل من كان مستقلا في ذاته موصوفا بالجود لا يجوز عليه الاتحاد نظرا لاختلاف الذوات –موجود ناقص وآخر منزه–.

ويتضح من هذا كله أن تصوفه كان قريبا من الإعتدال والذي أوعزه رينولد نيلكسون إلى نقطتين جوهرتين، الأولى تقديسه للشرع والثانية وجهة نظره في الألوهية، فإنه أوصد الباب في وجه مذهب وحدة الوجود وقال بقول أهل السنة: أن الله تعالى ذات واحدة مخالفة للحوادث وأنه بمقدار ما يتحقق في النفس الإنسانية من صفات الكمال الإلهية يكون استعدادها لمعرفة الله وأن العبد عبد والرب رب ولن يصير أحدهما الآخر البتة– ويقصد الحلاج–[1]

وهكذا فقد رفض الغزالي الاتحاد والحلول في العقيدة الإسلامية وعدهما من جنس الوهم عند الصوفية، ثم بين أن الفرق بين اتحاد النصارى واتحاد الصوفية أن الأول عقيدة والثاني حالة تحدث في الفناء[2]، ولم تتوقف مأخذه عند هذا الحد بل خالف متصوفة عصره في مسألة إفناء الجسد والزهد في الدنيا وما فيها وأعطى للسعادة الدنيوية بمقدار ما يوصل إلى السعادة الأخروية وفي هذا يقول: «إن السعادة الدنيوية لا يمكن تحقيقها إلا بالرجوع إلى درجة الإعتدال وهي القاعدة الذهبية...»[3]، كما يؤمن باختلاف القوي والملاكات والاستعدادات، وبأسلوب التدرج في ترويض النفس وتهذيبها بكافة الوسائل بعيدا عن وسائل تعذيب الجسد.[4]

ثم يستطرد فيقول: لقد خص الإسلام الإنسان بتصور شامل متكامل يتضمن التأكيد على التوازن والتكامل بين الجسد والروح والعقل، فلا يبخس حق الجسد على حساب حق

1– في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص84.

2– الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ3، ص 407.

3– الغزالي: أيها الولد، تحقيق محمد علي كاظم،(د.ط)، مطبعة العاني، بغداد، 1988، ص76.

4– الغزالي: تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، طـ4، دار المعارف، مصر، 1966، ص22.

الروح ولا يبخس حق الروح ليوفي حق الجسد[1]، ولذلك فالتربية عنده شاملة متوازنة متكاملة بين الجوانب المادية والروحية سيرا بالقاعدة الذهبية لا إفراط ولا تفريط.

كما رغب في العمل وطلب الرزق حين دعا إلى التصوف والزهد والتوكل ولم يدعو إلى إهمال شؤون الدنيا من زراعة وصناعة وطب وغيرها، بل نراه يعتبر ذلك من الفروض الكفائية على الأمة في مجموعها، فإذا لم يتوفر فيها العدد الكافي لتلبية حاجاتها من العلوم والصناعات فهي آثمة، ومما ذكر في هذا السياق في كتاب الإحياء قوله:[2] «...أما فرض كفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان...، والصناعات أيضا فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والحجامة، فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم...، والذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله فلا يجوز التعرض إلى الهلاك بإهماله»، فيبدو واضح من كلامه أنه أنكر على المشتغلين بالزهد في عصره وإهمالهم لبعض فروض الكفايات التي لا تقوم مصالح الأمة إلا بها مثل الطب وفيه قال: فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه. [3]

ورغم جهوده الكثيرة والمحمودة في الدعوة والإصلاح إلا أن البعض أخذ عليه عدم مشاركته في قتال الصليبيين وخلوا كتاباته من الدعوة لمحاربتهم والتحريض على قتالهم، حيث يقول زكي مبارك:[4]«بينما كان بطرس الناسك يقضي ليله ونهاره في إعداد الخطب وتحبير الرسائل لحث أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين كان الغزالي غارقا في خلوته منكبا على أوراده لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة للجهاد.»، وقد أرجع عمر فروخ أن سبب سكوته إلى مرضه بعد أن استبد به القلق النفسي والذي أدى به إلى أزمة

1- الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ 4، ص 3-4.

2- المصدر نفسه، جـ1، ص16 .

3- المصدر نفسه، جـ1،ص21.

4- الاخلاق عند الغزالي، (د.طـ)، دار الكتاب العربي، القاهرة، (د.ت)، ص17.

عنيفة[1]، والتي وصفها الغزالي وصفا شيقا في كتابه المنقذ من الظلال حيث قال:[2]«ولما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له...».

ولعل عذر الامام الجليل في تركه الجهاد وعدم الدعوة له يعود إلى العصر الذي عاش فيه والذي كان عصر ضياع وتشرذم واختلاف المذاهب والآراء، فأراد أن يأخذ على عاتقه عبء النهضة والاصلاح بعد أن أدرك أن الصليبيين ما تجرؤوا على غزو بلاد الشام إلا بعد أن تأكدوا من ضعف الخلافة الإسلامية وذهاب هيبتها، فالدعوة إلى الجهاد العسكري وندب العامة في أمة متوفاة ستكون بمثابة استنفار الاموات الذين في القبور، وعليه فقد آثر إحياء رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتطهير المجتمع من الأمراض التي كانت تفترسه من الداخل، فألف موسوعته المسماة "إحياء علوم الدين" الذي تناول فيها جميع الأمراض النفسية والاجتماعية المنتشرة في عصره، فبدأ بإصلاح نفسه ثم انتقل إلى إصلاح نفوس أصحابه وأتباعه وتلاميذه الذين أخذوا في تطبيق هذا المنهج الذي كان ثماره جيل نور الدين وصلاح الدين.[3]

وبناء على ما سبق يمكن القول أن من عرف كيف كان التصوف قبل الغزالي ثم كيف صار بعده عرف فضل الرجل على التصوف وأهله وما ترك فيه من أثر واضح، فالغزالي فيلسوف صوفي مجدد هدف إلى بعث الروح الإسلامية وإيقاد الفكر والدعوة إلى حقائقه وأخلاقه بعيدا عن التقليد والتبعية، وكان هدفه ربط هذه الأمة بالسلف الصالح وبمصدر ثقافتها القرآن والسنة الشريفة لكي تنتصر على نفسها ثم على أعدائها.

1- التصوف في الّإسلام، ص9.

2- المنقذ من الضلال، طـــ1، دار الفكر، بيروت، 2003، ص32 .

3- الغزالي: إحياء علوم الدين، جـــ3، ص4-5، ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص131.

الأمر الذي جعل منه قدوة لأعداد كبيرة من فقهاء عصره من حيث اقتفاؤهم أثره في التفقه ثم التصوف على غرار الإمام أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي(ت507هـ/1113م) صاحب كتاب صفوة التصوف [1]، والإمام أبو بكر الطرطوشي (ت503هـ/1135م) الذي ألف كتاب في التصوف سماه الزهد والتصوف[2]، حتى صار ذلك تيار ملحوظ في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وتكفينا شاهدة وول ديورنت فيه بقوله :[3]«ظهور أبي حامد الغزالي أعظم علماء المسلمين الذي جمع بين الفلسفة والدين فكان بذلك عند المسلمين كما كان أوغسطين عند الأوربيين.».

1- حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ2، ص1079.

2- الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 19، ص494.

3- قصة الحضارة ، ج13، ص362.

المطلب الثاني: المدرسة القادرية ودورها في إحياء التصوف السني.

الطريقة القادرية سميت بذلك لانتسابها إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني[1] (ت 561هـ/1165م) الذي يعتبر المؤسس الأول لها، ورغم تقدم ظهور التصوف في الأمة منذ وقت مبكر إلا أنه لم يظهر بشكل منظم تحت طريقة إلا في عهد الشيخ عبد القادر الجيلاني،[2] وقد عده سبط ابن الجوزي الحنفي[3]:«نموذج التقوى والكرامات العلية.»، ووصفه الذهبي الشافعي[4]:« أنه قدوة العارفين صاحب المقامات والكرامات.»، وعند ابن تيمية:[5] «من أعظم الناس لزوما للأمر والنهي...».

وعليه فقد تحصل له القبول والمكانة العالية لدى علماء المسلمين ومؤرخهم وعامة الناس باختلاف مذاهبهم وفي ذلك يقول ابن رجب[6]:«حصل له القبول التام من الناس واعتقدوا ديانته وصلاحه وانتفعوا به وبكلامه ووعظه وانتصر وأهل السنة بظهوره واشتهرت أحواله وكراماته وهابه الملوك....»، ويذكر أيضا عن الشيخ الموفق بن قدامة المقدسي قوله « لم أسمع عن أحد يحكي عنه ، ولا رأيت أحد يعظم الدين من أجل الدين أكثر منه...».[7]

ووقف الإمام عبد القادر الجيلاني على أمراض عصره واعتمد على المنطق نفسه الذي اعتمده الغزالي، وهو اعتبار الأسباب الأساسية لفساد المجتمع وانحراف العقائد سببه فساد العلماء والصوفية، ومن ثمة فقد أعطى عناية خاصة لإصلاح التصوف

1- هو عبد القادر ابن أبي صالح موسى جنكي دوست بن عبد الله بن يحي الزاهد، يتصل نسبه بالحسن بن علي بن أبي طالب طالب ولد سنة 470هـ/1077م في جيلان-وراء طبرستان جنوب بحر قزوين- ويقال لها أيضا كيلان، الذهبي: العبر، جـ 3، ص 36، ابن الجوزي: المنتظم، جـ3، ص219، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ2، ص 201.

2- ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، جـ1، ص 298.

3- مرآة الزمان، جـ8، ص 264.

4- العبر، جـ4، ص185.

5- مجموع الفتاوى، جـ8، ص 369.

6- الذيل على طبقات الحنابلة، جـ 1، ص 290.

7- ابن العماد: شذرات الذهب، جـ6، ص332، الذهبي: العبر، جـ3، ص36 .

وإعادته إلى مفهوم الزهد ثم توظيفه لأداء دوره في خدمة الإسلام وإصلاح المجتمع وفي ذلك قوله:« التصوف هو الصدق مع الحق وحسن الخلق مع الخلق.»[1]، وهذا يعنى أن التصوف ينظم العلاقتين بين العبد وبين ربه بالصدق في العبودية وبين العبد وبقية الناس بالمعاملة الحسنة والخلق القويم.

ومن جهوده في هذا الميدان أن عمل على إيجاد تألف بين الفرق الصوفية فعقد لذلك أول اجتماع في رباطه بالحلة حضره نحو خمسين شيخا، ثم تاله اجتماع ثاني خلال موسم الحج 546هـ/1151م أين التقى بمختلف شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي على غرار الإمام ابن مرزوق القرشي[2] (ت564هـ/1169) الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر، والإمام أبي مدين شعيب [3] (ت590هـ/1193م) والذي يعود له الفضل في نشر الطريقة القادرية في بلاد المغرب[4]، المغرب[4]، وفي الوقت نفسه جرت اتصالات بين الإمام عبد القادر الجيلاني والإمام رسلان الدمشقي[5] الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في بلاد الشام.[6]

1- الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق، وضع حواشيه أبو عبد الرحمن صلاح ابن محمد بن عويضة، طـ1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، جـ2، ص 272.

2- هو الشيخ أبو عمرو عثمان بن مرزوق القرشي من أكابر مشايخ مصر المشهورين، صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الفاخرة والأفعال الخارقة، انتهت إليه تربية المريدين الصادقين توفي بمصر ودفن بقرب قبر الإمام الشافعي، الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ2، ص 267، 269.

3- هو أبو مدين شعيب بن حسين الأندلسي نشأ في منطقة إشبيلة ودرس فيها المذهب المالكي، ثم سلك طريق الزهد واستقر به الطواف في مدين بتلمسان وبدأ في الّإرشاد والتدريس وتخرج على يديه الكثير من شيوخ المغرب وزهادها، التادقي: قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر، (د.ط) ، دار الباز، فلوريدا، الو.م.أ،1998، ص 108-109 .

4- ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، جـ1، ص 306، ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص ص 245.

5- هو أرسلان الدمشقي من أكابر مشايخ الشام له أحوال معروفة ومكاشفات مشهورة توفي عام 699هـ/1299م، ابن ابن العماد شذرات الذهب، جـ7، ص 782..

6- الشطنوفي: بهجة الأسرار في معدن الأنوار في مناقب الباز الأشهب الشيخ عبد القادر الجيلاني، تحقيق جمال الدين الدين فالح الكيلاني، طـ3، المنظمة المغربية للتربية والثقافة، فاس، 2013، ص 107، ماجد عرسان: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص 245.

ومن أثار هذه الاجتماعات أن صارت المدارس والرباطات المختلفة ترسل إلى المدرسة القادرية النابهين من طلابها والمتقدمين من مريديها الذين ترى فيهم مؤهلات المشيخة في المستقبل، مثل ما فعل الإمام أبي مدين شعيب المغربي الذي أرسل أحد مريديه- صالح بن ويرجان الزركالي- إلى بغداد حيث أكمل علوم الفقه وسلوك الزهد على يد الإمام عبد القادر الجيلاني.[1]

وعليه فقد رسم الجيلاني منهجا متكاملا للتصوف يجمع بين العلم الشرعي المؤسس على كتاب الله وسنة رسوله (ص) وبين التطبيق العملي، ويخفف من حدة الصراع الذي كان قائم بين الفقهاء الذين أكثروا في العلوم الشرعية على حساب السلوك وأعمال القلوب، ورجال الصوفية الذين بالغوا في الاهتمام بالروحانيات وأعمال القلوب وأهملوا إلى حد كبير العلم الشرعي[2] ، وبالتالي تم بفضله إحكام الربط بين تعليم الفقه وسلوك الزهد وصار يسمون ذلك تكامل الشريعة بالطريقة.[3]

ويذهب الإمام الجيلاني في مفهومه للتصوف إلى أبعد من ذلك عندما خالف تصوف معاصره وأكد على عدم الاهتمام بالشكل والمظهر وإهمال الباطن والجوهر فقال:« يامن قد لبس الصوف ألبس الصوف لسرك ثم لقلبك ثم لنفسك ثم لبدنك بداية الزهد من هنا تكون لا من الظاهر إلى الباطن، إذا صفا السر تعدى الصفاء إلى القلب والنفس والجوارح والمأكول والملبوس وتعدى إلى جميع أحوالك.».[4]

وكذلك قوله:«التصوف الصحيح صفاء وصدق لا يتحققان بتغير الخرق وتصفير الوجوه ولقلقة اللسان وحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا وإحراج الخلق من القلب وتجردهما

1- المصدر السابق، ص 107.

2- التادفي: قلائد الجواهر، ص 112.

3- ماجد عرسان: المرجع السابق، ص 219.

4- الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، طـــ1، منشورات الجمل، بغداد، 2007، ص87.

عما سوى مولاه عز وجل.»،[1] كما انتقد ما شاع من بعض الصوفية من سماع الألحان والرقص وبدع لا تتفق مع الكتاب والسنة، وقرر أن المريد الصادق لايهجيه كلام غير كلام الله وهو في غنى عن الأشعار والقيان والأصوات وصراخ المدعين واتباع كل ناعق وزاعق.».[2]

كما كان يعيب عليهم تقربهم من السلاطين وطمعهم بما في أيدي الحكام وفي ذلك يقول:« يا خونة في العلم والعمل، يأعداء الله ورسوله يا قاطعي عبادة الله عز وجل، أنتم في ظلم ظاهر ونفاق ظاهر هذا النفاق إلى متى؟ يا علماء يا زهاد كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها؟ أنتم وأكثر املوك في هذا الزمان ظلمة خونة في مال الله عز وجل وفي عباده، اللهم اكسر شوكة المنافقين واقمع الظالمين وطهر الأرض منهم أو أصلحهم آمين.».[3]

ويبدو أن الشيخ عبد القادر الجيلاني حينما يتحدث عن البدع ويحذر منها فإنما يعني البدع الاعتقادية ومن ذلك يقول:« فعلى المؤمن إتباع السنة والجماعة، فالسنة ما سنه رسول الله (ص) والجماعة ما اتفق عليه أصحاب رسول (ص) ...».[4]، بل يصر في موضع آخر على ضرورة معاداة أهل البدع وعدم مخالطتهم بقوله:« ألا يكاثر أهل البدع ولا يدانيهم ولا يسلم عليهم، ولا يجالسهم ولا يقرب منهم ولا يصلى عليهم إذا ماتوا ولا يترحم عليهم إذا ذكروا...».[5]

ويرى أن مدار سعادة الإنسان في الدارين وفوزه وفلاحه في الحياتين يعتمد على مدى اعتصامه بكتاب الله وسنة رسوله (ص) لأنهما النوران اللذين يضيئان للإنسان

1- الجيلاني: الفتح الرباني، ص90.
2- الجيلاني: الغنية، جـ2، ص146.
3- الجيلاني: الفتح الرباني ، ص173.
4- الجيلاني: الغنية، جـ1، ص164.
5- المصدر نفسه، جـ1، ص1665.

طريقه ويقرر ذلك في وصية لولده عبد الرزاق:« أدخل الظلمة بالمصباح وهو كتاب الله وسنة رسوله (ص) فإذا خطر خاطر[1] أوجد إلهام[2] فأعرضه على الكتاب والسنة فإن وجدت فيهما تحريم ذلك مثل أن تلهم الزنا والرياء ومخالطة أهل الفسق والفجور وغير ذلك من المعاصي فأدفعه عنك وأهجره ولا تقبله ولا تعمل به واقطع بأنه من الشيطان اللعين.».[3]

وبذلك أبطل ما شاع عند المتصوفة من أن الكشف والإلهام والخاطر يمكن التعبد به أو تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم بموجبه كما يدعي ذلك ابن عربي بقوله: [4]«وأعلم أن جميع ما أكتبه من تأليفي ليس هو من رؤية فكر وإنما هو عن نفث في روعي على يد ملك الإلهام.».

كما استطاع أن يحرر طريقته من الأفكار والفسفات التي كانت سائدة في عصره نتيجة ترجمة المعارف اليونانية، والتي تأثر بها كثير من المتصوفة واستخدموا ألفاظها ومصطلحاتها مثل الهيولي[5] والعرض[6] الجوهر[7] وتركيزه على الجوانب العملية ودليل ودليل ذلك ما ربي عليه أتباعه وما وضعه من أصول لطريقته التي خصها بسبعة

1- الخاطر: ما يرد على القلب من الخطاب وهو أربعة إقسام: رباني وهو أول الخواطر ولا يخطئ أبدا، وملكي: وهو الباعث على مندوب أو مفروض، ونفساني: وهو مافيه خط النفس ويسمى هاجسا، وشيطاني: وهو مايدعو إلى مخالفة الحق، الجرجاني: التعريفات، ص 129.

2- الإلهام: ما وقع في القلب من علم وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة، وهو ليس بحجة عند الفقهاء إلا عند الصوفين، المصدر نفسه، ص51 .

3- الجيلاني: فتح الغيوب، تحقيق جمال الدين فالح الكيلاني، طـــ1، مركز الاعلام العالمي، دكا، بنغلادش، 2014، ص21.

4- الفتوحات المكية، ج1، ص108.

5- الهيولي: لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة، وهو جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الحسم من الاتصال والانفصال، الجرجاني: التعريفات، ص 321.

6-.العرض: الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى موضع أي محل يقوم به كاللون الذي يحتاج في وجوده إلى جسم يحل يحل به ويقوم به، المصدر نفسه، ص 192.

7- الجوهر: ماهية مختصرة في خمسة أشياء: هيولي وصورة وجسم ونفس وعقل، الجرجاني: التعريفات، ص108.

أصول:« المجاهدة، التوكل، حسن الخلق، الشكر، الصدق، الرضا، الصبر.»[1]، ونهى الطلاب عن الدراسة عن هذا النمط من العلماء فقال:« يا غلام لا تغتر بهؤلاء العلماء الجهال بالله عز وجل، كل علمهم عليهم لا لهم، هم علماء بحكم الله عز وجل جهال بالله عز وجل، وهم يفرون منه ويبارزونه بمعاصيهم وزلاتهم، أسماؤهم عندي مؤرخة مكتوبة معدودة.»[2]

كما حذر العوام من حضور مواعظهم والاستماع إلى أحاديثهم فقال:« يا عباد الله!... لا تسمعوا من هؤلاء الذين يذلون للملوك ويصيرون بين أيديهم كالذر، لا يأمرونهم بأمره ولا ينهونهم عن نهيه، إن فعلوا ذلك فعلوه نفاقا وتكلفا، طهر الله الأرض منهم ومن كل منافق أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه...، أني أغار إذا سمعت واحد يقول: الله الله وهو يرى غيره.»[3]

فواضح من كلامه أنه وقف على حقيقة مرض الأمة في عصره والذي رده إلى ضعف الوازع الديني لمثل هؤلاء المتصوفة بتزلفهم الحكام وانحرافهم عن الشرع، وعليه فقد كانت دعوته صريحة إلى العوام والخواص – المريدين– بعدم التعلم على أيديهم أو اللجوء إليهم وطلب العون منهم في فضاء الحوائج، كما ألح على ضرورة مجانبة الشرك، حيث أنزل البدعة في خطورتها منزلة الشرك بقوله:« اتبعوا ولا تبتدعوا وأطيعوا ولا تمرقوا ووحدوا ولا تشركوا.». [4]

ومن جهوده في إضعاف سلطة المبتدعة من المتصوفة وتحجيم دورهم بين العوام دعوته إلى التوكل على الله عز وجل وتبين حقيقته بقوله:« التوكل هو الخروج من الحول

1– الجيلاني: الغنية، جـــ2، ص182.

2–الجيلاني: الفتح الرباني، ص 242.

3– المصدر نفسه، ص245.

4– الجيلاني: فتوح الغيب، ص26.

والقوة مع السكون إلى رب الأرباب »[1]، ويعنى بذلك عدم الاعتماد على حول الانسان وقوته وإمكاناته، وإنما يعتمد ويسكن إلى ربه تبارك وتعالى مع اعطاء الأسباب حقها وعدم تجاهلها وفي ذلك قوله:« اعط السبب حقه وتوكل واقعد على باب العمل.».[2]

ولكي تتم عملية التربية السلوكية الصوفية بنجاح أوجب الشيخ عبد القادر الجيلاني آدابا خاصة للشيخ وآخر للمريد، ومن الآداب التي يجب على الشيخ مراعاتها أثناء تعامله مع المريد يذكر:

– أن يقبله لله تعالى ويتعهده بالنصيحة والرفق واللين فيكون معه كأبيه وأمه شفقة ورحمة ولا يخمله مالا يطيق، بل يتدرج معه حتى ينقله من موافقة الطبع إلى أوامر الشرع ومن الرخص إلى العزائم.

– أن يثبته على الطريق ولا يعمل ما من شأنه التنفير لأن القصد هو الله وما كان لله دام.

– أن يحرص على تلقينه مبادئ الخير ويتجنب الفاحش من القول والخلق، لأنه محل القدوة والرحمة يرعى مصالحه وكل مشاكله ويحمل عنه عبئه.

– عليه أن يحفظ سر المريدين فلا يطلع غيره على ما يحصل له من الإشراق على أحواله لأنه أمانة عنده.

– إذا علم منه صدق المجاهدة فلا يتهاون معه بل يلزمه بأوامر الله ويزجره عن نواهيه ابتغاء مرضاته سبحانه دون النظر إلى عائد.[3]

أما المريد فقد ألزمه هو الآخر آدابا اتجاه شيخه حتى يصر مثاليا فقال:

1– الشطنوفي: بهجة الأسرار، ص122.

2– الجيلاني: الفتح الرباني، ص167.

3– الجيلاني: الغنية، جـ2، ص284–285.

– طاعته وعدم مخالفته في الظاهر والاعتراض عليه في الباطن، وإذا ظهر من شيخه ما يكرهه في الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة.

– أن يلتزم بالآداب أمام شيخه وأن يتخير أفضل الأساليب عند التخاطب معه وأن يفعل معه ما يسره.

– الإيثار وتقديم أقرانه عند الشيخ وفي مجالس العلم وعند العلماء وأصحاب الفضل فيجوع هو ويشبع الباقون ويرضى بالذل لعز الجماعة وكرامتهم.

– الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس ويكون على عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالح.[1]

ويتحصل لنا مما سبق أن التربية السلوكية مسؤولية مشتركة تتم من طرفين هما الشيخ والمريد، وإن عد الإمام الشيخ حجر الزاوية في التربية السلوكية فإنه في الوقت نفسه رسم للمريد ضوابط وواجبات إن التزم بها كانت كفيلة بطبعه على الاستقامة وكريم الأخلاق ونبل الصفات، وعليه فقد أثمرت جهود الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني وتلامذته من بعده في النهوض بالتصوف السني وتنقيته مما طرأ عليه من انحرافات في الفكر والممارسة ورده إلى طبيعته الأصلية كمدرسة تربوية هدفها الأساسي غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح الذي يدعو إلى التعمير والأخذ بأسباب الحياة وإعداد المريدين القادرين على حمل رسالة الدعوة والجهاد، ويمثل كتاباه "الغنية" و"فتوح الغيب" خلاصة أفكاره في هذا المجال، وقد تناول ابن تيمية الكتاب الثاني بالشرح والتعليق وقدمه كنموذج للزهد الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة.[2]

1– الجيلاني: الغنية، جـ2، ص 282–283.

2– مجموع الفتاوي، جـ10، ص 488.

المطلب الثالث: دعم السلاطين للتصوف السني والاستقواء برجاله.

حرص سلاطين الدولة الزنكية والأيوبية على تقوية المؤسسات الدينية ولاسيما الصوفية منها، وذلك بتشجيع علماء الصوفية وتقريبهم في مجالسهم والإغداق عليهم من الأموال والنعم والإكثار من إنشاء الربط والزوايا، لاتخاذهم سندا ومعينا لهم في مواجهة التحديات التي تحابه العالم الإسلامي داخليا: بنصرة المذهب السني وتقويض التيار الباطني الشيعي الهدام، وخارجيا: صد الحملات الصليبية التي مثلت تحديا كبيرا للمسلمين وتهديدا للإسلام. [1]

فكان نور الدين زنكي(ت565هـ/1173م) شديد الميل للصوفية ويظهر حبهم ويواخيهم ويتباسط معهم ويقبل على حديثهم ولا يرد لهم قولا[2]، ومن أمثلة ذلك أن جعل عمر الملا الصوفي من أخلص محبيه وكان يستشريه ويكاتبه ومرجعا رسميا في بلاد الموصل وأمر الولاة والأمراء بأن لا يفصلوا في أمرا حتى يعلم الملا به. [3]

ولشدة اعتقاد نور الدين بهذا الشيخ كان في رمضان يترك طعام الإمارة ويطلب منه شيئا يفطر عليه[4]، كما فوض إليه عمارة أكبر جوامع الموصل وعندما قيل له: أن هذا الشيخ لا يصلح لهذا النوع من العمل فقال: ‹‹... غلب على ضني أن هذا الشيخ لا يظلم وإذا ظلم كان الإثم عليه لا علي››[5]، وحرصه كذلك على زيارة الزاهد حياة بن

1- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ1، ص283، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ7، ص167.

2- ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص38، ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص57.

3- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ12، ص282.

4- أبو شامة: الروضتين، جـ1، ص116

5- ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية، ص35-36 ابن الأثير: الباهر، ص170.

قيس الحراني[1] (ت581هـ/1185م) في رباطه كلما فترت عزيمته ووهنت إرادته على جهاد الفرنج،[2] ولم يكن يقتصر تعظيمه للأحياء من شيوخ الصوفية بل وللأموات منهم أيضا فقد خرج سنة 565هـ/1169م إلى داريا وتبرك بضريح أبي سليمان الداراني(ت205هـ/820م) وعمر مشهده[3].

فضلا عن مساهمته في إقامة الأربطة وبناء الزوايا وترميم ما هو قائم منها، فقد بنى مدرسة للصوفية في حران وأسلمها إلى أسعد بن المنجا بن بركات (ت606هـ/1209م) والذي درس على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني، وأخرى سلمها إلى حامد بن محمود(ت570هـ/1174م)، أما ابن جبير فيذكر عنه[4]:«أنه أوقف زاويتين بالمسجد الجامع الكبير بحلب لفقهاء الحنابلة والمالكية...وزاوية أخرى لتدريس الحديث.»، واضح من كلام ابن جبير أنه لم يكن متعصبا لمذهب دون آخر فبرغم من كونه شافعيا إلا أنه لم يبخل عن المالكية والحنابلة بالعطاء والرعاية إدراكا منه للأهمية الاستفادة من المذاهب السنية جميعها في نشر المذهب السني، وقد شهد له أبو شامة بذلك فقال[5]: «راع نور الدين زنكي التصوف وحارب التشيع حتى أصبحت بلد الشام في زمنه مقرا للصوفية لعظم رعايته لها».

ثم تبعه وزراءه في ذلك حيث يروي عن الوزير الفضل بن عبد الله السهرزوري أنه أوقف أوقفا كثيرة منها مدرسة بالموصل وآخر بنصبين ورباطا في المدينة المنورة،

1- هو الشيخ الكبير الزاهد العابد حياة بن قيس بن رحال بن سلطان الأنصاري الحراني، من عظماء العارفين وأعيان المحققين صاحب الكرامات والمقامات، الشعراني: الطبقات الكبرى، جـ1، ص272.

2- الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج21، ص181.

3- ابن رجب: طبقات الحنابلة، جـ2، ص49.

4- رحلة ابن جبير، ص257.

5- الروضتين،جـ1،ص78.

وأوقف أوقفا في قرية الهامة[1] على المقادسة الذين نزحوا من وجه الاحتلال الصليبي.[2]

وقد عاتبه يوما بعض جلسائه على ذلك وطالبوه بالتقسط وعدم الإكثار في الإنفاق على الصوفية قائلين له: إن لك في بلادك وقوفا كثيرة على القراء والفقهاء... فلو استعنت بها لكان أصلح، فغضب من ذلك وقال: ‹‹ والله إنني لا أرجوا النصر إلا بدعاء أولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعافكم، كيف أقطع صلات يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ؟ وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال... ››.[3]

وعليه فقد تنبه نور الدين زنكي إلى عظم دور المؤسسة الصوفية في التثقيف الديني وشحذ همم الناس واستثارتهم للجهاد وأن دورها لا يقل عن دور المؤسسة العسكرية في شيء، فلم يبخل عليها بالرعاية والدعم المادي والمعنوي، حيث يذكر السبكي[4]:‹‹ أنه كان كثير التبرع والهبات ولا تقل هبته في المرة الواحدة عن ألف دينار فما فوقها››، ومثال على هذه العطايا: أمره بعشرة آلاف درهم لبناء رباط للشيخ أبي البيان القرشي الشافعي الزاهد (ت551هـ/1156م)، [5] كما حرص على تدريس كتاب الإحياء للجيش في معسكراته وهو من أشهر كتب التصوف.[6]

وسار الأيوبيون على نهج الزنكيين في علاقاتهم بالصوفية، فبنى نجم الدين يوسف أيوب (ت 569هـ/1173م) والد صلاح الدين خانقاه[7] في دمشق يعرف بالنجمية[1]،

1- الهامة: واحة الهام موضع بتيه مصر وهي كورة واسعة فيها جبل ألاق، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ5، ص389.

2- السبكي: طبقات الشافعية، جـ 6، ص119.

3- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ1، ص136.

4- طبقات الشافعية، جـ 6، ص117.

5- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ12، ص235.

6- الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 20، ص533.

7- خانقاه: جمع خوانق كلمة فارسية معناها: البيت أو دار الصوفية وهو شعب ضيق يختلي فيه الصوفية للعبادة والدراسة، الزبيدي: تاج العروس، جـ13، ص130، المقريزي: الخطط، جـ2، ص414.

وكذلك فعل الأمير المجاهد قيمار نائب قعلة الموصل جامعا كبيرا ورباطا[2]، أما صلاح الدين فلم يجد أنجح من توثيق علاقاته برجال الصوفية لإنجاح مشروعه الجهادي ضد الصليبين، فكان يكرمهم ويقربهم ويحضرهم عنده كل ليلة جمعة ويعمل لهم السماع[3] ويدلنا في ذلك كلام ابن الأثير: [4]‹‹ كان عنده الفقراء والصوفية ويعمل لهم السماع، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له، فلا يقعد حتى يفرغ الفقير.››.

ويفصل ابن شداد في هذا السياق ويقول:[5] ‹‹ وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العمل والفضل، وكان يوصينا بألا نغفل عما يجتاز الخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه››، ثم يستطرد مستشهدا بحادثة قد وقف عليها: ‹‹ولقد مر بنا سنة 584هـ/1188م رجل جمع بين العلم والتصوف، حج ووصل زائرا لبيت المقدس ورأى آثار السلطان فما أحسست به إلا وقد دخل علي الخيمة فلقيته ورحبت به وسألته عن سبب وصوله فأخبرني أنه يوثر زيارة السلطان...››.

كما كان صلاح الدين يحرص على إقامة الأربطة والخوانق أينما حل ونزل فيذكر أنه عندما استرد بيت المقدس سنة 583هـ/1187م أمر المسلمين بالمحافظة على كنيسة القيامة وبنى بالقرب منها مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطا للصلحاء الصوفية ووقف عليهما وقوفا[6]، والأمر نفسه عندما فتح عكا حيث أوقف نصف دار "الإسبتار" رباطا للصوفية ونصفها مدرسة للفقهاء. [7]

1- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 12، ص 772.

2- المصدر نفسه، جـ 12، ص296.

3-السماع: يرى أئمة الصوفية أن السماع استجمام من تعب وتنفيس لأرباب الأحوال واستحضار الأسرار وهو غالب ما يكون في مجالس الذكر الصوفية، حسن الشرقاوي: معجم ألفاظ الصوفية، ص 176.

4- الكامل، جـ10، ص 215.

5- النوادر السلطانية، ص20.

6- العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص 145.

7- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 12، ص 327.

فضلا عن إعادته الاعتبار لزوايا المسجد الأموي التي اشتهر منها الزاوية الشمالية الغربية المعروفة بالمدرسة الغزالية وولي أمر النظر فيها للشيخ قطب الدين النيسابوري[1] (ت578هـ/1182م) [2]، كما أقام زاوية للمالكية في الجانب الغربي من الجامع الأموي[3] الأموي[3] والتي اشتهرت بدور علمائها المؤثر في مناهضة الغزو الصليبي على غرار الشيخ جمال الدين بن الحاجب المالكي(ت 646هـ/1248م)[4]، ولم ينته به الأمر عند هذا هذا الحد بل كان إذا سمع بأحد العارفين بالله زاره في زاويته ليقتبس من أنواره ويتبرك بدعواته مثل ما كان يفعل مع الشيخ الخبوشاني[5] قبل الخروج إلى قتال أعدائه.[6]

كما كانت علاقة الملك الأمجد [7] صاحب بعلبك بالشيخ الصوفي عبد الله اليونيني (ت617هـ/1220م)، حيث كان الامجد يحرص على زيارته لسماع مواعظه على الرغم من شدتها وقساوتها وكان إذا دخل عليه في زاويته يجلس بين يديه فيقول له الشيخ اليونيني: ‹‹يا أمجد أنت تظلم وتفعل كذا وكذا ويأمره وينهاه عنه، وهو يمتثل لجميع ما يقوله له.››[8]

1- هو قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري شيخ الشافعية تفقه على يد أبيه ومحمد بن يحي تلميذ الغزالي، درس في الغزالية ثم انفصل إلى حلب ودرس بها، دفن بجور مقبرة الصوفية يوم العيد، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ 21، ص 107، 109.

2- النعيمي: الدارس، جـ1، ص 414.

3- ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص245.

4- أبو شامة: الذيل، ص 280.

5- هو نجم الدين محمد بن الموقف الخبوشاني الصوفي الزاهد الفقيه الشافعي كان صلاح الدين يعتقد فيه ويبالغ في احترامه، الذهبي: العبر جـ3، ص547.

6- ابن حلكان، وفيات الأعيان، جـ4، ص239.

7- هو الملك الأمجد أبو المظفر بهرام شاه صاحب بعلبك تملكها بعده والده كان جوادا كريما قتله مملوكه بدمشق عام 628هـ/1230م، الذهبي: العبر، جـ3، ص20.

8- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 13، ص 94، الذهبي: العبر، جـ3، ص173.

ويذكر كذلك عن الملك الأشرف موسى (ت 635هـ/1237م) ابن الملك العادل أنه كان يعظم الصوفية ويجلهم حتى أنه أوصى أن يكفن بعد وفاته في خرقة أحدهم [1]، أما الوزير نظام الملك(ت485هـ/1092م) فقد سئل يوما عن كثرة إنعامه على الصوفية فقال: ‹‹ أتاني صوفي وأنا في خدمة بعض الأمراء فوعظني وقال: اخدم من تنفعك خدمته ولا تشتغل بمن تأكله الكلاب غدا، فلم أفهم معنى قوله، فشرب ذلك الأمير من الغد إلى الليل وكانت له كلاب كالسباع تفترس الغرباء بالليل فغلبه السكر فخرج وحده فلم تعرفه الكلاب فمزقته، فعلمت أن الرجل كوشف بذلك فأنا أخدم الصوفية لعلي أظفر بمثل ذلك.››. [2]

وكان الوزير ينفق كل سنة على أرباب المدارس والرباطات الصوفية ثلاثمائة ألف دينار، [3] وقد أقر المقريزي حقيقة تنافس أهل الخير من الملوك والأمراء في إسكان الصوفية والإحسان لها بقوله: [4] ‹‹كان السلطان صلاح الدين يرتب للصوفية في كل يوم طعاما وخبزا.››، وبعده ابن بطوطة حين وصف بعض المراكز الصوفية بدمشق فقال: [5] [5] ‹‹وكل من انقطع بجهة من دمشق لابد وأن يأتي له وجه من المعاش من إمامة مسجد أو قراءة بمدرسة وخدمة مشهد من المشاهد المباركة ... ويجري لجملة الصوفية بالخوانق النفقة والكسوة››.

ويبدو واضح مما سبق أن السلطة الحاكمة كانت تخصص لكل نزيل في دور الصوفية حصة من الغذاء والكسوة، فتقاطر الناس على الأربطة والخوانق إلى أن صار

1- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 13، ص147.
2- ابن حلكان: وفيات الأعيان، جـ 2، ص128.
3- المصدر نفسه، جـ 5، ص287.
4- الخطط، جـ 2، ص415.
5- رحلة ابن بطوطة، ص122.

لبعض رجالها جيوش من المريدين، وقد عبر ابن جبير عن عظم هذه المكانة بقوله:[1] ‹‹أهل هذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لأنه قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خواطرهم لعباداته من الفكرة في أسباب المعاش وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنات فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة... ››.

ويستطرد ابن جبير واصفا إحدى بيوتهم فيقول:[2] ‹‹وهو صرح عظيم مستقل في الهواء في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقا منها، وهو من البلد بنصف ميل وله بستان عظيم يتصل به منتزها لأحد الملوك.››، وفي المقابل عملت هذه المراكز الصوفية في دمشق والعراق وحران على النهوض بالشعور الديني وحمل الناس على الجهاد وطاعة ولاة الأمر والاستجابة لدعواهم، ولاسيما أن حكام بلاد الشام كانوا بحاجة إلى مثل هذا الدعم الكبير أمام جعافل الصليبين المعتدين التي كانت جيوشهم كالجراد وأموالهم كالأمطار.

كما استخدم السلاطين شيوخ الصوفية كسفراء ورسل أمثال الملك المعظم عيسى (ت624هـ/1246م) الذي أوفد الشيخ الصوفي محمد بن أبي الفتح [3] إلى جلال الدين بن خوارزم شاه يستعينه على أخويه الكامل والأشرف الذين اتفقا ضده فأجابه إلى ذلك بالسمع والطاعة، ولما عاد الشيخ أضاف إليه الملك المعظم لقب مشيخة الشيوخ،[4] [5] الدور ذاته

1- رحلة ابن جبير، ص221.

2- المصدر نفسه، ص222.

3- هو صدر الدين أبو الحسن محمد بن أبي الفتح كان محتسبا لمدينة دمشق أمر بالمعروف ناهيا عن المنكر، وجهبذا بشؤون السياسة والاقتصاد توفي عام 630هـ/1232م، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ13، ص98.

4- مشيخة الشيوخ: هي أكبر المناصب الدينية والاجتماعية، ومشيخة الصوفية الاشراف على جميع الخوانق والزوايا والتحدث باسمهم، القلقشندي: صح الأعشى، جـ4، ص200.

5- أسعد الخطيب: البطولات والفداء عند الصوفية، تقديم عبد الكريم اليافي وآخرون، طـ5، دار لتقوى، دمشق، (د.ت)، ص116.

قام به شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم[1] الذي أرسله الخليفة العباسي إلى السلطان صلاح الدين ليصلح بينه وبين عز الدين[2] صاحب الموصل بسبب صراع الطرفين للسيطرة على بلاد الشام.[3]

ويتضح من هذا كله أن التصوف في هذه الفترة قد مثل اتجاها قويا له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستويين الرسمي والشعبي، ولعل الشيء الذي جعل المؤسسة الصوفية تنال هذا الرضا والقبول هو ابتعادها عن الصراعات المذهبية والسياسية التي عصفت ببلاد الشام وتوجههم نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ثمة فقد وجد سلاطين عصر الحروب الصليبية في لجوء الناس إلى الدين والتعمق فيه والمبالغة في الورع جزء من أعمال المقاومة وسبيلا من سبل تأصيل الجهاد وشحذ الهمم ونشر مذهبهم بين الناس، فعملوا على إخراج الزهد من عزلته التي كان فيها وجعله يسهم في مواجهة التحديات التي كانت تجابه العالم الإسلامي داخليا وخارجيا.

1- هو عبد الرحيم بن اسماعيل شيخ الشيوخ العالم الفاضل الورع كان رسولا بين الخليفة وصلاح البين توفي عام 580هـ/1184م، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ2، ص155.

2- هو عز الدين مسعود بن مورد بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل كان خيرا طموحا، توفي عام 589هـ/1193م، الذهبي: العبر، جـ3، ص99.

3- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ2، ص122.

المبحث الثالث

دور المؤسسات الصوفية في التنشأة والتعبئة الجهادية ضد الصليبيين.

المطلب الأول: الإعداد التربوي والروحي.

المطلب الثاني: الإعداد الاجتماعي.

المطلب الثالث: إمداد الجيوش بالمريدين.

المطلب الأول: الإعداد التربوي والروحي.

يعود نشأة الفكر التربوي عند الصوفية إلى القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي عن طريق الحارث المحاسبي (ت 243هـ/857م) الذي نادى بتطهير النفس وتزكيتها وتهذيب المناهج وإصلاح التعليم وقوانينه[1]، وتعني التربية الصوفية عند رجالها: إعداد المتعلم أو المريد حتى يصبح صفاء بلا كدر، ولا يتم هذا الإعداد إلا عن طريق معرفة الخالق ويصير النبي(ص) في قلبه ومشاعره ويكون قدوته ودليله، ولهذا وضعوا للمريد مقامات لا يرتقي من مقام إلى آخر إلا إذا بلغ درجة من الكمال في مقامه ويشهد له بذلك شيخه،[2] كما ترتكز عندهم على العمل الصالح وتقوي فيه الجانب الروحي حتى يقوى على كبح جماح شهواته وملذاته فيفسح المجال للفكر أن ينطلق عبر مجالاته التي رسمها الله له وبذلك يكون الصوفي قد أعد إعدادا سليما لمكانته الأساسية وهي الخلافة في الأرض.[3]

وفي غمرة الفساد الذي ضرب المجتمع الشامي والإحباط النفسي الذي نال من أفراده بعد سقوط بيت المقدس عام 492هـ/1099م انصرف جانب كبير من هذا المجتمع إلى الزهد والتصوف، وتكاثرت معه العمائر الصوفية من ربط وزوايا وخوانق بعد أن تنافس السلاطين ورجال الصوفية في إقامتها، حيث يذكر النعيمي وجود ست وعشرين زاوية في مدينة دمشق[4]، أما الخوانق فقد بلغ عددها على ما ذكر ابن شداد تسعة عشر خانقاه.[5]

1- ماجد عرسان الكيلاني: الفكر التربوي عند ابن تيمية، (د.ط)، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، 1985، ص35.

2- الجيلاني: الفتح الرباني، ص206.

3- عبد الحليم عبد الغني قاسم: المذاهب الصوفية ومدارسها، طـ 2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص 115.

4- الدارس، جـ2، ص153.

5- الأعلاق، جـ1، ق1، ص 191،194.

وضمت مدينة حلب تسعة عشر خانقاه في المحيط القريب منها، كما عرفت خوانق للنساء بلغ عددها سبعا أقيمت جميعها في العصرين الزنكي والأيوبي[1]، فضلا عن وجود أربع زوايا ثلاثة منها أوقفها الملك نور الدين زنكي في الجامع النوري وزاوية في الفردوس،[2] أما خانقاه الصلاحية الذي يقع غربي الحرم القدسي وكان من أهم خوانق القدس[3]، وكانت مشيخة هذا الخانقاه من الوظائف الرفيعة والمهمة إذ عد شيخها من أرباب الوظائف الدينية وكان يعين بمرسوم من السلطان.[4]

ويظهر مما سبق أن المؤسسات الصوفية انتشرت في مدن الشام عصر الحروب الصليبية بشكل متفاوت، حيث كانت الزوايا الأكثر انتشارا وتليها الأربطة ثم الخوانق، وقد شكلت هذه العمائر الصوفية بيوتا للمتصوفة ومدارس يلجأ إليها العلماء والرحالة وطلبة العلم من كل حدب وصوب، غير أن ما كان يلقن فيها لم يكن يستجيب لروح العصر ومتطلبات المرحلة، فنهض بعض رجالها لإصلاح مناهجها ونظامها التعليمي من أمثال أبو حامد الغزالي(ت 505هـ/1111م) الذي عني بصناعة التربية والتعليم ووضعها في مرتبة عالية حيث قال في كتابه "الإحياء"[5]: ‹‹أنها أشرف الصناعات بعد النبوة››، وجعل التعليم متلازما مع تربية النفوس وإصلاحها فقال:[6] ‹‹أن المراد بالتعليم إفادة العلم وتهذيب النفوس من الأخلاق المذمومة المهلكة وارشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة.››.

1- الأعلاق، جـ1، ق1، ص 93، 98.

2- النعيمي: الدارس، جـ2، ص126.

3- العليمي: الأنس الجليل، جـ2، ص240.

4- القلقشندي: صبح الأعشى، جـ12، ص105.

5- الإحياء، جـ1، ص13.

6- المصدر نفسه.

فقد وقف الإمام الغزالي على النظام التعليمي في عصره واعتبره فاسد الأهداف والغايات ولا يرتكز على خدمة أهداف الرسالة الإسلامية، وأوضح ما يجب أن تكون عليه المناهج التعليمية في رسالته المعنونة: أيها الولد[1] الذي ذكر فيها كل ما يحتاجه المعلم والمتعلم ومن أقواله في هذه الرسالة[2]:‹‹ العلم بلا عمل جنون والعمل بغير علم لا يكون، وأعلم أن علما لا يبعدك اليوم عن المعاصي ولا يحملك على الطاعة لن يبعد غدا عن نار جهنم...، وينبغي أن يكون قولك وفعلك موافقا للشرع إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة››.

ويبدو واضح من كلام الغزالي أن إدراك السعادة المنشودة من قبل المريد لن تتحقق إلا بتظافر العلم والعمل بحيث ينتج عن هذا التظافر تغير في السلوك، ثم يستطرد في هذا متسائلا وناصحا بقوله:[3] ‹‹ فإن قلت فكم طالب رديء الأخلاق حصل العلوم؟ فما أبعدك عن فهم العلم الحقيقي الديني الجالب للسعادة، فما يحصله صاحب الأخلاق الرديئة حديث ينظمه بلسانه مرة وبقلبه أخرى وكلام يردده ولو ظهر نور العلم في قلبه لحسنت أخلاقه››، ومن مواعظه كذلك قوله:[4] ‹‹لا تقبل شيئا من عطاء الأمراء وهداياهم وإن علمت أنها من الحلال لأن الطمع فيهم يفسد الدين، لأنه يتولد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة على ظلمهم وهذا كله فساد في الدين. ››.

كما تخطى في منهجه النظرة الرجعية الصوفية التي كانت تقتصر على تلقين العلوم الدينية والمذهبية دو غيرها، عندما تكاملت عنده العلوم الدينية كالفقه والتصوف بالعلوم

1- رسالة أيها الولد كتاب صغير كتبه الغزالي لأحد تلاميذه ناصحا له مخاطبا إياه بيا أيها الولد، ضمنه العديد من النصائح القيمة والمتنوعة في الزهد والترغيب والترهيب والعلم والتعلم والتربية، حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ1، ص 216.

2- أيها الولد، تح على محي الدين القرة، (د.ط)، دار الاعتصام، القاهرة، 1985، ص 14.

3- ميزان العمل، تح سليمان دنيا، طـ 1، دار المعارف، مصر، 1964، ص 126.

4- أيها الولد، ص 39.

الدنيوية كالحساب والطب والمهن التي نعتها بالعلوم المحمودة[1]، وبذلك يكون الغزالي قد أسهم بعرض تصوره الخاص عما يجب أن تكون عليه المناهج التعليمية في عصره والذي هدف من وراءها بناء عقيدة نقية حية تسهم في تهذيب المريد والارتقاء به إلى مستوى يكون فيه قادرا على مجاهدة نفسه وواقعه.

وقد طبق الغزالي هذه الآراء التربوية في مدرسته –الغزالية–[2] التي أنشأها واستقل بالتدريس بها هو وبعض أصحابه، وكان من آثار ذلك أن تخرج منها عدد كبير من المريدين حملوا رسالة الدعوة والتوجيه على غرار أبو الفتح أحمد بن علي بن برهان (ت 518هـ/1119م) الذي كان يدرس في المدرسة النظامية علوم شتى وكتاب الإحياء[3]، ومحمد بن يحي بن منصور الذي وصف أستاذه بقوله: ‹‹الغزالي هو الشافعي الثاني››[4]، أما شرف الدين الموصلي (ت 622هـ/1225م) فكان يلقي الإحياء دوما من حفظه.[5]

وكان من آثار مدرسة الغزالي أن تغيرت المناهج التعليمية في المؤسسات الصوفية الخاصة التي أضحت تجمع في تلقين مريدها بين علوم العقيدة والفقه والتربية السلوكية، وتظافرت جهود العاملين فيها على معالجة الأمراض الفكرية والنفسية التي استطالت عصر الحروب الصليبية، ومن أمثلة ذلك المدرسة القادرية التي كانت تخصص فصولا مطولة في تهذيب النفس وتزكيتها، مستوحاة من المنهج القادري التربوي الذي حدد بدقة الخصال الواجب على المريد أن يتحلى بها حتى يرتقي إلى المقامات العليا مثل:

1- الغزالي: إحياء علوم الدين، جـ1، ص 16.

2-الزاوية الغزالية: تقع في الجهة الشمالية الغربية من الجامع الأموي كانت تنسب إلى الشيخ المقدسي(ت 490هـ/1097م)، ثم نسبت إلى الشيخ الغزالي (ت 505هـ/1111م) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، جـ 1، ص 313.

3- الزبيدي: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، (د.ط)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1994، جـ1، ص 55.

4- السبكي: طبقات الشافعية، جـ7، ص202.

5- المصدر نفسه، جـ7، ص 235.

– ألا يحلف بالله عز وجل لا صادقا ولا كاذبا ولا عامدا ولا ساهيا، فإذا عتاد على ذلك فتح الله عليه أنواره ويعرف ذلك في قلبه وقوة عزمه.

– أن يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق منه مؤونة صغيرة ولا كثيرة بل يرفع مؤونته عن الخلق أجمعين مما احتاج إليه فإن ذلك شرف المتقين وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

– ألا يشهد على أحد بالكفر من أهل القبلة بشرك أو كفر فإن ذلك يورثه رحمة الخلق أجمعين. [1]

وآدابا تنظم دقائق السلوك اليومي للمريد كاللباس والنوم والدخول والخروج والجلوس والسير والطعام والشراب والإقامة والسفر[2]، كما حرص الشيخ عبد القادر الجيلاني أن يبتعد بالمريد عن كل من ينزل من مكانته الاجتماعية كالبطالة والعيش على هبات المحسنين وسؤال الناس وحثه على الاشتغال بالكسب والتجارة ومراعاة قواعد الأخلاق والأمانة،[3] وعليه فقد مثلت المدرسة القادرية أشبه ما يكون بمركز تدريب وإصلاح، ثم يجير لكثير منهم ممن يرى فيهم النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية والإرشاد فينشرون في الآفاق ويدعون الخلق ويربون النفوس ويحاربون الشرك والبدع، فكان لكثير من تلاميذه أمثال الشيخ الموفق[4] والشيخ عبد الغني الفضل الكبير في

1– الجيلاني: فتوح الغيب، ص 117.

2– الجيلاني: الغنية، ص 30.

3– المصدر نفسه، ص 37.

4– هو عبد الله بن أحمد بن قدامة ولد بجماعيل –نابلس– عام 541هـ/1146م كان فقيها ومناظرا بارعا توفي عام 620هـ/1223م، أبو شامة: الذيل، ص 211.

المحافظة على روح الإسلام وشعلة الإيمان وحماسة الجهاد، ولولاهم لانقلبت المادية على هذه الأمة.[1]

كما برز من بين طوائف الصوفية أسرة فارسية الأصل عرفت بأسرة شيخ الشيوخ من بني حموية واشتهر منهم ما تعارف المؤرخون على تسميتهم بأولاد الشيخ[2] الذين امتد نشاطهم في العراق ومصر والشام، ويعود شهرتها إلى مساهمتها في المجال التعليمي برياسة عدد من أفرادها العديد من المؤسسات الدينية التعليمية المرتبطة بالصوفية كالخوانق والربط.[3]، ويعد شيخ الشيوخ أبو الفتح عماد الدين عمر بن علي[4] الصوفي من أبرز علماء هذه الأسرة في الشام زمن نور الدين محمود وحظى باحترامه وتقديره حتى ولاه عام 564هـ،/1168م مشيخة الشيوخ على الصوفية،[5] ومن خلالها على أمر الربط والزوايا والأوقاف وشملت ولايته دمشق وحماة وحمص وبعلبك وحلب، وعلى الرغم من ترأسه مشيخة الشيوخ في الشام إلا أنه مارس التعليم بنفسه بخانقاه السميساطية.[6][7]

1- التادفي: قلائد الجواهر، ص 19.

2- موطنهم الأصلي نيسابور اشتهر أفرادها بالعلم والصلاح والتصوف أقدم أفرادها الصوفي محمد بن حموية الذي اشتهر بعلمه وفقهه توفي عام 530هـ/1135م، وهاجر من هذه العائلة أفراد للشام كان لهم نفوذ كبير زمن صلاح الدين، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ4، ض 191، الذهبي: العبر، جـ3، ص 135.

3- النعيمي: الدارس، جـ1، ص 154

4- أبو الفتح عماد الدين عمر بن علي الصوفي المحدث توفي عام 577هـ/1179م، كان له ولدين اثنين من أهل العلم هما صدر الدين محمد وتاج الدين أبو محمد عبد الله، أبو شامة: الروضتين، جـ2، ص 173.

5- السبكي: طبقات الشافعية، جـ7، ص230، النعيمي: الدارس، جـ1، ص154.

6- السميساطية: خانقاه نسبة للسميساطي أبي القاسم علي بن يحي السلمي ويعد من أهم الرباطات الصوفية في دمشق، النعيمي: الدارس، جـ2، ص 118.

7- الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ40، ص 243.

وبعد وفاته تولى مشيخة الشيوخ بدمشق ولده صدر الدين محمد[1] الذي بلغ مكانة علمية رفيعة ساهمت بشكل كبير في توسيع نشاطه التعليمي، حيث تولى التدريس بالزاوية الغربية بجامع دمشق ومدرسة جاروخ[2]، كما أسند إليه صلاح الدين أمر الصلاحية عام 587هـ/1191م[3]، أما الشيخ أبو البقاء محمود[4] فقد كان له هو الآخر رابط يأوي علماء علماء المقادسة فيقوم بالإحسان إليهم وإكرامهم وقد ذكرة ابن رجب الحنبلي فقال: [5]«كان [5]«كان رباطه للفقراء وأهل الدين وللفقهاء الحنابلة الذين يرحلون إلى أبي الفتح للتفقه عليه، فكانوا ينزلون به حتى كان الاشتغال فيه بالعلم أكثر من الاشتغال بسائر المدارس»، كما هاجر بنو قدامة إلى دمشق في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي وأقاموا في جبل قاسيون خارج أسوار مدينة دمشق وقاموا ببناء المدارس الدينية فكانت أول مؤسساتهم دير الصالحين أو دير المقادسة.[6]

وقد حرصت هذه المؤسسات الصوفية على وضع المناهج التربوية التي تلبي حاجيات المريد الروحية والعقلية والسلوكية، وجعله متماسكا ومترابطا مع جماعته ويقوم بواجبه نحو نفسه ومجتمعه، كما تم وضع المواد الدراسية التي تتماشى مع استعدادات وميول وقدرات وحاجيات الطلاب، حيث قسم شيوخ التربية الصوفية تلاميذهم إلى فئات ثلاث:

1- أبو الحسن صدر الدين محمد عمر بن حموية الصوفي، كان فقيها فاضلا صالحا تولى مناصب كبرى عمل مدرسا كانت وفاته عام 617هـ/1220م، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 4، ص 159.

2- جاروخ: رباط منسوب لجاروخ التركماني الصوفي، النعيمي: الدارس، جـ2، ص 151.

3- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ4، ص91.

4- هو أبو البقاء محمود بن عثمان النعال أبي الفتح النغال، كان فقيها وواعظا ومحدثا وقارئا للقرآن، توفي عام 609هـ/1212م، أبو شامة: الذيل، ص 126.

5- ذيل طبقات الحنابلة، جـ2، ص 64.

6- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ13، ص37-38.

أ- المريد: وهو طالب المرحلة الأولى وفيها يقف الشيخ على أمراضه فيقرر وسائل علاجه.

ب- النقيب والسالك: وهي مرحلة أعلى من الناحية العلمية والدراسة ويلقن فيها:

-علوم نظرية: كعلم الصبر والورع والخوف والتقوى والشكر والإخلاص.

-علوم عملية: طهارة الباطن والظاهر، فالظاهر بإن يحافظ على الوضوء ونظافة جسمه، أما طهارة الباطن تزكية نفسه وتطهيرها من الأخلاق الرذيلة[1]

جـ- الواصل أو النجيب: في هذه المرحلة تفرض على الواصل عدة سلوكيات يلتزم بها التزاما كاملا ويحاسب عليها من بينها:

- أن يحافظ على أسرار المجالس العلمية التي يحضرها.

- أن يتجنب الجدل والمناقشة.

- أن يبتعد عن الشقاق والخصام مع عامة الناس. [2]

كما استخلص رجال الصوفية من قصص الأنبياء قواعد وآدابا أوجبوها على المعلم والمتعلم لإنجاح العملية التربوية على غرار قصة موسى -عليه السلام-مع الخضر[3] ومن بين هذه الآداب:

- الاتفاق بين المعلم والمتعلم في وضع الخطة الدراسية ويتجلى في قوله عز وجل على لسان الخضر مع موسى-عليه السلام-: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ

1- الغزالي: أيها الولد، ص 48.

2- عبد الحليم عبد الغني قاسم: المرجع السابق، ص 125.

3- الخضر: إسمه بليا بن ملكان بن فالع بن عابر بن شالح بن أرفحشد بن بسام بن نوح كان أبوه من الملوك، لقب بالخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فصارت خضراء، وقيل إذا صلى اخضر ما حوله، وهو نبي من أنبياء الله أمر الله موسى أن يأخذ عليه علم الباطن، ابن كثير: قصص الأنبياء، تحقيق عبد الحي الغرماوي، ط5، دار الطباعة والنشر الاسلامي، القاهرة، 1995، ص 547.

مِنْهُ ذِكْرًا﴾[1] ومعنى هذا أن يضع الأستاذ الخطة الدراسية لطلابه وعليهم أن يسمعوا ما يعرض عليهم ولا يسألوا قبل أن يفسر لهم.

فقد يخطئ التلميذ في استعجال العلم أو الفهم قبل أن يصله التأويل وهذا ما حدث عندما خرق الخضر السفينة وقتله للغلام وإقامة الجدران، وللأستاذ الحق في أن يتمسك بخطته طالما أنه تأكد من صلاحيتها، كما للمعلم الحق في عدم مواصلة الدرس مع تلميذه إذا أصر التلميذ على عدم الفهم وهذا ما أوضحه القرآن الكريم عن الخضر بعد حادثة الجدار في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ .[2]

-وليس من حق الأستاذ أن ينسب العلم لنفسه وإنما ينسبه إلى الله عز وجل لقوله سبحانه وتعالى على لسان الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[3][4]

كما اهتم المنهج الصوفي بالإمكانات الجسدية للمريد وعمل على تنميتها وتثمينها لكي يورث فيه القوة والجلد ويصير قادرا على كسب قوته وقوت أسرته أو يشارك في الجهاد الذي فرضه الله على المسلمين. [5]

ويظهر واضح مما سبق أن العمائر الصوفية من خوانق وزوايا وربط لم تكن مجرد أماكن للتعبد والخلوة، بل كانت مراكز إشعاع علمية وروحية وقبلة للمهتمين والمشتغلين بتراث وإثار كبار رجال الصوفية من أمثال كتاب "أدب المريدين" للشيخ أبي نجيب السهروردي (ت 563هـ/1167م)، [6] وكتاب "منازل السائرين إلى الحق المبين"

1- سورة الكهف، الآية 70.

2- سورة الكهف، الآية 78.

3- سورة الكهف، الآية، 82.

4- عبد الحليم عبد الغني قاسم: المرجع السابق، ص127.

5- عبد الحليم عبد الغني قاسم: المرجع السابق، ص 128.

6- حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ1، ص 67.

للشيخ عبد الله الهروي (ت 481هـ/1088م)، [1] ومكانا لإعداد العلماء والمريدين الذين إنبثوا في كل الأقطار حاملين لواء الدعوة والجهاد.

1- حاجي خليفة: كشف الظنون، جـ2، ص 665.

المطلب الثاني: الإعداد الاجتماعي:

عانى المجتمع الشامي زمن الحروب الصليبية كثيرا من مظاهر التدهور في النظام القيمي والأخلاقي، حيث أضحت المدن الشامية التي وقعت في قبضة الصليبين مرتعا لفسوق ومجون ودنس الفرنج، فقد ذكر ابن جبير شيء من هذا التحلل عندما وصف مدينة عكا فقال:[1] ‹‹أنها تستعر كفرا وطغيانا وتفور خنازير وصلبانا... قذرة مملوءة كلها رجسا.››، وقد أشار مؤرخو الحملة الصليبية الأولى صراحة إلى انغماس الفرنج في أعمال الفسوق والفواحش أمثال الشارتري الذي عبر عن ارتياحه بعد غلق كل المواخير التي أقيمت في المعسكر عشية حصار أنطاكية حتى لا يستسلم الجند لرغباتهم عشية المعركة.[2]

ولم يكن فجور المرأة الصليبية مقصورا على معسكرات الجند فقد كن ينتدبن أماكن بعيدة عن هذه المعسكرات يضربن فيها قبابهن وخيامهن، وقد صور العماد الأصفهاني هؤلاء النسوة قائلا:[3]‹‹وتفردت بما ضربته الخيم والقباب وانظمت إليهن أترابهن الحسان والشواب[4] وفتحن أبواب الملاذ...››، بل كانت مجموعات منهن تأتي من أوروبا إلى المملكة الصليبية في بيت المقدس بقصد الترفيه، وقد رسم الأصفهاني صورة لهؤلاء النسوة فوصف حسنهن وتوقد الغريزة فيهن، وكيف أنهم كن يبذلن أجسادهن للجند معتبرين ذلك عبادة يتقربن بها لله فيقول:[5]‹‹ وصلت مراكب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة متحلية بشبابها وحسنها متزينة قد اجتمعن من الجزائر واغتربن لإسعاف الغرباء وتأهبن لإسعاد الأشقياء. ››

1- رحلة ابن جبير، ص235.

2- تاريخ الحملة، ص 55.

3- الفتح القسي، ص 212.

4- الشواب: الفتيان والنساء اللائي يعجبن الرجال، ابن منظور: لسان العرب، جـ 5، ص 138.

5- الفتح القسي، ص 213.

وقد فسر أسامة ابن منقذ ظاهرة انتشار الساقطات والبغايا في المجتمع الصليبي لافتقار الفرنج للغيرة عن العرض ويضرب مثالا على ذلك بروايته عن الفرنجي الذي عاد إلى منزله ليجد زوجته في فراشه مع إفرنجي، فلم تتعد ردة فعله سوى أنه أنذره فكان هذا مبلغ غيرته،[1] وعلى الرغم من التعايش اليومي بين الصليبين والمسلمين في الإمارات الصليبية إلا أن المسلمين لم يختلطوا مع فئات المجتمع الصليبي لوجود حواجز نفسية وحضارية، ومع ذلك تأثر كثير من المسلمين بما كانوا يشعونه من سلوكات وممارسات غير أخلاقية، وقد ذكر الأصفهاني أن عدد من الجند المسلم قد أغرته بعض النسوة من الفرنج فما إليهن وفي ذلك يقول:[2]«... جماعة جذبهم الهوى واتبعوا من غوى فمنهم من رضي اللذة بالذلة ومنهممن ندم على الزلة فتحيل في النقلة».

كما زاد تسلط الحكام وظلمهم للرعية والصراع فيما بينهم في انحطاط المجتمع وإفلاسه ودفعه إلى السلبية حيال المخاطر التي كانت تواجه الأمة أنذاك، فانصرف المجتمع بمختلف هيئاته إلى الانشغال بقضاياه اليومية التي تدور حول الغذاء والكساء والمأوى والتنافس في التجارة واللهو وتلبية الشهوات وانتشر النفاق وسقطت القيم وانهارت الأخلاق وصار الحديث عن المثل العليا أو القضايا العامة إما وسيلة ثقافية يكتسب بها الخطباء والوعاظ والمدرسون أو مثاليات وخيالات يستخف بها الكثيرون ولا يعيرونها انتباها[3]، ويستطرد أبو شامة في هذا ويقول:[4]« كانوا كالجاهلية همه أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا».

1- الاعتبار، ص243.

2- الفتح القسي، ص213.

3- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، ص 223.

4- الروضتين، جـ 1، ص 7.

وقد أوعز الغزالي فساد المجتمع وانحطاط قيمه في عصره إلى فساد الملوك والعلماء والأمراء حيث يقول:[1]‹‹ فساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستلاء حب المال والجاه ومن يستولي عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأرذال فكيف على الملوك والأكابر.››، وبناء على هذا أدرك رجال الإصلاح من الصوفية أن أية دعوة للجهاد العسكري في أمة ميتة لن تكون ذات فائدة إلا إذا سبقه جهاد نفسي يبدل ما بأنفس القوم ويجعلهم يتذوقون معنى التضحية بالأنفس والأموال، إذ لم يسفر عن محاولات الخطباء والوعاظ التي أطلقت بداية الحروب الصليبية إلا اليأس والإحباط.

ولبلوغ هذه الغاية نهض رجال الفكر والإصلاح من الصوفية لإصلاح المجتمع وتطهيره من الأمراض التي كانت تفترسه من الداخل، وتوثيق العلاقات بين الأفراد والجماعات وإعداد المسلمين على استئناف حمل الإسلام حتى تبلغ الدعوة أقصى العالم، ولا يتأتى ذلك في نظرهم إلا بتدريب المريد على ما يجب أن يتحلى به خارج دور الصوفية والمجتمع الكبير، فبدون قلب متفتح يكون الفرد الصوفي قد أوجد حاجزا قويا بينه وبين ربه ومجتمعه [2].

فوضع الإمام أبو حامد الغزالي لهذا الغرض مؤلفات مختلفة حتى يهدي بها العامة والخاصة على غرار كتاب "الإحياء" الذي شخص فيه كل أمراض المجتمع ووضع فيه العلاج لكل هذه المفاسد، وكذلك مؤلفة "المنقذ من الضلال" الذي وجهه للرد على أهل البدع والأهواء والزنادقة والملحدين، ومؤلف آخر حصصه للرد على الباطنية سماه "فضائح الباطنية"[3]، وقد أثنى ابن حلكان على كتبه وأثاره فقال:[4]‹‹بأنها كثيرة وكلها نافعة ...وعد الإحياء من أنفس الكتب وأجملها››. كما نظر الغزالي في عقيدة بني ملته

1- إحياء علوم الدين، جـ 2، ص 357.

2- عبد القادر الجيلاني: الغنية، جـ 2، ص 21.

3- ابن حلكان: وفيات الأعيان، جـ 4، ص 216، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 1، ص 119.

4- المصدر السابق، جـ 4، ص 216.

فوجدها مليئة بالشوائب والانحرافات نتيجة اختلاطها بالأمم الأخرى وما نشأ في الرد عليها من جدل أبعد المجتمع عن الفهم الحقيقي لها، ولذلك يرى ضرورة جعل الإيمان والعقيدة غاية لكل عمل إصلاحي وأفرد بابا كاملا في كتابه "الإحياء" عن رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي عدها القطب الأعظم في الدين وهي المهمة التي بعث الله لها النبيين، وإذا أهملت تعطلت رسالة الأنبياء واضمحل الدين وفشت الضلالة وشاعت الجهالة وانتشر الفساد وخربت البلاد.[1]

والأمر بالمعروف عند الغزالي دوائر بعضها أوسع من بعض أولها: أن يبدأ الفرد بنفسه ليصنع منها نموذج المؤمن المطلوب فيقول:[2]« فكن أحد رجلين إما مشغولا بنفسك وإما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك، وثانيها: أن يعلم أهل بيته وثالثها: أن يدعو جيرانه ورابعها: أهل محلته وخامسها: أهل البلدة إلى أن ينتهي إلى الإنسانية كلها.».

ويستطرد الغزالي في منهجه الإصلاحي إلى وجوب الاهتمام بالأخلاق الباطنية باعتبارها انعكاس للسلوكيات الظاهرة، فعنده لا يكفي تطهير ظاهر المجتمع دون الولوج إلى بواطن أفراده ونزع الصفات المهلكة التي تسبب خراب المجتمعات، وفي هذا يقول:[3]«بذل جميع الجهود الممكنة من كل أصناف الناس كل حسب طاقته وعمله للقضاء على الفساد الاجتماعي ظاهره وباطنه وإقامة مجتمع صالح قائم على عقيدة صحيحة وإيمان متين تنبثق عنه سلوكيات إيمانية طيبة كتلك السلوكيات التي عليها الصالحون الذين هم النموذج المثالي للمجتمع الإسلامي.».

1- الغزالي: الاحياء، جـ 2، ص 302.

2- المصدر نفسه، جـ 2، ص 336.

3- نفسه، جـ 3، ص 409.

وعليه فقد حمل الغزالي مسؤولية النهوض لمواجهة المنكر والأمر بالمعروف جميع فئات المجتمع على اختلاف أصنافه، بل اعتبر كل تقاعس ذنب ومعصية وفي ذلك يقول: "أعلم أن كل قاعد في بيته أينما كان فليس خاليا في هذا الزمان من منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع من شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبوادي منهم الأعراب والأكراد وسائر الخلق، وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم."[1]

ولم تقتصر دعاوى الإصلاح عند الغزالي حد العامة، بل خص السلاطين والحكام ببحث سماه "باب أمر الأمراء بالمعروف ونهيهم عن المنكر"، حيث اعتبر معظم السلاطين والأمراء في عصره متعدين لحدود الله ونهى العلماء المخلصين الاختلاط بهم حتى يفيئوا إلى شرع الله عملا بقاعدة "السياسة تدور في فلك العقيدة وليس العكس"، ومن مآخذه عليهم قوله: "إن أموال السلاطين في عصرنا حرام أكثرها وكيف لا ! والحلال هو الصدقات والفيء والغنيمة لا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان، ولم يبق إلا الجزية وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم ..." [2]

ويظهر واضحا من كلام الغزالي أن شغل معظم سلاطين عصره كان منصبا على اغتصاب الأموال والقيام بالمصادرات ولم يسلم من جشعهم وظلمهم أيّا كان مسلما أو ذميّا، ويرى أن من كانت هذه سياسته الظالمة يستحق المقاطعة وفي ذلك قوله: "فالمعاملة معهم حرام لأن أكثر مالهم حرام" وكذلك قوله: " إن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته وهو إمام معزول أو واجب العزل..." [3]

1- الغزالي: الاحياء، جـ 2، ص 336.

2- المصدر نفسه، جـ2، ص 137.

3- نفسه، جـ2، ص 139.

كما حرم التعامل مع قضاتهم وعمالهم وخدمهم، فالقضاة في نظرهم يأخذون من أموالهم الحرام الصحيح ويغرون الخلق بزيهم، فإنهم على زي العلماء ويختلطون بهم ويأخذون من أموالهم والطباع محبولة على التشبه والإقتداء بذوي الجاه والرفعة فهم سبب انقياد الخلق إليهم، أما الخدم والحشم فأكثر أموالهم من الغصب الصريح ولا يقع في أيديهم مال مصلحة وميراث جزية حتى تزداد الشبهة باختلاط الحلال بمالهم، ويخلص إلى أن فساد الرعية بفساد العلماء فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفا من إنكارهم.[1]

ولم يقف الغزالي في معارضته لسياسات السلاطين الظالمة عند حد الوعظ والكتابة، وإنما رفض هو نفسه التعامل معهم والتعليم في مدارسهم، فقد أرسل إليه الوزير ضياء الملك أحمد بن نظام الملك عام 504 هـ/1110م ليعود للتدريس في النظامية، لكنه رفض وأرسل يعتذر له في رسالة طويلة.[2]

كما انتصب الإمام الغزالي مناهضا للمادية والسلبية الدينية التي طغت على سلوكيات الأفراد والجماعات بانغماسهم في الأشياء انغماس المقيم لا المسافر، وقد أوعز ذلك إلى سوء الفهم والجهل بالحكمة الإلهية من خلق الإنسان، الأمر الذي نتج عنه اختلالا في مقاصد الحياة وأهدافها[3]، ومن بين هذه المظاهر السلبية مسألة ضبط النسل التي عدت حاجة ماسة في عصره ولاسيما من جهة تكاليف تربية الأولاد وتعذر طرق الكسب، فضلا عن استحباب بعض رجال الصوفية حياة البتولة كقول أحدهم: "ما شغلك عن الله من أهل

1- الغزالي: الاحياء، جـ2، ص 150.

2- المصدر نفسه.

3- نفسه. جـ3، ص222

ومال وولد فهو عليك مشؤوم" وقال آخر: "ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته الأولى" [1]

وقد عالج الغزالي هذه المسألة بالحث على الزواج والترغيب فيه وأبراز فوائده لقوله: "ترويح للنفس وإيناس بالمجالسة والنظر والملاعبة وإراحة القلب"، أما فضائله عنده تكمن: "الصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربية الأولاد فكل هذه الأعمال عظيمة الفضل"[2]، وشدد على مكانة الأولاد واعتبر إنجابهم مقصد من مقاصد الشريعة بقوله: "الولد هو الأصل وله وضع الزواج والمقصود إبقاء النسل".[3]

كما رأى في سطوة الأغنياء وإمساكهم عن إعالة الفقراء والمستضعفين سببا آخر في اضطراب المجتمع وتفككه، فدعا إلى عدالة اجتماعية تعيد للمجتمع لحمته وتماسكه ومن آراءه في هذا المجال أن المال آلة صبها الله في أيدي عباده لتكون آلة لدفع حاجاتهم، والغني مستخدم للسعي في رزق الفقير يكتسب المال بجهده ويجتهد في تنميته وحفظه ليسلم الفقير حاجته منه حين يحتاج، ويكف عن الزيادة التي تضره، وعلى الغني أن يعرف أن الفقير أفضل منه، وأن على الأغنياء أن يتبركوا بالفقراء ويتمنوا درجتهم وصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام.[4]

ويلزم الأغنياء عند منح عطاياهم السترة لأن في إظهار الأخذ ذلا وامتهانا وليس للمؤمن أن يذل نفسه. [5]، كما يلزم الفقير أن يشكر من سعوا في سد حاجته وأن يبذل أقصى جهده في طلب رزقه وفيه يقول: "ليس العبادة أن تصف قدميك وغيرك يعول لك،

1- أحمد أبو كف: أعلام التصوف الاسلامي، ط2، دار التعاون، القاهرة، (د.ت)، ص 45، 60

2- الغزالي: الإحياء، جـ2، ص 75

3- المصدر نفسه. ص

4- المصدر نفسه. جـ1، ص218

5- المصدر نفسه.

لكن أبدا أحرز رغيفك ثم تعبد... يوم القيامة ينادى : أين بغضاء الله في أرضه فيقول سؤال المساجد"[1]، ولتحقيق هذه الغايات وتيسير أمر الحصول على الرزق خصص الغزالي بابًا في كتاب الإحياء سماه "أدب الكسب والمعاش" وضمّنه آراءه في الحث على العمل وتبيان فضيلته والبيع وأركانه وشروطه وسائر مظاهر المعاملات التجارية والحياة الاقتصادية[2]، كما صنّف بابًا آخر في الحلال والحرام.[3]

لم يكتف الغزالي بتشخيص الأمراض التي ضربت المجتمع في زمانه إنما جعل هذا التشخيص مقدمة لاستخلاص العلاج، ووقف على أن أصل العلل في المجتمع الإسلامي إلى فقدان العلماء والمربين الذين يعملون للآخرة لا للدنيا، فقد استشعر بالحاجة الشديدة لهذا النوع من العلماء، فقام منتصبا في مجالس الوعظ يدرس ويحدث بكتاب الإحياء إحياء لرسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإيجاد العلماء العاملين الصادقين، فالعلماء عنده هم أطباء الذين عليهم أن يطلبوا مرضى العقول والنفوس.[4]

كما نظر الإمام عبد القادر الجيلاني إلى المجتمع المعاصر له على أنه مجتمع الرياء والنفاق والظلم وكثرة الشبهة والحرام، وهذه صفات أحالت كل شيء فيه إلى مظاهر خاوية لا روح فيها ولا معنى، يستوي في ذلك المتدينون وغيرهم ويقول في إحدى مواعظه:‹‹هذا زمان الرياء والنفاق وأخذ الأموال بغير حق قد كثر من يصلي ويصوم ويحج ويزكي، ويفعل أفعال الخير للخلق لا للخالق فقد صار معظم الناس بلا خالق موتى القلوب أحياء النفوس وطالبون للدنيا.[5]››.

1- الغزالي: الإحياء، جـــ2، ص65

2- المصدر نفسه. جـــ2، ص122

3- المصدر نفسه. جـــ2، ص158

4- ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص 121.

5- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، ص 12.

ويظهر واضح من كلامه تأسفه الشديد إلى ما آل إليه المجتمع الإسلامي من تفسخ وانحدار في الأخلاق واستهتار أفراده بأمور الشرع، حين عد المنافقين أعداء كل صلاح وهم يستغلون كل وسيلة بما فيها الدين نفسه للوصول إلى شهواتهم وأهوائهم، ثم يستطرد واصفا معاصريه قائلا:[1] ‹‹ملائكتم تتعجب من وقاحتكم وتتعجب من كثرة كذبكم في أحوالكم وتتعجب من كذبكم في توحيدكم، كل حديثكم عن الغلاء والرخص وأحوال السلاطين والأغنياء، أكل فلان تزوج فلان استغنى فلان افتقر فلان كل هذا هوس ومقت توبوا واتركوا ذنوبكم وارجعوا إلى ربكم دون غيره.››.

وبالرغم من اشتغال عبد القادر الجيلاني بالتدريس وإعداد المريدين فإنه لم ينقطع عن مجالس الوعظ لإرشاد العامة، فكان يخصص لذلك ثلاثة أيام في الأسبوع صباح الجمعة ومساء الثلاثاء في المدرسة وصباح الأحد في الرباط[2]، ويذكر التادفي أن الحضور كانوا يدونون هذه المواعظ حتى بلغ في مجلسه مقدار أربعمائة محبرة[3]، وكانت مواعظه شديدة الحماسة للإسلام مشفقا لما آلت إليه تعاليمه في حياة الناس ويود لو استطاع استنفار الخلق جميعا لنصرة الإسلام ويقول في أحد مجالسه: ‹‹دين محمد (ص) تتواقع حيطانه ويتناثر أساسه هلموا يا أهل الأرض نشيد ما تهدم ونقيم ما وقع.››[4]، وبهذا الحماس انطلق الشيخ الجيلاني يستنفر المسلمين إلى الالتفاف حول الإسلام ويدعوهم إلى التمسك بتعاليمه وحمل رسالته، ورأى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرورة أساسية لبقاء المجتمع وسيادة الخير فيه فإن ترك تطرق الفساد إليه وهو واجب كل مريد، الذي ألزمه آدابا وأخلاقا للقيام بهذا الأمر فقال:

1- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، ص 241.

2- المصدر نفسه، ص 5.

3- قلائد الجواهر، ص 18.

4- عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، ص 295.

– أن يستعمل اللين والتودد لا الغلظة ويتحلى بالشفقة مع الخلق لوقوعهم في مصائد الشيطان.

– أن يكون صبورا متواضعا زائل الهوى قوي اليقين حكيما يعرف كيف يعالج الأمور.

– أن يأمر العاصي وينهاه في خلوة مما يعزز إمكانية قبول النصيحة، فإن لم ينفع استعان عليه بأهل الخير، فإن لم ينفع فبأصحاب السلطان.

–عدم الخوض في مسائل الاختلاف أمام من يعتقدونها فمثلا في مذهب الحنابلة ينكرون اللعب بالشطرنج بينما يجيزه الشافعية، فالدخول في مثل هذه القضايا تثير تصلب المخالفين من المذاهب الأخرى وتفتح بابا للجدل والخصومة فالحكمة هنا واجبة وآداب العالم أولى من علمه.[1]

كما تصدى لبعض التيارات الفكرية المنحرفة عندما ناقش عقائد بعض الفرق المعاصرة والرد على دعواهم مثل قولهم بترك الجهاد وفي ذلك قوله:«قالت اليهود لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال...، وقالت الروافض لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينادي مناد من السماء.»[2]، ومن أعماله المحمودة أيضا في إصلاح المجتمع دعوته إلى نصرة المستضعفين من العوام وجعل الاهتمام بشؤونهم من شروط الإيمان، وشن حملة شديدة على الولاة الذين يظلمونهم وعلى الأغنياء الذين يخصون أنفسهم دون إخوانهم من الفقراء بأطيب الأطعمة وأحسن الكسوة وأفخر المنازل، فأفتى بانتسابهم للإسلام دعوى كاذبة وذريعة لحقن دمائهم بالشهادتين[3]، وقوله كذلك بعدم التفرقة بين الغني والفقير ويظهر ذلك في وصيته المشهورة لولده عبد الرازق على خدمة

1– الجيلاني: الغنية، جـ 1، ص 47–48.

2– المصدر نفسه، جـ 1، ص 79.

3– الجيلاني: الفتح الرباني، ص 64.

الفقراء وحسن صحبتهم وفي ذلك يقول:‹‹حسبك الدنيا شيئان: صحبة فقير وحرمه ولي...، وعليك يا ولدي أن تصحب الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل.››.[1]

ويبدو واضح من جهود رجال الإصلاح الصوفية أن سبب فساد المجتمع وخنوعه يعود بالأساس إلى فساد العلماء ودوران الشريعة في فلك السياسة وخضوع العلماء للحكام والشهوات الدنيا وعن هذا تفرعت مضاعفات وأمراض فتكت بالمجتمع والعقيدة، غير أن نضوج التصوف في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي من حيث هو حركة اجتماعية كان له بالغ الأثر في نهضة المجتمع وتوهجه من جديد، فنهض مقاوما ومدافعا عن الحمى والمقدسات.

1- عبد القادر الجيلاني: الفيوضات الربانية، ص 35.

المطلب الثالث: إمداد الجيوش بالمريدين:

استطاعت الحركة الصوفية زمن الحروب الصليبية الجمع بين الجهاد القتالي وجهاد النفس إدراكا من أن الجهاد الأصغر لا يتأتى إلا بجهاد النفس وتزكيتها وحملها على الخير وجعلها مستعدة لملاقاة العدو ومناولته، وقد عبر شوقي ضيف عن هذا بقوله: [1] ‹‹ إن زهادنا ومتصوفينا كانوا دائما يرون في تمام تصوفهم وزهدهم أن يجاهدوا العدو ويرابطون له في الثغور حتى إذا كان نفير الحرب تقدموا الصفوف يقاتلون أعداء الدين الحنيف ويستشهدون.››.

فقد لعبت الربط والخوانق الصوفية دورا كبيرا من حيث كونها مؤسسات للتربية الدينية والعسكرية في تحريض العامة على الجهاد والدعاء للجيوش الإسلامية ومراقبة العدو ورصد أخباره على الثغور، ولأن إقامتهم في هذه الثغور كانت تطول في بعض الأحيان عملوا متكاتفين على إقامة بيوت صغيرة أشبه ما تكون بمخافر الحدود، وكانت هذه نواة للربط التي انتشرت بكثرة وأصبحت أماكن لتجمع المجاهدين، وكان من الطبيعي أن تنتشر الرباطات بكثرة على طول تخوم الدولة الإسلامية وعلى حافة قواعد الحرب الأمامية للحراسة وصد الغارات المتكررة[2]، وفي هذا يقول ابن العديم:[3] ‹‹ كان لمتقدمي الصوفية باع في المرابطة في الثغور للغزو والجهاد، فتارة يسمون بالصالحين وتارة بالأبدال[4] وأحيان يسمون صوفية الثغر››.

1- عصر الدول والإمارات –مصر والشام–، دار المعارف، مصر، 1994، ص 3.

2- أسعد الخطيب: البطولات والفداء عند الصوفية، تقديم: عبد الكريم اليافي وآخرون، ط5، دار التقوى، دمشق، (د.ت)، ص 83.

3- بغية الطلب في تاريخ حلب، جـ1، ص 436.

4- الأبدال: جمع بدل إحدى المراتب في الترتيب الطبقي للأولياء عند الصوفية، وهم يشاركون بمالهم من اقتدار له أثره في حفظ نظام الكون، حسن الشرقاوي: معجم ألفاظ الصوفية، ص 22.

ويذكر صاحب خطط الشام أنه كان على امتداد ساحل الشام رباطات للنيل من الأعداء أن قدموا بحرا فأهل دمشق يرابطون في بيروت وأهل حمص في طرابلس وأهل القدس في يافا، فثبتوا المنارات وكلفوا حراسا تراقب قدوم العدو فإذا كان الوقت ليلا أوقدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهارا دخنوا، حتى يحصل النفير بين الناس استعدادا لمناولة العدو.[1]

ويعد ربط الشيخ الصوفي رسلان الدمشقي (ت 541 هـ/1146م) صاحب الرسالة المعروفة في التوحيد والتصوف الذي كان خارج أسوار مدينة دمشق بمثابة مخفر يأوي إليه حرس الحدود بعد إغلاق المدينة ليلا، كما يتردد المريدون إلى رباطه لتعلم أنواع الدراسة والتدرب على الفنون الحربية للوقوف في وجه الصليبين حتى لقب بإمام السالكين وشيخ المجاهدين[2]، وكذلك رباط الشيخ عدي بن مسافر[3] في جبال هكار[4] الذي لقي إقبالا كبيرا من سكان تلك النواحي لما رأوه من زهده وصلاحه وإخلاصه في إرشاد الناس، ووصف ابن خلكان أثره في مجتمع الأكراد الهكارية [5] فقال:[6] ‹‹ صار ذكره في في الآفاق وتبعه خلقا كثيرا جاوز اعتقادهم فيه الحد.››، كما ذكره الذهبي بقوله: [7] ‹‹ ساح سنين كثيرة وصحب المشايخ وجاهد أنواع من المجاهدات ثم سكن جبال الموصل في

1- محمد كرد علي: خطط الشام، جـ 6، ص 41.

2- أسعد الخطيب: البطولات والفداء عند الصوفية، ص 85.

3- هو الشيخ عدي بن مسافر بن إسماعيل الشامي ثم الهكار الزاهد قطب المشايخ وصاحب الأحوال والكرامات عاش تسعين عاما توفي عام 557 هـ/1161م، الذهبي: العبر، جـ 3، ص 28.

4- جبال هكار: يقصد بها خلال العصر الإسلامي المناطق الجبلية الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة الموصل يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ 5، ص 48.

5- الهكارية: إحدى أكبر القبائل الكردية خلال العصر الوسيط والأشهر منذ العصر الأيوبي، سميت باسم موطنها بلاد هكار التابعة للموصل قاعدة إقليم الجزيرة، زرار صديق يوسف: القبائل والزعامات القبلية الكردية في العصر الوسيط، طـ1، مؤسسة مركز ياني للبحوث والنشر، أربيل، العراق، 2007، ص 183.

6- وفيات الأعيان، جـ 3، ص 254.

7- تاريخ الإسلام، جـ 20، ص 342.

موضع ليس به أنيس ثم أنس الله تلك المواقع به وعمرها ببركته حتى صار لا يخاف بها أحد بعد قطع السبل، وارتد جماعة من مفسدي الأكراد ببركاته وانتفع به خلق وانتشر ذكره››.

وقد شكل خريجوا هذا الرباط من الأكراد الهكارية جمهرة أمراء الجيش وقادة الفتح وجنوده ويأتي على رأس هذه الجماعات أسرة صلاح الدين الأيوبي وخاصتهم[1]، أمثال الأمير سيف الدين المشطوب الهكاري[2] الذي لم يكن في أمراء الدولة أحد يضاهيه في المنزلة وكانوا يسمونه الأمير الكبير، عينه صلاح الدين على مدينة عكا لما خاف عليها من الفرنج،[3] كما عدّ الفقيه ضياء الدين الهكاري (ت585هـ/1189م) من كبار أمراء عسكر السلطان وأكثرهم ملازمة له في غزواته وقد ذكره ابن الأثير بقوله[4]‹‹ هو من أعيان أمراء عسكره ومن قدماء الأسدية، كان فقيها جنديا شجاعا.››، ولم تكن حادثة احتجازه في موقعة الرملة عام 573هـ/1177م واقتداءه بستين ألف دينار بعض رفض الفرنج تسليمه بمبلغ بسيط إلا دليل على مكانته وعظم شأنه. [5]

أما عبد الله علي بن الحسين[6] الواعظ الصوفي المعروف بقضيب البان، فقد أشار ابن كثير إلى دوره الكبير في الحث على تطهير البلاد من الصليبين عند حديثه عن حوادث سنة 549هـ/1154م، بعد أن توافد على رباطه جم غفير من أصناف الناس

1- جمال فالح الكيلاني: الشيخ عبد القادر الجيلاني رؤية تاريخية معاصرة، طـ 2، دار الفكر، بيروت، 2004، ص 27.

2- هو سيف الدين علي بن أحمد المشطوب كان من أصحاب أسد بن شيركوه حضر معه عدة واقعات ثم صار من كبار أمراء صلاح الدين توفي عام 588هـ/1192م، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 16، ص 648.

3- المصدر نفسه، جـ16، ص 649.

4- الكامل في التاريخ، جـ 10، ص 86.

5- أبو شامة: الروضتين، جـ 2، ص464.

6- هو أبو عبد الله الحسين بن عيسى بن يحي بن علي الحسني المعروف بقضيب البان متصوف من أهل الموصل حنبلي المذهب له أخبار مع الشيخ عبد القادر الجيلاني توفي عام 573هـ/1177م، الزركلي: الأعلام، جـ2، ص 251.

وصار أشبه بمعسكر للجند،[1] كما كانت خطبه ومواعظه أحد العوامل في خروج الملوك الأتابكة والأيوبية في قيادة جيوش الإيمان ضد جحافل الصليبين [2]، وقد بعث رحمه الله قبل موته إلى السلطان صلاح الدين عدد من أبنائه للمشاركة في تحرير القدس من ربقة الفرنج، واستطاع أحدهم وكان ملثما قتل أحد قادة جيوش الصليبين وطلب للمكافأة فلم يجيب.[3]

ويبدو واضح مما سبق أن أتباع هذه الزوايا والربط لم يتخلفوا عن مقاومة الصليبين في المناطق الحدودية، حيث كانوا ينخرطون في صفوف المجاهدين متى رأوا الفرصة سانحة لذلك، وإن كتب الله لهم الحياة يعودون إلى ربطهم وزواياهم من غير أن يتركوا أي أثر يدل على إشتراكهم في المعارك يتيح للأعداء سبيلا للاطلاع على حقيقة أمرهم حتى يستمروا في المقاومة وتتاح لهم المشاركة في المعارك القادمة. [4]

أما محي الدين ابن عربي (ت 638هـ/1240م) فبرغم من انشغاله بدقائق علم التصوف إلا أنه لم يقطع صلته بمحيطه ويكترث لكل ما يهم المسلمين، فيذكرعنه أنه كان يحرض على الجهاد ومقاومة الصليبين[5]، ومن وصاياه في هذا لأحد مريده قوله: ‹‹ عليك بالجهاد الأكبر وهو جهاد هواك فإنك إذا جاهدت نفسك هذا الجهاد خلص لك الجهاد الآخر في الأعداء، وأجهد أن ترمي سهما في سبيل الله وعليك بتجهيز المجاهد، وأخلف الغزاة في أهلهم تكتب معهم...، فإنك إذا لم تغزو ولم تحدث نفسك بالغزو كتب على قلبك شعبة من النفاق››.[6]

1- البداية والنهاية، جـ 12، ص 234.

2- أسعد الخطيب: البطولات والفداء عند الصوفية، ص 110.

3- المرجع نفسه.

4- عمر فروخ: تاريخ الأدي العربي، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1997، جـ3، ص 431.

5- أسعد الخطيب: البطولات والفداء عند الصوفية، ص 119.

6- ابن عربي: الوصايا، ص 37.

ثم يستطرد ابن عربي في هذا السياق ناصحا وواعظا مريده فيقول: ‹‹ أعلم يا بني أن الله تعالى لما أراد أن يرتقي عنده إلى المقامات العلية قرب منه أعداءه حتى يعظم جهاده لهم ويشتغل بمحاربتهم أولا ثم بمحاربة غيرهم من الأعداء الذين منه أبعد››.[1]

وكانت له صلة بقواد الدولة أمثال الملك المظفر شهاب الدين غازي (ت 613هـ/1216م) صاحب حلب الذي كان مريدا عنده وحصل منه على إجازة في العلم[2]، وقد أثنى عليه ابن عربي بقوله: ‹‹ ما رفعت إليه حاجة من حوائج الناس إلا وسارع في قضائها من فوره كانت ما كانت ››[3] ويذكر ابن شداد أن فتح عكا تم ببركة الملك المظفر غازي بما أظهره من أعمال البطولة واستبشر والده صلاح الدين بغرته. [4]

(4)

كما توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت561هـ/1165م) ونور الدين محمود زنكي (ت 569هـ/1165م)، فكان هذا الأخير يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في رباط الشيخ عبد القادر الجيلاني ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين[5]، أمثال الواعظ الصوفي زين الدين علي بن إبراهيم إبراهيم بن نجا (ت 599هـ/1202م) الذي كان من رجال صلاح الدين ومستشاريه وفيه يذكر ابن رجب:[6]‹‹ أن السلطان كان يسمى ابن نجا عمر بن العاص ويعمل برأيه لسداده لسداده وسعة حليته.››، وكان أغلب أرباب الدولة وأهل السنة لا يخرجون عما يراه لهم

1- ابن عربي: الوصايا، ص 96.

2- النبهاني: جامع كرامات الأولياء، تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، طـ 1، مركز أهلسنت بركان رضا، الهند، 2001، ص200

3- ابن عربي: الوصايا، ص 275.

4- النوادر السلطانية، ص 104.

5- عبد الرازق الكيلاني: الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة، ـ1، دار العلم، دمشق، 1994، ص 194.

6- طبقات الحنابلة، جـ1، ص 437.

ابن نجا لأهمية الدور الذي لعبه في كشفه مؤامرة الفاطميين ضد صلاح الدين عام 569هـ/1173م.[1]

في حين كان للموفق بن قدامة المقدسي الحنبلي (ت 620 هـ/1223م) صاحب المغنى وتلامذته خيمة ينتقلون بها مع المجاهدين في سبيل الله تحت ألوية صلاح الدين المظفر[2] وعنه يقول الذهبي:[3] ‹‹ ارتحل في إحدى سنين في طلب العلم إلى بغداد فنزل عند الشيخ عبد القادر الجيلاني وسمع منه وكان يقدم على العدو››، وأخوه الشيخ أبي عمر[4] قطب الدين الذي كان لا يسمع بجهاد إلا وخرج فيه[5] وعنهم يذكر ابن كثير: [6] [6] ‹‹ كان هو وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني وأخوه الشيخ العماد[7] لا ينقطعون عن غزوة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج وقد حضروا معه فتح بيت المقدس والسواحل وغيرها.››.

وكان صلاح الدين يصحب معه علماء الصوفية لأخذ الرأي والمشورة، فضلا عن أن وجودهم يعتبر حافزا قويا للمريدين على القتال ببسالة وشجاعة نادرة ولاسيما أمام الفرق الصليبية المشكلة من فرسان المعبد لما لهذه الأخيرة من روح معنوية عالية في

1- أبو شامة: الروضتين، جـ1، ص 560.

2- سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ 8، ص 313.

3- سير أعلام النبلاء، جـ 22، ص 166.

4- هو الشيخ الزاهد محمد بن أحمد بن قدامة أخو العلامة موفق الدين ولد بجماعيل هاجر إلى دمشق بسب إحتلال الصليبيين لبيت المقدس، فكان إذا جاءه النوم يضرب رجله بقضيب فيذهب عنه وله أوراد كثيرة، توفي عام 607هـ/1210م، الذهبي: العبر، جـ3، ص 147.

5- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 13، ص 58.

6- المصدر نفسه، جـ 13، ص 59.

7- هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن علي المقدسي، كان فقيها له كتاب "الفروع" ورعا كثير الصيام توفي عام 614هـ/1217م، المصدر نفسه، جـ 3، ص 162.

القتال[1]، ويبرز لنا ابن حلكان قوة حضور رجال الصوفية في جيش صلاح الدين وفي فتوحاته قوله:[2] ‹‹ كان فتحه عظيما شهده من أهل العلم خلق ومن أرباب الخرق والزهد عالم››، وجدير بالذكر أن النسبة العددية الأكثر في موقعة حطين لم تكن للجند النظامية بل كانت للمطوعة والمتصوفة مع أتباعهم.[3]

ومن شيوخ الصوفية الذين أبلوا البلاء الحسن في المعارك والحروب مع الصليبيين عبد الله اليونيني الملقب بأسد الشام (ت 617هـ/1220م)، وفيه يقول الذهبي:[4] ‹‹ كان شيخا مهيبا تام الشجاعة كثير الجهاد دائم الذكر صاحب مجاهدات ومكاشفات ما كان يبالي بالرجال قلوا أو كثروا يرمي عن قوس زنته ثمانون رطلا››، كما حضر فتح بيت المقدس الشيخ أبو العباس القدسي[5] المشهور بأبي ثور[6]، وحسن بن يوسف المكزون (ت 638هـ/1240م) من كبار رجال العلويين حارب الصليبيين سنة 617هـ/1220م مع ألف من رجاله وكان عالما بالفقه وشاعرا وجدانيا على طريقة أهل التصوف[7]، ومن شهداء الصوفية الشيخان الكبيران يوسف الغندلاوي وعبد الرحمن الجلجولي، وينقل لنا ابن منقذ الحوار الذي دار بينهما عند اقترابهما من الجيش الصليبي، قال الفقيه لعبد الرحمن: ما هؤلاء الروم –يعني الصليبيين– فالي متى نحن وقوف؟ قال سر على اسم الله تعالى فتقدما وقاتلا حتى قتلا في مكان واحد عام 543هـ/1148م. [8]

1– أسعد الخطيب: البطولات والفداء عند الصوفية، ص 106

2– وفيات الأعيان، جـ 7، ص 179.

3– أسعد الخطيب: المرجع السابق، ص 106.

4– العبر، جـ 5، ص 68.

5– هو الشيخ الإمام الزاهد العابد المجاهد شهاب الدين أبو العباس أحمد بن جمال الدين عبد الله بن محمد الجبار المعروف بالقدسي اشتهر بأبي ثور لأنه حضر فتح بيت المقدس، كان يركب ثورا يقاتل عليه توفي عام 594هـ/1197م، العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جـ2، ص 238.

6– المصدر نفسه.

7– الزركلي: الأعلام، جـ 2، ص 227.

8– كتاب الاعتبار، ص127.

ومن الأعمال الجليلة للصوفية كذلك وآثارهم الحسنة في الأمة الإسلامية عصر الحروب الصليبية ما قام به أولاد الشيوخ من دعوة وجهاد، حيث يذكر عن الأمير فخر الدين يوسف[1] أنه ترك عمامته وتزين بزي الجند بعد أن عهد إليه الملك الصالح نجم الدين أيوب مهمة الاستيلاء على عسقلان وطبرية من الفرنج عام 645هـ/1247م[2]، وكذلك الصاحب كمال الدين محمد بن محمد (ت 640هـ/1242م) الذي كان هو الآخر مقدما لعسكر نجم الدين أيوب[3]، كما رافق عبد المنعم الجلياني[4] (ت 602هـ/1205م) 602هـ/1205م) الطبيب الصوفي جيش صلاح الدين في معظم حروبه وهو يشبه في عمله هذا رئيس المجموعة الطبية التي ترافق الجند.[5]

ويظهر واضحا مما سبق كيف أن رجال الصوفية لم يقتصر دورهم على الذكر والتعبد في خلواتهم والاعداد التربوي والروحي في مدارسهم، بل مثلت أربطتهم وخوانقهم طليعة الجيوش الإسلامية برصد العدو وجمع أخباره، فضلا عن جيوش المريدين التي قذفت بها مدارسهم الإصلاحية كقادة ومرشدين ودعاة ومقاتلين... لمواجهة الخطر الصليبي في البلاد الشامية.

1- هو معين الدين حسن فخر الدين يوسف محمد بن شيخ الشيوخ صدر الدين كان وزيرا للملك الصالح نجم الدين أيوب توفي عام 645هـ/1247م، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 13، ص 171.

2- المقريزي: السلوك، جـ 1، ق 2، ص 327.

3- أبو شامة: الذيل، ص 264.

4- هو عبد المنعم الجلياني، كان طبيبا حاذقا وأديبا فاضلا نزيل دمشق 575هـ/1179م، كان له معرفة بعلوم الباطن وكلام على طريق الصوفية، الكتبي: فوات الوفيات، ج7، ص307.

5- أسعد الخطيب: البطولات والفداء، ص109..

الفصل الرابع

مقاومة الشعراء

للمد الصليبي

المبحث الأول:

دور الشعراء في استنهاض همم الأمة وتوحيد صفوفها

المطلب الأول: هجاء رجال الدولة وعمالهم.

المطلب الثاني: الدعوة إلى الجهاد وهجاء المتقاعسين عنه.

المطلب الثالث: الدعوة إلى توحيد الصف وهجاء النزعات الإنفصالية.

عرف ابن منظور الشعر فقال:[1] ‹‹والشعر منظوم غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية، وقائله شاعر لأنه يشعر به غيره أي يعلم به.››، وقال فيروز أبادي:[2] ‹‹ أطلق العرب على علم شعرا، إن غلب على الكلام المنظوم لشرفه بالوزن والقافية››، أما عند ابن فارس (ت395هـ/1004م) فهو:[3]‹‹ كلام موزون مقفى دل على معنى ويكون أكثر من بيت، وسمى الشاعر شاعرا لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره.››.

وكان الشعراء ألسنة قبائلهم وذوي الرأي فيهم يندبونهم عند الملمات ويستعينون بهم وقت الشدائد ويلجؤون إليهم في الحروب، فقد ورد أن سعد[4] أرسل يوم أرماث[5] إلى ذوي الكلام من رجال الشعر والنثر يدعوهم إلى استخدام سلاح الحرب فحضر عنده خطباؤهم وشعراؤهم مثل عبدة بن الطيب[6] وأوي بن مغراء[7] والحطيئة[8] وكلهم شعراء شعراء فخاطبهم قائلا: ‹‹انطقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم، فإنكم من

1- لسان العرب، جـ 4، ص 410.

2- القاموس المحيط، ص 416.

3- معجم مقياس اللغة، جـ 3، ص 194.

4- هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب، أحد العشرة المبشرين وأحد السابقين شهد بدرا والحديبية وأحد الستة أهل الشورى، قاد الجيش الإسلامي في معركة القادسية عام 15هـ/636م، وفي سنة 21هـ/641م شكا أهل الكوفة سعدا فعز له عمر ابن الخطاب، توفي عام 55هـ/675م، الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ1، ص 92، 117.

5- يوم أرماث هو أول أيام القادسية سمي بذلك نسبة إلى اسم نبت بالبادية وقيل إسم موضع، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ 1، ص 154.

6- هو يزيد بن عمر بن علي من بني عبد شمس من بني سعد، كان أسود اللون شاعر مجيد وهو مخضرم أدرك الإسلام حارب مع الجيش الإسلامي الفرس في المدائن توفي عام 20هـ/640م، الزركلي: الأعلام، جـ 4، ص 172.

7- هو اوس ابن تميم بن مغراء من بني أنف شاعر اشتهر في الجاهلية وعاش زمنا في الإسلام، توفي عام 55هـ/695م، المرجع نفسه، جـ 2، ص 31.

8- هو جزول بن أوس من بني قطيعة بني عبس لقب بالحطيئة لقصره، مخضرم عاش في الجاهلية والإسلام توفي عام 60هـ/679م، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، (د.ط)، دار الحديث، القاهرة، (د.ت)، جـ 1، ص 310.

العرب بالمكان الذي أنتم به وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذووا رأيهم ونجدتهم وسادتهم فيسروا في الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال››.[1]

وكان الشعر ديوان فضائل العرب وسجل مفاخرها ووسيلة تخليد مأثرها وفي هذا يقول الجاحظ:[2] ‹‹ فكل أمة تعتمد في استبقاء مأثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال، كانت العرب في جاهليتها تعتمد في ذلك علة الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها. ››، ويؤكد ابن قتيبة مهمة الشعر عند العرب حين يقول:[3]‹‹ وللعرب الشعر الذي أقامه الله مقام الكتاب لغيرها وجعله لعلومها مستودعا ولآدابها حافظا ولأنسابها مقيدا ولأخبارها ديوانا...››.

كما يعده ابن خلدون من أشرف الكلام عند العرب وأقدسه[4]: ‹‹ أعلم أن فن الشعر الشعر بين الكلام كان شريفا عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد ثوابهم وخطئهم وأصلا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر...››.

وقد أثرت الحروب الصليبية في الشعر العربي في الشام تأثيرا كبيرا، حيث ألهبت تلك الحروب قرائح الشعراء وأوقدت في صدورهم نار الغيرة على الدين والديار الضائعة، فحملوا على عواتقهم عبء استنهاض المجتمع وشحذ هممه من خلال أغراض شعر الجهاد والحماسة من مدح ورثاء وهجاء.

1- الطبري: تاريخ الملوك، جـ 3، ص 533.

2- الحيوان، تحقيق يحي الشامي، طـ 3، مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1997، جـ 1، ص 71.

3- تأويل مشكل القرآن، شرحه السيد أحمد صقر، طـ 2، دار التراث، القاهرة، 1973، ص14.

4- المقدمة، ص 535.

المطلب الأول: هجاء رجال الدولة وعمالهم.

الهجاء غرض قديم تعرض له الشعراء لإظهار المناقب السيئة للمهجو، والهجاء ضد المديح فكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجي[1] ويرى ابن رشيق:[2]‹‹ أن اجود ما في الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض، أما ما كان من الخلقة الجسيمة من المعايب فالهجاء به دون ما تقدم››.

وقد اشتعلت جذوة الهجاء والتهبت عصر الحروب الصليبية، وكثر الشعر الذي انتقد أجهزة الحكم والإدارة ومظاهر الفساد الاجتماعي، ودعوة ولي الأمر إلى إزالتها والقضاء عليها دون مواربة، حيث أصبح الشاعر لا يكتفي بالهجاء المعنوي القائم على سلب الفضائل بل تعداه إلى الهجاء الفاحش بالسباب ونيل الأعراض والصفات الخلقية لتشهير بالمهجوين وفضح أعمالهم المشينة في حق الدولة والرعية. وإذا كان هذا النوع من الشعر قد مثل دعاية اجتماعية استحبتها العامة للتخلص من بؤسها وردع المفسدين والمعربدين، فإنه في الوقت نفسه مثل وسيلة لإيقاد الضمائر الميتة وبعث النخوة فيها والتنبيه إلى مخاطر الظلم والفرقة على الأمة.

فها هو ابن القلانسي يثور منتقدا وساخطا على ما آلت إليه بلاد الشام بعد مقتل نور الدين زنكي عام 541هـ/1146م من فوضى واضطراب حين قال[3]:

1- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق، محمد عبد المنعم خفاجي، (د.ط)، دار الكتب، بيروت، (د.ت)، ص 113.

2- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طـ 4، دار الجيل، بيروت، 1972 جـ 2، ص 174.

3- ذيل تاريخ دمشق، ص 287.

أصبحت بيوت المال نهب لغيره يمزقها أبناؤه ومظالمه
فلما تولى قام كل مخالف وشام[1] حساما لم يجد شائمه
وأطلق من كان في أسره وحبوسه وفكت عن الأقدام منه أداهمه[2]
وعاد إلى أوطانه بعد خوفه وطابت له السغوب[3] مطامعه

فالشاعر يتأسف على أحوال البلاد وكيف تبدل حالها من جريات العدل والحزم والجهاد ورد العدوان زمن نور، إلى وضع جديد سادته الفوضى والعبث بأموال الدولة وتفرق كلمة الأمراء وتنافسهم على المغانم، وخاطب الشاعر ابن عنين[4] الملك المعظم عيسى (ت 624هـ/1227م) في شأن القائم على خزانة الدولة قائلا:[5]

يا مليك الدنيا الذي أعظم الله بتأييده عزه وسلطانه
أنا أشكو إليك جور رقيع[6] لقبوه الصعفان تاج الخزانة
عدم العقل والمروءة ولا حسان والدين والحيا والأمانة
زعموا أنه حفيظ على المـــال أمين قلت أسكتي يا فلانة

1- شام حسام: شام السيف شيما: سله، ابن منظور: لسان العرب، جـ 12، ص 316.
2- أداهمه: السواد ويعنى به القيد الذي يكون في الخيل والإبل، المصدر نفسه، جـ 12، ص 210.
3- السغوب، الجوع والعطش مع التعب، المصدر نفسه، جـ 1، ص 287.
4- هو أبو المحاسن بن نصر الله بن مكارم بن حسن بن عنين الأنصاري الدمشقي له ديوان ومصنفات أخرى تولي الكتابة للملك المعظم في آخر دولته توفي عام 630هـ/1232م، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ5، ص 122، 127
5- ديوانه، تحقيق خليل مردم، طـ 2، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص 220
6- الرقيع: الأحمق الذي يتمزق عليه عقله، ابن منظور: لسان العرب، جـ8، ص 132.

كما انتقد الشعراء سياسة بعض حكام الشام بسبب تقلدهم أشخاصا في مناصب ليسوا أهلا لها وخروجهم عن المعهود في سياسة الدولة الإسلامية أمثال فتيان الشاغوري[1] الذي سخر من أحدهم ومتمنيا أن يراه يوما مشنوقا بقوله:[2]

بالعدل تزدان الملوك وما شاب ابن أيوب سوى العدل
هو دلو دولته بلا سبب متى يرى ذا الدلو في حبل
صفر خلا من كل مكرمة مع صيته في الناس كالطبل

فالشاعر يصف هذا الحاكم بأنه خال من المكارم فهو كالطبل شكله جميل لكنه خال من المضمون، وعندما تفاقم ظلم السامري[3] وكان زيرا للملك الصالح إسماعيل، حيث كتب ابن واصل في شأنه يقول:[4] ‹‹أن السامري كان غالبا على الملك الصالح إسماعيل ولا يخرج على رأيه وكأن الله قد سخر الصالح لوزيره فلو قال له مت لمات.››، كما أرسل الفقيه شمس الدين المقدسي إلى الملك الصالح قصيدة شاكيا إليه فساد حاشيته وسوء صنيعهم جاء فيها:

1- هو شهاب الدين أبو محمد فتيان بن شمال الأسدي الدمشقي المعروف بالشاغوري المعلم، كان عارف بعلم اللغة والآداب خدم الملوك وعلم أولادهم له ديوان شعر توفي عام 615هـ/1218م، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ4، ص 24.

2- ديوانه، تحقيق أحمد الجندي، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1976، ص 359.

3- هو السامري أمين الدولة وزير الصالح أبو الحسن بن غزال الطبيب كان سامريا ثم أسلم ولقب بكمال الدين، قيل كان يتستر بالإسلام ويبالغ في هدم الدين، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص 723.

4- مفرج الكروب، جـ 5، ص 219.

يا مالكا لم أجد من نصيحة بدا وفيها دمي أخشاه مسفكا
اسمع نصيحة من أوليته نعما يخاف كفرانها إن كف أو تركا
والله لا إمتد ملك مد مالكه على رعيته من ظلمه شيكا
وزيره ابن غزال والرفيع له قاضي القضاة ووالي حربه ابن بكا
وثعلب وفضيل من هما هما أهل المشورة فيما ضاق وضنكا
جماعة بهم الآفات قد نشرت والشرع قد مات والإسلام قد هلكا
ما راقبوا الله في سر وفي علن وإنما يرقبون النجم والفلكا [1]

يبدو واضح من أن شجاعة هذا الفقيه الشاعر جعلته لم يكتف بالإيحاء والرمز والتلميح حين شهر بعمال الملك الصالح وذكر أسماءهم الواحد تلو الواحد أمثال المنجمين ثعلب وفضيل اللذين أكثر الملك الصالح من استشارتهم دون خشية ردة فعلهم.

وكذلك عندما استوزر الملك الأمجد بهرام شاه (ت628هـ/1230م) السامري[2] والذي صار المدبر لجميع أمور الدولة إلى حد أنه استخدم جمع من أقاربه السمرة في جميع الجهات وكثر منهم العسف وأكل الأموال بالباطل، فنهض الشاعر فتيان الشاغوري مشهرا بسوء أعمالهم ومحرضا الملك الأمجد على التخلص منهم بقوله:[3]

الملك الأمجد الذي شهدت له الملوك الزمان بالفضل
وأصبح في السامري معتقدا ما اعتقد السامري في العجل
والسامريون كالبرامك[4] من قبل فأيــن الرشيـــد للقتل

1-الكتبي: الوافي بالوفيات، جـ 3، ص 358.

2- هو مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري ماهر بصناعة الطب واشتغل بعلم الأدب وبلغ في الفضائل أعلى الرتب كثرت الشكاوي من أهله وأقاربه السمرة ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 722.

3- ديوانه، ص 359.

4- البرامكة: أسرة فارسية عريقةمن بلخ ينسبون إلى جدهم برمك، وكان ليحي البرمكي دور كبير في تولي هارون الرشيد الخلافة فكانوا في بلاط الرشيد أهل نفوذ وسلطة ومشورة ورأي مقدمين في كل أمر ومجلس، نكب بهم الرشيد عام 187هـ/802م بعد أن كثرت الشكاوي ضدهم، ابن خلكان: المصدر السابق، جـ6، ص 219، 220

كانت دعوة الشاعر صريحة للملك أن يحذو حذو الخليفة هارون الرشيد الذي نكب بالبرامكة، وقد أثمرت وقد أثمرت نصيحته بعدما حجر على الوزير وسجنه.[1]

ومثال آخر عندما خرب الملك المعظم (ت624هـ/1227م) سور بيت المقدس سنة 616هـ/1219م معللا سبب فعلته لمنع الفرنج من الاستيلاء عليه، ثارت ثائرة المقدسين على هذا العمل المشين لما ترتب عنه من ضياع وأذى لأهل القدس فتعرض إلى الهجو والذم والقدح على غرار قول شاعر مجهول:

في رحب حلل الحميا وخرب القدس في المحرم
واستخدم القبط والنصارى بفذا ذا وزرا المكرم[2]

ومن جهته القاضي مجد الدين عبد الله الحنفي قاضي مدينة طور فقد نعته باللئيم ورماه بالخسة وأتهمه بالكفر ودعا عليه أن تصاب يمينه بالشلل جراء ما اقترفه ومما جاء على لسانه:

مررت على القدس الشريف مسلما على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين من صبابة على ما مضى من عصرنا المتقدم
وقد رام علج[3] أن يعفى رسومه وشمر عن كفى لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدي بالنفوس فديته بنفسي وهذا الظن في كل مسلم[4]

فقد عبر الشاعر على ما يختلج في صدره من سخط وغضب إلى حد أنه دعا على الملك بالسوء دون مواربة، وهي ردة فعل طبيعية نابعة لمكانة بيت المقدس وحرمته في

1- ابن أبي أطيبعة: المصدر السابق، ص 722.

2- أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص174.

3- علج: العلج: الرجل الديد الغيظ، والجمع أعلاج وعلوج، لفظ يطلق على رجل من كفار العجم. ابن منظور: لسان العرب، جـ2، ص336.

4- ابن العماد: شذرات الذهب، ح7، ص 119، أبو شامة: الذيل، ص 175.

نفوس المسلمين، كما وقف الشاعر ابن عنين في وجه الملك المعظم عيسى حين أمر بنزح ماء خندق القلعة بدمشق فنال الناس من ذلك نصب وجهد فخاطبه قائلا:

أرح من ترح ماء البرج يوما فقد قضى إلى تعب وعي
مر القاضي بوضع يديه فيه وقد أضحى كرأس الدولعي[1][2]

فقد مزج الشاعر في بيته الأول بين الشعور الإنساني النبيل حين طلب من الملك التخفيف من بؤس العامة وضنكها، وهجائه في البيت الثاني الذي تميز بالدعابة والسخرية عندما وجه خطابه إلى القاضي ربما قصد من ذلك تخفيف هجائه للملك حتى يتجنب شره.

وفي سنة 594هـ/1198م حين قصد الصليبيون مدينة بيروت في جمع كبير من جنودهم وكان عز الدين أسامة [3]عاملا عليها، فحين أحس بخطرهم تركها وولي هاربا، فأصبح هذا الأمير رمزا لكل خائن يذكره الشعراء تهكما، وقال فيه أحد الشعراء المجهولين:

سلم الحصن ما عليك ملامة ما يلام الذي يروم السلامة
فعطاء الحصون من غير حرب سنة سنها ببيروت سامة[4]

فالشاعر قصد من هجائه وتهكمه الساخر أن يجعل منه عبرة لكل متخاذل يسمع به يجود بنفسه دفاعا عن الديار والأعراض خشية من ألسنة الشعراء مما يدل أثر الشعر الهجائي في الناس، ولم تمر سقاطات وزلات أبي يعلي وزير الملك الظاهر غياث الدين

1- الدولعي: هو جمال الدين ابن محمد بن أبي الفضل بن ياسين الدولعي تولى الخطابة في مسجد دمشق بعد عمه كان كثير التزلف ولا ينهى عن منكر، أبو شامة: الذيل، ص 253.

2- ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص45.

3- هو عز الدين أسامة أمير من أمراء الدولة الأيوبية كان بيده قلعة علجون اعتقله الملك المعظم ومات في معتقله سنة 608 هـ/1248م، الصفدى: الوافي بالوفيات، ج15، ص 97..

4- ابن واصل: مفرج الكروب، ج3، ص 74.

غازي بن الناصر صلاح الدين (ت 613هـ/1216م) على الشاعر ابن دنينير[1]الذي وصفه باللؤم والجهل وضعف العزيمة والحمق وسوء الأخلاق بقوله:

ما سمعت ولا رأيت ولن أرى لؤما يماثل لؤم عبد الباقي
هو جاهل واهي العزيمة أحمق صعب العريكة ضيق الأخلاق
فلو أن رجليه بخفة رأسه لغدا يفوق نواظر الأحداق[2]

ورسم ابن عنين لأمير البيرة [3]صورة مليئة بالتهكم والسخرية حين مثله في صورة حيوان له قرن ينطح به من يقاتله، وأنه لا يحمل فضيلة ولا يبدو منه عطاء ولا وظيفة سوى إصدار الأوامر وهو في قلعته كصياد السمك يعلق بسنارته من تعس حظه فيقول:[4]

لنـــا أميــر قرنه ينطح في الأفق الفلك
عطـــاؤه وطعنه مـــا غير دق الحنك
فهو ذنـــابي أبدا أيمـــا جيــش سلك
كأنه في قلعة الـــ سبيرة صيــاد السمك

وفي السياق نفسه يسترسل أسامة ابن منقذ منتقدا ومبينا متى يحكم للمظلوم بالعدل إذا كان الحاكم خصمه:[5]

1- هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن علي بن هبة الله يوسف الموصلي، له ديوان شعر امتدح فيه عدة ملوك كان سيء العقيدة توفي عام 627هـ/1229م، الزركلي: الأعلام، ج1، ص 62.

2- ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 251.

3- البيرة: بلدة قرب سمياط بين حلب والثغور، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص526.

4- ديوانه، ص203.

5- ديوانه، حققه أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، (د. ط)، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1953، ص210.

ظلمتني دولـــــة العد ل فمن يكشف ظلمي
ومتى يحكـــم لي بال ـــعدل والحاكم خصمي

فالشاعر هنا يكيل اتهام صريح ومباشر للحاكم بالظلم وتقويضه لدولة الحق، وهو لم يقصد شخصه فقط بل كان يتكلم بصوت وضمير مجتمعه وفي ذلك رسالة اجتماعية، وعليه فقد تفطن الشعراء إلى خطر سيادة الظلم وبخس الناس حقوقهم في تقويض أركان المجتمع وفقدان أفراده جذوة الانتماء، وما ترتب عن ذلك خنوع وسلبية شجعت الأعداء على استباحة الحمى والأوطان، فنهضوا إلى إظهار مفاسد ومساوئ القضاة ورجال الحكم، فها هو ابن دنينير يرمي القاضي حجة الدين السهرزورى بالجهل والظلم والفجور، في مثل قوله:[1]

قاضي غد في الويل والثبور من قبح ما يأتي من الأمور
وفي بخله ولؤمه المشهور والظلم والجور وقول الزور
وجهله المركب الموفور معترف بالفسق والفجور

والقاضي محمد بن هبة الله[2] الذي هجاه ابن منير الطرابلسي[3]وأتهمه بالجهل ولا يحمل صفة تدل على معرفته بالقضاء سوى عمامته الكبيرة يخفي تحتها وجها صغيرا وقد زينت برسوم وتصاوير، في قصيدة جاء أولها:

1- ديوانه، تحقيق محمود شاكر سعيد، (د.ط)، جامعة الأزهر، القاهرة، 1981، ص577.

2- هو محمد بن هبة الله بن يحي بن نبدارالشرازي ثم الدمشقي الشافعي، ولى القضاء لبيت المقدس وغيرها توفي عام 635هـ/1237م.

3- هو الحسين أحمد بن منير بن مفلح الطرابلسي شاعر كثير الهجاء خبيث اللسان له ديوان شعر توفي عام 548هـ/1153م، ابن خلكان المصدر السابق، ج1، ص156.

هو قاض كما يقال ولكن ما عليه من القضاء من علامة
عمة تملأ القضاء على وجـــه ضئيل كعشر عشر العلامة
وعليها من التصاوير مالم يجمع الدقس بعضه أو قمامة[1]

وحدث سنة 663هـ/1265م أن اجتمع على ولاية القضاء بدمشق ثلاثة من القضاة كان لقبهم شمس الدين، وقد اتخذ بعض الشعراء من ذلك مناسبة للقدح والسخرية كقول أحدهم:

أهل دمشق استرابوا من كثرة الحكام
وهم جميع شموس وحالهم في ظلام

وقال آخر:

أظلـــم الشـــام وقد ولى الحكم شمـــوس
وليس فيهم من يبت الحكـــم عليها أو يســوس[2]

ووافق الشاعر ابن عنين الملك المعظم عيسى عندما أقدم على غلق أبواب المسجد الأموي والتمس له تعليلا حين طعن في أمانة سدانة المسجد وعزل القيمين عليه الذين نهبوا أمواله بقوله:[3]

لما رأى الجامع أمواله مـأكولـة بيـن نوابه
جن فمن خوف عليه غدا مسلسلا من كـل أبوابه

1- العماد الأصفهاني: الخريدة، قسم شعراء الشام، ج2، ص12.
2- أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص236.
3- ديوانه، ص143.

ويبدو واضح مما سبق أن الشعراء لم يتأخروا في تحمل قضايا مجتمعهم والإنتصار للعامة باستعمال فكرها ولغتها في مجابهة الفساد الإداري والمالي الذي نخر المجتمع وشل مفاصل الدولة وجعلها لقمة صائغة في أيدي أعدائها.

المطلب الثاني: الدعوة إلى الجهاد وهجاء المتقاعسين عنه.

انتصب الشعراء منذ وقت مبكر للتحريض على رد العدوان الصليبي عن ديار الشام والتحذير من الخطر الذي يمثله على الدين والعرض والأرض، فهذا الشاعر ابن الخياط[1] حين شاع خبر مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام وأمراء المسلمين لهين في منازعاتهم، فاترين عن مجابهة جحافل الفرنج، انتصب محرضا وداعيا غضب الدولة زعيم الجيوش في دمشق لإعداد العدة بقوله: [2]

وقد حاش من ارض إفرنجه جيوش كمثل جبال نردا
أنومـــا على مثل هدّ الصفاة وهزلا وقد أصبح الأمر جدا
وكيف تنامـــون عن أعين وترتم فاسهر تموهن حِقدا
بنو الشرك لا ينكرون الفساد ولا يعرفون مع الجور قصدا
ولا يردعـــون عن القتل نفسا ولا يتركون من الفتك جهدا
فكم من فتـــاة بهم أصبحت تدق من الخوف نحرا وخدا

وبعد أن وصف الشاعر حال المشركين وقسوتهم وعلى المسلمين راح يحرض غضب الدولة على الجهاد قائلا: [3]

فحاموا عن دينكم والحريم محاماة من لا يرى الموت فقدا
وسدو الثغور بطعن النحور فمن حق ثغر بكم أن يسدا
فقد أينعت رؤوس المشركين فلا تغفلوا قطافا وحصدا

1- هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي بن يحي التغلبي المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي الكاتب وهو من الشعراء المجيدين، ولد سنة 450 هـــ/1058 م وتوفي عام 517 هـــ/1123 م، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـــ 9، ص 118.

2- ديوانه، عنى بتحقيقه خليل مردم، (د. ط)، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1958، ص 182.

3- المصدر نفسه، ص 183.

وكان لاحتلال بيت المقدس عام 492هـ/1098م وبقاء جل قادة المسلمين مسالمين أو مستسلمين للفرنج أثر بالغ في نفوس الشعراء، فراحوا يستنهضون ويشحذون الهمم[1]، فقد دعا الشاعر ابن منير الطرابلسي عماد الدين زنكي (ت 541هـ/1164م) إلى تحرير بيت المقدس بعد فتح مدينة الرها عام 539هـ/1144م في قصيدة مطلعها: [2]

بعماد الدين أصبحت عروة الديـــ ن معصوبا بها الفتح المبين
وغدا يلقى على القدس لها كلكل يدرسها دَرْسَ الدَّارينْ

كما أورد المؤرخ تغري بردي قصيدة لأحد الشعراء يصور فيها الذل والهوان الذي لحق بالإسلام والمسلمين بعد سقوط بيت المقدس:

حل الكفر بالإسلام ضيما يطول عليه للذين النّحيب
فحق ضائع وحمن مباح وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسه سليبا ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرا وعلى محرابه نصب الصليب
أتسبي المسلمات بكل ثغر وعيش المسلمين إذا يطيب
أما لله والإسلام حق يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا أجيبوا الله ويحكم أجيبوا [3]

من جهته حث الحافظ أبو القاسم ابن عساكر، نورالدين محمود زنكي على تحرير بيت المقدس ومقدساته بعد أن أصبحت حلب ودمشق ومصر والموصل تابعة له بقوله:

1- إبن منقذ: الإعتبار، ص 144.
2- ديوانه، ص 210، أبو شامة: كتاب الروضتين، ج1، ص40.
3- النجوم الزاهرة، جـ 5، ص 151.

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد أصبحت تملك مصر إلى حلب
وان بذلت لفتح القدس محتسبا للأجر جو زيت خيرا غير محتسب
وللأجر في ذاك عند الله مرتقب فيما يثبت عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه خير من الفضة البيضاء والذهب
طهر المسجد الأقصى وحوزته من النجاسات والأشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا وفي القيامة تلقى حسن متقلب[1]

وبنفس عبارات الاستجداء ينهض ابن القيسراني محرضا ومحفزا نور الدين زنكي على تخليص بيت المقدس قائلا:

فانهض إلى المسجد الأقصى بدي لجب يوليك اقصى المني فالقدس مرتقب
وإن تتم ساحل البحر ما لكا فلا عجب أن يملك الساحل البحر
وصلت بمعراج النبي صوارم مساجدها شفع وساجدها وتر[2]

ويصور ابن منير الطرابلسي عيسى –عليه السلام–، قد جاء مستنجدا بنور الدين زنكي وسيفه ليخلصه ويخلص بيت المقدس من جحافل الصليبيين وأفعالهم، وهي أفعال لا يرضى عنها المسيح –عليه السلام، ويقرن الشاعر حديثه هذا بالدعاء لنور الدين زنكي بالبقاء ليكون حاميا للدين حين قال:[3]

أبقاك للدنيا وللدين من خلاك في ليلهما نيرا
حتى ترى عيسى من القدس قد نجى إلى سيفك مستنصرا

[1]– الأصفهاني: خريدة القصر –قسم شعراء الشام–، جـ2، ص 277
2– ابن واصل: مفرح الكروب، جـ 1، ص 121.
3– ديوانه، ص 207.

ثم يدعوه إلى مواصلة الجهاد وشن حملة شعواء تصلى الصليبيين سعيرا وتخلص بيت المقدس من قبضتهم، وكان ذلك سنة 547 هـ/1152 م عندما افتتح حصن أنطرسوس وخلصه منهم بقوله: [1]

إن الأولي أمنوا وقاعك بعدها غُرُوا وقد ركبوا الأغر غرورا
ألق العصا فيمن أطاع ومن عصى منهم ودمّر أرضهم تدميرا
وتريك لامعة التريك بساحة الـ أقصى مطهرة لها تطهيرا
أوليست من قوم إذا هزوا القنا قتلوا معا صمهم لها تسويرا

ولم يتأخر العماد الأصفهاني هو الآخر في الدعوة إلى حركة التحرير، حيث نجده يهنئ نور الدين زنكي بفتح قلعة منبج عام 563 هـ/1167 م، ويصور هذا الفتح بأنه مفتاحا لكل فتح آت ويحثه على استرداد بيت المقدس بقوله:

بشرى الممالك فتح قلعة منبج فليهن هذا النصر كل متوج
أعطيت هذا الفتح مفتاحا به في الملك بفتح كل باب مرتج
وافي يبشر بالفتوح وراءه فأنهض إليها بالجيوش وعرج
أبشر فبيت المقدس يتلو منبجا ولمنبج لسواه كالأنموذج
فانهض إلى البيت المقدس غازيا وعلى طرابلس ونابلس عج[2]

وعندما تولى صلاح الدين الأيوبي زمام الحكم استمر في حركة التحرير، واستمر الشعراء معه في تعبئة النفوس وشحذ همم القادة والملوك، ففي سنة 562 هـ/1166م أنشد العماد الأصفهاني قصيدة يفخر بها بصلاح الدين ويدعوه إلى فتح بيت المقدس وتطهيره من الشرك وأهله واستهل أولها: [3]

1- المصدر نفسه، ص 246.
2- أبو شامة: كتاب الروضتين، جـ 1، ص 380، الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ 2، ص 48-49.
3- خريدة القصر -شعراء الشام-، جـ 1، ص 151.

فسر وافتح القدس وإسفك به دماء منى تجرها تنظف
وأُهد إلى الإسبتار البتار وهدّ السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلاد يخلصك ربك في الموقف

ثم تكررت دعوات التحرير من قبل الشعراء سنة 579 هـ/1183 م عندما أنشأ ابن ساعاتي [1] قصيدة يستجدي فيها الناصر صلاح الدين ومبشر القدس بفتح قريب بقوله: [2]

فليعلم القدس أن الفتح منتظرُ حلوله وعلى الآفاق فليطل
وافاك يوسف يا بيت الخليل فلا تيأس فإنك فيه صادق الأمل
فلا تضيعه فما الدين الحنيف على خلقٍ سواك من الدنيا بمتكل

وبقدر ما أسهب الشعراء في استجداء القادة والأمراء الثائرين وحثهم على تحقيق المزيد من الانتصارات، بقدر ما كان شعرهم سمّا ناقعا على هؤلئك المتخاذلين والمتقاعسين عن واجب الجهاد ونصرة الأوطان والمقدسات، فعندما سقطت بعض بلاد الشام ولم يتحرك أمراء المسلمين لنصرة إخوانهم وإنقاذهم مما وقعوا فيه، نهض إبن المظفر الأبيوردي [3]، معرضا بهم في قصيدة مطلعها:[4]

1- هو علي بن محمد بن رستم بن هردوز أبو الحسن بهاء الدين إبن ساعاتي، شاعر مشهور خراساني الأصل ولد ونشأ في دمشق، كان أبوه يعمل الساعات، وله ديوان شعر توفي عام 604 هـ/1207 م، إبن حلكان: المصدر السابق، جـ 3، ص 395.

2- ديوانه، تحقيق انيس المقدسي، (د.ط)، مطبعة كلية الآداب والعلوم بالجامعة الامريكية، بيروت، 1939، جـ 2، ص 384.

3- هو أبو المظفر الأبيوردي محمد أبي العباس، الشاعر الإخباري النسابة صاحب التصانيف والفصاحة والبلاغة، توفي عام 507 هـ/1173 م مسموما بأصبهان، الذهبي: العبر، جـ 2، ص 391.

4- الأبيوردي: ديوانه، تحقيق عمر الأسعد، (د.ط)، مجمع اللغة العربية، دمشق، (د.ت)، جـ2، ص156.

وشر سلاح المرء دمع يفيضه إذا الحرب شبّت نارها بالصوارم
إخوانك بالشام يضحي مقبلُهُم ظهور المذاكي[1] أو بطون القشاعِم[2]
تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخَفَضَ المسالم
وكم من دماء أبيحت ودمى توارى حياء حسنها بالمعاصم[3]

فالشاعر هنا يوجه نداء ولوم إلى الذين تهاونوا في نصرة إخوانهم من أهل الشام الذين لم يجدوا وقتا ينامون فيه في بيوتهم، فجل أوقاتهم على صهوات الخيول يحاربون، وأن الوقت ليس لذرف الدموع على الفقدان، ويهددهم بعار تسليم النساء للأعداء أن ظلوا على ما هم عليه من خنوع وجبن وقعود عن الجهاد، وذلك حين مثل النساء الجميلات بالدمى، ثم يواصل مستوفيا المزيد من صور الخنوع وفتور الحمية والغيرة في النفوس، عندما يتعجب من شجعان المسلمين من عرب وعجم أن يقبلوا بمثل هذا الذل والهوان بقوله:

أرى أمتي لا يسرعون إلى العِدَا رماحهم والدين واهي الدائم
يجتنبون النار خوفا من الردى ولا يحسبون الغار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ويغضى على ذل كماه الأعاجم[4]

وفي نهاية القصيدة يسترسل الشاعر ساخرا من قومه المتوارين عن الجهاد:

فليتهم إذا لم يذودوا حمية عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذا حمي الوغى فهلا أتوه رغبة في المغانم
فإن أنتموا لم تغضبوا بعد هذا رمينا إلى أعدائنا بالجرائم [5]

1- المذاكي: جمع مذكي وهو الحصان الذي تمت سنه وتكملت قوته، ابن منظور: لسان العرب، جـ 15، ص 274.
2- القشاعم: جمع قشعم وهو المسن من النسور، المصدر نفسه، جـ 12، ص 484.
3- إبن الأثير: الكامل، جـ 10، ص 284.
4- الأبيوردي: ديوانه، جـ2، ص156.
5- الأبيوردي: ديوانه، جـ2، ص156.

فالشاعر يظهر تهكمه الشديد في هذه الأبيات حين خاطب قومه إن كنتم لا تغارون على دينكم ومحارمكم ولا رغبة لكم في الأجر والثواب، أفلا تحاربون رغبة في الغنيمة، وفي هذا توبيخ لهم.

ولم يكتف شعراء عصر الحروب الصليبية في تحريضهم على الجهاد التعريض بالحكام المتقاعسين على أسلوب الهجوم التقليدي والمباشر، حين استخدموا أسلوب المقابلة والمقارنة لإشعال التنافس بين الحكام في الذود عن الحمي وإيقاد النفوس الراكدة واستثارتها ودفعها لمجاراة أهل الجهاد والمرابطة، وذلك عندما عمدوا إلى إبراز محاسن الحاكم الثائر والناهض والغيور على دينه وأرضه، وكشف مساوئ المتخاذل والمتقاعس، ومن أمثلة ذلك قول ابن منير الطرابلسي في الملك عماد الدين زنكي: [1]

أصبحت دون ملوك الأرض منفردا بلا شبيه إذ الأملاك أشباه
مشمرا وبنو الإســـلام فـــي شـــغل عن بدء غرس لهم أثمار عقبـــاه

ويعاود ابن منير الطرابلسي نعت المتقاعسين بالثعالب، لأن هؤلاء المتخاذلين انزووا في قصورهم العاجية حين سمعوا زئير الأسد نور الدين زنكي، وكأن الأمر لا يعنيهم فيقول: [2]

خنس الثعالب حين زمجر مصحر ملأ البلاد همّا وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق جعلت محاقته القصور قبورا

كما نهض أسامة ابن منقذ مقارنا بين نور الدين زنكي وغيره من الحكام فقال:

1- ديوانه، ص 226.

2- المصدر نفسه، ص 241.

جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمر
هم الملوك البيض والسمر كالدمى وهمتنا البيض الصوارم والسمر
لا يقعدن ما حل وما عقدوا هم الذهاب وأنت الضغيم الأسد
والقوم قد قعدوا عما نهضت به من السداد فلا قاموا ولا قعدوا
ولا يثاب المعالي فوقهم جُددُ[1] ولا طرق الأماني نحوهم حدد
إياك تغفل عنهم مثل ما غفلوا إياك ترقد عنهم مثلما رقدوا[2]

فالشاعر هنا يعرض بالحكام الذين فرغوا أنفسهم وجعلوا أوقاتهم محصورة على سماع الأغاني ومعاقرة الخمور وبمجالسة الجواري الحسان، بينما نور الدين صرف جل وقته في مقارعة الصليبيين، فالشاعر هجا المتقاعسين معتمدا على أسلوب المقابلة فشبههم بالذئاب ويشبه نقيضهم بالأسد، وهي مقارنة تظهر التباين الكبير بين العاملين الذين تفرغوا إلى إعداد السيوف والرماح وغيرهم من المتقاعسين المتخاذلين الذين انشغلوا بالغواني البيض والسمر.

ويواصل الشعراء في ذم المتقاعسين عن الجهاد وإنكار وجودهم واعتبار مراكزهم شاغرة، فمن يدير شؤون البلاد لا رأي له فهم بين حاكم بعقل خصي وآخر بعقل صبي، وتلك الصفات ليس فيها من الرجولة في شيء، فالقيادة تحتاج إلى رجل فطن قادر على إصلاح الفساد، وهي تتوفر في قائد صلاح الدين الأيوبي، وفي هذا يقول إبن سنا الملك[3]: [4]

1- جدد: الأرض المستوية، ابن منظور، لسان العرب، جـ 3، ص 109.

2- العماد الأصفهاني: خريدة القصر -شعراء الشام- جـ 2، ص 412.

3- هو القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد السعدي المعروف بابن سناء الملك، شاعر مصري صاحب ديوان بديع النظم، توفي عام 608 هـ/1211 م، إبن خلكان: المصدر السابق، جـ 6، ص 61.

4- ديوانه، إعتنى بتصحيحه محمد عبد الحق، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، 1975، جـ 2، ص 10.

أصبحوا منه في هم وصبحهم وهم سكارى بكأس اللهو والطرب
تفرغوا لنعيم العيش واستغلوا عن الثغور بلثم الثغر والشنب
أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها بمالك فطن أو سايس درب
ممالك لم يديرها مديرها إلا برأي خصي أو بعقل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت من الفساد كما صحت من الوصب[1]
وقد حواها وأعطى بعضها هبة فهو الذي تهب الدنيا ولا يهب

يصور الشاعر في هذه الأبيات كيف أضحى الحكام المتقاعسين مشغولين بالبحث عن الملذات والعيش الرغد، مستخدما أسلوب المقارنة بينهم وبين صلاح الدين من خلال كلمة الثغور التي تدل على الجهاد والمقاومة، والثغر الذي يدل على فاه الإنسان، كما وظف الشاعر كلمة خصي وصبي لإظهار عجزهم وقصورهم وتدخل خدم القصر في إدارة شؤون الإمارة، أما قول عقل صبي فهي تحمل حقيقة تاريخية تشير إلى الملك الطفل الصالح إسماعيل (ت 577 هـ/1181 م) إبن نور الدين زنكي الذي لم يبلغ إحدى عشرة سنة عندما اعتلى عرش الإمارة بعد وفاة والده. [2]

أما الشاعر ابن الساعاتي فقد جرد الحكام زمن صلاح الدين الأيوبي من فضائلهم النفسية فأتهمهم بالكذب والنفاق وفضح نواياهم أمام الرعية عندما بيّن أن رفعهم لراية الجهاد لا ينم عن رغبة في نفوسهم وإنما رياء للرعية واسترضائها عكس صلاح الدين الذي حجب نورهم وحارب نصرة للدين وغيرة وفي ذلك قوله: [3]

يقاتل كل ذي ملك رياء وأنت تقاتل الأعداء دينا
قضيت فريضة الإسلام منها وصدقت الأماني والظنون

1- الوصب: هو التعب والمرض والوجع، إبن منظور، لسان العرب، جـ 1، ص 797.
2- إبن كثير: البداية والنهاية، جـ 12، ص 308، الذهبي: العبر، جـ 3، ص 73.
3- ديوانه، جـ 2، ص 406.

ويغالي الرشيد النابلسي[1] في فخره بصلاح الدين إلى حد أنه شبّه بيت المقدس بالشريف الذي ناداه مستنصرا دون غيره من الملوك، فقال:

هو الشريف وقد نادك معتصما فما على مجد من بعدها حذرُ
وسوف تستغفر الأيـــام هفوتهـــا وتحصد الفئة الأوعاد ما بذروا[2]

ويواصل ابن منقذ ويتحدث في المعنى نفسه حين يمايز بين عمل صلاح الدين في الجهاد وبين الحكام المتوارين عنه:

يا نصر الإسلام حين تخاذلت عنه الملـــوك ومطهـــر الإيمان
لما رأيت الناس قد أغواهم الشيـــ يطـــــان بالإلحـــاد والعصيان
جرّدت سيفك في العدا لا رغبة في الملك بل طاعة الرحمن[3]

ثم يسهب فتيان الشاغورى في هذا المعنى حين يقارن بين صلاح الدين الأيوبي الذي تميز بالعفة وشغل وقته في مقارعة الصليبيين، وبين ملوك أمضوا أوقاتهم في رشف ثغور الحسان من الجواري وأهدروا حياتهم في اللهو وتشييد القصور وبناء الخيام قائلا: [4]

أبا لك لثم السمر إعمالك السمرا ورشف ثغور البيض أن تملك الثغرا
وضم الحصان البكر ركضك في الوغى حصانا عليه تفتك الفتكة البكرا
وحبك تطنيب الخيام مقوضا خيام البعد بالقسر أن تألف القصر

أما ابن جبير فيرسم هو الآخر لنا في أبياته صورة تظهر تفرد صلاح الدين في عيشه عن أتاربه من الملوك بقوله:

1- هو عبد الرحمن بن بدر بن الحسن الرشيد النابلسي أكرمه ملوك بني أيوب لفضل أدبه، توفي عام 619 هـ/1222 م، الكتبي: فوات الوفيات، جـ 2، ص 275.

2- أبو شامة: الروضتين، جـ 2ـ ص 194.

3- العماد الأصفهاني، جـ 2، ص 531.

4- ديوانه، ص 151.

تبيت الملوك على فرشهم وترقل في الزرد[1] السابرى[2]
وتوثر جهاد عيش الجهاد على طيب عيشهم الناصر
تسهر ليلك في حق من سيرضيك في جفنك الساهر[3]

فالشاعر يظهر في هذه الأبيات حجم ترف الملوك وانغماسهم في كل ما تشتهيه النفس من طيب الفراش ورغد المعاش في فترة كان المسلمون فيها بأمس الحاجة للتقشف ولتحرير البلاد والعباد، ويتساءل كيف لمثل هؤلاء الذين تعودوا على رغادة العيش أن يقاموا المحتلين؟

وفي السياق نفسه نظم الفقيه إبن سعد الموصلي قصيدة بمناسبة انتصار السلطان صلاح الدين على الفرنج في معركة حصن المناقير سنة 576 هـ/1180 م مادحا السلطان ومشهّرا بالملوك المتقاعسين فقال:

ليفد حياء وجهك كل وجه إذا سئل الندى جهم وقاح
ملوك جلهم مغرى بظلم ومشغول بلهو أو مزاح
يرى الإنفاق في الخيرات حسرا وأنت تراه من خير الرباح
هموا جمعوا وقد فرقت لكن جمعت به الرجال مع السلاح[4]

وخلاصة القول فقد مثلت هذه النماذج الشعرية صورة واضحة عن حكام وأمراء عصر الحروب الصليبية ولاسيما المتقاعسين منهم عن مواجهة الصليبين، ولم تكن هذه الأشعار مجردة بل جاءت في سياق شعر الحماسة والمقاومة وواكبت الأحداث الكبرى.

1- الزرد: الدرع المزرودة، ابن منظور: لسان العرب، جـ 3، ص194.
2- السابرى: من جذر سبر وهو ضرب من الثياب الرقيق الجيد، المصدر نفسه، جـ 4، ص341.
3- أبو شامة: الروضتين، جـ 3، ص 241.
4- محمد بن تقي الدين: مظمار الحقائق وسير الخلائق، تحقيق حسن حبشي، (د.ط) عالم الكتب، القاهرة، 2010، ص44.

المطلب الثالث: الدعوة إلى توحيد الصف وهجاء أمراء النزعات الانفصالية.

كانت وحدة المسلمين تبعث الهلع والفزع في نفوس أعداء الإسلام يذكر أبو شامة في حوادث 583 هـ/1187 م أنه: [1] «لما سمع الفرنج باجتماع كلمة الإسلام عليهم وسير ذلك الجيش إليهم، علموا أنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله وأن الإيمان كله قد برز إلى الشرك كله».

لقد بصر الصليبيون بخطر وحدة المسلمين على أطماعهم في أرض الشرق فعملوا على إشاعة الفرقة والانقسام بين أمراء الشام، باستمالة بعضهم وإغلال قلوبهم على بني جلدتهم مثل ما حدث مع حاكم دمشق مجبر الدين (ت 564 هـ/1169 م)[2]، كما حرصوا على غزو مصر ليحول دون قيام جبهة متحدة دينيا وسياسيا على غرار حملة عمورى الأول ملك بيت المقدس في عام 559 هـ/1164 م[3]، واستجابة الإمبراطور فريدريك الثاني Frederik II لدعوة الملك الكامل (ت 635 هـ/1237 م) لمعاضدته ضد أخيه المعظم عيسى (ت 624 هـ/1226 م) مقابل تسلم بيت المقدس. [4]

وقد شارك الشعراء في الدعوة إلى الوحدة بين مصر والشام والجزيرة، وذلك للوقوف صفا واحد في وجه العدو الصليبي وتحرير الأرض والإنسان، وقد عرف الشعراء أن أهم الأسباب التي أدت إلى احتلال بلاد المسلمين وعلى رأسها بيت المقدس تتمثل في تفرق صفوف المسلمين وانقسامهم وتنازعهم فيما بينهم.

1- كتاب الروضتين، جـ 2، ص 66.

2- إبن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص 137.

3- إبن الأثير، الكامل، جـ 9، ص 309.

4- المقريزى: السلوك، جـ 1، ص 345.

ومن أهم الشعراء الذين شاركوا في الدعوة إلى وحدة المسلمين طلائع بن رزيك [1] وأسامة ابن منقذ، فقد سعى الشاعران إلى توحيد مصر والشام، حيث طلب طلائع بن رزيك من أسامة ابن منقذ أن يحث نور الدين على مواجهة الصليبيين حتى يقف الشام صخرة صلبة أمامهم تمنعهم من التوغل في مصر وتحد من أطماعهم فيها كما يبدو في قوله:[2]

وننـاجيك بالمهمات إذ أنـــ ت بإلقائها إليك خليق
وأهم الأمور أمر الجهاد الـــ كفر فأسمع عندنا التحقيق
ما لهذا مثلك مجد الـــ ـــدين فأنهض به فأنت حقيق
قل له لا عداه رأي ولا زال لديه لكل خير طريق
فأغتنم بالجهاد أجراك كي تلقى رفيقا له ونعم الرفيق

ثم يستطرد ابن طلائع بن رزيك مخاطبا أسامة ابن منقذ قائلا: [3]

فأنهض الآن مسرعا فباعثا لك مازال يدرك المطلوب
والق عنا رسالة عند نورالد ين ما في إلقائها ما يريب
قصدنا أن يكون منا ومنكم أجل في مسيرنا مضروب

ويذكر إبن القلانسي أنه في سنة 545 هـــ/1150م[4]: «تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين وأتفق على أن يذلوا له الطاعة وإقامة الخطبة على منبر دمشق بعد الخليفة السلطان».

1- هو أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب الملك الصالح وزير مصر، تولي الوزارة أيام الفائز مات مقتولا سنة 556 هـــ/1160 م، ابن خلكان: المصدر السابق، جـــ 2، ص 540.

2- ديوانه، جمعه محمد هادي الأميني، ط 1، منشورات المكتبة الأهلية، النجف، العراق، 1964، ص 103.

3- المصدر نفسه.

4- ذيل تاريخ دمشق، ص 309.

وفرح المسلمون لاتفاق قادتهم في الشام، ورأى ابن القيسراني في ذلك الاتفاق عاملا مهما لتحرير بيت المقدس من الاحتلال الصليبي، ومعلنا بزوغ فجر النصر والتحرير كما بدا في قوله مخاطبا نور الدين:

لك الله إن حاربت فالنصر والفتح وإن شئت صلحا عدّ من عزمك الصلح
متى التق نقع الجحفلين على الهدى فلا مهمه يحوى الضلال ولا سفح
إذا سار نور الدين في الجيش غازيا فقولا ليل الإفك قد طلع الصبح[1]

فعندما حاصر نور الدين زنكي دمشق بسبب معاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، وهذا ما ذكره ابن القلانسي:[2] «وقد ضاقت صدور أهل الدين والصلاح وزاد إنكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة والأسباب المستبشعة»، ودعا هذا الموقف الشعراء إلى تحريض نور الدين ضد من خانوا دينهم وأمتهم وأرضهم، ومن أمثلة ذلك ما فعله الشاعر ابن منير الطرابلسي، الذي كتب إلى نور الدين زنكي يحرضه على من تعاونوا مع العدوّ الصليبي، ويصف الشاعر المتعاونين مع العدوّ بالنفاق والكفر والضلال والخداع الخيري ويدعوه إلى القضاء عليهم[3]، ويحثه في نفس الوقت على تحرير الأقصى وتطهيره من كل رجس ودنس، ويصور بلد خليل الرحمن وغزة هاشم مستجيرة بنور الدين وفي ذلك يقول:[4]

أثارهم نجس أذال المسجد الـــ أقصى فصن ما دنسوه وطهر
جار الخليل ومن بغزة هاشم بلهامك المتدشق المتمصر

1- أبو شامة: الروضتين، جـــ 1، ص 179.
2- ذيل تاريخ دمشق، ص313.
3- أبو شامة، الروضتين، جـــ 1، ص 77.
4- ديوانه، ص 229.

ثم يواصل ابن منير ويصب جام غضبه على حاكم دمشق مجير الدين، ويصفه بمبيد الدين، حارب حزب الله وتنصر وقد يتهود ويصور أنه ما لحق باليهود في بيت المقدس في عهد بختنصر أقل مما تجرعه مجير الدين وأتباعه كما يبدو في قوله:[1]

وأقسم ما ذاق اليهود بابليا وموضعها من بختنصر أسود
حملت الصليب باغيا ونبذته وثغرك مطووس النبات وأدرد[2]
وحاربت حزب الله والله ناصر لنـــاصـــره وديـــن أَحَمَدَ أَحْمَدُ
تنصرت جبنا والبلاء موكل ولابد مـــن يـــوم بـــه تتهودُ

ويحط الشاعر من قدر مجير الدين ويصفه بأنه ألعوبة وأحمق وإمعانا في تحقيره جعله أنثى فنفى عنه صفة الرجولة ورماه بالعجز بحيث لا يستطيع أن يأتي أعمال جليلة ذات قيمة حين أنشد: [3]

رماك بباقلا دمشق فلم تكن سوى بقلة حمقاء بالحمق تحصد
وجالدت جلادا وأنت مؤنث تذكرت والجلاد أدهى وأجلد
تطاولت لا نفس تسمى ولا أب وراءك زحفا، إنما أنت مقعد

وزاد الشاعر في امتهان كرامته، فألصق به صفة الكفر ولا غرابة في ذلك كما يقول لأنه من بيت حاضن للكفر، فأمه نصرانية وأبوه وعمه مجوسيان بقوله: [4]

تنصرت أما بل تمحبست والدا وعما، فعرق الكفر فيك مُردَدُ

وقلل من شأنه مقارنة بنور الدين وبين أن الفارق بينهما كبير كما يبدو في قوله: [5]

1- المصدر نفسه، ص 251.
2- أدرد: الدرد ذهاب الأسنان ورجل أدرد ليس في فمه سن، ابن منظور: لسان العرب، جـ 3، ص 166.
3- ابن منير: المصدر السابق، ص 252.
4- المصدر نفسه.
5- المصدر نفسه.

أمسعاه نور الدين تبغي ودونها الـــ أسنة بُتْرُ والعوامل تُعضَدُ
وهل يستوي سار تأسد طاويا ونشوان يعلى معصما ويؤيد

ولم يستثن ابن منير الطرابلسي الأمراء الذين سعوا لعرقلة جهود نور الدين ووصفهم بالمنافقين ومن دعاة الفتن فلا عهد لهم، وذهب إلى حد اتهامهم بالردة عن الإسلام، راح يحرض نور الدين على قتالهم واستئصال شأفتهم وكسر شوكتهم وتفريق شملهم، وفي قصيدة مطلعها: [1]

صفّر بحد السيف دار أشائب [2] عقلوا جيادك عن بنات الأصفر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا نارا تحش[3] بهم غدا في المحشر
شرد بهم من خلفهم مستنجدا ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل شق الهدى نفس الذي أدْ درع الضلال على أغر مشهر
قلده ما أهدى علي بمرحب [4] فلقد تهكم في الخداع الخيبري
مـــا الغش ممن أمـــــه نصرانة لم تختتن كالغش من متنصر

فالشاعر هنا يغالي من خطرهم ويذكر نور الدين بأن خطرهم أشد من النصارى، فالعدو ظاهر معروف أما هم فمنافقون في الخفاء لذا يجب أن يكون عقابهم أنكى وأمرّ، ولما أصبحت مصر تابعة لنور الدين واتحدت بالشام عام 567 هـــ/1171 م أنشأ العماد الأصفهاني قصيدة يهنئه فيها بملك مصر ويدعوه إلى غزو الفرنج وتطهير بيت المقدس بقوله:[5]

1- ابن منير: المصدر السابق، ص 252.
2- أشائب: أخلاط الناس وشوب الخلط، إبن منظور: لسان العرب، جـــ 1، ص 510-511.
3- تحش: توقد، المصدر نفسه، جـــ 6، ص 285.
4- مرحب: هو اليهودي الذي قتله علي بن أبي طالب في خيبر سنة 7 هـــ/628 م، ابن الأثير: الكامل، جـــ 2، ص 2018.
5- ديوانه، جمعه وحققه ناظم رشيد، (د.ط)، مطابع جامعة الموصل، 1983، ص 380.

بملك مصر أهنئ مالك الأمم فأسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
أغزو الفرنج فهذا وقت غزوهم واحطم جموعهم بالذابل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثـ ـب على البغاث وثوب الأجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز من الإسـلام منتظم

فالشاعر يعد توحيد الشام ومصر طريقا إلى فتح بيت المقدس، وكيف لا يكون ذلك وقد أصبح المسلمون يدا واحدة وقلبا واحدا كما يقول في قصيدة أنشأها يمدح أسد الدين شيركوه يهنئه بفتح مصر وتوحيدها مع الشام بقوله: [1]

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب كم راحة جنيت من دوحة التعب
فتحت مصر وأرجو أن تصير بها ميسرا فتح بيت القدس عن كثب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من فتح البلاد فبادر نحوها وثب

كما عرض أسامة ابن منقذ بأمير دمشق معين الدين آنز (ت 543 هـ/1184 م)، الذي لم يكتف بالتقاعس عن حماية ملكه، بل عمد إلى الاتصال بالصليبيين ومسالمتهم ليحول بين نور الدين وطموحه في تحقيق الوحدة الشامية حيث قال فيه: [2]

أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة ولم يرو سنـان السمهري دم[3]
وكنت أحسب من والاك في حرم لا يعتز به شيـب ولا هرم
هبنا جنينا ذنوبا لا يكفرها عذر فماذا جنى الأطفال والحرم
ألقيتهم في رضى الإفرنج متبعا رضى عبدا يسخط الرحمن فعلهم
هلا أنفت حيـاء أو محافظـة من فعل ما أنكرته العرب والعجم

1- ديوانه، ص 79.

2- المصدر نفسه، ص 147.

3- السمهري: سمهر إسم رجل يبيع الرماح، ويقصد بها في البيت الرماح الصلبة، ابن منظور: لسان العرب، جـ 4، ص 381.

فقد وبخ الشاعر مهجوه وعراه من الحياء وشين فعلته لما سلم مدينته إلى الفرنج سعيا لإرضائهم دون مبال بسخط وغضب الرحمن، ويستطرد أسامة ابن منقذ في ذمه للإنفصالين حين يقدم على كشف خطر بعض الأسر المتنفذة في دمشق على سياسة الحكام كبني صوفي[1] وحذر من سوء سيرتهم ولا ينبغي أن يتخذ منهم الأعوان والمساعدون لأنهم بطانة فاسدة وفيهم يقول:[2]

هم الأعادي وقاك الله شرهم وهم بزعمهم الأعوان والخدم
إذا نهظت إلى مجد تؤثله تقاعدوا فإذا شيدته هدموا
وإن عرتك من الأيام نائبة فكلهم للذي يبكيك مبتسم

فالشاعر ينعتهم دون مواربة بأنهم معاول هدم وتخريب، وأنهم يظهرون خلاف ما يبطون ولا يتورعون في إظهار سعادتهم في وقت النوائب والمصائب بل يتمنونها للناس، ومن الشواهد الشهرية الدالة أيضا عن هذا الإتجاه ما عبر عنه ابن الفراش[3] فقد سجل شعره سيرة الحلبيين السيئة وموقف حكامها المشين حين استغلوا صغير سن ابن الملك نور الدين زنكي –الصالح إسماعيل– لإعاقة الجهود الوحدوية لحكام مصر وفيهم قال:

عصت حلب وقاتل ساكنوها وليس قتالهم لك بالعجيب
لأنك ناصر الإسلام حقا وهم رهط المغيرة أو شبيب
جهادك إن طلبت الغزو فيهم أهم إليك من غزو الصليب
أناس دبت الأعلال فيهم وليس لهم كسيفك من طبيب
ولم يدخرك نور الدين إلا لتدفع عنه نائبة الخطوب

1– هم من الاسر النافذة في دمشق، وكان منهم الوزير مؤيد الدين بن المسبب بن علي، أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 227.

2– ديوانه، ص 147.

3– هو محمد بن موسى أبو عبد الله شمس الدين المعروف بابن الفراش، شاعر مجيد من أعيان الدولتين النورية والصلاحية، من أهل دمشق ولي بها قضاء العسكر في أواخر عهد نور الدين زنكي إلى أن توفي عام 588هـ/1192م، إبن كثير: البداية والنهاية، جـ 8، ص 503.

فخلص إبنه بالسيف منهم فقد حبسوه في بلد جديب
يبيت وقلبه المحزون أشهى إلى لقياك من ضم الحبيب
صغير بينهم لا بل أسير غضيض الطرف مبحوس النصيب
تذكر عهده وأحنن عليه ونفس عنه تضييق الكروب
ولا يغررك من يوليك ودا ويلوى عنك أجفان المريب[1]

فقد تفنن الشاعر في هجوهم والحط من قدرهم، حيث نعتهم بأنهم انتهازيون يستغلون الظروف لتحقيق مصالحهم الشخصية، ويشير إلى التمايز بين السلطان صلاح الدين وأهل حلب وشبه موقفهم منه بموقف كفار مكة على رأسهم المغيرة بن شعبة من دعوة الرسول صلى الله عيه وسلم، ملصقا بهم صفة الكفر وزاد عليها حين جعل عصيانهم ومعارضتهم داء ليس له علاج إلا السيف.

أما ابن الفراش فقد أسهب في ذم أهل حلب والانتقاص من شأنهم والازدراء بهم حين وصفهم بأنهم عصاة مارقون لا يدينون بالطاعة لولاة الأمر، وخروجهم عن طاعة صلاح الدين يعد حماقة وصور صورتهم السيئة كالفراش المتهالك يتجمعون حول شعلة النار بصورة عفوية لكنهم لا يدرون أنها تحرقهم لجهلهم بعواقب تصرفاتهم، ومن ذلك قوله:

رأيت المارقين ومن يليهم جميعا من عصى أو مجيب
إذا عنّت صواهلهم وأبدى لها الخطي أخلاق الطروب
فراشا عاينت نارا فأبدت تهالكها على جمر اللهيب[2]

ومن مواقف الشعراء الرافضة لشق عرى الوحدة وصراع على السلطة ما يخلفه من وهن وضعف وطمع الأعداء، ما أظهره الشاعر فتيان الشاغورى حين عرض بالنزاع الذي شب بين الملك الأفضل من جهة وأخيه الملك عثمان إنبا السلطان صلاح الدين

1- العماد الأصفهاني: خريدة القصر -شعراء الشام-، جـ 2، ص 302-303.
2- المصدر نفسه، جـ 2، ص 304.

وعمهما العادل من جهة أخرى، وكان لذلك الخلاف آثار سيئة على دمشق إذا عانت من الجذب والعلاء والحصار الذي فرضه جند الملك العزيز وفيهم يقول:[1]

وعساكر المصري محدقة بنا أطلابها [2] كأجيج نار الموقد
نار أتت من مصر أذكتها لنا إحْنُ أُثير كمينها من صرخد[3]
هم أطلقوا طرف الغلاء فجاءنا عن طرف رخص بالفلاة مقيد
ما بين جذب نحن فيه ورخصهم إلا كغلوة سهم رام حيّد
لما رأيت الناس هروا فتنة ضبثتْ براثنها بكل موحد
تفرقوا صنفين سنيا وشد سعيا وكل قائل أنا مهتد
وهذا يميل إلى أبي بكر وذا ينبغي عليا مخلصا بتودد

فالشاعر لا يخفي رفضه لذلك الواقع الذي خلف آثارا سيئة على أهل دمشق بسبب ذلك النزاع الذي قسم إلى شيع وأتباع فتعددت المعاناة ما بين حصار وجدب وغلاء، وهذا ما دفع الشاعر إلى ذم ذلك الصراع واستنكاره، والأمر نفسه عبر عنه الشاعر ابن عنين حين استنكر فعلة الملك الأفضل والملك الظاهر من حصارهما لمدينة دمشق عقب وفاة الملك العزيز عام 597 هـ/1200 م فأنشأ قائلا:[4]

1- ديوانه، ص 131-133.

2- أطلابها: جمع طلب، وهو الخاطب، ابن منظور: لسان العرب، جـ 1، ص 559.

3- صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، هي قلعة حصينة ينسب إليها الخمر، ياقوت الحموى: معجم، البلدان، جـ 3، ص 401.

4- ديوانه، ص 48-49.

حتى إذا أشرقت منهم دمشق على حرب لها الويل من عقباه والحرب
فكان رأيك فيها راية طلعت بالنصر فانجايت الأواء [1] والكرب
وبات أثبتهم جأشا وأحزمهم رأيا وأمضى سلاحا عزمه الهرب
وكان ظنهم أن تلتقي بهم مصر البوار وتغشى النوبة النوب
فاحفلوا وزعيم القوم غاية ما يرجو من الله أن تبقى له حلب
عزم به أَخْمَدَ الله الشقاق ولا هزّت رماح ولا سلّت له قُضُبُ

فالشاعر في هذه الأبيات يعرض بالمحاصرين ويسخر منهم لأنهم لم يتمكنوا من بلوغ أهدافهم بعد أن خمد ذلك الشقاق وحقنت دماء الطرفين،

وفي الأخير يمكن القول أن هذه النماذج الشعرية مثلت مظهر من مظاهر المقاومة، وإن كان بعضها أقرب إلى الشكوى وإسداء النصح، فإن بعضها عبر عن مواقف الشعراء الرافضة لما كان يحدث من تناحر سياسي، ولاسيما أصحاب التوجهات الانفصالية ما تبع ذلك من وهن وضعف.

1- الأواء: الأي الجهد والشدة والحاجة للناس، ابن منظور: لسان العرب، جـ 15، ص 237.

المبحث الثاني:

دور الشعراء في تخليد مآثر الأمة وتمجيد انتصاراتها

المطلب الأول: مدح أبطال الجهاد وقادته.

المطلب الثاني: رثاء القادة وتخليد مأثرهم.

المطلب الثالث: رثاء المدن الضائعة.

المطلب الأول: مدح أبطال الجهاد وقادته.

المدح هو نقيض الهجاء ويقصد به حسن الثناء[1]، والمديح ضرورة فرضها الإعجاب والإكبار بالممدوح وحاجة الشعراء إلى التكسب والممدوح إلى شاعر يخلده على مر الأيام[2]، وأنصب جل شعر المديح في قالب الصفات المعنوية والقيم الإنسانية النبيلة المتوارثة عبر العصور التي يطيب للنفس البشرية سماعها، وقد حصرها قدامة ابن جعفر في[3]: «العقل والشجاعة والعدل والعفة». وبينها ابن طباطبا بقوله[4]: «هي خلال مشهورة كثيرة منها الخَلَّق الجمال والبسطة، الخُلق والشجاعة والسخاء»، وغيرها من المناقب الموروثة الأصيلة التي تنبه لها الشعراء وأجادوا في عرض معاينها في قوالب لفظية متنوعة.

والمديح من أكثر أغراض الشعر انتشارا في مختلف العصور إذ طرق بابه مختلف الشعراء وصالوا وجالوا في معانيه وألفاظه المستمدة من بيئتهم، وكثر زمن الحروب الصليبية فكان الشعراء يسافرون مع الجيوش يرصدون تحركات القادة ويمدحونهم عقب كل انتصار لإيقاد الحماسة في نفوسهم ودفعهم لتحقيق المزيد من الفتوح[5]، ومن أبطال الجهاد الذين نالوا اهتمام الشعراء وخلدت أعمالهم عماد الدين زنكي (ت 541

1- إبن منظور: لسان العرب، جـ 2، ص 452.

2- الهيب محمد فوري: الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء، ط 1، مكتبة المعلا، الكويت، 1987، ص 77.

3- نقد الشعر، ص 96.

4- عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، (د.ط)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1956، ص 12.

5- محمد علي الهرفي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، (د، ط)، دار المعالم الثقافية، الإحساء، المملكة العربية السعودية، 1979، ص 59.

هـ/1146م) الذي مدحه ابن قسيم الحمدي[1] عقب نجاحه في رد جحافل الصليبيين عن قلعة شيزر عام 533 هـ/1138 م بقوله[2]:

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم
رآك الدهر منه أشد بأسا وشح بمثلك الزمن الكريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا بيوم فيه يكتهل الفطيم
فسيفك في مفارقهم خضيب وذكرك في مواطنهم عظيم

كما مدحه إبن منير الطرابلسي في قصيدة بعد فتحه لحصن بارين _بين حلب وحماة_ عام 534 هـ/1139 م، وقال فيها:

أتتــه الخــلافــة منقادة إليــه تجــرر أذيـــالها
فلم تــكُ تصلــح إلا له ولم يـــكُ يصلح إلا لها
فدتك الملــوك وأيــامها ودام لنقضـــك إبرامها
يا مُحي الدين لما نعا هُ أيامى البرايــا وأيتامها
مستنقذ الدين من أمة أزال المحاريب أصنامها
جررت جزيرتها بالسيو ف حتى تشاءمها شامها[3]

في هذه الأبيات تحدث الشاعر عن حبه لممدوحه ودعا الله أن يجعل ملوك الصليبيين فداء له، ثم تحدث عن جهاده وفضله في إحياء الدين وإنقاذه في وقت تخلى عنه الآخرون.

1- هو مسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم أبو المجد التنوخي الحموي، من شعراء عماد الدين ونادمه، توفي عام 541 هـ/1146 م، الكتبي: فوات الوفيات، جـ 4، ص 134-135.

2- ديوانه، تحقيق سعود محمود عبد الجابر، ط 1، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان 1995، ص 101.

3- أبو شامة، الروضتين، جـ 1، ص 35.

ويستمر شعراء الجهاد في تغذية روح القتال عند قادة المسلمين وحثهم على تحرير بلاد المسلمين من نير الصليبيين، فها هو الشاعر ابن القيسراني يثني على فتح عماد الدين لمدينة الرها عام 539 هـ/1144 م في قصيدة طويلة ويطالبه فيها أن يستمر في جهاده حتى تحرر بلاد الشام كلها جاء أولها:

لا فراقت ظل محي الدين لامعة كالصبح تطوي من الأعداء ما نشروا
ولا أنثى النصر عن أنصار دولته بحيث كان وإن كانوا به نصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكة كأنما جل في أكتافهم عُمَرُ[1]

ويظهر واضحا من كلام الشاعر أنه لم يكن راضيا بما تحقق وكانت نفسه تروم إلى المزيد من الانتصارات حتى تحرر كل حمى وثغور الشام وتعود لها ابتسامتها على غرار ما حدث عند فتحها زمن عمر إبن الخطاب –ض–، ويربط الشاعر بين القدس والرها متطلعا إلى أن المحتلين الصليبيين راحلون في مثل قوله:

فإن يكُ فتح الرها لجة فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديار أن المقيم بها راحل[2]

ولعل الربط بين الرها والقدس يعود إلى أنهما كانتا من الإمارات المهمة بالنسبة للصليبيين فلا عجب أن يذكر تحرير الرها بتحرير القدس، ولم يمر هذا الفتح الذي أعاد للإسلام بهجته على إبن منير الطرابلسي الذي راح هو الآخر يشيد بعماد الدين ونصره العظيم فقال[3]:

فتح أعاد على الإسلام بهجته فافتر مُبْسِمُه وإهتزّ عطفاه
إين الخلائف من فتح أتيح له مظلل أفق الدنيا جناحاه

1– المصدر نفسه، حـ 1، ص 35.

2– عادل جابر صالح: شعر إبن القيسراني، جمع وتحقيق ودراسة الوكالة العربية للتوزيع، ط 1، الزرقاء، الأردن، 1991، ص 335.

3– ديوانه، ص 201.

فقد مضى الشاعر في هذه الأبيات يعلو بحق هذا الفتح وكيف لا وهو الذي استطاع أن يزيل جوسلين وإماراته الصليبية وغرس الأمل في نفوس المسلمين في استرداد بقية الإمارات وعلى رأسها بيت المقدس، وبعد وفاة عماد الدين زنكي وغرت الأماني جوسلين فعاد إلى الرها واستردها سريعا نور الدين محمود، وهنأه الشعراء بهذا الفتح المبين على غرار قول ابن قسيم الحموي:

تبدو الشجاعة في طلاقة وجهه كالرمح دلَّ على القساوة لينه
والديـــــن يشهــد إنـــه لمعزه والشــرك يعلــم أنـــــه لمهينه
فتح الرها بالأمس فانفتحت له أبواب ملك لا يذال مصونه[1]

وفي سنة 544 هـــ/1149 م هاجم حصن حارم وأظهر من الشجاعة والصبر على حداثة سنه ما تعجب منه الناس وانتهت الحرب بهزيمة الفرنج ومقتل البرنس صاحب أنطاكية الذي كان عاتيا من عتاة الفرنج[2]، مدحه الشاعر إبن القيسراني بقوله[3]:

هذي العزائم لا ما تدعي القُضُب وذي المكارم لا ما قالت الكتب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة أوْدى بها الصلب وانحطت بها الصلب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى وكان دين الهدى مرضاته الغضب
ظهرت أرض الأعادي من دمائهم طهارة كل سيف عندها جنب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم فاستسلموا وهي نبع ولا غرب

فقد وصف الشاعر في هذه الأبيات حالة الصليبيين البائسة وهم يلاقون هذه الهزيمة المنكرة، فلا يملكون إلا الإستسلام بعد أن لعبت الموت فيهم، وفي سياق نفسه يقر إبن

1- الأصفهاني: الخريدة _قسم شعر الشام_، جـ 1، ص 474.
2- أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 58.
3- ديوانه، ص 78.

منير الطرابلسي أن نصره هذا لم يكن عارضا بل فتحا عظيما أذل الله به الصليبيين وفتح طريقا واسعا لانتشار ملة الإسلام وبعث المسلمون من مرقدهم حين قال:

أنشرت يا محمود ملة أحمد من بعد ما شمل البلى أصحارها
وكل يوم من فتوحك سورة للدين يحمـــــل سفره أسفــارها
همم تحجلت الملوك وراءها بدم العثار[1] وما إفتقت أثارها[2]

ثم ينتقل الشاعر واصفا هذا الفتح بمثابة ثأر أدركه نور الدين من الصليبيين، واستطاع أن يقضي على الصليب وأهله، وأعاد به مهابة المسلمين في قلوبهم:

أدركت ثأرك في البغاة وكنت يا مختار أمة أحمد مختارها
خرّ الصليب وقد علت نغماتها واستوبلت صلواته تكرارها
ماض إذا قرع الرّكاب لبلدة ألقت له قبل القراع إزارها
ملأ البلاد مواهبا ومهابة حتى استرقت أية أحرارها[3]

يظهر واضح كيف كان لفتح الحصون والمدن صدا لدى الشعراء ولاسيما أن السلاطين والملوك قد غدوا محط رجاء الأمة وموطن أملها، فلم يبخلوا عليهم بالمدح والفخر والإطراء، حيث مثلت قصائدهم دعاية إعلامية جبارة ساهمت في إخراج الأمة من طوق الانكسار إلى الفخر والاعتزاز وإيقاد روح المقاومة في نفوس قادتها وحثهم على المزيد عقب كل انتصار، فهذا العماد الأصفهاني لم يتأخر في تهنئة السلطان صلاح الدين بملك مصر عام 564 هـ/1168 م وحاثا إياه على قتال الفرنج وتشريدهم واسترداد بيت المقدس منهم بقوله:

1- العثار: عثر يعثر عثارًا، أي بالجهاد والحرب، إبن منظور: لسان العرب، جـ 1، ص 539.
2- أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 62.
3- المصدر نفسه، جـ 1، ص 63.

فصبوا على الإفرنج سوط عذابها بأن يقسموا ما بينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيت المقدس واعزموا على فتحه غازين وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيب ذكركم وما الملك إلا أن تديموا لكم ذكرا[1]

كما مدحه الملك المظفر تقي الدين[2] بقصيدة وحثه فيها على أخذ بيت المقدس ومما جاء فيها:

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحا يا كفأها ما العذر عن عذرائها
زفت إليك عروس خِذر تجتلى ما بين أعْيُدِها وبين إمائها
إنه صلاح الديـــن خذهـــــا غادة وبكرا ملوك الأرض من رقبائها
كم خـــــاطب لجمالهـــــا قد رده عن نبلها أن ليس من أكفائها[3]

شبه الشاعر بيت المقدس بالعروس الجميلة وقد جاءت تخطب صلاح الدين لينكحها وصلاح الدين خير كفء لها، وحثه الشاعر على الإستجابة لمطلبها سريعا دون تردد، لأن الكثيرين حاولوا جاهدين أن يحصلوا عليها ويستأثروا بها، ولكن خابت أمالهم لأنهم ليسوا أكفاء لها، وقد وفق الشاعر كثيرا في صوره للوصول إلى غايته.

ولما منّ الله على المسلمين بفتح بيت المقدس سنة 583 هـــ/1187 م أكثر الشعراء من مدح صلاح الدين وخلدوا هذا الحدث العظيم الذي أعاد للمسلمين عزتهم وكرامتهم، ومن جملة هؤلاء الشعراء فتيان الشاغوري الذي عد هذا الفتح هدية قدمها الناصر للإسلام، فوأد فيه الشرك وطهر البيت من الرجس بقوله[4]:

1- أبو شامة: الروضتين، جـــ 1، ص 179.
2- هو الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، عمه صلاح الدين كان واليا على حماة وما جاورها، شارك في الجهاد معه، توفي عام 587 هـــ/1191 م، الذهبي: العبر، جـــ 3، ص 94.
3- العماد الأصفهاني: خريدة القصر _قسم شعراء الشام_، جـــ 2، ص 76.
4- ديوانه، ص 141، 143

أهدى صلاح الدين للإسلام إذ أردى قبيل الكفر ما لم يكفر
واستنقذ البيت عنوة من كل ذي نجس بكل مطهر
فلقد وأدت الشرك يوم لقيتهم وغدوت للإسلام عين المنشر

ويواصل الشاعر ويقول لقد فاق هذا الفتح كل الفتوح التي سبقته، وقد طأطأت رأسها له:

فتح طأطأ كل فتح دونه والشمس تكسف كل جسم نير

أما الرشيد النابلسي فقد ذهب في ابتهاجه بهذا الفتح إلى حد أن أذناه قد طربت لسماع صوت الآذان بعد أن خفت أصوات الناقوس، ويظهر الفرق بين صوت الآذان وقرع الناقوس بقوله:

شتان بين ناقوس يدان به وبين ذي منطق يصغي له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له شم الذرى وتكاد الأرض تنفطر[1]

وعبر في موضع آخر بأنه الفتح الذي تطلع إليه المسلمون منذ زمن:

هذا الذي كانت الآمال تنتظر فليوف الله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت في سالف الدهر أخبار ولا سِيَر[2]

ومن جهة أخرى بيّن ابن المجاور[3] في قصيدة أنفذها لصلاح الدين، كيف أسقط هذا الفتح الصلبات وأبطل النواقس وحل التوحيد محل التثليث بقوله:

1- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ1، ص 230.

2- أبو شامة: الروضتين، جـ 3، ص 409.

3- هو نجم الدين بن المجاور يوسف بن الحسين من بيت مشهور بدمشق عمل في خلافة السلطان صلاح الدين ثم إبنه الغريز توفي عام 601 هـ/639 م، المنذري: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، ط 3، دار الرسالة، بيروت، د.ت، جـ 2، ص 30.

قد أنصف التوحيد من تثليثهم وأقام في الإنجيل حدّ المصحف
أحببت دين محمد وأقمته وسترته من بعد طول تكشف[1]

ويفخر العماد الأصفهاني بزوال الرجس وتطهير بيت المقدس من الشرك حيث ويقول مادحا صلاح الدين[2]:

وطهرته من رجسهم بدمائهم فأذهبت الرجس الذي ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن القدس أرضها وألبستها الدين الذي كشف اللبسا
وعادت بيت الله أحكام دينه فلا بطركاً[3] أبقيت فيها ولا قيسا[4]
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة بأن آذان القدس قد أبطل النقسا

وفي موضع آخر يربط بين فتح مكة وفتح القدس مبينا انتصار الحق في النهاية:

ففي موافقة البيت المقدس للبيت الحرام لنـــا تيه وإعجـــاب
والصخر والحجر المثلوم جانبه كلاهما الإعتمار الخلق محراب
نفى من القدس صلباناً كما نُفيت من بيت مكة أزلام وأنصاب[5]

1- أبو شامة: الروضتين، جـ 3، ص 366.
2- ديوانه، ص 230.
3- البطريك: patriarch إسم قديم كان يطلق على راعي الأسرة أو حاكم قبيلة، وقد استخدم النصارى الأوائل هذا اللقب على رئيس الأساقفة في القسطنطينية والقدس مطلع القرن السادس الميلادي، الموسوعة العربية العالمية، ط 2، مؤسسة أعمال المؤسسة للنشر والتوزيع، الرياض، 1999، جـ 4، ص 464.
4- القس: أو القسيس priest ويطلق عليه أيضا الكاهن، وهو الذي يشرف على رعاية جماعة المصلين في أبرشية وعلى القر بين المقدسة والمواعظ، المرجع نفسه، جـ 18، ص 177.
5- الأصفهاني، ديوانه، ص 75-76.

ويسر ابن الساعاتي على نهجه حين وصف هذا الفتح داء أعيا دواؤه، فكان الشفاء بسف صلاح الدين، فقال[1]:

وما كان إلا الداء أعيا دواؤه وغير حسام الغضب لا يحسن الحسما
هو منقذ البيت المقدس بعدما طـــالت فمـــا وجد الشفـــاء شكاته

ثم بين أن هذا الفتح تناقلت أخباره المدن وطربت له فأطربت ضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وقد ساغ فتح القدس كل منطق وشاع إلى أن أسمع الأسل الصُما
حبا مكة الحسنى وثنى يثرب وأطرب ذياك الضريح وما ضما[2]

يبدو واضحا مما سبق كيف أن الشعراء وظفوا في قصائدهم الشعرية مؤثرات تاريخية، عندما ربطوا بين فتح القدس وفتوحات إسلامية كان لها شأن عظيم في تاريخ الإسلام على غرار فتح مكة عام 8 هـــ/629 م لإبراز عظم الفتح وفضل رجاله، من حيث إذا كان فتح مكة قد طهر الكعبة الشريفة من الأصنام والأزلام، فإن فتح القدس قد طهر مسجدها من الصلبان والنواقس، وأخرى دينية كالصليب والناقوس والآذان وهي ثنائيات دينية تعبر عن حقيقة الصراع وحدته الذي كان قائما بين الصليبيين والمسلمين، وفي الوقت نفسه إستثارة لغيرة المسلمين وتذكيرهم بحرمة مقدساتهم.

1- ديوانه، جـــ 2، ص 385.

2- المصدر نفسه.

وعندما استطاع الملك الأشرف[1] من الاستيلاء على عكا عام 691 هـ/1291 م والقضاء على آخر معاقل الصليبيين في الشام بعد أن استمر وجودهم فيها مائة عام[2] مدحه الشاعر محمود الحلبي[3] بقصيدة مطلعها:

وفتح أتى في إثر فتح كأنما سمـا غدت تترى كواكبهـا الزهر
فكم وطئت طوعا وكرها معاقلا مضى الدهر عنها وهي عانسة بكر[4]

ولم يقف الشعراء عند الفخر والإشادة بانتصارات القادة وفتحوهم فحسب، بل توقفوا عند هزائمهم وانكساراتهم ليس بالعويل والبكاء، وإنما بتقوية عزائمهم وشحذ هممهم وتذكيرهم بانتصاراتهم السابقة وأن ما أصابهم إنما هو من باب الابتلاء وأن الحرب سجال، ومن هزائم التي لحقت بالمسلمين هزيمة موقعة الرملة التي وقعت سنة 573هـ/1177م، والذي مدح فيها العماد الأصفهاني الملك المظفر تقي الدين بقوله[5]:

أخفت الشرك حتى الذعر منهم يرى قبل الولادة في الجنين
ويقوم الرملة الموهوب بأسا تركت الشرك منزعج القطين[6]
وكنت العسكر الإسلام كهفا أوى منه إلى حصن حصين
وقد عرف الفرنج سطاك لما رأوا أثـارهـا عين اليقين
وأنت ثبت دون الدين تحمي حماه أوان في كل دين [7]

1- هو الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون، وهو ثامن سلاطين الدولة المملوكية البحرية، توفي عام 693 هـ/1293 م، المقريزي: السلوك، جـ 2، ص 217.

2- المصدر نفسه

3- هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن زين الدين أبي الغنائم بن فهد بن محمود الحلبي الدمشقي، صاحب ديوان الإنشاد وكاتب عصره توفي عام 725هـ/1324م، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 19، ص 218.

4- ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص 210.

5- ديوانه، ص 422.

6- القطين: قطن بالمكان أي أقام به وتوطنه، ابن منظور: لسان العرب، جـ 13، ص 342.

7- الدين: الذليل المستعبد، المصدر نفسه، جـ 13، ص 160.

في الأخير يمكن القول أن هذه الانتصارات التي حققها القادة ما كانت أن تؤتي ثمارها لولا الدور الكبير الذي لعبه شعراء الجهاد، من خلال الإشادة بهم والفخر بجهادهم وفتوحهم ودفعهم إلى تحقيق المزيد عقب كل نصر أو فتح، فضلا عن إشاعة أخبار الفتوح وتخليدها فمثلوا بذلك ألة دعائية ساهمت بقدر كبير في اصطفاف الأمة حول قادتها، كما يلحظ على شعر المديح الذي إزدهر في هذه الفترة أنه تميّز بصدق العاطفة وحرارتها، إذ أغلب الشعراء كانوا ينضمون قصائدهم لا رغبة في العطاء وإنما بدافع من إيمانهم وغيرتهم على حياض الأمة ومقدساتها، وتلبية لنداء الجهاد بالكلمة والقلم.

المطلب الثاني: رثاء القادة وتخليد مآثرهم.

الرثاء لغة: البكاء على الميت ومدحه، يقال رثى فلان فلانا يرثيه رثيا ومرثية، إذا أبكاه بعد موته، ورثيته مدحته بعد الموت وبكيته[1]، أما معناه في الاصطلاح فيعرِّفه قدامة بن جعفر[2]: «هو أحد فنون الشعر العربي المعروفة، وشعبة من المدح، وغرض أساسي من أغراض القصيدة الشعرية اتخذه الشاعر العربي للتعبير على أحاسيسه وأحزانه إزاء ما مني به من صروف الدّهر ونكباته بفقد من يعز عليه فراقه من الأهل أو الأصدقاء».

وعرفه إبن رشيق القيرواني فقال[3]: «وسبيل الرثاء أن يكون ظاهره التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام»، ولمّا كان الرثاء في الأصل ناشئا من الحزن والأسف قسّمه شوقي ضيف إلى ثلاثة أنواع[4]:

الندب: وهو ما عبر به الشاعر عمّا تكنه نفسه من مشاعر حزينة نحو قريب أو صديق أو وطن، أمّا التأبين: فهو تعداد مأثر الميت وامتداح ما كان يتحلّى به من خصال حميدة وسجايا نبيلة وهو أدنى إلى الثناء فيه إلى الحزن الخالص، والعزاء: هو عرض أفكار تخفّف من وقع المصاب على المفجوع وتحمله على الصّبر والتأسِّي.

ولا يختلف فن الرّثاء عن فنّ المدح من حيث المضمون والمعاني إلّا في أمر واحد، وهو أن شعر المدح يمدح فيه الشاعر شخصا حيّا يعيش بين ظهرانينا فيمجده ويشيد به، وشعر الرثاء يمدح به الشاعر شخصا غادرنا إلى حيث لا رجعة عن ناظرينا فيمجده ويشيد به بما كان له من صفات وأعمال وميزات، وعليه فالرثاء يوافق المدح في المعاني

1- ابن منظور: لسان العرب، ح 14، ص 310.

2- نقد الشعر، ص 111.

3- العمدة في صناعة الشعر ونقده، جـ 2، ص 140.

4- تاريخ الأدب العربي، جـ 1، ص 195.

ويخالفه في المشاعر، على حدّ قول إبن رشيق[1]: «وليس بين الرّثاء والمدح فرق إلا أنّه يخلط بالرّثاء شيء يدلّ على أنّه المقصود به الميت مثل كان...»، وكذلك قول قدامة بن جعفر[2]: «ليس بين المراثي والنعت فرق إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل كان وتوفي وقضى...».

وكان من الطبيعي أن يكثر غرض الرّثاء عصر الحروب الصليبية وتتعدّد صوره من رثاء الأشخاص إلى المدن، حيث بكى الشعراء سلاطينهم وقادتهم ونظموا فيهم القصائد المشجية، ليس فقط لإظهار تفجعهم وحزنهم على ما فقدوا، بل كذلك لاستثارة أقوامهم حتى يسيروا على هداهم وخطاهم في صون الدين وتحرير الثّغور.

ففي سنة 501هـ/1107م حين تمكّن الصليبيون من قتل أحد قوّاد أبق أمير دمشق يدعى قول بن عثمان، بكاه الشاعر إبن الخياط في مرثية استهل أولها:[3]

يا للرجال لنازل لم يحتسب والحادثٍ ما كان بالمتوقع
تا الله ما جار الزمان ولا اعتدى بأشد من هذا المصاب وأوجع
يا قول قوله مكمدةٍ مستنزر ماء السئون له ونار الأضلع
أشكو إلى الأيام فيك رزيتي لو تسمع الأيام شكوى موجع
صل بعدها يا دهر أو فأكفف وخذ من شئت يا صَرْفَ المنية أو دع

وهي مرثية رائعة تمتلئ بأبيات تصور لوعات الدمشقيين في هذا البطل وكارثتهم وفجيعتهم التي لا تماثلها فجيعة، وإن الشاعر ليذرف الدموع الغزار وما وراءها من نار موقدة في الصدور كمدًا عليه، ثم يستطرد مبالغا لينزل الدهر بالدمشقيين بعدها فواجع أو فليكف فلن يصيبهم مثلها فاجعة أو كارثة.

1- العمدة في صناعة الشعر وفقده، جـ 2، ص 147.
2- نقد الشعر، ص 59.
3- ديوانه، ص 213.

وعندما قتل عماد الدين زنكي سنة 541هـ/1146م على يد غلام له قام ابن القلانسي برثائه بقصيدة مطلعها[1]:

كم معقل قد رامه بسيوفه وشامخ حصن لم تفته غنائمه
ودانت ولاة الأمر فيها لأمره وقد أمنتهم كتبه وخواتمه
وأمّن من في كل قطر بهيبة نزاع بها أعرابه وأعاجمه
وظالم قوم حين يذكر عدله فقد زال عنهم ظلمه وخصائمه
وكم ثغر إسلام حماه بسيفه من الروم لما أدركته مراحمه

يظهر واضح كيف استطاع الشاعر هذه الأبيات أن يلخص ويعدّد مناقب وخلال عماد الدين زنكي، حين ذكر كثرة فتوحه في معاقل الصليبيين، وكيف دانت له ولاية الأقطار، واستتب الأمن في عهده، ورفع الظلم عن المظلومين وحمى ثغور الإسلام من الصليبيين، ولأجل ذلك كان الرثاء وكان البكاء، فهو ليس من الأشخاص الذين لا يؤبه لهم ولا يتركون بعد موتهم أثرا.

ويخصه شاعر آخر في مرثية مليئة بالحسرة بقوله:

فأعجب لمن قاد الجيوش ونفسه قسمـــان بيــن الكرّ والإقدام
يلقى الكتائب مفردا بكتائب من نفسه واليوم مكدر حامي
يأتي الفتوح على الفتوح بسيفه وبرأيــه وبغرمــه المقـــدام
حتى إذا الأجل انقضى مستكملا ما خُط في الألواح بالأقلام[2]

فقد بين الشاعر في هذه الأبيات جهاده وكيف كان يقود الجيوش بنفسه ويكون في مقدمة الصفوف ويتبع الفتح بفتح آخر.

1- ذيل تاريخ دمشق، ص 287.

2- ابن الأثير الجزري: التاريخ الباهر، ص 74.

وفي سنة 569هـ/1173م توفي نور الدين محمود زنكي فاهتزّ الشام وبكاه الشعراء وتألموا لفقده، وكانوا يأملون أن يتم فتح بيت المقدس على يديه، من أمثال العماد الأصفهاني الذي رثاه بقصيدة طويلة أظهر فيها التفجع والتحسر الذي أصاب الإسلام والمسلمين بقوله[1]:

الدين في ظلم لغيبة نوره والدهر في غم لفقد أميره
فليندب الإسلام حامي أهله والشام حافظ ملكه وثغوره
من ينصر الإسلام في غزواته فلقد أصيب ركنه وظهيره
من للفرنج من الأسر ملوكها من للهدى يبغي فكاك أسيره
من للبلاد ومن لنصير جيوشها من للجهاد ومن لحفظ أموره
أنت الذي أحييت شرع محمد وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قيصر للروم رمت بقسره إرداء بيض الهند من تاموره
أتيت فتح حصونه وملكت عقـــ ـــر بلاده وشيت أهل قصوره

فالشاعر هنا يقرأن بوفاته قد أظلم الدين الإسلامي بعد ضياء والدّهر أصيب بالغم والحسرة لفقده أميره وحاكمه، فليس على الإسلام إلا أن يندب حظه العاثر لموت حامي أهله وأتباعه، وأن الثغور أصبحت معرضة للأخطار ومدنه للضياع، وبعد هذه المقدمة الحزينة يتحدّث الشاعر عن الفراغ الكبير الذي تركه نور الدين في حياة المسلمين، ويتساءل من يتولى قيادة المسلمين بعده لهزيمة الفرنج وأسر ملوكها، ثم ينتقل ليتحدث عن جوانب مضيئة في حياته كقوله هو الذي أحيى شرع محمّد صلى الله عليه وسلم بعد موت ونشره بعد ادثار، وهو الذي جاهد في سبيل الله حتى فتح العديد من الحصون الصليبية وأعادها إلى حظيرة الإسلام.

1- ديوانه، ص 201.

ورثاه في موضع آخر[1]:

من للخطوب مذللا لجهادها من للزمان مسهلا لوعوره
من كاشف للمعضلات برأيه من مشرق في الداجيات بنوره
أعزز عليّ بأن أراه مغيبا عن محفل متشرف بحضوره

فقد عبر الشاعر في هذه الأبيات عن تفجعه وحصرته، لأن الموت لم يغيب رجل أو قائدا صنع مجد أمّة فحسب، بل فقدوا فيه مناقب وخصال تحميهم من عاديات الزمن، من حكمة وسداد الرأي وإدارة حكم البلاد والمعارك وحلّ المعضلات التي تواجه المسلمين.

ولم تمر فاجعة موت الأمير تقي الدين عمر عام 587هـ/1191م حاكم حماة على الشاعر فتيان الشاغوري، الذي رثاه في مرثية مطلعها[2]:

أباح ثغور الكفر بالسيف عنوة وسدّ ثغور السلم بالطعن في الثغر
رجا قتله الملك المظفر في الوغي شهيدا ونار الحرب طائرة الشرر
وليس ينال المرء شيء سوى الذي قضاه قضاء الله في الخلق والبشر
كيف يلام المسلمون على الأسى وقد عدم الإسلام ناصره عمْر
لقد كان يلقى المرهفات[3] بوجهه وسمر القنا بالصدر والورد والصدر
وكان يرد الجحفل المحر وحده يمسون بالأيدي الظهور من الخور
وترعش أيديهم مهابته فما لضربهم والطعن في جسمه أثر

الشاعر يشيد في هذه الأبيات ببسالته، وبيّن كيف كان يقبل على ساحة الوغى معرضا وجهه للسيوف وصدره للرماح، وكم من حجافل الصليبيين ولوا مدبرين مفزوعين

1- ديوانه، ص 213-214.

2- المصدر نفسه، ص 210-211.

3- مرهفاة: رهف، مرهف، وهي السوف، ابن منظور: لسان العرب، 15 جـ 19، ص 128.

عند ملاقاته، وأن المسلمين فقدوا في شخصه بطلا وسيفا بتارا كان حائلا بين أرض الإسلام وحملة الصليب.

ولما توفيّ بعده صلاح الدين الايّوبي بدمشق عام 589هـ/1193م، بكاه الشعراء من أمثال العماد الأصفهاني الذي خصّه بمرثية بديعة ختم بها كتابه البرق الشامي قائلا[1]:

أين الذي شرف الزمان بفضله وسمت على الفضلاء تشريفاته
ولا تحسبوه مات شخصا واحدا وقد عم كل العالمين مماته
لو كان في عصر النبي لأنزلت في ذكره من ذكره آياته
يا راعيا للدين حين تمكنت منه الذئاب وأسلمته رعاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما رضوان رب العرش بل صلواته

فالشاعر هنا يفخر بمناقب صلاح الدين وخلاله، ويذكر أن موته لم تكن فاجعة في المسلمين فقط بل عمت كل العالمين، ورفع من شأنه وبالغ في منزلته حين قال لو كان في رعيل الصحابة لنزلت في حقه آيات وذلك لكثرة فتوحه وعظيم فضله في استرداد بيت المقدس.

كما ذكره في موضع آخر بأبيات صوّر فيها الفاجعة التي حلّت بالإسلام والمسلمين، و أن الموت لم يغيّب سلطانا فحسب بل أغمد سيفا كان مشرعا ومشهرا في وجه أعداء الله، فقال[2]:

1- البرق الشامي، حـ 3، ص 172.
2- ديوانه، ص 87-88.

أين الذي عنت الفرنج لبأسه ذلا ومنها أركت ثاراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت بالنصر حتى أعمدت صفحاته
بحر أعاد البر بحرا برّه وبسيفه فتحت بلاد السّاحل
من كان أهل الحق في أيامه وبعزه يردون أهل الباطل
في نصرة الإسلام يسهر دائما ليطول في روض الجنان سناته
ملك عن الإسلام كان محاميا أبدا إذا ما أسلمته وحماته
وفتوحه والقدس في أبكارها أبقت له فضلا بغير مساجل

في هذه الأبيات يستعرض الشاعر بعض أعمال صلاح الدين، ويبيّن كيف أذاق الصليبيين الذل حتى اضطرهم إلى الخنوع لبأسه وجبروته، وأنه لم يكن بجهاده طالبا للدنيا ولكن رام به نصرة الدين، ويضرب لنا أمثلة من تاريخ الحروب الصليبية كيف فتح بلاد السّاحل وبيت المقدس، وأعاد العزّة لأهل الحق وهم المسلمون ضد أهل الباطل وهم الصليبيين، كما رثاه في موضع آخر بأنه طبيب للدهر لحكمته تنجح مساعيه في الوقت الذي يخفق فيه غيره من الملوك، موفقا في المعارك بحسن تدبيره وتخطيطه لها:

لم يحد تدبير الطبيب وكم وكم أجدت لطب الدهر تدبيراته
وإذا الملوك سعوا وقصر سعيهم رجحت وقد نجحت به مسعاته
كم جاءه التوفيق في وقعاته من كان بالتوفيق توقيعاته [1]

وللتخفيف من حجم النازلة والفاجعة التي كان وقعها شديد على المسلمين، سلك العماد الأصفهاني أسلوب مغاير في مرثيته، بأن جعل صلاح الدين مختارا لفراق الدنيا غير مكره، وأنه يأنف الحياة في دنيا زائلة ويترفّع عن ملك لا يدوم ويطمح إلى ماهو خالد، وفي ما يجلب السكينة إلى قلوب محبيه وأسرته، فقال[2]:

1- ديوانه، ص 91.

2- المصدر نفسه.

أضَجِرت منا أم أنِفت فلم تكن ممن تصاب لشدةٍ ضجراته
أرضيت تحت الأرض يا من لم يزل فوق السماء عليه درجاته
فارقت ملكا غير باق متعبا ووصلت ملكــا باقيــا راحاته

كما هزّ هول نبأ موت الملك المنصور ناصر الدين[1] عام 617هـ/1220م الشاعر شرف الدين الأنصاري[2] وأذهله عن التصديق، فقال[3]:

نعي أغار الصبر فأزور جانبه وأنجد فيض الدمع فأنهل ساكبه
ورزء أمنا كل رزء لخوفه وهال عمود الملك فانهال كاتبه
أبا لملك المنصور يرجف قائل ركزن عوليه وشيمت قواضبه
تعرض فيه ظن صدقه وكذبه فأصبح عندي أحسن الظن كاذبه

وفي السياق نفسه ينظم ابن عنين مرثية للملك المعظم عيسى ابن الملك العادل عام 624هـ/1226م، فيقول عاتبا الدهر[4]:

يا دهر ويحك ما عدا مما بدا أرسلت سهم الحادثات فأقصدا
أغمدت سيفا مرهفا شفراته قد كان في ذات الإله مجرّدا
تحمي حمى الإسلام منتصرا له بعزائم تستقرب المستبعدا

ثم يعرض الشاعر صورة لما سيؤول إليه حال الإسلام والمسلمين لولا شجاعة ذلك القائد وبأسه:

لولا دفاعك بالصوارم والقنا عن حوزة الإسلام عاد كما بدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة تجتاب ما بين البقيع إلى كدى
ولأمست البيض الحرائر أسهما فيها سبايا والموالي أعبدا

1- هو الملك المنصور ناصر الدين محمّد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن الملك المظفر تقي الدين نور الدولة صاحب حماة، كان شجاعا محبّا للعلماء، الكتبي: فوات الوفيات، جـ 4، ص 12.

2- هو شرف الدين الأنصاري، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، ولد بدمشق عام 586هـ/1190م، برع في العلم والأدب، توفي عام 662هـ/1263م، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 17، ص 546.

3- ديوانه: تج عمر موسى باشا، (د.ط)، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1967، ص 81.

4- ديوانه، ص 60-61.

ويتوفى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب عام 613هـ/1216م فيؤبنه الشاعر فتيان الشاغورى بمثل قوله[1]:

لئن كان خلق الخلق من طين آدم فمن نور خلق الله خلقك يا غازي
فمن لليتامى والأرامل بعده يقوم بإكرام عليهم وإعزاز
مضى ملكه المحروس من عيب عائب ومن عبث الزاري ومن عنت الرازي

يظهر الشاعر في هذه الأبيات كيف كان الملك الفاري مهيبا حازما راعيا لشعبه يكسو العري ويطعم الجائع، عالي الهمة حسن التدبير والسياسة مجزلا العطاء، فحمى بذلك ملكه من عيب عائب، وفي رثائه للملك المغيث بن الملك العادل[2] جاء التعبير عن الحزن عنده مختلفا، فعمل على استثارة المشاعر بالاستغاثة والاستنجاد بالله، ثم صوّر كيف زلزل الحزن أركان الدولة في قلوب النّاس، وكيف تحوّل الحزن فرحا عند أعدائه، فقال:

إلى الملك المهيمن نستغيث لإن ذاق الرّدى الملك المغيث
تذكره الملوك بكل ناد فيكثر في سيادته الحديث
مصاب زلزل الأرضين حزنا بدنيـــانا فأطيبهـــــا خبيث
ورزء كورت شمس المعالي له أسفا وأبهج من يعيث[3]

وعليه فلم يكن مستغربا على شعراء الجهاد عصر الحروب الصليبية إظهار الجزع والتفجع بموت قائد أو زعيم، لأن الحزن لم يكن لذاته أو لشخصه، بقدر ما كان على ما يمثله من قيم ومثل للمسلمين، ودوره في حماية الدين والثغور من عبث الصليبيين، فعملوا

1- ديوانه، ص 213.

2- هو الملك المغيث، عمر بن أبي بكر بن محمد بن أيوب بن شادي، ابن السلطان الملك العادل ملك الكرك مدة، كان جوادا كريما شجاعا حسن السيرة في الرعيّة، توفي عام 662هـ/1263م، الصفدي: الوافي، جـ 22، ص 441.

3- فتيان الشاغوري: ديوانه، ص 72.

على تخليد مأثرهم والإشادة ببطولاتهم بذكر شجاعتهم وعدلهم وجهاد في سبيل الله، ولاسيما أن المجتمع كان بحاجة لمثل هذه الخلال والخصال لإبقاء على النخوة وجذوة الجهاد.

المطلب الثالث: رثاء المدن الضائعة.

إنّ علاقة الإنسان بالمكان علاقة تلازمية تلاحمية، فالإحساس بالمكان والوطن إحساس له أصالته ومكانته في الوجدان البشري، فالإنسان لا يحتاج فقط إلى رقعة جغرافية يعيش فيها، بل يميل كذلك إلى البحث عن مكان يضرب فيه بجذوره؛ وتتآصل فيه هويّته؛ ويشعر فيه بذاته.

ولم يكن الشعراء الشاميون زمن الحروب الصليبية بمنأى عن هذا الإحساس العام، فقد كان للأمكنة والمدن التي سقطت في أيدي الصليبيين حضور واضح في أشعارهم، فأنشأوا أجمل القصائد تخليدا لمآثرها؛ وأسفا على ضياعها وخرابها، وكانت معرة النعمان من أوائل المدن التي رثيت، فعندما خرّبها الفرنج سنة 504هـ/1110م، وأمعنوا في قتل أهلها[1]، أنشد وجيه بن عبد الله التنوخي أبياتا حزينة يندب حظها العاثر، فقال:

هذه صاح بلدة قد قضى الله عليهـا كمـا ترى بالخراب
وقف العيس وقفة وابك من كا ن بها من شيوخها والشباب
واعتبر إن دخلت يوما إليها فهي كانت منازل الأحباب[2]

فالشاعر بكى بحرقة مدينة المعرة متأثّرا بالخراب الذي طال بنيانها والأفعال الشنيعة التي ارتكبت في حقّ أهلها، وطالبا من غيره أن يشاركه حزنه وألمه وبكاءه على شيوخها وشبابها، وأن يكون خرابها عبرة وعظة، وأن كل شيء سيؤول إلى الخراب إذا لم تستنهض الهمم والعزائم.

وعندما وقف العميد أبو البشر بن الحواري على خراب داره في المعرة بعد هجوم الفرنج عليها، كتب قصيدة يتحسر فيها على ما ضاع منه، وفي ذلك يقول:

1- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 136.

2- ابن الجوزي: مرأة الزمان، جـ 8، ص 33.

أهذه بين إنكاري وعرفاني مسارب الوحش أم داري وأوطاني
جهلتهـــا ولقد أبـــدت ملاعبها عهد الصبا بين إخواني وخلاني
فعجت أسألهـــا والدمع منسكب والقلب في لوعة من وجده عان
يا دار مالي أرى الأيام قد حكمت فينا وفيك بحكم الجائر الجاني
فلو أجابت لقالت هكذا فعلت قدمـــا بحيرة نعمـــــان ونعمـــان
وفي مدائـــن نوشـــروان معتبر للسائلين وفي سيـــــف غمـــــدان
فاذهب لشأنك فالدنيا لها دول تمضي وتأتي وكل بينها فان[1]

لقد أظهر الشّاعر في هذه الأبيات المشهد الذي آلت إليه مدينة المعرة من فناء شمل الإنسان والعمران معا، وذكر بأسلوب مشوب بالحزن والألم بعض مظاهر العظمة الزائلة حين قارن بين مدينته وغيرها من المدة التاريخية، كما تراء الشاعر في المدينة أنّها مجسدة في داره فربطها بما في عمره ليوضح أن الفناء شمل جزء من حياته.

وكان لاحتلال بيت المقدس عام 492هـ/1098م، وما تبعه من قتل واعتداء على الحرمات والمقدّسات أثر بالغ في نفوس المسلمين عامة والشعراء خاصّة، الذين عبّروا عن هذا المصاب الجلل بقصائد حزينة ملأت القلوب حسرة وألما، ومن بين هؤلاء أبي المطفّر الأبيوردي الذي أنظم قصيدة مطلعها[2]:

مرجنا دماء بالدموع السواجم[3] فلم يبق من عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفضه إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ليسلم، يقرع بعدها سن نادم
سللن بإيدي المشركين قواضيا ستغمد منهم في الطلا والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة ينادي بأعلى الصوت با آل هاشم

1- الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، جـ 2، ص 87.
2- ديوانه، جـ 2، ص 156.
3- السواجم: سجم سجوما: وهو قطران الدمع وسيلانه، ابن منظور: لسان العرب، جـ 12، ص 280.

فقد استهلّ الشاعر قصيدته بأبيات قوية مؤثرة تضع المستمع في الجوّ العام للمأساة الدامية التي يحياها المسلمون في ديار الشام وتستثير وجدانه لمرأى الدموع الممتلئة بالدم، ثم يستطرد مستثيرا حمية المسلمين لنصرة الأقصى وأهله بقوله إن الوقت ليس للبكاء والندم، وتصل أبياته إلى أعلى درجة الاستثارة عندما صوّر الرسول صلّى الله عليه وسلم قد همّه ما حل بالمسلمين، فأخذ ينادي من قبره الطّاهر بأعلى صوت ويحثّ المسلمين على الجهاد، ويظهر ذلك في لفظ طيبة _المدينة المنورة_ وآل هاشم.

وثمّة أبيات أخرى تنسب إلى شاعر لم تذكر المصادر إسمه، استحضر فيها فظاعة الجرائم التي ارتكبت في حق المسلمين ومقدساتهم، فقال:

أحل الكفر بالإسلام ضيما يطول عليه للدين النحيب
وكم مسلم أمسى سليبا ومسلمة لها حزم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرا على محرابه نصبوا الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق[1] وتحريق المصاحف طيّب
أمور لو تأملهن طفل لطفل في عوارضه المشيب[2]

أظهر الشاعر في هذه الأبيات حجم الذل والهوان الذي حل بالإسلام والمسلمين من سبي وأسر وإراقة الدماء، والتشويه الذي طال المقدسات الإسلامية، حيث بين كيف تم تحويل المساجد إلى أديرة وارتفاع الصلبان على محاربها، كما انتشرت رائحة الخنازير فيها وأصبحت رائحة يتلذذ بتشممها النصارى مع ما يحرقونه من مصاحف، إلى غير ذلك من الأمور التي لو تأمّلها صبيّ لشاب شعر رأسه لفظاعتها وشدّة وقعها.

وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، استغلّ الفرنجة الصراع الذي اشتدّ بين ورثته فحاولوا إعادة فرض سيطرتهم على الأماكن التي استردها المسلمون، وتحقق لهم ذلك سنة

1- خلوق: الخلوق طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره، ابن منظور: لسان العرب، جـ 10، ص 91.
2- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ 5، ص 151.

614هـ/1217م باحتلال مدينة حوران[1] التي رثاها ابن عقيل الزرعي في قصيدة حزينة جاء في مطلعها:

جار الزمان على سكان حورانا لا كان دهر قضى بالجور لا كانا
صاح الجلاء بهم صوتا فما لبثوا أن جاوبوه جماعات ووحدانا
تفرقوا بالفلا أيدي سبا فثوى نجع بمصر ونجع حل حرانا
وما استقلوا إلى أن قلّ صبرهم وكابدوا المحل في الأوطان أحيانا
إن الكريم إذا ما خاف في وطن ضيما تبدل بالأوطان أوطانا [2]

فقد وصف الشاعر في أبياته حدة الهلع الذي نزل على سكان مدينة حوران مما اضطرهم إلى ترك ديارهم بحثا عن ملاذ آمن يعصمهم من بطش الصليبيين وانتقامهم، ثم يتحدث الشاعر عن المساحة الواسعة التي شملها الاجتياح الصليبي وما خلفه من هدم للعمران وطرد للسكان، فقال:

واندب قصور قرى حوران حين خلت وعوضت بعد سكنى الإنس جنانا
خوت عروش بها كانت مرفعة مجدا، وجفت عروس كل صنوانا
كم بين بصرى[3] إلى الرمثا[4] إلى طفس من الخراب إلى حول نجرانا [5]
ولست أنسى حبالا والسراة وما أصاب مأب[6] إلى ما حول عمانا
وبعد هذا أتى من لا مرد له من الفرنج إلى عوري بيسانا[7]

1- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ 4، ص 266.

2- آلاء سالم إبراهيم: صورة المدينة في الشعر الشامي في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة مقدمة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير، قسم اللغة وآدابها، جامعة مؤتة، 2011، ص 97.

3- بصرى: موضع بالشام من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ 2، ص 441.

4- الرمثا: مدينة تقع شمال الأردن على الحدود السورية، الدباغ: بلادنا فلسطين، (د. ط)، دار الهدى، (د. م)، 1991، ص 322.

5- نجران: قرية من قرى الشام إلى الشمال الغربي من السويداء في سورية، الحمير: الروض المعطار، ص 573.

6- مأب: مدينة من طرف الشام من نواحي البلقاء، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ 5، ص 31.

7- آلاء سالم إبراهيم: المرجع السابق، ص 100.

وعندما أقدم الملك المعظم شرف الدين عسى صاحب دمشق سنة 611هـ/1219م إلى تهديم أبراج القدس وسوره خوفا من استيلاء الفرنج عليه[1]،أثار عمله هذا نقمة الشعراء أمثال محمد ابن المبارك القرقسائي الخطيب الذي أنشأ قصيدة استظهر فيها هول الفاجعة التي حلت بالقدس، فقال:

مصاب القدس قد سلب الرقادا وقد لبس الخطيب حدادا
ونادى المسجد الأقصى أيرضى بهذا الفعل من فرض الجهادا
منبره الشريف يئنّ خوفا ومما حل بالمحراب مادا
ولا ترقى لصخرته دموع فكم قد أقرحت أسفا فؤادا
كذا محراب داود علته الـــ ـــكآبة دمعه مجلى العهاد
وأصبحت المدارس معولات تريق محابر الفتيـــا المداد[2]

استهل الشاعر قصيدته بإعلان الحزن ولبس الحداد ومجافاة النوم والرقاد حزنا على القدس، ثم انتقل يستثير نخوة وغيرة المسلمين عندما استخدم تعبير الحزن والكآبة التي كست المسجد ومنبره ومحرابه وأبوابه ومعاهده.

ولما سمع قاضي طور محمد الدين بن عبد الله الحنفي بهذا النبأ خرج إلى القدس ووقف على ما تبقى من آثارها ويتذكر عهد المسلمين الغابر وما فيه من أمجاد، فقال:

مررت على القدس الشريف مسلما على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة على ما مضى من عصرنا المتقدم[3]

ويشير إلى محاولات الصليبيين إلى تخريبه وتغيير معالمه، ليحرك مشاعر المسلمين ويستحث فيهم الألم والرغبة في تخليصه:

1- أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 115.
2- أبو شعار: عقود الجمان، جـ6، ص 226.
3- أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 116.

وقد رام علج أن يعفى رسومه وشمر عن كفى لئيم مذمم
فقلت له شلت يمنيك خلتها لمعتبر أو سائل أو مسلم

ثم يستطرد ويتمنى لو أنه يفتديه بنفسه فيقول:

فلو كان يفدى بالنفوس فديتـــه بنفسي وهذا الظف في كل مســـلم[1]

وفي سنة 626هـــ/1229م حين سلم الملك الكامل بيت المقدس للإمبراطور فريد ريك الثاني Frederik II، رثاه شهاب الدين المجاور[2] بقصيدة حسنة استهلّها بالبكاء وتصوير نار الحرب المتوقدة في القلب:

أعيني لا ترقى من العبرات صلى في البكا الأصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها توقد ما في القلب من جمرات
ويا فم بح بالشجو منك لعله يروح ما ألقى من الكربات[3]

ثم يمضي الشاعر يعدد فضائل بيت المقدس وما يمثل فقدانه وهدمه خسارة لتلك الفضائل وتضيع لها بقوله:

على المسجد الأقصى الذي جل قدره على موطن الإخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحي والهدى على مشهد الأبدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي أنافت بما في الأرض من صخرات
على القبلة الأولى التي اتجهت لها صلاة البرايا في اختلاف جهات[4]

1- أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص 116.

2- هو شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد المجاور ابن أخت الوزير نجم الدين بن المجاور، كان في خدمة خاله، الزركلي: الأعلام، جت 8، ص 258.

3- أبو شامة: الروضتين، جـــ 4، ص 335.

4- المصدر نفسه.

وينتقل الشاعر بعد هذا متحسرا ومتأسفا على ما فقد المسلمون بفقده، فقدوا شدّ الرحال إليه، وتلك الخلوات مع الله في محرابه، وتلك الصلوات، وتلك الآيات التي تتصاعد من أفواه المصلين، ودموع التأبين فبكى الشاعر كل هذه المعاني فقال:

عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الرفيع العماد العالي المشرفات
يوافي إليه كل أشعث قانت لمولاه بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التأبين وحزنهم فمن بين نواح وبين بكاة [1]

ثم يستحث بني أيوب بذلك المجد والتاريخ الذي كان لهم، والخطر الذي يتهدد تاريخهم وملكهم كقوله:

وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها وقد كان مجدا باذخ الغرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره لهم عظم ما والوا من الغروات
أما علمت أبناء أيوب أنهم بمسعاته عدوا من السروات
وإن افتتح القدس زهرة ملكهم وهل ثمرُ إلا من الزهرات [2]

والأخير يقرن الشاعر بيت المقدس بالأماكن المقدسة في الديار الحجازية، ويحثها على البكاء على ما حل بأختها القدس:

لتبك على القدس البلاد بأسرها وتعلن بالأحزان والتراحات
لتبك عليها مكة فهي أختها وتشكو الذي لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة وتشرحه في أكرم الحجرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات [3]

1- أبو شامة: الروضتين، جـ 4، ص 336.
2- المصدر نفسه.
3- المصدر نفسه.

وعليه فبقدر ما عدت هذه المرثيات أداة ووسيلة لتخليد مأثر المدن الضائعة وإبراز فضلها ومنزلتها حتى لا يطوها النسيان، بقدر ما شكلت كذلك أسلوبا تحريضيا على الجهاد ودعوة لتحريرها وإنقاذ هويتها، ولا سيما أن الصليبيين لم يتوقفوا عند تملكها بل عملوا جاهدين على تغيير وجهها الديني ونمطها العمراني الإسلامي، ويظهر هذا واضحا في المعاني الدينية التي غلبت على الصورة التي رسمها الشعراء للمدن الإسلامية المحررة وأبوا على تقديمها في إطار يصف عودة الشعائر الإسلامية لها وتطهيرها من رموز التثليث والشرك.

المبحث الثالث

دور الشعراء في مجابهة الصليبيين وإبراز مثالبهم

المطلب الأول: توعد الصليبيين ووصف هزائمهم.

المطلب الثاني: هجاء ملوكهم وقادتهم.

المطلب الثالث: هجاء عقائدهم وشعائرهم الدينية.

المطلب الأول: توعد الصليبيين ووصف هزائمهم.

لقد تنبه شعراء عصر الحروب الصليبية إلى ما يعرف اليوم بالحرب النفسية والدعاية الحربية، وذلك عندما أكثروا من تصوير الفزع الذي تثيره سمعة الجيوش الإسلامية حيثما اتجهت، فها هو أسامة ابن منقذ يصف لنا على نحو دقيق حالة الانهيار التي أصابت الفرنجة على الرغم من حصانة مدنهم، وقد صاروا أسرى للتخيلات المرعبة في النهار، فحسبوا الربا جيوشا وأمواج البحر أساطيل متتابعة، وإذا حلّ الليل أمسوا فريسة للكوابيس النغصة، وتخيل السيوف مسلطة عليهم، فقال[1]:

وقسمت الفرنج شطرين فهذا عـــــان وهـــذا قتيل
والذي لم يحن بسيفك من خو ـــفك أمسى وعقله مخبول
مثل الخوف بين عينيه جيشا لك في عقر داره ما يزول
فالربـــا عنده جيـــوش وموج البحر كل لجة أسطول
وإذا ما غفا أقض بالمضـــ ـــجع في الحلم سيفك المسلول

كما وظفوا التهديد والوعيد وسيلة لتوهين صفوف الصليبيين وإضعاف روح المشاركة القتالية لديهم، وزرع الشك والريبة في قدرتهم، مثل ما جاء في قول ابن القيسراني[2]:

حذار منا وأنى ينفع الحذر وهي الصوارم ولا تبقى ولا تذر
ومن خيله النصر لا بل جنده القدر وأين ينجو ملوك الشرك من ملك

ثم يطبع تهديده بطابع النصح ويعبر عن شجاعة ممدوحه ويبعث الخوف في قلوب الأعداء فيقول:

1- ديوانه، ص 191.
2- ديوانه، ص 182.

فقل لملوك الخافقين نصيحة كذا عن طريق الليث يزأر عليه
وخلوا عن الأفاق بالشرق شرقه بحكم الرد ينيات والغرب غربه
ولا يعتصم بالدرع طاغ على القنا فان القنا في ثغرة النحر دربه[1]

نلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر ينصح الصليبيين ويطالبهم بأن يغادروا بلاد المسلمين لأن الشرق والغرب قد وقفا في حوزة ممدوحه _عماد الدين زنكي_، ثم يخاطبهم بأن الدروع الرصينة لا تحميهم من قنا المسلمين، ويوجه ابن منير الطرابلسي تهديدا صريحا للجيوش الصليبية ويطلب منهم أن يسارعوا إلى الخروج من بلاد المسلمين وأن يتركوا المماليك التي أنشأوها وعلى رأسها مملكة بيت المقدس، ويؤكد الشاعر ارتباط المسلمين ببلادهم وحقهم فيها، كما يبدو في قوله:

وقل لملوك الكفر تسلم بعدها ممالكها إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى فيا طالما غال الظلام امتداده[2]

كما جاءت هذه الدعاية كذلك في نطاق زرع الحماسة والثقة في نفوس المسلمين، ولا سيما إذا علمنا أن الجيوش الصليبية كانت جرارة وكثيرة العدد والعدة، كما يظهر في قول ابن الخياط[3]:

إلى كم وقد زخر المشركون بسيل يهال له السيل مدا
وقد جاش[4] من أرض إفرنجة جيوش كمثل جبال تردى

1- المصدر نفسه، ص 189.
2- أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 98.
3- ديوانه، ص 182.
4- جاش: اهتاج واضطرب، ابن منظور: لسان العرب، جـ 6، ص 260.

فالشاعر يشبه الجيوش الصليبية التي قدمت من أوروبا لغزو بلاد الشام، كالسبيل غير منقطع وكالجبال في إمدادها، وهذا تعبير عن ضخامتها وكثرة عددها، كما صورها فتيان الشاغوري بحرا متلاطم الأمواج، فقال[1]:

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتهم يتدامرون [2] على متون الضمر
وكـــأنهم بحـــر تـــدافع موجـــه بظبي وزغف[3] محكم وســـنور[4]

وفي غمرة هذا الصراع المحموم استطاع الشعراء تصوير انتصارات المسلمين وهزائم الصليبيين في إطار عريض من التفاؤل والاستبشار وزيادة في الثقة بالنفس، وذلك عندما وصفوا بمهارة فائقة ذل الصليبيين وانكسارهم وهزائمهم المتوالية، ونقلوا صورا عن سباياهم وقتلاهم متجاوزين بذلك النقل المجرد للأحداث، وتقديمها في صورة تحقق أغراض قادة الجهاد.

ومن أمثلة ذلك كسرة الفرنجة على أسوار مدينة دمشق سنة 523هـ/1128م، والتي وصفها ابن القيسراني بقوله:

وافوا دمشق فظنوا أنها جدة ففارقوهم في أيد هم العدم
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم إذا لم يزولوا سراعا زالت الخيم
فغادروا أكثر القربان وانجغلوا وخلفوا أكبر الصلبان وانهزموا
مستسلمين الأيدي المسلمين وقد أغرى القنا بتمادي خطفهم نهم [5]

1- ديوانه، ص 143.
2- دمر: دمر عليهم: هجم هجوم الشر، ابن منظور: المصدر السابق، جـ 4، ص 291.
3- الزغف: اللين من الدروع، المصدر نفسه، جـ 9، ص 135.
4- السنور: جملة السلاح وخص بعضهم به الدروع، المصدر نفسه، جـ 4، ص 381.
5- أبو شامة: الروضتين، جـ 1، ص 54.

وفي هذه الأبيات يقدم الشاعر الذل والهوان الذي تكبده الصليبيون عندما حاولوا تطويق مدينة دمشق، وكيف ولوا الأدبار وخلفوا وراءهم صليبهم الأكبر وأسراهم مكبلين في السلاسل، ووصف ابن الساعاتي هوان حملة الصليب وذلتهم بعد فتح طبرية عام 583هـ/1187م عندما أظهر حالة أهل المدينة، وكيف انقلب صباحهم إلى ظلام دامس، وصراخهم وزئيرهم إلى أنين كناية عن البؤس والشقاء الذي حلّ بهم عقب هذا الفتح، فقال:

جعلت صباح أهليها ظلاما وأبدلت الزئير بها أنينا[1]

أما العماد الأصفهاني فقد وصف الجيش الصليبي في معركة حطين عام 583هـ/1187م وصفا يمور بالسخرية والتهكم، إذ تصوره جبلا نسفه الريح، فما عدت ترى جرارا ولا تسمع أبطالا كانوا يزأرون، كما يبدو في قوله[2]:

جيش الفرنج إذا لاقى سوابقهم كأنه جبل بالريح منسوف

ويظهر في أبيات أخرى أنه مرّ بحطين وقد رأى الرؤوس طائرة والنفوس بائدة والجسوم رمتها السواقي، وأن ملوكهم وقادتهم يقادون في بحر من الدماء، كما جاء في قوله[3]:

حططت على حطين قدر ملوكهم ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
تقاد بدأ ماء ملوكهم أسارى كسفن اليم نطت بها القلسا

ويصور ابن سنا الملك استعداد الصليبيين وجمعهم الجموع، لكن ذلك لم يفدهم أمام بطولة المجاهدين الذين صنعوا من جيشهم وليمة[4]:

1- المصدر نفسه، جـ 2، ص 85.
2- ديوانه، ص 297.
3- المصدر نفسه، ص 234.
4- ديوانه، جـ 2، ص 816.

قصدت نحوك الأعادي فرد الله ما أملون عنك وعنا
جمعوا كيدهم وجاءوك أركانا فمن قد فارسا هدر كنا
لم تــلاق الجيــوش منهم ولكنك لاقيتهم بلادا ومدنا
كل من يجعل الحديد له ثوبـــا وطيلســـانا وردنا
خانهم ذلك السلاح فلا الرمح تثنى ولا المهنـــد ظنا
صنعت منهم وليمة وحش رقص المشرفي فيها وغنى

أما الشاعر الرشيد بن بدر النابلسي فقد تعجب من حال الصليبيين الذين لم يعتبروا من هزائمهم وانكسارهم أمام المسلمين، ويظهرهم بمظهر الضعف والخسة والسفاهة في قصيدة مطلعها:

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أوما فيهم لبيب على العلات يعتبر
فكم نثرتهم ضربا إذا انتظموا وكم نظمتهم طعنا إذا انتشروا
كم قد سقيتهم فلا عجب إن عربدوا سفها فالقوم قد سكروا
زأروا نمورا ولا تغني وقاحتهم إذا أسودك في أبطالهم زأروا [1]

كما استوقف حال الصليبيين بعد فتح بيت المقدس الشاعر فتيان الشاغوري فأنشد ساخرا[2]:

فالقوم نهب للسباع تتوشهم من كل ذي ناب وصاحب منسر
فمن الذي من جيشهم لم يخترم قبلا ومن من جمعهم لم يؤسر
أضت أسودهم ثعالب ذلة فهم فرائس كل ليث قسور
بالسيف رد السيف بحرا من الدم ينبوعه من هامة أو منحر
حتى لقد يبعث عقائل أرهقت بالسبي بالثمن الأخسّ الأحقر
وأوانس مثل الشموس سوافر من كاعب مثل الغزال ومعمر

1- أبو شامة: الروضتين، جـ 2، ص 194.
2- ديوانه، ص 145.

صرعى كأنهم تماثيل من الكافور من دمهم ردعن بعنبر

فالشاعر يصور في أبياته كيف كان قادة الصليب أسود قبل الهزيمة وثعالب بعدها، ويستغرب أن تصبح تلك الأسود الأدمية طعاما للأسود المفترسة، وكذلك كيف صارت صباياهم الحسان سبايا وأذلاء بيعن بالثمن البخس في سوق النخاسة، ويستحضر العماد الأصفهاني المشهد ذاته، حين اعتبر كسرة الفرنجة في معركة بيت المقدس ماهي إلا سقوط في بئر الذل والهوان، بقوله:

طردتهم في الملتقى وعكستهم مجيدا بحكم العزم طردك والعكسا
فكيف مكست المشركين رؤوسهم ورأيك في الإحسان أن تطلق المكسا
كسرتهم أذا صح عزمك فيهم ونكستهم من بعد أعلامهم نكسا
بواقعة رجت بها الأرض جيشهم ومارت كما بست جبالهم بسا
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا[1]

ويصور طلائع بن رزيك جبال القدس كيف أصبحت أرضا قفرا مستوية، بعد أن هاجمتها جياد المسلمين، ثم بين كيف عم أرضها خصب نجم عن ارتواء ثراها بدمائهم، وقضى على صوت النواقيس فيها، مثل ما جاء على لسانه [2]:

جعلنا جبال القدس فيها وقد جرت عليها عتاق الخيل كالنفنف السنهب
فقد أصبحت أوكارها وحزونتها[3] سهولا توطا لنوارس والركب
ولها غدت لا ماء في جنباتها صببنا عليها وابلا من الدم سكب
وجاءت بها سحب الدروع من العدا نجيعا فأغنتها لغداة عن السحب
وأجرت بحارا منه فوق جبالها ولكن بحارا ليس تعذب للشرب
فقد عمها خصب به رؤوسهم بها ولكم خصب أضر من الجذب

1- أبو شامة: الروضتين، جـ 2، ص 101.
2- ديوانه، ص 58-59.
3- الحزونة: وهو المكان الغليظ والوعر به خشونة، ابن منظور: لسان العرب، جـ 13، ص 113.

وأخفى صهيل الخيل أصـــوات أهلهـــا فعافت نواقيس الفرنج عـــن الضـــرب

وفي سنة 690هـ/1291م استولى الأشرف خليل[1] على مدينة عكا بعد حصار طويل، وكان الاستيلاء عليها يعني طرد أخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام، وقد خلد هذا الفتح الشهاب محمود الحلبي[2] بقصيدة مطلعها:

الحمـــد الله ذلـــت دولـــة الصـــلب وعزبا لترك ديـــن المصـــطفى العربـــي
ما بعـــد عكـــا وقـــد هـــدت قواعـــدها والبحـــر للشـــرك عنـــد الله مـــن أرب
لم يبق مـــن بعـــدها للكفـــر إذ خربـــت في البر والبحر ما ينجي سوى الهـــرب
أغضـــبت عبـــاد عيســـى إذ أبـــدتهم لله أي رضـــى فـــي ذلـــك الغضـــب
فأنهض إلـــى الأرض فادنيـــا بأجمعهـــا مـــدت إليـــك نواصـــيها بـــلا تعـــب[3]

فقد استطاع الشعراء بفضل ملاحمهم الشعرية الخالدة مواكبة أحداث الحروب الصليبية، وأن يتصدروا التعبئة الإعلامية في مواجهة الصليبيين، ومرافقة قادة الجهاد والترويج لانتصاراتهم وفتوحاتهم وإكساب الرأي العام بجانبهم الذي كان إلى وقت قريب مصاب بهزيمة نفسية ومعنوية أمام جحافل الصليبيين.

1- هو الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون (ت 693هـ/1293م)، وهو ثامن سلاطين الدولة المملوكية البحرية، المقريزي: السلوك، جـ 2، ص 217.

2- هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن زين الدين أبي الغنائم سليمان بن فهد بن محمد الحلبي الدمشقي، صاحب ديوان الإنشاء، ولد بحلب عام 644هـ/1246م وإليها نسب، الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ 19، ص 218.

3- المعرفي: المرجع السابق، ص 91.

المطلب الثاني: هجاء ملوكهم وقادتهم:

لم يتوقف شعراء الجهاد زمن الحروب الصليبية عند حد وصف هزائم الصليبيين والتشهير بانكساراتهم وإنما جاوزوا ذلك عندما أطلقوا ألسنتهم للنيل من ملوكهم وقادتهم، فقد كان هجاء شعراء المسلمين لهم مرا وقاسيا، حين أبرزوا الكثير من الصفات الذميمة والوضيعة التي اشتهروا بها، كالخداع والنفاق والجبن والرعونة ونقض العهود والفرار من المعارك، وذلك إما إلى تحذير المسلمين من أخطار معاملتهم، وإما إلى التقليل من شأنهم وتوهينهم في أعين المسلمين، وإظهارهم بمظهر الضعف والذلة والهوان، لتحميس المسلمين على قتالهم، فها هو العماد الأصفهاني يصورهم بذوي الأخلاق الخشنة القاسية، لكنها خشونة وقسوة ذهبت بحد السيف، كما يظهر في قوله: [1]

أتوا شكس الأخلاق خشنا فلينت حدود الرقاق الخشن أخلاقها الشكسا

طردتهم في الملتقى وعكستهـــم مجيدا بحكم العزم طردك والعكسا

ومن النعوت الساخرة التي أطلقها الشعراء على ملوك وأمراء حملة الصليب صفة الكلب التي تكررت في أكثر من موضع، وعند أكثر من شاعر. ففي سنة 532هـ/ 1137م خاض صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي صاحب حماة، معركة حامية ضد جيش الروم عندما هاجموا بلدة حماة واستطاع الانتصار عليهم وإيقاع الهزيمة بهم فأمتدحه ابن قسيم الحموي بقصيدة هجا فيها ملك الروم، استهل أولها:

وما جاء كلب الروم إلا ليحتوي حماة وهل يسطو على الأسد الكلب

أراد بها أن يملك الشام عنوة وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب

وما ذم فيها العيش حتى صدمته فمال جناح الجيش وانكسر القلب

فولى وأطراف الرمـــــاح كأنها نجـــــوم عليـــه بالمنيـــة تنصب[2]

---

[1]– ديوانه، ص 234.

[2]– أبو شامة: الروضتين، جـــ1 ص 234.

نلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر شبه ملك الروم بالكلب، وتساءل هل يقدر الكلب على هزيمة الأسد، وهو استفهام يحمل في طياته قدرا كبيرا من السخرية اللاذعة، ثم تحدث عن أمله في احتوائها ليملك الشام قوة وغضبا، وهذا ما عجزت عنه الأسود الكاسرة من قبل، ثم وصف فراره من المعركة وكيف انكسر من أول لقاء.

ومثال ذلك أيضا نجده في قصيدة ابن منير الطرابلسي عندما تحدث عن جوسلين – أعتى قادة الفرنج – في موقعة الرها سنة 539هـ/1144م، بقوله:

وما يوم كلب الروم إلا أخو الذي ... أزحت به ما في الجناحين من نبل

أتاك بمثل الروم حشدا وأنه ... ليفضل أضعافا كثيرا عن الرمل

فقاتلته بالله ثم بعزمه ... تصك قلوب العاشقين بما يسلى

توهم أن الشام مرعى وما درى ... بأنك أمضى منه في الشزر[1] والسحل[2]

فطار في خير المغنمين دماؤه ... إذا رد عنه مغنم المال والأهل[3]

الشاعر يبين أن كلب الروم جمع جيوشا أكثر عددا من الرمل، متوهما أنه يستطيع بذلك أخذ بلاد الشام، وما درى هذا المغفول أنه سيكون وجيشه طعاما لسيوف المسلمين، وعندما بدأت المعركة ظهر عجزه وفر هاربا وكل ما فاز به روحه التي بين جنبيه ، والأمر ذاته أظهر الشاهر نجم الدين ابن مجاور الذي هجا ملك الإنجليز أحد قادة الحملة الصليبية بقصيدة جاء فيها:

---

[1]– الشزر: الشدة والعسرة في الأمر، ابن منظور: لسان العرب، جـ4، ص 404.

[2]– السحل: القشر والكشط، ومثل قول أن الرياح تسحل الأرض أي تكشط ما عليها وتنزع عنها، المصدر نفسه، جـ11، ص 328.

[3]– أبو شامة: الروضتين، جـ1، ص 33.

يا صاح قل للإنجليز الكلب دع عنك الجنون وخذ مقالة منصف
القدس ما فيه لسرجك مطمع كـــلا ونـــور الإلـــه بمنطفي
المسجد الأقصى فعنه تقص من وقع الدبابيس الأليمة تعرف
استفت نفسك فهي أخبث ناصح واترك متابعة اللجاج[1] المتلف[2]

فالشاعر يظهر سخريته في هذه الأبيات، حيث خاطبه بالكلب الطامع فيما ليس له والعاجز عن تحقيقه، ويدعوه إلى مراجعة نفسه وعدم الاستماع للأصوات المغرضة، كما عبر ابن منير الطرابلسي على حالة أسر نور الدين محمود زنكي لابن ملك الفرنج الفنش[3] وزوجته وأخذهما أسرين إلى حلب[4]، حين أنشد ساخرا مستخفا:[5]

فـــوق العريمـــــة غشاهم عرام جيوشك سيل الغرم
وأبت بكلبهم في الكبـــول مباح الحريم مذال الحرم

رسم الشاعر صورة قبيحة لابن الفنش الأسير فيشبهه بالكلب للحط من قدره، ويمعن في إذلال قادة الفرنج وملوكهم عندما أصبحوا عاجزين عن حماية حرماتهم المستباحة من النساء وغيرهم بسبب ضعفهم وقلة حيلتهم، ومن جهته أكد أسامة بن منقذ حادثة الأسر نفسها، لكنه يزيد في هجوه وتهكمه وسخريته، حين جعل مصير قادة الفرنج وأبنائهم إما إلى القتل أو الأسر ولا شيء سواهما، وفي ذلك قوله: [6]

---

[1]– اللجاج: اللجلجة: اختلاط الأصوات، ويتكلم الرجل بلسان غير بين، ابن منظور: لسان العرب، جـــ2، ص355.

[2]– أبو شامة: الروضتين، جـــ4، ص 192.

[3]– الفنش: لقب أطلقه العرب على ألفونسو جوردان كونت مدينة تولوز، كان على حصن العريمة فحاصره المسلمون واستولوا عليه سنة 543هـــ/1148م، ابن الأثير: الكامل، جـــ11، ص 132.

[4]– ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 300

[5]– ديوانه، ص 273.

[6]– ديوانه، ص 202.

وفي سجننا ابن الفنش خير ملوكهم وإن لم يكن خير لـــديهم وبـــر
أسرناه من حصن العريمة راغمـــا وقد قتلت فرسانه فهم جـــزر[1]

ويشير ابن سنا الملك إلى أسر ملك الفرنج ويرسم صورة لترنحه وخوفه واضطرابه مستهزئا به: [2]

والمليـــــك العظيـــم منهم أسيـــر يتـــثـــنـــى فـــــي أدهـــــم يتثنى
يحسب النـــــوم يقظـــــة ويظن الشخص طودا ويبصر الشمس دجنا
كـــم تمنى اللقـــــــاء حتى رآه فتمنـــى لـــــه أنـــه مـــــــا تمنى

ومن ردئ صفات الإفرنج التي هجاهم بها الشعراء المسلمين نقضهم للعهود وعدم وفائهم بالتزاماتهم رغم تأكيدهم للمسلمين بحسن الوفا، وهذه صفة بارزة في الصليبين تكررت أكثر من مرة، وفي هذا يذكر ابن القلانسي[3]،« إن نور الدين محمود هاجم الإفرنج في الملاحة سنة 552هـ/1157م بسبب نقضهم هدنة كانت قائمة بينهم وبين المسلمين، فهزمهم وقتل أعداد كبيرة منهم»، فاستنكر أحد الشعراء خلقهم هذا، فقال:

نقضوا هدنة الصلاح بجهل بعد تأكيدها بحسن الوفاء
ولقوا بغيهم بما كان فيه من فساد يجلهم وإعتداء
لا حمى الله شملهم من شتات بمواض تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر وجزاء الشكور خير الجزاء[4]

[1]– الجزر: كل شيء مباح للذبح، وقيل الناقة المذبوحة، ابن المنظور: لسان العرب، جـ4، ص 134.
[2]– ديوانه، جـ 2، ص 234.
[3]– ذيل تاريخ دمشق، ص 341.
[4]– المصدر نفسه، ص 342.

ويعرض ابن منير الطرابلسي بالبرنس[1] صاحب أنطاكية بعد نال منه نور الدين محمود عام 544 هـ/1149م، ويظهر شماتته حين تخلى عنه أصحابه ولم يعملوا على حمايته وتركوه في العراء فريسة للذئاب والطيور، حين أنشأ قائلا:[2]

صدم الصليب على صلابة عودة فتفرقت أيدي سبا خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس[3] ذله بالروح ممقر ماجنت غدراته
ورأى سيوفك كالصولج[4]طاوحت مثل الكرين فقلصت كراته
للوحش ملقى بالعـــرا يقتـــاته ما كـــان قبل بصيده يقتاته

أما ابن القيسراني فقد بين غدر القمص[5] وخداعه وخيانته، وبما عرف عن نور الدين محمود زنكي من وفاء وعدل ونبل، في قصيدة طويلة جاء مطلعها:

ورأى صياح القمص كان خديعة فطغى وجار وليس ثم وجار
خان الصنيعة غير محقوق بها والخير يهدم ما بنى الختار
ذئب إذا ما غبت أقدم عابثا إقدام من لم يدن منه قرار
مضى السلاح على عدوك بغية بالغدر يطعن في الوغى الغدار
فأحسم عناد ذوي العناد بجحفل كالليل فيه من الصفيح نهار
ملك له من عدله ووفائه جيش به تستفتح الامصار[6]

---

[1]– البرنس: بمعنى: الأمير ذكرها ابن بسط الجوزي في أحداث سنة 544هـ/ 1149م عند خروج نور الدين إلى مدينة أنطاكية، مرأة الزمان، ج8، ص201، والمقصود به هنا ريموند بوايته صاحب أنطاكية (531هـ– 544هـ/ 1130م–1149م)، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 304.

[2]– ديوانه، ص 238.

[3]– تبرنس: التبرنس: مشي الكلب، ابن المنظور: لسان العرب، ج6، ص26.

[4]– الصوالج: مفردها صولج، وهي العود المعوج، وهي لفظ فارسي معرب، المصدر نفسه، ج2، ص310.

[5]– القمص: لفظ لاتيني comes، ويعني: الأمير، ابن شداد: النوادر السلطانة، ص77، هامش 1، والمقصود به هنا أرناط المعروف ب رينود وشانيتون Renard de charitillon الذي تمكن نور الدين من القبض عليه وسجنه عام 548هـ/1153م، وليم الصورى: المصدر السابق، ج2، 814.

[6]– أبو شامة: الروضتين، ج1، ص69.

كما خص ابن القيسراني القائد الفرنجي جوسلينII أمير مدينة الرها، حين صوره في أبشع صورة كيف كان بالأمس ظالما وغادرا، وأصبح اليوم أسيرا ذليلا، بقوله:

أتى رأسه ركضا وغودر شلواه ... وليس سوى عافي النسور له قبر
وقد كان في استبقائه لك منة ... هي الفتك تغضب البيض السمر
كما أهدت الأقدار القمص أسره ... وأسعد قرن من حواه لك الأسر
طغى وبقى عدوا على علوائه[1] ... فأوبقه[2] الكفران عدواه والكفر[3]

فالشاعر يهزأ برأس القتيل الذي تلقفته جوارح الطير، ويرى أن مصيره هذا هو جزاء لبغيه وطغيانه، وهجاه ابن منير الطرابلسي بذات الصفة –صفة الغدر– فقال:

مازال يغدر ثم يغدر قـــادرا ... حتى أتاه بجامح أصـــحابه[4]

ويتحدث أسامة ابن منقذ عن كسرهم وأسرهم، ويعاهد المسلمين على أنه لن تنثني خيول المسلمين إلا بتحرير القدس، كما يبدو وفي قوله من قصيدة يتحدث فيها عن أعمال نور الدين زنكى: [5]

ونحن أسرنا (الجوسلين) ولم يكن ... ليخشى من الأيام نائبة تعرو
وكـــان يظـــن الغـــر أنـــا نبيعه ... بمال، وكم ظن به يهلك الغر
فلمـــــا استبحنـــا ملكـــه وبلاده ... ولم يبق مال يستباح ولا ثغر
نحن كسرنا (البغدوين) ومالهن ... كسرناه إبلال يرجى ولا جبر
فسله العين الحائن الخائن الذي ... له الغدر دين: ما به صنع القدر
وقد ضـــاقت الدنيـــا عليه برحبها ... فلم ينجيـــه بر ولم يحمـــه بحر
أفى غـــدره بالخيـــر بعـــد يمينه ... بإنجليـــه بيـــن الأنام له غدره

---

[1]– الغلواء: غلا: سرعة الشباب، ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص 502.

[2]– أوبقه: أهلكه، المصدر نفسه، ج10، ص 370.

[3]– محمد عادل جابر: شعر ابن القيسراني، ص96.

[4]– أبو شامة: الروضتين، ج1، ص88.

[5]– ديوانه، ص 203–204.

دعته إلى نكـــث اليميـــن وغدره بذمته النفس الخسيسة والمكر

يظهر واضح كيف أن أسامة ابن منقذ يقابل بين صورتين لأولئك القادة، صورة قبل الهزائم التي كانت تحل بهم وأخرى بعدها، فهو يصور جوسلينII بأنه لم يكن يخشى نائبة نوائب الأيام، وقد أصبح أسيرا يحاول أن يفتدى نفسه بالمال ولكن أنى له ذلك؟، وكذلك بلدوينIII الذي وصفه هو الأخر بالخيانة والغدر والمكر، أما أرناط فقد تجاوز بغيه وغدره ونكثه للعهود حدود التصور، فكيف لا وهوالذي قام بمهاجمة أرض الحجاز، واعتدى على قوافل حجيج المسلمين، لهذا نال جزاءه، إذ قتله صلاح الدين بسيفه،[1] ويصور العماد الأصفهاني قتله بأسلوب ساخر شديد التهكم، ويقرن ذلك بتمجيد صلاح الدين وسيفه الذي طهر الأرض من شره، كما يبدو في قوله: [2]

شكا يبسا راس البرنس الذي به تندى حسام حاسم ذلك اليبسا
حسا دمه ماضي الغرار لغدره وما كان لولا غدره دمه يحسى
فلله ما أهدى يدا فتكت به وأطهر سيفا معدما رجسه النجسا
نسفت به رأس البرنس بضربة فأشبه راسى رأسه العهن والبرسا
بعثت إمام أمة النار نحوها فزار أمام أرناطها ذلك الحبسا

فالشاعر وصف رأس البرنس بأنه يابس وأنه كان لا بد من أن يبل يبسه بما يجعله نديا، فكانت تنديته بحسام أسال دمه، كما وصف المتعة التي أحسها السيف وهو يحتسى دم البرنس الذي أريق بسبب غدره، ثم ينتقل ويشبه رأس البرنس وقد عمل فيه السيف عمل المندف بكتلة من الصوف، ويصوره في موضع أخر حين يتحدث عن معركة حطين، بأنه كان عظيم الكفر والكفار، وأن رأسه قد اجتثت عن جسده وغرقت في دمه، كأنه صفدع في الماء، في قصيدة كان أولها:

---

[1]– ابن واصل: مفرج الكرب، ج2، ص 188، 194.

[2]– ديوانه، ص235، 236.

يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص إذا طار ذاك الرأس في دمه كأنه صفدع في الماء قد غطسا
مازال يعطس مزكوما بغدرته والقتل تشميت من بالغدر قد عطسا[1]

ويرسم له ابن القيسراني صورة هزلية مليئة بالسخرية، قائلا:

وللإبرنس فوق الرمح رأس توسدو السنان له وساد
ترجل للسلام ففرسوه وليس سوى القناه له جواد
غضيض المقتلين ولا نعاس وغائرها وليس به سهاد[2]

فالشاعر يصف رأس البرنس أنها كانت بحاجة إلى الوساد فتوسدت الرمح، وكذلك أنه لما ترجل عن ظهر فرسه للاستسلام أركبوه على الأسنة، وأنه غضيض العينين مع أنه غير نعسان، ثم ينتقل العماد الأصفهاني ويصف لنا خوف ملك بيت المقدس من القتل، حينما قتل البرنس أمامه مستهزئا في مثل قوله:

وأنجز الله للسلطان موعده ونذره في كفور الدين النظر
وعاين الملك الإبرنس في دمه فمات حيا وحي وهو يعتذر
بينما سباياه تجلى في دمشق إذا ملك الفرنج مع الأتراك محتجر[3]

في حين يذهب ابن المحاور إلى اعتبار قادة الفرنج علوج قلف، وسيوف المسلمين طبقت فيهم السنة فختنتهم، ولكن ختانهم كان في رؤوسهم على غير المألوف، كما يبدو في هذا البيت:

سنت سيوفك في الرؤوس ختانه ذهبت بمهجة كل علج أقلف[4]

---

[1]– المصدر نفسه، ص230.

[2]– أبو شامة: الروضتين، ح1، ص200.

[3]– المصدر نفسه، ج1، ص 406.

[4]– أبو شامة: الروضتين، ج2، ص 328.

ويصور ابن سنا الملك الأسرى من ملوكهم، وقد انقلبت المقاييس عندهم، بعد أن كانوا ملوكا وفرسانا عظماء يتمنون اللقاء في ساحات الوغى، فأصبحوا أذلاء أرقاء، كما يظهر في قوله موازنا ومقابلا بين الصورتين: [1]

وحوى الاسرى كل ملك يظن أن الد هر بغنى وملكه ليس يغنى
والمليك العظيم فيها أسير يثنى في أدهم يتثنى
يحسب النوم يقظة ويظن الشـ خص طودا ويبصر الشمس دجنا
كم تمنى اللقاء حتى رأى فتمنى لو أنه ما تمنى
ظن ظنا وكنت أصدق في اللـ ـه يقينا وكان أكذب ظنا

ويرد أبو علي الحسن الجويني[2] الصورة ذاتها ساخرا بملوك الفرنجة وقادتهم، وكيف أصبحوا صيدا في يد صلاح الدين، حين أنشأ:

أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم خوف الفرنجة ولدان ونسوان[3]

وتزداد السخرية عند الحكيم أبو الفضل عبد المنعم الجلياني[4]، عندما صور أحد ملوكهم قادما إلى المشرق الإسلامي لحماية كنيسة القيامة، ويظهره منصرفا إلى العراق – مركز الخلافة– كأنه ملك له، وإذ به يؤول إلى سوء المصير، كما يبدو في قوله:

---

[1]– ديوانه، ص 818.

[2]– هو أبو علي الحسن بن علي الجويني، الأبيب الشاعر المعروف بإبن اللعيبة، كان من ندماء الأتابك زنكي نوفى عام 586هـ/ 1190م. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج21، ص 105.

[3]– أبو شامة: الروضتين، ج2، ص105.

[4]– هو حكيم الزمان أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله الغساني الاندلسي الجلياني، كان علامة زمانه في صناعة الطب وبارعا في الأدب وصناعة الشعر، له قصائد نحو مدح صلاح الدين توفى عام 600هـ /1203م، ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء، ص630.

وقالو ملوك الأرض طوع قيادنا إذ الكل منهم في القيود معبدا
وقد أقطع الكند العراق موقعا فأودع سجنا وسط جلق مؤصدا
وأقسم أن يسقى بدجلة خيله فما ورد الأردن إلى مصفدا
فما عقد الرايات إلا محللا ولا حلل الرايـــات إلا معقدا[1]

ومن صفاتهم كذلك النفاق والكيد للمسلمين ونشر الشائعات، كما يظهر في قول ابن منير الطرابلسي[2]:

إذا العدا زرعوا النفاق وأحصدوا كيدا فعزمك ناقص حصـــاد

فالشاعر يصور الصليبيين بمزارعين يزرعون حبا وما يجنونه من زرعهم كثرة المكائد للمسلمين، وعليه يتحصل لنا مما سبق أن هجاء شعراء المسلمين لقادة الفرنج وملوكهم، كان موضوعيا وليس عاطفيا أو ذاتيا، هدف من وراءه التشهير بسوء أخلاقهم، وتنبيه المسلمين إليها وتحذيرهم من أخطار معاملتهم، والتقليل من شأنهم.

[1]– أبو شامة: الروضتين، ج2، ص117.
[2]– ديوانه، ص275.

المطلب الثالث: هجاء عقائدهم وشعائرهم الدينية.

لم يقتصر هجو شعراء المسلمين للصليبيين على التعريض بملوكهم وقادتهم، والتشهير بهزائمهم المنكرة، وإنما جاوزوا إلى وصم عقائدهم وشعائرهم الدينية بالمنحرفة والباطلة، وقارنوها بالعقائد الإسلامية، فتحدثوا عن الإيمان والشرك، والتوحيد والتثليث والصليب في صورهم الشعرية، وهي ثنائيات تنم عن ضراوة المواجهة والكفاح الديني الذي خاضه شعراء عصر الحروب الصليبية لنصرة دين التوحيد والحط من عقيدة التثليث، فقد شبه العماد الأصفهاني الكفر بالإنسان الذي يعض يديه حسرة ومرارة من شدة الندم على إهماله وتفريطه، وهو يرى الإسلام ينتصر ويعظم، فقال:

واهتز عطف الإسلام من جذل وافتر ثغر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا فليقرع الكفر سنـــه ندما[1]

وعندما أراد شاعر آخر أن يعبر عن ذلة المشركين وهوانهم، جعل الشرك كالإنسان الذي يطأطئ رأسه خجلا وحزنا مما يرى من هوانه وقلة شأنه أمام عظمة خصمه، وهو الإسلام أنشد قائلا:

غزوا عقر دار المشركيـــن بغـــزة جهارا وطرف الشرك حزيان مطرق[2]

ويقرن ابن منير الطرابلسي بين محق عقيدة الشرك، وجهاد نور الدين محمود زنكي، فيقول:

غضبان أقسم لا يشيم حسامه والأرض تحمل في الكفور كفورا
غسل العواصم أمس من أدرانهم واليوم رد به السواحل بورا
أخلى ديار الشرك من أوثانها حتى غـــدا ثـــالوثهن تكبيـــرا[3]

---

[1] أبو شامة: الروضتين، جـــ 1، ص 195.

[2] المصدر نفسه، جـــ 1، ص 193.

[3] المصدر نفسه، جـــ 1، ص 86-87.

وفي السياق ذاته يصور لنا ابن سنا الملك كيف صمتت أصوات الكفر وأهله بعد النصر الذي أحرزه المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، ومما جاء على لسانه[1]:

واستحالت شقاشق[2] الكفر صـــمتا حين عادت تلك الشـــجاعة جبنـــا

فالشاعر يظهر كيف تحولت أصوات الفرسان الشجعان الحاملين للواء الكفر والشرك، إلى صمت وجبن بعد الهزيمة، أما العماد الأصفهاني فقد وصف الصليبيين بعصبة الشرك التي كسرها تقي الدين عمر سنة 582هـ/1186م، وطهر البلاد من دنسهم وكفرهم، بقوله[3]:

رددت كراديس الفرنج وكلهم لدى الأسر في غل الصغار مكردس
بيضت وجه الدين يوم لقيتهم وأبيضكم من أسود القصر أشوس
أفاد دم الأنجاس طهر سيوفكم وما يستفاد الطهر لولا التنجس
شموس ظبا تغدو لها الهام سجدا فللـــه نصـــــرانيـــــة تتمجس
لهم كل يوم جهاد مثلث إذا نصروا التوحيد في مخمس
إذا ما تقى الدين صال تساقطت لأقدامه من عصبة الشرك أرؤس

كما عرض الشعراء باعتقاد الصليبيين في المسيح –عليه السلام– بأسلوب مليء بالسخرية والتهكم، كقول ابن القيسراني:

لقد كان في فتح الرها دلالة على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة لم يغن عند القوم عنه ولاده[4]

---

[1] – ديوانه، ص 817.

[2] – شقاشق: شقشق الفحل: أهدر وأصدر صوت، ابن منظور: لسان العرب، جـ 10، ص 185.

[3] – ديوانه، ص 239.

[4] – محمد عادل جابر: شعر ابن القيسراني، ص 148.

فالشاعر يسخر من زعم الصليبيين بأن عيسى –عليه السلام– سيعود لنصرتهم، ويؤكد دعواه بأنه لو صح اعتقادهم هذا لما حلت بهم الهزيمة في فتح الرها، ويتهكم ابن سنا الملك أيضا من مزاعم الصليبيين واعتقادهم الباطل في صلب السيد المسيح –عليه السلام–، فقال[1]:

ظل معبودهم لديك أسيرا مستضاما فأجعل له لنا سجنا
صلبوا ربهم فلم يغن عنهم من رأى بعد صلبه قط أغنى

أما الحكيم أبو الفضل الجلياني، فقد أبرز الصراع في العقيدة بشكل جلي بين العدو الصليبي الغازي والمسلمين، في قصيدة طويلة جاء مطلعها:

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة قد أقسموا بذراع الرب تدخله
فما كذبوا كذبهم في وصف ربهم وصدق الوعد مأمونا محوله
لما سبى القدس قالوا كيف تتركها والرب في حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سوى لينصروا القبر والأقدار تخذله[2]

فالشاعر يذكر في أبياته كيف برر الصليبيون بغيهم وعدوانهم على بلاد الشام، وبين كيف خرجت ملوك أوربا واصطفت مع جيوشها الجرارة لنصرة قبر الرب المستغيث، بعد استرداد بيت المقدس من قبل صلاح الدين الأيوبي، غير أن الأقدار تأبى أن تنصره، كما نال الصليب رمز قوتهم وإيمانهم الكثير من التعريض والسخرية، وعدو تمسكهم به وتقديسهم له عبادة وثنية، وفي ذلك يقول فتيان الشاغوري[3]:

لله يوسف كم أغاث وغاثا وأباد من عبد الصليب وغاثا
أهداهم التثليث للتوحيد يو م لقيتهم فقسمتهم أثلاثا

---

[1]– ديوانه، ص 342.

[2]– أبو شامة: الروضتين، جـ 2، ص 151.

[3]– ديوانه، ص 69.

كما وصف ابن منير الطرابلسي هوان الصليب وانكساره بعد استيلاء نور الدين محمود على حصن أفامية[1] عام 545هـ/1150م، فقال:

في كل يوم من فتوحك سورة للدين يحمل سفره أسفارها
أدركت ثأرك في البغاة وكنت يا مختار الأمة أحمد مختارها
خر الصليب وقد علت نغماتها واستوبلت صلواته تكرارها[2]

ويعبر فتيان الشاغوري في موضع آخر كيف وهن الصليب تحت ضربات صلاح الدين:

لما ملكت حصون أنطاكية يئس الصليب وحزبه من مظهر
أرديت كل مثلث متكبر بموحد متـــواضـــع ومكبـــر[3]

وقوله أيضا في الملك الأفضل مادحا:

سل عنه عباد الصـــليب وخيلـــه سواهم ومن تحت العجاج لها نحط[4][5]

في حين عد ابن الساعاتي الهزائم التي لحقت بهم بأنها هزيمة لصلبانهم وبيعهم، ونصرة للمسلمين وقرآنهم، وفي ذلك قوله[6]:

كبا من أعاليه صليب وبيعة وساد به دين الحنيف ومصحف
صليبه عباد الصليب ومنزل النـــ نزال لقد غادرته وهو صفصف[7]
صفصف[7]

ولما دخل الناصر صلاح الدين بيت المقدس مجد ابن ساعاتي هذا الحدث ونظم قصيدة يتحدث فيها عن هوان الصليب، جاء مطلعها:[1]

---

[1] أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ1، ص 227.

[2] أبو شامة: الروضتين، ج1، ص62.

[3] المصدر نفسه، ص 147.

[4] نحط: هو صوت الخيل من الثقل والإعياء، ابن منظور: لسان العرب، جـ 7، ص 412.

[5] فتيان الشاغوري: ديوانه، ص 257.

[6] ديوانه، ص 409.

[7] صفصف: أرض ملساء مستوية، ابن منظور: لسان العرب، جـ 9، ص 196.

جلت عرماتك الفتح المبينا فقد قرت عيون المومينا
رددت أخيدة الإسلام لها غدا صرف القضاء بما ضمينا
وهان بك الصليب، وكان قدما بعز على العوالي أن يهونا

أما ابن المجاور فقد أنفذ قصيدة لصلاح الدين يفخر فيها بانتصار دين التوحيد وهوان عقيدة التثليث، استهل أولها:

قد أنصف التوحيد من تثليثهم وأقام في الإنجيل حد المصحف
أحييت دين محمد وأقمته وسترته بعد طول تكشف [2]

ويبلغ التعريض بعقائد الصليبين مداه، حين برأ الشعراء السيد المسيح –عليه السلام– من زعمهم واعتقادهم فيه، وفرقوا بين رسالته وعقيدة التثليث المبتدعة، كقول طلائع بن زريك[3]:

لو رآه المسيح لم يرض فعلا زعموا أنه له منسوب
أبعد الناس عن عبادة رب النـــ ـــاس قوم إلههم مصلوب

ولم يتوقف هجوا الصليبيين عند حد التعريض بالعقائد، بل جاوز الشعراء ذلك ليشمل رموزهم الدينية من رجال الدين وكنائس، ومن الشواهد الدالة على ذلك قول فتيان الشاقوري في قس نصراني[4]:

يا ويحنا ابن التى جذع ويحكي قومامها مخباط[5]
لحيـــــة كلحيـــــة قس وقفاها ثط[6] يبين نساطا[7]

---

[1] المصدر السابق، ص 407.
[2] المصدر نفسه ، ج3، ص366.
[3] ديوانه، ص63.
[4] ديوانه، ص259–260.
[5] مخباط: خشبة تخبط بها الثياب حين الغسل، ابن المنظور: لسان العرب، ج7، ص282.
[6] ثط: القليل شعر اللحية أو خفيف اللحية، المصدر نفسه، ج7، ص267.
[7] السناط: السنوط: الذي لا لحية له، المصدر نفسه، ج7، ص325.

فهي أبقى من قطة وترى كل زمان يأتي عليها شباطا
بل الرهبان لما تعشو عدسا كان قته بقسماطا[1]

فالشاعر أفحش في هجوه لرموز النصارى إلى حد السباب والتعريض بألفاظ يتقزز الطبع من سماعها.

ويدخل ابن القيسراني على مدينة أنطاكية، ويصور كيف أضحت كنائسها معارض للفتيات الحسان، وكيف تعذر عليه أن يفرق بين راهبة وقديسة ومبتذلة، كما يبدو في هذه الأبيات:

كم بالكنائس من مبتلة مثل المهاة يزينها الخفر
من كل ساجدة لصورتها لو ألصقت سجدت لها الصور
قديسة في حيل عاتقها طول، وفي زنارها قصر
غرس الحياء بصحن وجنتها وردا سقى أغصانه النظر
وحكت مدارعها غدائرها فـأراك ضعفي ليلـة قمر

ووصف ابن منير الطرابلسي الكنائس المهدمة والصلبان المحطمة بعد تحرير المدن من قبضة الصليبيين، فقال:

يا لها همة ثغر أضحكت من بنى القلف ثغور الشامين
كم كنيس كنست قدرامها منه بعد الروح في ظل السنين
ومنـار يتجلى صلبـانه بين بيض تتبارى في البرين[2]

ويصور فتيان الشاغورة ما حل بالداوية والإسبتارية –فرسان المعبد–، وكيف خربت بيوتهم[3]:

---

[1] قسماط، وهو نوع من الخبز اليابس، ضناوي، سعدي: المعجم المفصل والدخيل، ص93.
[2] أبو شامة: الروضتين، ج1، ص39–40.
[3] ديوانه، ص145.

كم أودعت دوية داوية صرعوا بها في المعرك المستوكر
جعلت لها الثارات في أنافنا أرج العراب وطيب عرف العبهر

ويصف أبو الفضل الجلياني ذلهم في المعركة، فيقول:

والاسبتارية إلى الداوية التأمو كأنهم سد يأجوج إذا إشتجروا
يتلوهم صلبوت سيق منتكسا وحوله كل قسيس له زبر[1]

أما العماد الأصفهاني فقد دعا السلطان صلاح الدين للقضاء عليهم لدرء خطرهم، بعد أن أضحوا حماة الصليبيين في الشام، فقال[2]:

وأهد إلى الاسبتار البتار وهد السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلاد يخلصك ربك في الموقف

في حين صور ابن رواحة شدة ورعهم وزهدهم في الحياة الدنيا، وإعراضهم عن مقاربة النساء، وكيف قصروا حياتهم على العبادة والحرب، في قصيدة كان مطلعها:

أرى داوية الكفار خافت أبو به داء يضعف كل متن
نسلا مخافة نسل بنت تفارق دينهم أو قتلة ابن
فقد عقموا به من غير عقم كما جنبوا به من غير جبن
ومن أفناهم عدما حقيق بحمد مثلما وجدوا ويغني[3]

وفي الأخير يمكن أن نخلص إلى أن الاحتلال يولد المقاومة، وأن هذه المقاومة تتناسب طرديا في عنفها مع عنف الاحتلال، وبما أن الحروب الصليبية لم تكن مجرد

[1] أبو شامة: الروضتين، ج3، ص406.
[2] ديوانه، ص304.
[3] الاصفهاني: الخريدة، ج1، ص495.

صدام مسلح، بل كانت صدام خصارى بين الشرق والغرب، الأمر الذي أثار ثائرة العلماء والقوى الحية في الأمة الإسلامية، وشعروا بأن عليهم واجب روحي وفكري ودعائي لا يقل أهمية عن الواجب الحربي المادي في مناهضة العدو الصليبي الغازي ودحض مشروعه الاستيطاني.

الخاتمـــة

بعدما فصّلنا في ذكر رجال الفكر والدور الذي قاموا به في مناهضة الفكر الصليبي ودحر مشروعه الاستيطاني في بلاد الشام على مدار قرنين من الزمن، خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج كان أهمها:

– إن بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية قد وصلت إلى ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب من تمزق وتدابر درجة لم يسبق لها أن بلغتها من قبل، وكأني بهذه الفترة الزمنية بالذات قد فتحت ذراعيها مستقبلة أول حملة صليبية على العالم الإسلامي.

– شكلت الحروب الصليبية خطرا جسيما على الأمة الإسلامية، ولاسيما شقها الدعائي الديني الذي رام إلى النيل من عقيدة التوحيد وتشويه صورة المسلمين وتمسيح مقدساتهم، لذا عدّت المعارك الفكرية أنكى وأشد من المعارك العسكرية.

– إن الصمود في وجه الحملات الصليبية المتتالية والمتعاقبة على أرض الشام وتطهير المقدسات والثغور الإسلامية من دنسهم، ما كان ليتحقق لولا جهود ثلة من الدعاة والعلماء والفقهاء والشعراء الذي قيضهم الله لهذه الأمة لزعزعة النفوس الراكدة والحمية الفاترة.

– أثبتت الدراسة أن السيف ما كان لينتصر ويظفر بأعداء الإسلام – الصليبيين – لولا انتصار المؤسسات الدينية والتعليمية في ميدان الفكر والعقيدة، وقد سارت عملية إحياء الفكر السني ضمن نهج متكامل عماده الاهتمام بالمدارس والمساجد لمجابهة سطوة المؤسسات الدينية والفكرية ذات التوجه الشيعي الباطني، إدراكا من أن قوة الجبهة الداخلية وفاعليتها تكمن في وحدة فكر الأمة وسلامة عقيدتها.

– نجح علماء الإسلام في تغيير نظرة الصليبيين حيال الإسلام وتعاليمه، وإبطال الكثير من الافتراءات والدعوات الباطلة التي كان الصليبيون يظنون أنها من وحي عقيدتهم وكتبهم المقدسة، بإظهار الحق الذي غاب عنهم، سواء بأخذ الحجة من كتبهم أو بالاستدلال والقياس، بل امتدت جهودهم إلى إدخال الشك والريب في مصدر عقيدتهم وإفتار ذلك

الهوس الديني المزعوم الذي عدّ وقود الجيوش الصليبية، فعادوا بفكر غير الفكر الذي جاءوا به وبصورة ناصعة متحضرة عن الإسلام والمسلمين.

– مثّل العلماء وشعراء الجهاد ورجال الفكر عامة قوة إعلامية جبارة في وجه الدعاية الصليبية المغرضة، وآلة دعائية تعبوية ساهمت في اصطفاف الأمة حول قادتها، فالانتصارات العسكرية ماكان لها أن تأخذ حقها وتشيع في أصقاع العالم الإسلامي، وتجلب لصانعها الثناء والمدح لولا رسائل العلماء وقصائد الشعراء التي لم تنقطع يوما عن ساحات المعارك.

–كما استطاع الشعراء تقديم انتصارات المسلمين وهزائهم الصليبيين في جو مفعم بالتفاؤل والاستبشار وزيادة في الثقة بالنفس وذلك عندما وصفوا بمهارة فائقة ذل الصليبيين وانكسارهم وهزائمهم المتتالية مما حقق أغراض قادة الجهاد.

– تعاظم الغزو الفكري والعقدي التنصيري في بلاد الشام بعد فشل المشروع العسكري الاستيطاني، وبذلت في سبيله كل الإمكانات واتجهت إليه كل الجهود، وما زالت هذه الجهود موصولة بكل قوة إلى اليوم.

– كما ساعد نضوج التصوف وتوهج رجاله في القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي، في نهضة المجتمع وعودة جذوة الجهاد لمريديه، بعد ما كان صارفا للناس مثبطا للعزائم مشجعا على الخنوع وسببا في تمكين الصليبيين.

– وعلى الرغم من الدور الجسيم الذي قام به رجال الفكر زمن الحروب الصليبية، إلا أن الكثير منهم تعرض إلى النقد، واتهموا بالهروب من الحرب والعزوف عن حمل السلاح، ظانين أن الجهاد بالقلم لا يقوم مقام الجهاد بالسيف.

الملاحـــق

ملحق رقم (01): المسجد الأقصى

سامي عبد الله الملغوث: أطلس الحملات الصليبية، ص 113.

ملحق رقم (02): خارطة الأماكن التي نزل بها المسيح -عليه السلام-

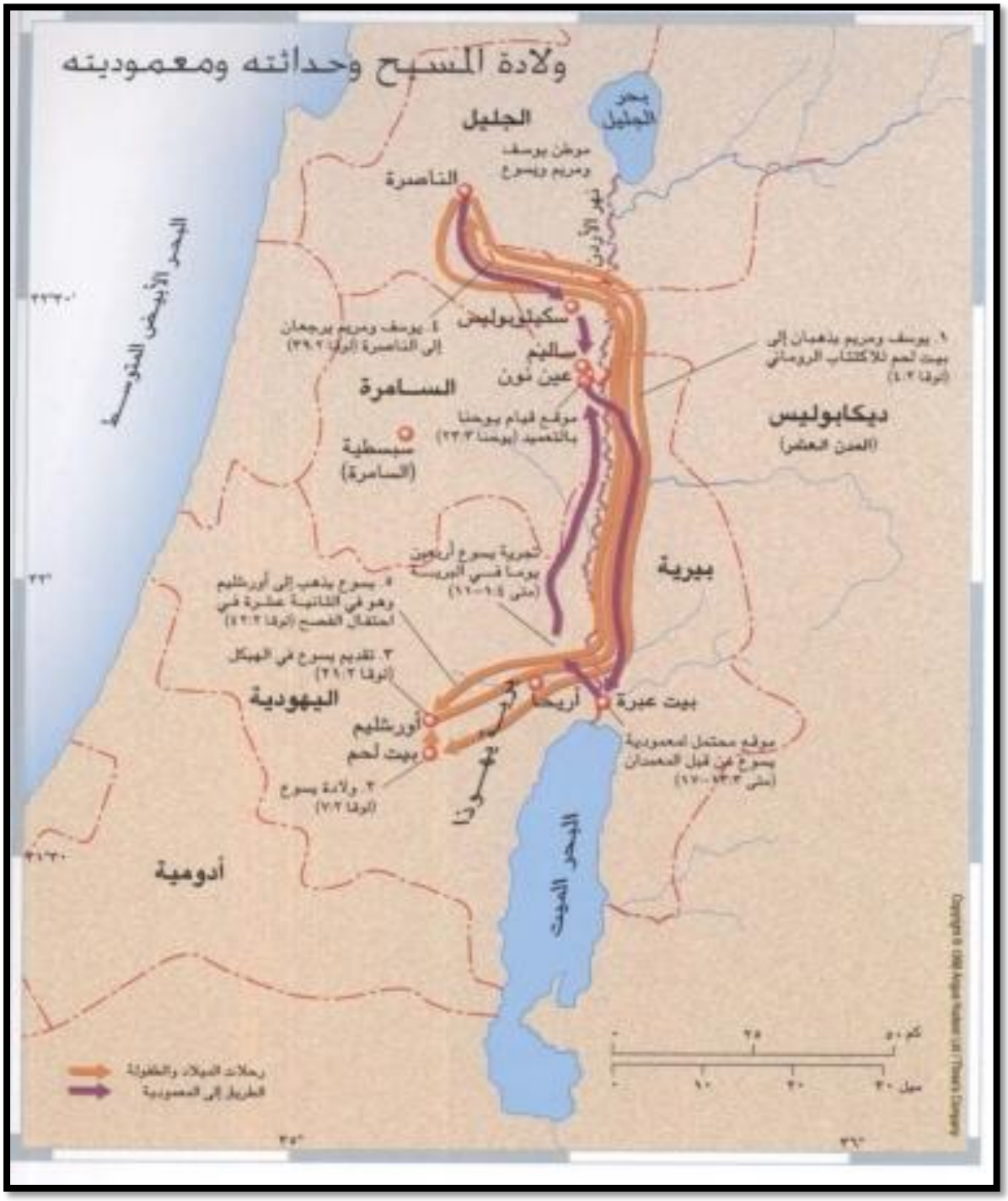

تيم داولي و آخرون : أطلس الكتاب المقدس و تاريخ المسيحية، مؤسسة هارد لاينز، (د.م)، (د.ت)، ص 62.

ملحق رقم (03): كنيسة القيامة

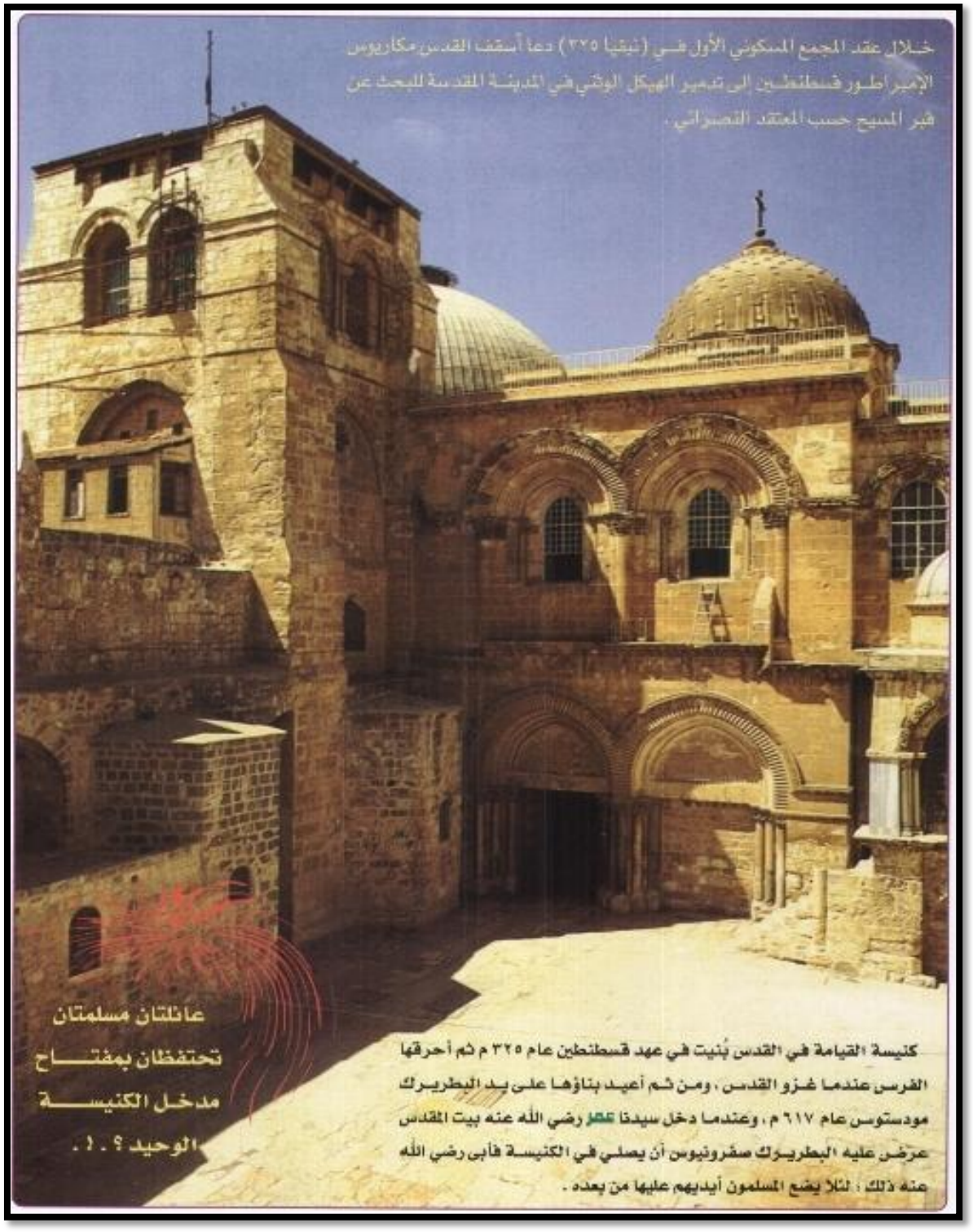

سامي عبد الله الملغوث : أطلس الأديان، ص 213

ملحق رقم (04): خريطة حركة الحج المسيحي إلى الأماكن المقدسة

تيم داولي و آخرون: المرجع السابق، ص 80.

ملحق رقم (05): خريطة الحملة الصليبية الأولى –حملة الأمراء-

سامي عبد الله الملغوث : أطلس الحملات الصليبية، ص 47.

ملحق رقم (06): خريطة الإمارات الصليبية التي تأسست في بلاد الشام

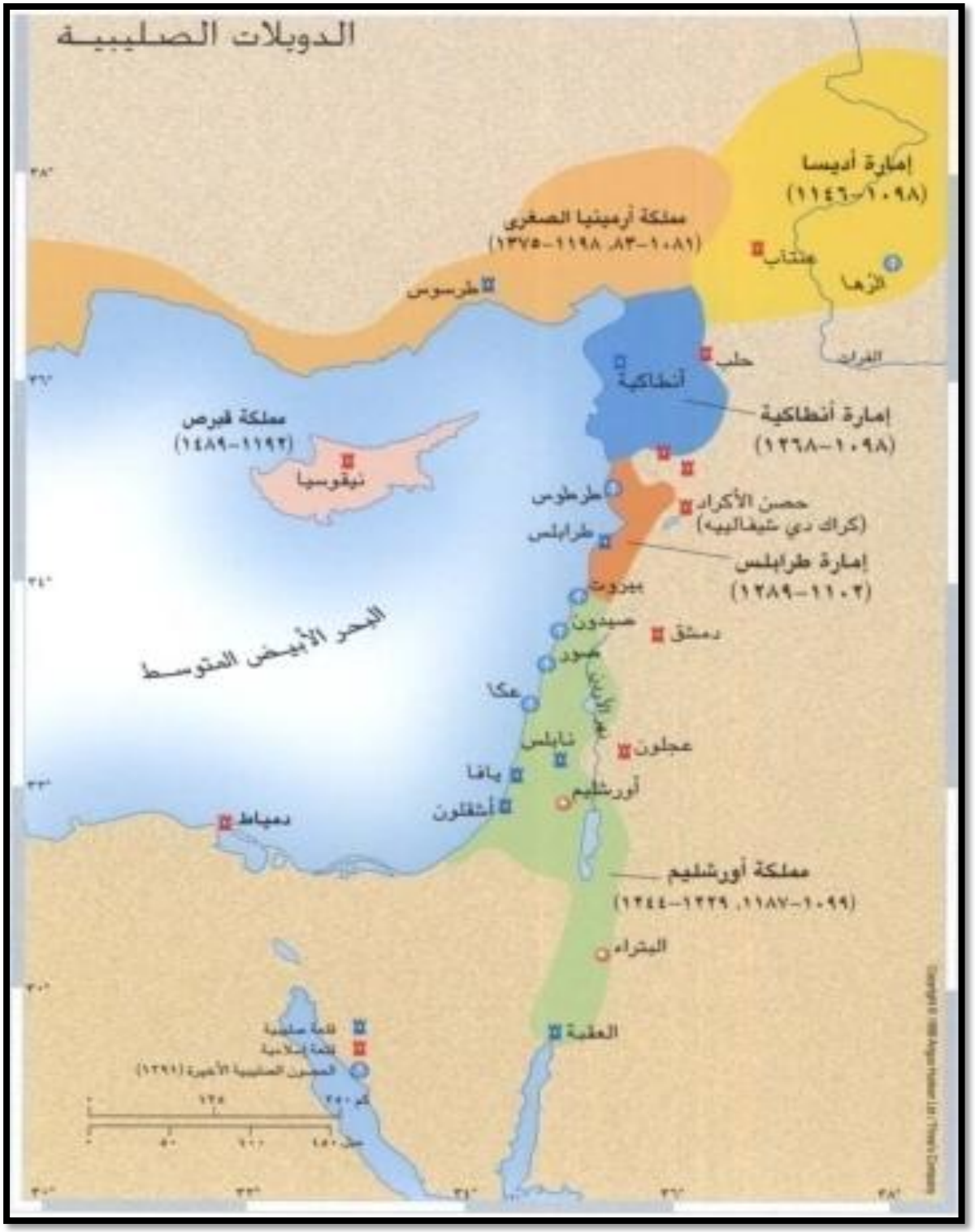

تيم داولي و أخرون: المرجع السابق، ص 105.

ملحق رقم (07): فتوحات صلاح الدين الأيوبي

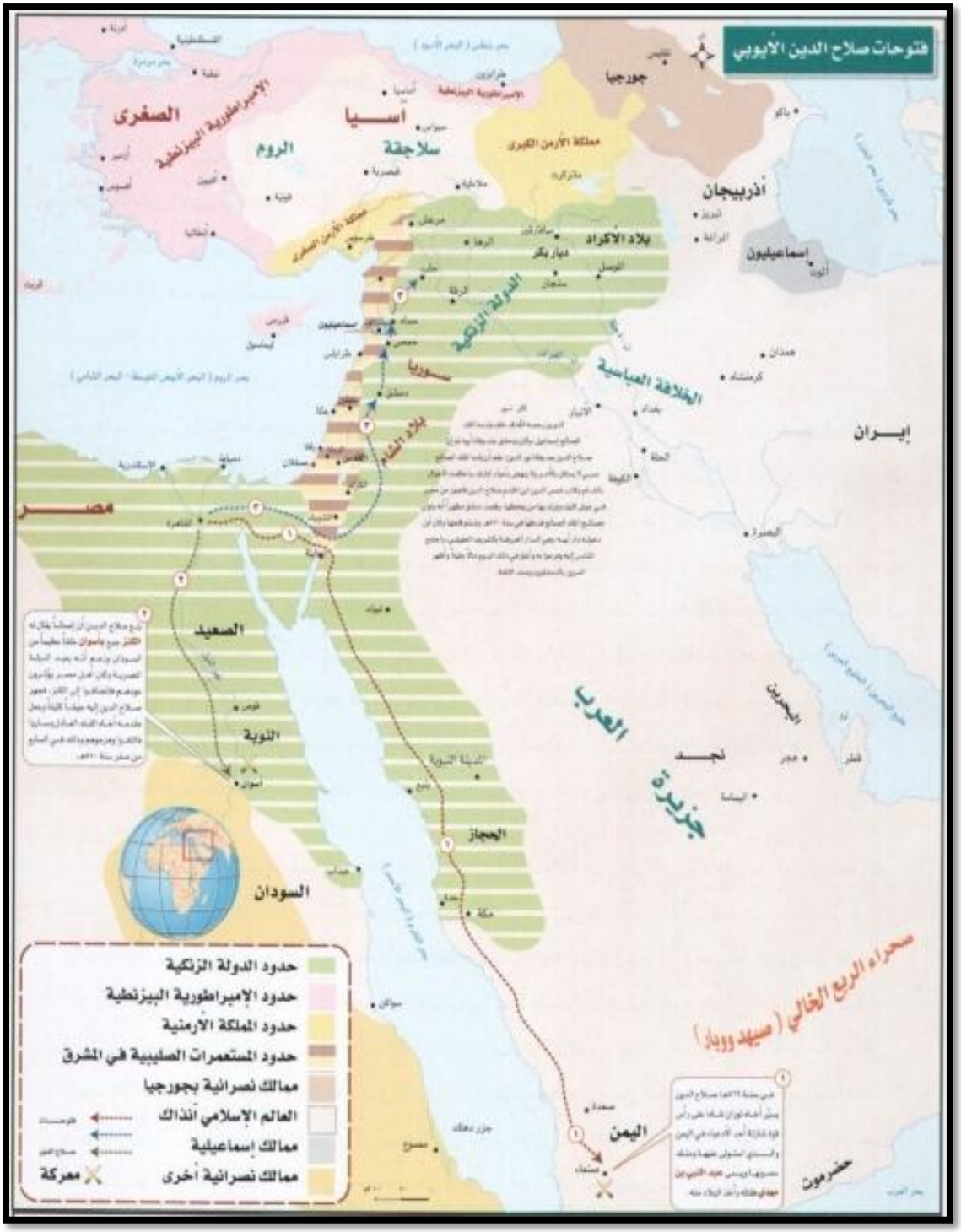

سامي عبد الله الملغوث: أطلس الحملات الصليبية، ص 99.

الفهارس العامة

1- فهرس الآيـــات

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾	التين	3-1	23
﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾	الأنبياء	71	24
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآٰمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾	المائدة	2	41
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾	الحج	39	111
﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾	الشورى	39	111
﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾	البقرة	194	112
﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾	البقرة	190	112
﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾	النساء	172	123
﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾	المائدة	17	123
﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ	الحديد	20	212

﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾			
﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾	طه	12	213
﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾	البقرة	257	221
﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾	الحج	78	225
﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾	الكهف	70	263-262
﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾	الكهف	78	263
﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾	الكهف	82	263

2- فهرس الأعـــلام

أ

إبراهيم -عليه السلام-: 21-23-24.
إبراهيم ابن الأدهم: 208.
ابن أبي طي: 197.
ابن حنبل: 50-208.
ابن الخشاب: 187-188.
ابن صليعة/ابن صليحة 185.
ابن عربي: 221-222-226-279-280.
ابن عساكر: 194-195-197-198-199.
ابن العجمي: 173.
ابن العديم: 172-173.
ابن العقادة: 170.
ابن عقيل الحنبلي: 49-50-150.
ابن الفارض: 225.
ابن الفراش: 315-316.
ابن مرزوق القرشي: 239.
ابن واصل جمال الدين: 172.
أبو بشر بن الحواري: 341.
أبو البقاء محمود: 261.
أبو بكر الشاشي: 150.
أبو البيان القرشي: 248.
أبو الحجاج يوسف بن دوناس: 187.

أبو الحسن الأشعري: 44-50-209.
أبو الحسن علي بن مسلم بن الحسن السلمي: 194.
أبو الحسن النوري: 206.
أبو سعد الهروي: 150.
أبو سعيد الحلوافي 150.
أبو شامة عبد الرحمن: 162-171-174-223.
أبو طالب السميرمي: 55.
أبو العباس القدسي/أبو ثور: 282.
أبو عبد الله بن مهران: 188.
أبو عمر قطب الدين: 281.
أبو الفتح أحمد بن علي بن برهان: 258.
أبو الفتح عماد الدين عمر بن علي: 260-261.
أبو الفتوح عبد السلام التنوخي: 149.
أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي: 237.
أبو القاسم الأنصاري: 186.
أبو قدامة: 153-217.
أبو مدين شعيب: 239-240.
أبو هاشم الكوفي: 28.
أبو الوفاء: 150.
أبو يعلى: 293.
أبو يوسف يعقوب بن سليمان: 44.
أبق: 332.
أتسز بن أوق: 31-32-33.

أثناسيوس: 25.

أحمد بدوي: 223.

آدم: 135-214.

أدهيمار: 83.

أرتق بن أكسب: 33.

أرسطو: 229.

أرناط: 96-97-115-363.

إسحاق -عليه السلام-: 21.

أسد الدين شركو: 95-314.

أسعد بن المنجا: 247.

إسماعيل بن الملك المنصور: 329.

الأشرف خليل: 356.

الأشرف موسى: 102-159-163-182-183-251-252.

إفتخار الدولة: 87-89.

الأفضل بن بدر الجمالي: 38.

الأفضل بن صلاح الدين: 84-179-316-317-370.

ألب أرسلان: 31.

الكسيوس كومنين: 82.

إلياس -عليه السلام- : 134.

الأمجد بهرام شاه: 250-291.

الأمير مودود: 46.

أوربان الثاني: 60-63-68-73-81-82-125-130.

أوربان الثالث: 98.

أوى بن مغراء: 286.

إيجنيوس الثالث: 91.

ب

بختنصر: 312.

بدر الجمالي: 32.

بركياروق: 35-36-185.

البرنس: 323-261-363-364.

برهان الدين البلخي: 53-157-161-169-182.

البسطامي: 210.

بطرس الناسك: 67-96-82-83.

بلدوين الأول: 85-86-187.

بلدوين الثاني: 74.

بلدوين الثالث: 75-93-363.

بهاء الدين بن شداد: 171-172-180-181-185-200.

بولس: 131.

بوهيمند: 79-84-85-86-87.

بوزان: 34-35.

ت

تاج الأمناء: 198.

تاج الدين بوري: 176.

تاج الدولة تتش: 33-34-35-36.

تقي الدين بن صلاح: 163-171.

تقي الدين عمر: 335-368.

تنكرد: 85.

ث

ثعلب: 291.

ج

جابر بن حيان: 208.

جامي لوريجيان: 97-100.

جعفر الصادق: 208.

جستنيان: 7.

جلال الدين محمد الخوارزمي: 102-152.

جمال الدين بن الحاجب المالكي: 250.

جمال الدين الدولعي: 172.

جناح الدولة بن الحسن: 46.

جود فري بوبون: 83-89.

جوسلين الثاني: 90-91-323-358-362-363.

الجنيد: 206.

جيمس فينتري: 138.

ح

الحافظ عبد الغني عبد الواحد: 158-259-281.

الحاكم بأمر الله: 41-42.

حامد بن محمود: 247.

حزقيال: 135.

الحسن البصري: 208.

حسن بن يوسف 282.

الحسن الصباح: 44-45.

الحطيئة: 286.

الحكيم المبجم: 45.

الحلاج: 210-232-234.

حميد الزيري: 223.

الخبوشاني: 250.

الخضر -عليه السلام-: 262.

د

داود -عليه السلام-: 21-22.

الدراني: 208-247.

دقاق: 37-38-214.

ر

رسلان الدمشقي: 239-277.

رضوان: 37-38-45-46-214.

رفيع الدين عبد العزيز الجيلي: 164.

روبرت أوف سانت: 119.

روبرت النورماندي: 84.

روجر الثاني: 140.

ريموند أجيل: 88.

ريموند الثالث: 97-116-141.

ريموند الرابع: 83-87-90.

رينو دو شاتيوف: 96.

ريتشارد قلب الأسد: 100-101-102-106-118-119-140-144.

ز

الزاهدي: 129.

زكريا –عليه السلام–: 21.

زين الدين بن نجار ابن نجية: 151–280.

س

سام ابن نوح –عليه السلام–: 3.

السامري: 290–291.

سبط ابن الجوزي: 123–152–153–154–162–238.

سراج الدين الأرموي: 120.

سعد بن أبي وقاص: 286.

سفيان الثوري: 208.

سلمان الفارسي: 73.

سليمان –عليه السلام–: 21–26.

سليمان بن قتلمش: 34.

سهل التستري: 209.

سيف الدين المشطوب الهكاري: 278.

ش

شاور: 95.

شرف الدين إسماعيل: 160.

شرف الدين ابن أبي عصرون: 169–191.

شرف الدين السهروردي: 164–208–213–220–224–225–263.

شرف الدين الموصلي: 258.

شمس الدين: 296.

شيخ الجبل: 41.

ص

الصالح إسماعيل: 164-183-184-290-291-306-315.

الصالح أيوب: 106.

صالح بن ويرجان الزركالي: 240.

صدر الدين عبد الرحيم: 253.

صدر الدين محمد: 261.

صلاح الدين الأيوبي: 95-96-97-98-99-100-101-102-115-116-117-
118-119-123-140-143-144-145-146-149-152-157-159-161-
164-165-168-171-178-179-180-181-184-189-190-191-192-
195-198-199-200-201-236-248-249-251-253-261-278-279-
280-281-282-283-301-302-305-306-307-308-316-324-325-
326-328-337-338-343-363-365-368-369-370-371-373.

صلاح الدين بن محمد بن أيوب: 357.

صوفة بن مر: 204.

ض

ضياء الدين المقدسي: 198.

ضياء الدين الهكاري: 191-278.

ضياء الملك أحمد بن نظام الملك: 270.

ط

طاهر ابن جهبل: 195.

الطرطوشي: 224.

طغتكين ظهير الدين: 176.

ظ

الظاهر غياث الدين غازي: 164-193-317.

ع

العادل: 102-103-143-155-159-180-251-317-338.

العاضد: 95-96.

عبدة بن الطيب: 286.

عبد الرحمان بن ملجم: 43.

عبد الرحمان الحلحولي: 187-282.

عبد الرازق: 242.

عبد السلام الرملي: 198.

عبد الغني المقدسي شرف الدين: 259.

عبد القادر الجيلاني: 238-239-240-241-245-247-272-273-280-281.

عبد الله الأرمي: 123.

عبد الله علي بن الحسين: 278.

عبد الله الهروي: 264.

عبد المنعم الجلياني: 283.

عبد الله اليوينني: 124-192-250-282.

عبد الواحد الصوفي: 124.

عبد الوهاب الشيرازي: 176.

عثمان ابن صلاح الدين: 316.

عثمان بن عفان: 43.

عدي بن مسافر: 277.

العز بن عبد السلام: 159-160-182-183-196.

عز الدين: 253.

عز الدين أسامة: 293.

عز الدين بن فليتة: 181.

العزيز بن صلاح الدين: 179-317.

علي بن أبي طالب: 8-43.

علي بن مسلم السلمي: 149.

عماد الدين زنكي: 13-90-91-177-188-189-299-304-320-322-323-333-351.

عمر بن الخطاب: 8-43-88.

عمر بن العاص: 280.

عمر الملا الصوفي: 246.

عيسى -عيسى عليه السلام-: 21-23-26-115-123-135-141-356.

غ

الغزالي: 229-230-231-232-233-234-235-236-237-256-257-258-267-268-269-270-271-272.

غريغريوس السابع: 66-70.

غريغوريوس السابع: 66-70.

غريغوريوس الثامن: 98.

غضب الدولة: 298.

ف

فاطمة: 162.

فخر الدين أبي شجاع بن دهان: 181.

فخر الدين بن عساكر: 171.

فخر الدين يوسف بن حمويه: 120-140.

فخر الدين يوسف معين الدين: 283.

فردريك الأول -بربروسا-: 99-140-181.

فردريك الثاني: 78-103-104-106-120-139-154-309-346.

فضيل: 291.

فليب أغسطس: 100-106-140.

الفنش: 359-360.

ق

القائم بأمر الله: 31.

قايبل: 43-214.

القاسم بن عساكر: 198-299.

القاضي ابن زنكي: 123-151-161-163.

القاضي زين الدين أبا محمد الأسدي: 172.

القاضي الفاضل: 157-178-179-180-184-200.

القاضي محمد بن موسى: 49.

القداح الملحد: 162.

القديس أوغسطين: 61-111-137.

القديس برنارد: 91-92-93.

القرافي: 127-128.

قسطنطين الأول: 24-25-26-27.

قسيم الدولة أق سنقر: 34-35.

القشري: 206-213.

قطب الدين النيسابوري: 174-250.

قلج أرسلان: 35-39-82-84.

القمص: 361.

قول بن عثمان: 332.

ك

الكاسافي: 169.

الكامل: 78-102-104-105-106-120-127-152-154-309-346.

كليمنت الثالث: 98.

كمال الدين محمد بن محمد: 283.

كمال السهزروري: 177-247-295.

الكندهري: 146.

كنراد الثالث: 92-93.

الكيا الهراسي:48.

ل

لويس السابع: 91-92-93.

لويس القديس: 77.

لويس ممبولا: 64.

ليسع: 134-135.

م

مجد الدين عبد الله الحنفي: 292.

مجير الدين: 94-309-312.

المحاسبي: 209-255.

محمد (ص): 21-23-24-137-138-145-146-163-179-273-227-334.

محمد بن أبي الفتح: 252.

محمد ابن المبارك القرقساني: 345.
محمد بن وهبة: 295.
محمد بن يحي بن منصور: 258.
محمود بن نصر بن صالح: 31-45.
محي الدين محمد: 173.
مريم: 26.
المسترشد بالله: 176.
المستضيء: 96.
المستظهر بالله: 36-150.
المستعلي بالله: 37-84.
المسيح -عليه السلام-: 24-25-26-27-63-65-68-69-81-88-91-99-125-126-129-130-131-132-133-134-135-138-140-141-145-368-369-371.
المظفر شهاب الدين غازي: 280.
معاوية بن أبي سفيان: 8.
المعظم عيسى: 102-103-159-160-252-289-292-293-296-309-223-345.
معين الدولة أنز: 93-314.
المغيث بن الملك العادل: 339.
مقاريوس: 25.
ملكشاه:31-32-33-34-35-36-44-177.
المنصور ناصر الدين: 338.
موسى -عليه السلام-: 16-21-23-262.

موفق الدين المقدسي: 190-201.

موفق عبد الله بن قدامة: 259-281.

ميخائيل السابع: 66.

ن

الناصر داود: 103-104-105.

الناصر لدين الله: 99-194.

نجم الدين أيوب: 120-183-248-283.

نظام الملك: 35-45-49-50-166-251.

نقفوز: 38.

نوح -عليه السلام-: 3-53.

نور الدين محمود: 53-54-94-95-96-157-160-161-166-168-169-170-182-193-194-195-197-201-236-246-248-256-260-280-288-299-300-301-304-310-311-321-313-315-323-324-334-359-360-361-362-367-370.

هـ

هابيل: 43-214.

هارون الرشيد: 292.

الهجويري: 206-210.

هرقل: 58.

هرنريوس الثالث: 103.

هيلافة: 24-25-27.

و

والتر المفلس: 82.

وليام الطرابلسي: 126-141.

ي

يزيد بن معاوية: 8.
يعقوب -عليه السلام-: 21.
يوحنا كومنين: 90.
يوحنا المعمدان: 26-27.
يوسف -عليه السلام-: 21.
يوسف الفندلاوي: 282.
يوشع بن نون: 16.
يحي -عليه السلام- : 21-135.

3- فهرس القبائـــل

أ

الأتراك: 15.

إخوان الصفا: 164.

الأكراد: 13-15-277-278.

الأمويون: 19.

أهل السنة: 16-39-44-45-47-48-230-231-334-280.

أولا الشيخ: 260-283.

الأيوبيون: 11-15-149-169-185-200-248-347.

ب

الباطنية: 39-40-41-42-44-45-46-47-54-55-162-267.

البرامكة: 292.

البزنطيون: 30-58-62-73-95.

بنو إسرائيل: 16-22-23-130.

بنو ربيعة: 11-12.

بنو رزيق: 12.

بنو زبدة: 11.

بنو ضرغام: 12.

بنو عبيد: 162.

بنو عمار: 34.

بنو كلاب: 11.

بنو كنعان: 4.

بنو صوفي: 315.

ت

التركمان: 13-14-15-101-.

التنوخيون: 12.

ث

ثعلبة: 12.

ج

جذام: 8.

الحشاشون: 41-44.

خ

الخوازميون: 104-106.

د

الدروز: 40-42-43-44.

ر

الروم: 7-58-62-127-303-334-357-358.

ز

الزنكيون: 14-169-185-200-248.

س

السامرة: 17-130.

السلاجقة: 30-31-33-34-35-38-39-44-65-66-82-83-84-90-92-214-215.

ش

الأشوريين: 4.

الشيعة: 16-39-45-161-162-170-173-208-213.

ع

العجم: 8-150-303-314.

العرب: 3-7-8-11-39-62-150-287-303-314.

العقيلون: 33-34.

العلويون: 16.

غ

الغرايبة: 214.

ف

الفاطميون: 30-31-32-33-34-35-37-38-51-84-86-161-214-281.

الفرنج/الفرنجة: 12-13-15-62-63-64-69-70-71-87-86-91-98-105-117-127-138-139-140-142-143-145-150-153-166-169-171-173-174-176-178-180-183-184-185-186-190-191-193-216-222-247-265-278-279-283-292-298-309-313-314-315-321-323-324-329-334-337-341-343-344-350-351-352-353-354-355-356-358-359-360-364-365-368.

ق

القراؤون: 16.

ك

كندة: 8.

الكنعانيون: 16.

ل

لخم:8.

م

المارونيون: 46-47.

المرداسيون: 33.

الموحدون: 215.

ن

النبط: 19-186-234.

النزارية: 40-41-44.

النصارى: 16-18-19-20-39-59-63-65-67-68-85-88-89-101-115-118-119-121-122-123-127-128-129-131-132-133-135-136-137-142-143-145-313-343.

النصرية: 39-42-43-44-214.

ي

اليعاقبة: 47.

اليهود: 16-17-18-21-22-25-89-274-312.

4- فهرس الأماكن الجغرافية

أ

أرتاج: 94.

أدرج: 9.

الأردن: 7-8-9-14-27-366.

أرسوف: 101.

أرمينيا: 13.

آسيا الصغرى: 65-66.

أعزار: 40.

الأغوار: 51-104.

أفسوس: 85.

ألمانيا: 92-93-99.

الأناضول: 40-59-116.

أنجلترا: 100-102-119.

الأندلس: 59-65.

أنطاكية: 10-18-30-34-38-40-79-80-87-89-90-93-94-95-116-215-216-265-323-361-370.

أنطرسوس: 301.

أورشاليم: 68-132.

أوروبا: 59-62-64-65-67-71-72-73-74-76-77-78-79-84-93-98-106-124-139-141-235-365-352-369.

إيطاليا: 99.

أيلة: 5-8.

إيليا: 5-8-88-312.

ب

بالس: 7-10.

بانياس: 40.

البحر الأدرياتيكي: 73.

بحر الروم: 5-6-7.

برج داود: 17.

بصرى: 9-19-344.

بعلبك: 9-260.

بغداد: 30-36-90-150-179-181-240.

بغراس: 14.

بلاد الروم: 6-26.

بلاد المغرب: 53-54-239.

بلاط: 187.

البلقاء: 6-104.

البندقية: 73-74-75.

بيت لحم: 21-105.

بيت المقدس/القدس: 8-13-17-19-21-22-23-25-26-28-30-32-33-47-59-61-62-65-67-68-69-75-78-79-85-86-87-88-89-91-92-93-94-96-97-98-99-100-101-102-103-104-105-106-107-116-117-120-123-124-137-138-144-145-151-154-171-182-190-194-197-198-199-200-215-217-218-249-255-256-277-278-279-280-282-292-299-300-301-302-309-311-312-313-314-322-

-355-354-351-347-346-345-342-337-333-328-327-325-324
.370-369-364
بيروت: 40-180-277-293.
بيزا: 74.
بيسان: 9.

ت

تبوك: 9-11-24.
تدمر: 9.
تونس: 59-81.
تيه بني إسرائيل: 5.

ج

جبال هكار: 277.
جبل الزيتون: 22.
جبل السماق: 40.
جبل الشيخ: 40.
جبل صهيون: 20-22-26-27.
جبل طي: 6.
جبل قاسيون: 172-214-261.
جبل لبنان: 19-20.
جرش: 9.
الجزيرة: 8-35-36-37-38-55-90-96-97-102-306-309.
الجليل: 27.
جنوة: 74.

الجولان: 9.

الجومة: 10.

ح

حارة اليهود: 17.

الحجاز: 363.

حران: 36-247-252.

حصن الأكراد: 87.

حصن حارم: 94-65-116-323.

حصن بارين: 321.

حصن جيلة: 185.

حصن المناقير: 308.

حطين: 97-98-116-117-190-282-353-363.

حلب: 7-10-11-13-15-17-19-31-33-34-35-36-37-40-45-46-90-93-96-161-168-172-177-190-197-214-247-256-260-280-299-316-321-339-359.

حماة: 9-13-40-46-260-321-335-357.

حمص: 7-8-9-10-11-19-40-46-168-260-277.

حوران: 9-11-344.

حيفا: 101.

خ

خراسان: 36.

خلاط: 102.

الخليل: 51.

د

ديار بكر: 13-38.

دجلة: 366.

دمشق: 7-8-9-10-11-12-16-17-23-32-33-34-37-40-46-48-51-93-94-96-102-103-105-124-149-153-154-158-159-160-164-167-169-170-171-176-177-182-183-187-191-197-199-217-218-224-239-248-251-252-255-260-261-277-293-296-298-299-309-310-311-312-314-315-317-318-332-336-345-352-353.

دومة الجندل: 9-11.

ر

رفح: 5-8.

الرمثا: 344.

الرملة: 8-32-51-87-101-190-191-201-278.

الرها: 18-19-35-36-86-90-91-93-188-189-299-322-323-358-368.

الرى: 36.

س

سلوقية: 10.

سورية: 4-5-7-146.

سناء: 7-23.

ش

الشام: 3-4-5-6-7-8-9-10-11-12-13-14-15-16-17-18-19-21-22-23-24-28-33-35-36-37-38-39-40-45-51-54-55-56-59-65-67-

-114-107-104-103-99-97-96-95-93-90-83-81-78-74-73-70
-170-169-168-166-165-162-157-153-150-149-146-124-116
-218-217-216-214-213-212-194-185-182-181-176-173-171
-298-296-290-288-287-282-277-260-256-253-252-247-239
.358-357-356-352-334-329-322-314-312-311-310-309-303

شبه الجزيرة الإيبرية: 58.

الشوبك: 104.

شيزر: 9-13-46-321.

ص

صرخد: 7-11-317.

صفد: 13-16.

صفورية: 9-97.

صفين: 10.

صقلية: 65-100-120-139-141.

الصلت: 104.

صور: 9-16-35-118-142.

صيدا: 16-19-116-141-186.

ط

طبرية: 9-283-353.

طرابلس: 13-34-37-46-47-87-97-114-116-141-168-277.

طرطوس: 7-85.

طوروس: 7.

ع

العراق: 35-36-38-55-252-260-365-366.

العريش: 6.

عسقلان: 8-32-89-101-180-283.

عكا: 9-13-93-100-103-138-140-142-143-145-155-178-181-189-191-249-278-280-329-356.

عمواس: 8-87.

عين تاب: 14.

غ

غزة:8-168.

الغوطة: 9.

فارس: 35.

فحل: 9.

الفرات: 5-6-7-11.

فرنسا: 64-74-75-77-82-99-100.

فلسطين: 8-21-23-32-146.

ق

قارا: 9.

القاهرة: 30.

القسطنطينية: 71-73-74-81-82-84-92-99-119.

قلعة ألموت: 41.

قلعة جعير: 11.

قلعة شقيف: 183.

قونية: 120.

قنسرين: 8-10-46.

قيسارية: 8-19-85-101.

ك

الكرك: 96-97-143.

الكعبة: 204.

كليرمونت: 60-63-68-81.

كليكة: 90.

ل

لبنان: 40-47.

اللاذقية: 9.

اللورين: 75.

م

المدينة المنورة: 247-343.

مرسيليا: 74.

مصر: 5-6-12-14-32-38-48-55-59-65-74-81-84-94-95-96-97-102-161-162-165-171-178-179-180-182-214-239-260-299-309-310-313-314-315-318-324.

مصرين: 10.

مصياف: 87.

معرة النعمان: 9-14-46-86-87-341.

مكة: 23-24-138-139-327-328-347.

ملطية: 6.

مؤتة: 9.

الموصل: 37-46-90-96-181-200-246-247-248-253-299.

منبج: 6-10-301.

ن

نابلس: 8-106-217.

الناصرة: 105-116.

نجران: 344.

نصيبين: 247.

نهر العاصي: 10.

نورمنديا: 75.

نيقية: 39-85.

هـ

هنغاريا: 99.

و

وادي التيم: 40.

ولد: 8.

ي

يافا: 8-104-105-180-277.

اليرموك: 58.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

القرآن الكريم، برواية حفص.

الكتاب المقدس، (د.ط)، دار الشروق، بيروت، 1986.

1- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس (ت668هـ/1269م): عيون الأبناء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، (د.ط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

2- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن بن أبي الكرم الشيباني (ت 630هـ/1233م): الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

3- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتبكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، (د.ط)، دار الكتب الحديثة، القاهرة، (د.ت).

4- ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، قدم له علي بن حسين، ط1، دار ابن الجوزي، الرياض، 2000.

5- ابن البطريق، سعيد (ت 328هـ/939م) كتاب تاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، (د.ط)، مطبعة الآباء اليسوعين، بيروت، 1909.

6- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم (ت 779هـ/1377م): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، 1986.

7- ابن تغرى بردي، كمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت 874هـ/1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه حسن شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

8- ابن تيمية، أبو العباس تقى الدين أحمد الحراني (ت728هـ/1328م): الفتاوى الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

9- ابن تيمية: مناقب الشام وأهله، ط1، المكتب الإسلامي، دمشق، 1960.

10- إبن تيمية: الإستغاثة في الرد على البكرى، تحقيق عبد الله دجين السهلى، ط1، دار الوطن، الرياض، 1997.

11- إبن جبير، محمد أحمد بن جبير الكتاني (ت 614هـ/1217م): رحلة ابن جبير (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1980.

12- إبنالجوزى، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ/1201م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

13- إبن الجوزى: صيد الخاطر، مراجعة علي طنطاوي، (د.ط)، دار المنار، جدة، 1991.

14- إبن الجوزي: تلبيس إبليس، (د.ط)، دار إبن خلدون، الإسكندرية، (د. ت).

15- إبن الجوزي: فضائل القدس تحقيق جبرائيل سليمان جبور، (د.ط)، دار الأفاق الجديدة، بيروت، (د.ت).

16- إبن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري (ت656هـ/1063م)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، 1985.

17- إبن حنبل، أحمد محمد بن حنبل الدهيلي (ت 241هـ/855م): المسند، (د.ط)، مؤسسة قرطبة، القاهرة، 1998.

18- إبن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت 368هـ/990م): صورة الأرض، (د.ط)، مكتبة الحياة، بيروت، 1979.

19- إبن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300هـ/912م): المسالك والممالك، تعليق محمد مخزوم، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1998.

20- إبن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1406م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.

21- إبن خلدون: المقدمة: المقدمة، ط1، دار صادر، بيروت، 2000.

22- إبن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، (ت 681هـ/1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت، (د. ت).

23- إبن الخياط، أحمد بن محمد بن علي يحي (ت 517هـ/1123م): ديوانه، تحقيق خليل مردم، (د.ط)، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1958.

24- إبن دنينير، ابراهيم بن محمد بن ابراهيم (ت 627هـ/1229م): ديوانه، تحقيق محمود شاكر سعيد، (د.ط)، جامعة الأزهر، القاهرة، 1981.

25- إبن رجب، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن الحنبلي (ت 795هـ/1392م): مجموع الرسائل، تحقيق أبو مصعب طلعت فؤاد الحلواني، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، (د. ت).

26- ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة اخرج أحاديثه أسامة بن حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

27- إبن رجب: العلوم والحكم، تحقيق ماهر ياسين الفحل، ط1، دار إبن كثير، دمشق، 2008.

28- إبن رشيق، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني (ت 463هـ/1070م): العمدة في محاسن الشعر وأدابه عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت، 1972.

29- إبن الساعاتي، علي بن محمد بن رستم بن هردوز (ت 604ه 1207م): ديوانه، تحقيق أنيس المقدسي (د.ط)، مطبعة كلية الأدب والعلوم الجامعة الأمريكية، بيروت، 1939.

30- إبن الساعي، أبو طالب بن أنجب (ت 674هـ/1275م): الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، تحقيق ونشر مصطفى جواد، (د.ط)، المطبعة السريانية، بغداد، 1934.

31- ابن سنا الملك، القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله (ت 608هـ/1211م)": ديوانه، اعتنى بتصحيحه محمد عبد الحق، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، 1975.

32- إبن شاهين، غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت 873هـ/1468): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راويس، ط1، المطبعة الجمهورية، باريس، 1893.

33- إبن الشحنة، أبو الفضل محمد (ت 890هـ/1485م): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله درويش، (د.ط)، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984.

34- إبن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم (ت 632هـ/1234م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية -سيرة صلاح الدين-، تحقيق جمال الدين الشيال، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994.

35- إبن شداد، عز الدين عبد الله محمد بن علي غبراهيم (ت 684هـ/1285م): الإعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق دومنيك سورديل، (د.ط)، المعهد الفرنسي، دمشق، 1973.

36- إبن صلاح، تقي الدين أبو عثمان (ت 643هـ/1245م): فتاوى ومسائل إبن صلاح، جمع وتحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1958.

37- إبن طباطبا، محمد بن علي العلوي المشهور بإبن طقطقي (ت 709هـ/1309م): عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول، (د.ط)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1956.

38- إبن طولون، محمد بن علي (ت 953هـ/1546م): القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، ط2، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1980.

39- إبن العبري، أبو الفرج غريفوريوس بن اهرون بن توما الملطى (ت 685هـ/1286م): تاريخ مختصر الدول، ط1، دار الآفاق، القاهرة، 2001.

40- إبن عجينة، أحمد بن محمد الحسني (ت 1224هـ/1804م): الفتوح الإلهية، تحقيق عبد الرحمن حسن محمود، (د.ط) عالم الكتب، القاهرة، (د. ت).

41- إبن عربي، محي الدين بن علي بن محمد (ت 638هـ/1240م): فصوص الحكم، تحقيق أبو العلا عفيفي، (د.ط)، الكتاب العربي، بيروت، (د. ت).

42- إبن عربي: الفتوحات المكية، (د.ط)، المطبعة، القاهرة، (د.ت).

43- إبن عساكر، الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن وهبة (ت 571هت/1175م): تاريخ دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، 1995.

44- إبن عساكر: تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام ابي الحسن الأشعري، تحقيق أحمد حجازي السقا، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، 1995.

45- إبن عساكر: الأربعون في الحث على الجهاد، تحقيق عبد الله يوسف، ط1، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، 1984.

46- إبن العديم: كمال الدين ابي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله الحلبي (ت 660هـ/1261م): زبدة في تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.

47- ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، ط1، دار الفكر، بيروت، 1988.

48- إبن العماد، عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت1089هـ/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط1، دار أبن كثير، بيروت، 1986.

49- إبن عنين، أبو المحاسن بن نصر الله بن مكارم (ت 630هـ/1232م): ديوانه، تحقيق خليل مردم، ط2، دار صادر، بيروت، (د. ت).

50- ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد (ت 799هـ/1397م): الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق مأمون بن يحي الدين الخيان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.

51- إبن قتيبة، محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت276هـ/889م): الشعر والشعراء، تحقيق احمد محمد شاكر، (د.ط)، دار الحديث، القاهرة، (د. ت).

52- إبن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، وشرحه السيد أحمد صقر، ط2، دار التراث، القاهرة، 1973.

53- إبن القاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر (ت 784هـ/1382م): الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق محمود زايد، ط1، دار الكتاب الجديدة، بيروت، 1971.

54- إبن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن أسد التميمي (ت 555هـ/1160م): ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أمدروز، (د.ط)، مطبعة الإباء اليسوعين، بيروت، 1908.

55- إبن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت 774هـ/1372م): البداية والنهاية، تحقيق عبد الرحمن اللادقي ومحمد غازي بيضون، ط2، دار المعرفة، بيروت، 1997.

56- إبن كثير: تفسير إبن كثير، تحقيق سامي بن محمد السلامة، ط1، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 1997.

57- إبن كثير: قصص الأنبياء، تحقيق عبد القادر القرماوي، ط5، دار الطباعة، القاهرة، 1997.

58- إبن الكلبي، أبو منذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي القضاعي (ت204هـ/819م): إختراق ولد معد-افتراق العرب- تحقيق أحمد محمد عبيد، (د.ط) هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2010.

59- إبن الكبي: كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، ط2، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1924.

60- إبن المتطبب، نصر بن يحي المتطبب (ت 589هـ/1193م): النصيحة الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، (د.ط)، مطبعة دار الصحوة، القاهرة، 1986.

61- إبن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 773هـ/1369م): مختصر تاريخ دمشق لإبن عساكر -فضائل الشام والخطط-، تحقيق رجحيه النحاس ,اخرون، ط1، دار الفكر، دمشق، 1984.

62- إبن منقذ، أسامة بن مرشد بن علي (ت 584هـ/1188م): كتاب الإعتبار، تحقيق فليب حتي، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت).

63- إبن منقذ: ديوانه، حققه أحمد بددوي وحامد عبد المجيد، (د.ط)، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1953.

64- إبن النديم، محمد بن إسحاق (ت 385هـ/995م): الفهرست، (د.ط)، دار المعرفة للطباعة، بيروت، (د. ت).

65- إبن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ/1298م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين شيال وآخرون، (د.ط)، مطبعة جامعة فؤاد الأول، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1977.

66- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن إبن اسماعيل المقدسي (ت 665هـ/1267م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، علق عليه إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.

67- أبو شامة: الباعث على إنكار البدع والحوادث، تحقيق عادل عبد المنعم أبو العباس، (د.ط)، مكتبة ابن سينا، القاهرة، (د. ت).

68- أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق أحمد البيسوني، (د.ط)، وزارة الثقافة، دمشق 1991.

69- أبو الفدا، إسماعيل بن علي محمد بن عمر الملقب بعماد الدين (ت 732هـ/1331م): المختصر في أخبار البشر، تعليق محمود ديوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.

70- أبو الفدا: تقويم البلدان، (د.ط)، دار صادر، بيروت، (د. ت).

71- أبو الهدى الصياد، محمد بن حسن الرفاعي (ت 4228هـ/1813م): قلادة الجواهر، قدم له الشيخ عبد الوارث محمد علي، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999.

72- الابيوردي، أبو المظفر محمد بن العباس أحمد بن محمد (ت507هـ/1103م): ديوانه، تحقيق عمر الاسعد (د.ط)، مجمع اللغة العربية، دمشق، (د. ت).

73- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بالشريف الإدريسي (ت القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي): نزهة المشتاق في اختراق الافاق،(د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.

74- الأربلي، محمد الأمين الكردي (ت 1332هـ/1913م): تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

75- الأزدي، أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري (ت 231هـ/845م): فتوح الشام، تصحيح ناسوليس الإيرلندي، (د.ط)، طبعة كلكتا، 1853.

76- الإصطخرى، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (341هـ/952م): المسالك والممالك، (د.ط)، مطبعة بريل، لندن، 1937.

77- الاصطخري: كتاب الأقاليم، تحقيق ونشر يوهان هنريج مولد، (د.م)،1939.

78- الأصفهاني، عماد الدين الكاتب أبو عبد الله (ت 597هـ/1201م): الفتح القسي في الفتح القدسي، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.

79- الأصفهاني، البرق الشامي، تحقيق صالح حسين، (د.ط)، مؤسسة عبد الحميد شومات، عمان، 1987.

80- الأصفهاني: تاريخ دولة أل سلجوق، قدم له يحي مراد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

81- الأصفهاني: جريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق شكري فيصل، ط1، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1968.

82- الأصفهاني: ديوانه، جمعه ناظم رشيد، (د.ط)، مطابع جامعة الموصل، الموصل، 1983

83- الانباري، أبو البركات عبد الله بن محمد بن عبيد الله الشافعي (ت 577هـ/1181م): الداعي على الإسلام، تحقيق حسين باعجوان، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1988

84- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت 429هـ/1037م): الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، (د.ط)، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

85- البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر (ت 279هت/892م): فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، (د.ط)، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987.

86- البنداري، قوام الدين الفتح بن علي (ت 642هت/1244م): سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، (د.ط)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979.

87- التادفي، محمد بن يحي الحنبلي (ت 963هـ/1555م): قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر الجيلاني، (د.ط)، دار الباز، فلوريدا، الو.م.أ، 1998

88- التطليلي، بنيامين بن بونة (ت 569هـ/1173م): رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، (د.ط)، المطبعة الشرقية، بغداد، 1945.

89- توديبود بطرس (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي): تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية، ط 1، دار المعارف، الجامعة، الإسكندرية، 1998.

90- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (تـ 255هـ/868): الحيوان، تحقيق يحي الشامي، (د.ط)، مكتبة الهلال، بيروت، 1997.

91- الجعفري، صالح بن الحسين بن صلحة بن الحسين (ت 668هـ/1269): تخجيل من حرف التوارة والإنجيل، تحقيق محمد قدح، ط 1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998.

92- الجعفري: الرد على النصارى، تحقيق محمد محمد حسانين، ط 1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1988.

93- الجيلاني، عبد القادر بن أبي صالح (ت 561هـ/1165م): الفتح الرباني والفيض الرحماني، ط 1، منشورات الجمل، بغداد، 2007.

94- الجيلاني: الغيبة لطالبي طريق الحق، وضع حواشيه أبو عبد الرحمن صلاح، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

95- الجيلاني: فتوح الغيب، تحقيق جمال الدين فالح الكيلاني، ط 1، مركز الإعلام العالمي، دكا، بنغلادش، 2014.

96- الجيلاني: الفيوضات الربانية في المآثر الأوراد القادرية، (د.ط)، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، (د.ت).

97- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت 1067هـ/1678م): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

98- الحافظ ضياء الدين، عبد الرحمن المقدسي (ت 643هـ/1245م): فضائل بيت المقدس، تحقيق محمد مطبع، (د.ط)، دار الفكر، دمشق، (د.ت).

99- الحريري، أحمد بن علي بن المغربي (ت 926هـ/1520): الإعلام والتبين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، حققه سهيل زكار، (د.ط)، مكتبة دار الملاح، دمشق، 1981.

100- الحميري، ابن عبد المنعم محمد الصنهاجي (ت 900هـ/1494م): الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت، 1989.

101- الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت 876هـ/1472م): شفاء القلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 1996.

102- الحنبلي، عبد الحي بن العماد (ت 1089هـ/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط 1، دار ابن كثير، بيروت، 1986.

103- الذهبي، الحافظ شمس الدين ابن أحمد بن عثمان قايماز (ت 748هـ/1347م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994.

104- الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم الزيبق، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983.

105- الذهبي: العبر في أخبار من غبر حققه وضبطه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

106- الذهبي: تذكرة الحفاظ، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

107- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين (ت 604هـ/1207م): إعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تعليق المعتصم بالله البغدادي، ط 1، دار الكتاب، بيروت، 1986.

108- الرازي: التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط1، دار الفكر، بيروت، 1981.

109- الزاهدي، نجم الدين أبو الرجاء مختار (ت 658هـ/1260م): الرسالة الناصرية، تحقيق محمد المصري، (د.ط)، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، 1994.

110- الزبيدي، محمد بن محمد الحسني الشهير بمرتضى (ت 1205هـ/1791م): إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، (د.ط)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1994.

111- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوعلي أبو المظفر (ت654هـ/1256م): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، (د.ط)، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1987.

112- السبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الباقي (ت 771هـ/1369م): طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

113- السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل (ت 483هـ/1090م): المبسوط، دراسة وتحقيق خليل محي الدين الميس، ط 1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2000.

114- السلمي، أبو عبد الرحمن (ت 412هـ/1021م): طبقات الصوفية، تحقيق أحمد الشرباحي، ط 2، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 1998.

115- السهروردي، شهاب الدين عمر (ت 632هـ/1234م): عوارف المعارف، (د.ط)، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

116- شرف الدين الأنصاري، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن (ت 662هـ/1263م) ديوانه، تحقيق عمر موسى باشا، (د.ط)، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1967.

117- الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد بن علي (ت 973هـ/1565م): لواقح الأنوار في طبقات السادة الأخيار، تحقيق خليل منصور، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

118- الشعراني: لطائف المنن، اعتنى به أحمد عزو عناية، ط 1، دار التقوى، دمشق، 2004.

119- الشعراني: الطبقات الكبرى، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح، وتوفيق على وهبة، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2005.

120- الشنطوفي، علي بن يوسف (ت 713هـ/1313م): بهجة الأسرار في معدن الأنوار في مناقب الباز الأشهب الشيخ عبد القادر الجيلاني، تحقيق جمال الدين فالح الكيلاني، ط 3، المنظمة المغربية للتربية والثقافة، فاس، 2013.

121- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الله (ت 548هـ/1153م): الملل والنحل، تحقيق محمد سيد الكيلاني، (د.ط)، دار الجبل، بيروت، 1986.

122- الشوكاني، أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد (ت 1250هـ/1834م): الفتح القدير، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، (د.ت).

123- شيخ الربوة، محمد طالب الأنصاري (ت 727هـ/1327م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988.

124- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/922م): تاريخ الأمم والملوك، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.

125- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد (ت 530هـ/1135م): الحوادث والبدع، علق عليه علي بن حسن الحلبي، ط 1، دار الجوزي، دمشق، 1990.

126- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ/1362م): الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، ط 1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000.

127- طلائع بن زريك، الغارات طلائع الملقب بالملك الصالح (ت ت 556هـ/1160م): ديوانه جمعه محمد هادي الأميني، ط 1، منشورات المكتبة الأهلية، النجف، العراق، 1964.

128- الطوسي، أبو نصر عبد الله بن علي السراج (ت 378هـ/988م): اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، تحقيق كامل مصطفى الهندواي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)

129- العز عبد السلام، أبو القاسم بن حسن السلمي (ت 660هـ/1262م): أحكام الجهاد وفضائله، تحقيق نزيه حماد، ط 1، مكتبة دار الوفاء، مكة المكرمة، 1986.

130- العلمي، مخير الدين الحنبلي (ت 967هـ/1559م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق محمود علي عطاالله، ط 1، مكتبة دندس، عمان، الأردن، 1999.

131- العمري، القاضي ابن فضل الله العمري شهاب الدين (ت749هـ/1348م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، (د.ط)، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1924.

132- العلمي: التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق حسن شمس الدين، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.

133- العيني، بدر الدين محمود (ت 855هـ/1451م): عقد الجهان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق ودراسة محمود رزق محمود، ط 2، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2010.

134- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت 505هـ/1111م): فضائح الباطنية، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، (د.ط)، دار الكتب، الكويت، (د.ت).

135- الغزالي: الرد الجميل، تحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، (د.ت).

136- الغزالي: إحياء علوم الدين، ط 1، دار الثقافة للنشر، الجزائر، 1991.

137- الغزالي: المقصد الأسنى في شرح صفات الله الحسني تحقيق فضله شحادة، (د.ط)، دار المشرق، بيروت، 1991.

138- الغزالي: تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، ط 4، دار المعارف، مصر، 1966.

139- الغزالي: المنقذ من الضلال، ط 1، دار الفكر، بيروت، 2003.

140- الغزالي: ميزان العمل، تحقيق سليمان دنيا، ط 1، دار المعارف، مصر، 1964.

141- فتيان الشاغوري، شهاب الدين أبو محمد فتيان بن ثمان الأسدي (ت 615هـ/1218م): ديوانه، تحقيق أحمد الجندي، (د.ط)، المطبعة الهاشمية، دمشق، 1976.

142- فوشيه الشارتري (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي): تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، (د.ط)، دار الشروق، القاهرة، 2001.

143- الفيتري يعقوب (ت 637هـ/1240م): تاريخ بيت المقدس، ترجمة سعيد اليشاري، ط 1، دار الشروق، عمان، 1998.

144- القاضي النعمان، أبو عبد الله بن محمد بن منصور التميمي المغربي (ت 363هـ/973م): خمس رسائل اسماعيلية، تحقيق عارف تامر، (د.ط)، دار الإنصاف، بيروت، 1986.

145- قدامة بن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي (ت 337هـ/948م): نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، (د.ط)، دار الكتب، بيروت، (د. ت).

146- القديس أوغسطين (ت430م): مدينة الله، نقله إلى العربية الخور أسقف يوحنا الحلو، ط 1، دار المشرق، بيروت، 2006.

147- القشري أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (ت 465هـ/1072م): الرسالة القشرية، تحقيق عبد الحليم محمود بن الشريف، (د.ط)، ددار الشعب للطباعة، القاهرة، 1989.

148- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن الأعشى في صناعة الإنشا، تعليق حسين شمس الدين، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

149- القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980.

150- القرافي، شهاب الدين أبي العباس أحمد (ت 684هـ/1285م): الأدلة الوجدانية في الرد على النصرانية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد دمشقية ط1، (د. ف)، (د. م)، 1988.

151- القرافي: الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاجرة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986.

152- الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود (ت 587هـ/1191م): كتاب بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، (د.ط)، دار الكتاب، بيروت، 1982.

153- الكتبي، محمد بن شاكر (ت 764هـ/1362م): فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1973.

154- الكلاباذي، أبو بكر بن أبي إسحاق بن إبراهيم البخاري الحنفي (ت 380هـ/990م): التعريف لمذهب التصوف، تصحيح أثر جون أو برى، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994.

155- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت 450هـ/1058م): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

156- محمد تقي الدين، عمر بن شاهنشاه (ت 617هـ/1220م): مظمار الحقائق وسير الخلائق، تحقيق حسن حبشي، (د.ط)، عالم الكتب، القاهرة، 2010.

157- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346هـ/957م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرحه مفيد قمحية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).

158- المسعودي: التنبيه والأشراف، (د.ط)، دار صادر، بيروت، (د. ت).

159- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد (ت 388هـ/998م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تعليق الصناوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

160- المقدسي، شهاب الدين أبي محمود إبن تميم المقدسي (ت 765هـ/1363م): مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق أحمد الخطيمي، ط1، دار الجيل، بيروت، 1994.

161- المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 845هـ/1441م): الخطط المقريزية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.

162- المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، (د.ط)، طبعة ليدن، (د. ت).

163- المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

164- المقريزي: القول الإبريزي، تحقيق عبد المجيد ذياب، (د.ط)، دار النهضة، القاهرة، (د. ت).

165- المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطمين الخلفاء، تحقيق، جمال الدين شبيال، ط2، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1996.

166- المناوي، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين (ت 1031هـ/1612م): الفيض القدير بشرح الجامع الصغير، ط2، دار المعرفة، بيروت، 1972.

167- المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تحقيق صالح حمدان، (د.ط)، دار صادر، بيروت، (د. ت).

168- المنذري، زكي الدين أبو محمد بن عبد القوي (ت 656هـ/1258م): التكملة لوفيات النقلة، تحقيق حسن حبشي، (د.ط)، عالم الكتب، القاهرة، 2010.

169- ناصر خسرو، أبو معين (ت 482هـ/1088م): سفر نامة، ترجمة يحي الخشاب، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1993.

170- النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت 978هـ/1570م): الدارس في تاريخ المدارس، أعد فهارسة إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990.

171- النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى (ت 2010هـ/825م): فرق الشيعة، تعليق سيد محمد صادق بحر العلوم، ط4، المطبعة الحيدرية، النجف، العراق، 1969.

172- النويري، أبو زكريا محي الدين بن شرف (ت 676هـ/1277م): تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

173- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ/1332م): نهاية الأرب في فنون الادب، تحقيق مفيد قميعة، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

174- الهجويري، أبو الحسن علي عثمان الهجويري (ت 465هـ/1072م): كشف المحجوب ترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، (د.ط)، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1974.

175- الهمذاني، أبو بكر بن محمد الهمذاني المعروف بإبن الفقيه (ت 340هـ/951م): مختصر كتاب البلدان، (د.ط)، مطبعة، بريل، لندن، (د. ت).

176- وليم الصوري (القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي): تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1991.

177- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ/1228م): معجم البلدان، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1997.

178- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.

179- اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح (ت 384هـ/994م): البلدان، وضع حواشيه محمد أمين الصناوي، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

180- يوحنا فورزبزرغ (القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي): وصف الأراضي المقدسة، ترجمة وتعليق سعيد عبد الله البشاوي، ط1، دار الشروق، عمان، 1997.

ثانيا: المراجع العربية الحديثة والمعربة:

1- إبراهيم الفيومي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي قبل الإسلام، (د.ط)، عالم الكتب، القاهرة، 1979.

2- أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، (د.ط)، دار ابن كثيرن دمشق، (د. ت).

3- أجناس جولد تسهير: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة يوسف موسى وأخرون، ط1، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1996.

4- أحمد أبو كف: أعلام التصرف الإسلامي، ط2، دار التعاون، القاهرة، (د. ت).
5- أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط2، دار نهضة مصر، القاهرة، 1979.
6- أحمد بيشو: التلمود كتاب اليهود المقدس، قدم له سهيل زكار، (د.ط)، دار قتيبة، دمشق، 2006.
7- أحمد الشامي: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، (د.ط)، دار النهضة العربية، القاهرة، 1985.
8- أحمد محمود صبحي: التصوف إيجابياته وسلبياته، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، (د. ت).
9- إحسان عباس: العرب في صقلية، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت، (د. ت).
10- أرنست باركر، الحروب الصلبية، ترجمة السيد الباز العربي العريني، ط2، دار النهضة، بيروت، (د. ت).
11- أسعد الخطيب: البطولات والفداء عند الصوفية، تقديم عبد الكريم اليافي وأخرون، ط5، دار التقوى، دمشق، (د.ت).
12- أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب، (د.ط)، دار الفارابي، بيروت، 1998.
13- بسام العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، ط1، دار النفائس، بيروت، (د. ت).
14- توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون، (د.ط)، مكتبة النهضة، (د.ط)، دار الثقافة، القاهرة، (د. ت).
15- تيم داولي وآخرون: أطلس الكتاب المقدس وتاريخ المسيحية، مؤسسة هارد لاينز/(د.م)، (د.ت).

16- جمال الدين شيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر الأوروبي عصر النهضة، (د.ط)، دار الثقافة، القاهرة، (د. ت).

17- جمال فالح الكيلاني: الشيخ عبد القادر الجيلاني رؤية تاريخية معاصرة، ط2، دار الفكر، بيروت، 2004.

18- جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، (د.ط)، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

19- جوناتان سميث: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة فتحى الشاعر، ط2، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1999.

20- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة، القاهرة، 2001.

21- حسن حنفيك نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (د. ت).

22- حسن حنفي: فتشة فيلسوف المقاومة، (د.ط)، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 2002.

23- حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه، (د.ط)، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1971.

24- حسن عبد الوهاب حسن: مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1978.

25- حسين النجار: أرض المعاد، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، (د. ت)

26- الدباغ مصطفى: بلادنا فلسطين، (د.ط)، دار الهدى، (د. م)، 1991.

27- رينولدنيلكسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبو العلا عفيفي، الناشر لجنة التأليف، القاهرة، (د.ت).

28- زرار صديق يوسف: القبائل والزعامات القبلية الكردية في العصر الوسيط، ط 1، مؤسسة مركز ياني للبحوث والنشر، أربيل، العراق، 2007.

29- الزركلي خير الدين: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط 15، دار الملايين، بيروت، 2002.

30- زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي، (د.ط)، دار الكتاب العربي، القاهرة، (د.ت).

31- سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الأديان، ط 1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2007.

32- سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2009.

33- ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العيرني، دار الثقافة، بيروت، 1967.

34- سعد رستم: العرب والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام إلى البوم، ط 2، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، 2005.

35- سعود الخلف: اليهودية والنصرانية، ط 1، مكتبة العلوم، المدينة المنورة، (د.ت)

36- سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ط 6، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1994.

37- سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى-النظم والحضارة-، ط 2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959.

38- سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، (د.ط)، دار النهضة العربية، بيروت، 1976.

39- سفينسيسكا: المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية خفايا القرون، ترجمة حسان مخائيل إسحق، ط 1، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 2007.

40- سليمان الحلبي: طائفة النصرية تاريخها وعقائدها، ط 2، دار الملفية، الكويت، 1984.

41- سيد علي الحريري: الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ط 3، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1985.

42- شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، ط 1، دار الملايين، بيروت، 1979.

43- شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات –مصر والشام–، (د.ط)، دار المعارف، مصر، 1994.

44- صالح بن صالح المحمود: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، ط 1، مكتبة الرشد، الرياض، 1995.

45- عادل جابر صالح: شعر ابن القيسراني، جمع وتحقيق ودراسة الوكالة العربية للتوزيع، ط 1، الزرقاء، الأردن، 1991.

46- عبد الله بن دجين السهلي: الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وأثارها، ط 1، دار كنوز إشبيليا، الرياض، 2005.

47- عبد الله حسن زروق: أصول التصوف، (د.ط) المركز القومي للإنتاج الإعلامي، الخرطوم، 1995.

48- عبد الله الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ط 1، جامعة الإمام، الرياض، 1994.

49- عبد الله علوان: صلاح الدين الأيوبي، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت).

50- عبد الحليم عبد الغني قاسم: المذاهب الصوفية ومدارسها، ط 2، مكتبة متولي، القاهرة، 1999.

51- عبد الحميد العبادي وآخرون: الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها، (د.ط)، مطابع المصري، القاهرة، 1954.

52- عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلامين، (د.ط)، دار العلم للملايين، بيروت، 1997.

53- عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ط 1، دار الفكر، دمشق، 1984.

54- عبد الرحمن الوكيل: هذه هي الصوفية، ط 4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984.

55- عبد الرزاق الكيلاني: الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة، ط 1، دار العلم، دمشق، 1994.

56- عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية، ط 2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1984.

57- عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فليب حتى، ط1، دار الثقافة، القاهرة، 2000.

58- عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة إسحاق عبيد، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.

59- العسلي كامل جميل: معاهد العلم في بيت المقدس، (د.ط)، عمال المطابع، (د.ت).

60- علي محمد الصلابي: دولة المرابطين، ط 1، دار الجوزي، القاهرة، 2007.

61- عمر عبد السلام تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس خلال العصور الوسطى، (د.ط)، دار فلسطين، بيروت، 1973.

62- عمر فروخ: تاريخ الفكر في أيام ابن خلدون، (د.ط)، دار العلم للملايين، بيروت، 1972.

63- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ط 7، دار العلم للملايين، بيروت، 1997.

64- عمر فروخ: التصوف في الإسلام، (د.ط)، دار الكتاب، بيروت، 1981.

65- غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، (د.ط)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1948.

66- فايد حماد محمد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981.

67- فليب حتى: تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، تحقيق أنيس فريحة، راجعه نقولا زيادة، ط 2، دار الثقافة للطباعة، بيروت، 1959.

68- فليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال الياوجي، ط 3، دار الثقافة، بيروت، (د.ت).

69- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، مايو، 1990.

70- قاسم عبده قاسم: الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، ط 1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، القاهرة، 1999.

71- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، 1975.

72- كارل هينرش بكر: تراث الأوائل في الشرق والغرب، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (د.ط)، دار النهضة، القاهرة، 1940.

73- كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، مراجعة صلاح الدين عثمان، مراجعة إيغور بليايف، (د.ط)، جامعة الدول العربية، (د. ت).

74- كلود كاهن: الشرق والعرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، ط1، سينا للنشر، مصر، 1995.

75- لكي لسترنج: فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمود عمايري، (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن، 1970.

76- ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، المعهد العالمي للفكر الإسلامين (د.ط)، فرجينا، الو.م.أ، 1994.

77- ماجد عرسان الكيلاني: الفكر التربوي عند ابن تيمية، (د.ط)، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، 1985.

78- ماسينيون وعبد الرازق مصطفى: التصوف، ترجمة إبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1984.

79- متولي يوسف شلبي: أضواء على المسيحية، (د.ط)، الدار الكويتية، الكويت، 1968.

80- محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1966.

81- محمد أبو زهرة: الخطابة أصولها تاريخها في ازهر عصورها عند العرب، ط2، دار الفكر، دمشق، (د. ت).

82- محمد أبو الغيظ الفرت: بولس والمسيحية، ط1، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1980.

83- محمد حسين هيكل: الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة، (د.ط)، دار الهلال، القاهرة، (د. ت).

84- محمد الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث عشر، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، 1969.

85- محمد رضا بك: الخيبة الأدبية للسياسية العربية في الشرق "الحروب الصليبية حقائق هامة"، ترجمة محمد بورقيبة ومحمد الزمرلي، ط2، دار بوسلامةللطياعة والنشر، تونس، 1977.

86- محمد زغلول سلام: الادب في العصر الأيوبي، (د.ط)، دار المعارف، الإسكندرية، 1990.

87- محمد سهيل طفوش: حروب الفرنجة في المشرق، ط1، دار النفائس، بيروت، 2011.

88- محمد سيد نصرو وآخرون: أطلس العالم، (د.ط)، مكتبة لبنان، بيروت، (د.ت).

89- محمد الطراونة: الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك، ط1، دار جليس الزمان، عمان، الأردن، 2012.

90- محمد عبد العظيم يوسف أبو نصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ط1، عين للدراسات، العاهرة، 2001.

91- محمد علي كرد: خطط الشام، ط3، مكتبة النوري، دمشق، 1987.

92- محمد علي الهرفي: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، (د.ط)، دار المعالم الثقافية، الإحساء، المملكة العربية السعودية، 1979.

93- محمد كامل حسين: طائفة الدروز تاريخها وعقائدها، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، 1962.

94- محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي (489هـ - 846هـ/1096م - 1404م)، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982.

95- محمد مرسي الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994.

96- محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 1995.

97- محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين 6هـ -7هـ/12م - 13م)، ط1، عين للدراسات، القاهرة، 2000.

98- محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، الغسكندرية، 1998.

99- محمود شلبي: حياة صلاح الدين، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، (د. ت).

100- مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذهب، ط4، دار النهضة العربية، بيروت، 1972.

101- مصطفى مصطفى وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ط1، مكتبة الإيمان المنصورة، مصر، 1997.

102- مكارم سامي نسيب، أضواء على مسلك التوحيد الدرزية، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1960.

103- مونتغري واط: أثر الحضارة الإسلامية على أوروبا، ترجمة جابر أبي جابر، (د.ط)، منشورات دار الثقافة، دمشق، 1981.

104- ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، (د.ط)، دار التقدم، موسكو، 1986.

105- ميخائيل مكسي إسكندر: القدس عبر التاريخ، مراجعة وتقديم الأنباغريغوريوس، (د.ط)، مطبعة رمسيس، الجيزة، 1972.

106- النبهاني يوسف بن إسماعيل: جامع كرامات الأولياء، تحقيق إبراهيم عطوة عرض، ط1، مركز أهل سنت بركات رضا، الهند، 2001.

107- نبيلة مقامي: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث عشر، (د.ط)، مطبعة الجامعية، القاهرة، 1994.

108- نعيم فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ط2، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1999.

109- نورمان كانتور: التاريخ الوسيط قصة الحضارة البداية والنهاية، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط5، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة، 1997

110- وافي عبد الواحد: اليهود واليهودية، (د.ط)، دار النهضة، القاهرة، (د. ت).

111- وول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، (د.ط)، دار الجيل، (د. ت).

112- يوسف إبراهيم عيد: أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبين، ط1، دار المعاني، عمان، الأردن، 1998.

113- يوسف الدبس: الجامع في تاريخ الموازنة الموصل: (د.ط)، المطبعة العمومية الكاثوليكية، بيروت، 1905.

114- يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين –مملكة بينت المقدس- ترجمة عبد الحافظ البنا، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2001.

ثالثا: الرسائل الجامعية:

1-آلاء سالم إبراهيم:: صورة المدينة في الشعر الشامي في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة مقدمة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير، قسم اللغة وآدابهان جامعة مؤتة، 2011.

2-دنيا محمد محمود سعيد: مفهوم المقاومة بين مفكري الحضارات الشرقية القديمة فلاسفة اليونان، رسالة ماجستيري الآداب، قسم الفلسفة، جامعة المنوفية، القاهرة، 2012.

3-عبد الفتاح عبد الله عاشور: جهود علماء مصر والشام في إصلاح المجتمع زمن الحروب الصليبية، مذكرة استكمال للحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، 2010.

رابعا: المعاجم والقواميس:

1- ابن فارس أبو الحسن أحمد (ت 395هـ/1004م): مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991.

2- ابن منظور، لسان العرب، (د.ط)، دار صادر، بيروت، (د. ت).

3- الجرجاني، علي بن محمد بن علي (ت 816هـ/1413م): معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، (د.ط)، دار الفضيلة، القاهرة، (د. ت).

4- الجوهري، إسماعيل بن حماد أبو نصر (ت 393هـ/1002م): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، 1987.

5- الزبيدي: تاج العروس، (د.ط)، دار صادر، بيروت، (د. ت).

6- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي (ت 770هـ/1368م): المصباح المنير، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، (د. ت).

7- الكاشاني، عبد الرازق (ت 730هـ/1329م): معجم مصطلحات الصوفية، تحقيق وتقديم عبد العال شاهين، ط1، دار المنار، القاهرة، 1992.

8- أيمن حمدي: قاموس المصطلحات الصوفية، (د.ط)، دار قباء للطباعة، القاهرة، 2000.

9- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، (د.ط)، دار الكتب، بيروت، 1982.

10- جورج بوست: قاموس الكتاب المقدس، (د.ط)، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1894.

11- حسن الشرفاوي: معجم ألفاظ الصوفية، ط1، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، 1987.

12- سعيد اللحام وآخرون: القاموس السياسي ومصطلحات المؤتمرات الدولية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

13- ضناوي، سعدي: المعجم المفضل في المعرب من الدخيل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.

14- معجم النفائس الكبير: إشراف أحمد أبو حاقة، ط1، دار النفائس، بيروت، 2007.

15- المعجم الوسيط، الصادر عن مجمع اللغة العربية، إشراف شوقي ضيف، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004.

16- منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1992.

خامسا: الموسوعات:

1-جان بيرنجيه وآخرون: موسوعة تاريخ أوروبا العام، ترجمة وجيه البوغيني، مراجعة أنطوان الهاشم، (د.ط)، منشورات عويدات، بيروت، 1995.

2-سهيل زكار: الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، (د.ط)، دار الفكر، دمشق، 1993.

3-عبد الوهاب الكيلاني: موسوعة السياسة، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1990.

4-محمود محفوظ وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة، ط2، دار الجيل، بيروت، (د. ت).

5-الموسوعة العربية العالمية، ط2، مؤسسة أعمال المؤسسة للنشر والتوزيع، الرياض، 1999.

6-الموسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف ومراجعة مانع بن حماد الجهني، ط4، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، الرياض، 1999.

سادسا: المراجع باللغة الأجنبية:

1- Besherelle, louis nicolas :les grands gueriers des croisades, limoges eugene, paris, 1879.

2- Charel Oman : The art of war in the midlle ages, pub Green books, london, 1994.

3- Christopher tyerman: The crusades avery short introduction, first pub, oxford university press, 2004

4- Grabaladem Bernard : Jerusalem et terre sainte devant l'europe, 2ème éditoion, libraire advien, paris, 1857.

5- Jean collin de plancy : Legendes des croisades, bibliothéque sainte, paris, 2008.

6- Joseph francois michaid : Histoire des croisades, imprimerie nationale, patis, 1977.

7- Kevin medrios, reconquete guerre sainte et croisade, mémoire présenté comme exigence partielle de la maitrise en histoire, université du québec, montréal, janvier, 2014.

8- Montesquieu: De l'esprit des lois, édition flammarion, paris, 2013.

9- Rambaud Alfred : Histoire générale du IV siecle à nos jours, l'europe feodale les croisades, ouvrage pub sous la direction MM Emest lavisse, Armand colin, paris,1893.

10- Rene Grousset : l'épopée des croisades, librairie Academique perrin, paris,1995.

11- Simonde, Jean Charls Léonard : HISTOIRE DES Français, WRTZ librairie strasbourg, 1823.

12- Various Authors : Encyclopedia Britnica Dictionary, 11 the Edition, Gutenberg Book, London, 2006.

فهرس المحتويـــــات

مقدمة .....أ-ر

الفصل الأول: بلاد الشام والغزو الصليبي

المبحث الأول: التعريف بالشام وحضارته 3-28

المطلب الأول: التسمية والحدود.....3-10

المطلب الثاني: العناصر السكانية لبلاد الشام 11-20

المطلب الثالث: الإرث الحضاري لبلاد الشام.....21-28

المبحث الثاني: أوضاع بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي.....30-56

المطلب الأول: الأوضاع السياسية 30-39

المطلب الثاني: الأوضاع الدينية 39-50

المطلب الثالث: الأوضاع الاجتماعية.....51-56

المبحث الثالث: الغزو الصليبي لبلاد الشام 58-107

المطلب الأول: التعريف بمصطلح الحروب الصليبية.....58-65

المطلب الثاني: دوافع الغزو الصليبي. 65-80

المطلب الثالث: الحملات الصليبية على بلاد الشام.....81-107

الفصل الثاني: مقاومة علماء المسلمين للمد الصليبي

المبحث الأول: دور علماء المسلمين في مقاومة الفكر الصليبي.....110-146

المطلب الأول: دعوة الصليبيين لاعتناق الإسلام. 115-124

المطلب الثاني: مناظرة الصليبيين والرد على دعواهم. 125-137

المطلب الثالث: استمالة الصليبيين وتحسين نظرتهم للإسلام. 138-146

المبحث الثاني: دور علماء المسلمين في استنهاض المجتمع وإصلاحه.....148-174

المطلب الأول: الخطابة الدينية والوعظية 148-156

المطلب الثاني: الإصلاح العقدي والقيمي.....157-165

المطلب الثالث: إنشاء المدارس وتأطيرها. 166-174

المبحث الثالث: دور العلماء في معاضدة السلاطين والتحريض على الجهاد ...176-201

المطلب الأول: استنصاح السلاطين والدعوة لهم. 176-184

المطلب الثاني: مصاحبة الجيوش في المعارك. 185-193

المطلب الثالث: تأليف الكتب التي تحث على الجهاد والفروسية.....194-201

الفصل الثالث: مقاومة الطرق الصوفية للمد الصليبي

المبحث الأول: واقع التصوف والمتصوفة غداة الغزو الصليبي 204-227

المطلب الأول: التعريف بمصطلح التصوف ونشأته. 204-211

المطلب الثاني: عوامل انتشار التصوف الشامي. 212-219

المطلب الثالث: انحرافات المتصوفة وأباطيلها. 220-227

المبحث الثاني: إصلاح الفكر الصوفي وأثره في يقظة الأمة 229-253

المطلب الأول: المدرسة الغزالية ودورها في إصلاح الفكر الصوفي. 229-237

المطلب الثاني: المدرسة القادرية ودورها في إحياء التصوف السني.....238-245

المطلب الثالث: دعم السلاطين للتصوف السني والاستقواء برجاله. 246-253

المبحث الثالث: دور المؤسسات الصوفية في التنشأة والتعبئة الجهادية

ضد الصليبيين. 255-283

المطلب الأول: الإعداد التربوي والروحي. 255-264

المطلب الثاني: الإعداد الاجتماعي.....265-275

المطلب الثالث: إمداد الجيوش بالمريدين.....276-283

الفصل الرابع: مقاومة الشعراء للمد الصليبي

المبحث الأول: دور الشعراء في استنهاض همم الأمة وتوحيد صفوفها.....286-318

المطلب الأول: هجاء رجال الدولة وعمالهم.....288-297

المطلب الثاني: الدعوة إلى الجهاد وهجاء المتقاعسين عنه. 298-308

المطلب الثالث: الدعوة إلى توحيد الصف وهجاء النزعات الإنفصالية. 309-318

المبحث الثاني: دور الشعراء في تخليد مآثر الأمة وتمجيد انتصاراتها.....320-348

المطلب الأول: مدح أبطال الجهاد وقادته. 320-330

المطلب الثاني: رثاء القادة وتخليد مأثرهم. 331-340

المطلب الثالث: رثاء المدن الضائعة. 341-348

المبحث الثالث: دور الشعراء في مجابهة الصليبيين وإبراز مثالبهم.....350-373

المطلب الأول: توعد الصليبيين ووصف هزائمهم.....350-356

المطلب الثاني: هجاء ملوكهم وقادتهم.....356-365

المطلب الثالث: هجاء عقائدهم وشعائرهم الدينية. 366-373

خاتمة.....376-377

الملاحق.....379-385

الفهارس العامة.....388-420

قائمة المصادر والمراجع.....422-456

فهرس المحتويات.....458-460

الملخص

هدفت هذه الدراسة التي جاءت تحت عنوان: "المقاومة الفكرية للمد الصليبي لبلاد الشام"، لإبراز الدور الطلائعي الذي قام به رجال الفكر زمن الحروب الصليبية في دعوة الصليبيين وتغيير نظرتهم اتجاه الإسلام وتعاليمه، وإبطال الكثيرا من الافتراءات والدعوات الباطلة التي أوهموا بها –الحرب المقدسة–، والإقرار بفضلهم في تصحيح مسار الأمة والحفاظ على عقيدتها ومرجعيتها الفكرية، ولا سيما أن الحروب الصليبية لم تكن مجرد صدام عسكري نشب بين الشرق والغرب، بل صاحبها مشروع فكري تنصيري هدّام رام إلى تمسيح المقدسات الإسلامية وتملكها، وهذا ما يفسر استمرار استجابة المنطقة للتحدي الحضاري الذي فرضه عليها الاستيطان الصليبي.

كما أوضحت الدراسة كيف مثّل العلماء وشعراء الجهاد ورجال الفكر عامة قوة إعلامية جبارة في وجه الدعاية الصليبية المغرضة، وآلة تعبوية ساهمت في اصطفاف الأمة حول قادتها ودفعهم إلى تحقيق المزيد عقب كل نصر أو فتح.

Résumé

L'objectif de cette étude « La résistance intellectuelle de l'extension des croisés au pays Levant » est de mettre en évidence le rôle pionnier des intellectuels lors des croisades en appelant les croisés à changer leurs perspectives vis-à-vis l'Islam et ses enseignements, et abolir une grande partie des diffamations mensongères sur les quelles ils se sont inspirés –La guerre sainte- et la reconnaissance de leur rôle dans le réajustement du parcours de la nation, ainsi que la préservation de sa croyance et sa référence intellectuelle, surtout que les croisades n'étaient pas seulement un affrontement militaire entre l'Est et l' Ouest, mais plutôt un projet intellectuel croisé destructeur qui ciblait la Christianisation et la possession des sacralités Islamique, ce qui explique le consentement continu de la région au défi civilisationnel imposé par la colonisation des croisés.

L'étude a également montré comment les scientifiques, les poètes du Jihad et les intellectuels en général étaient une puissante force médiatique face à la propagande des croisés et une façon de mobilisation qui a contribué à la réunion de la nation autour de ses dirigeants et les a incités à faire plus après chaque victoire.

Abstract

The objective of this study ,entitled “The Intellectual Resistance of Crusaders’Extension in Greater Syria”, is to highlight the pioneering role of the intellectuals during the crusades by calling on Crusaders to change their perspectives on Islam and its teachings, and abolish some of the misleading slanders on which they have been inspired -“The Holy War”- .In addition to the recognition of their role in the readjustment of the nation’s course as well as the preservation of its beliefs and intellectual reference, especially the Crusades were not just a military confrontation between East and West, but rather a destructive religious and intellectual project that targeted Christianisation and possession of Islamic Sacraments ,which explains the continuous consent of the region to the civilisational challenge imposed by the colonisation of the Crusaders.

The study also showed how scientists, Jihad poets and intellectuals in general were a powerful media force and a means of mobilising that helped to unite the nation around its leaders and incited them to do more after each victory.